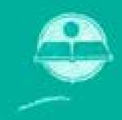
المؤنس

في أخبار إفريقية و تونس

محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني
المعروف
بابن أبي دينار

دار المسيرة
لبنان



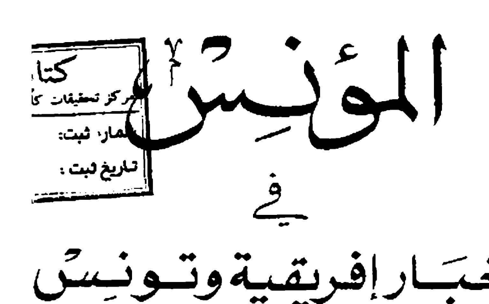


المؤنس

في

أخبار إفريقية وتونس


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



المؤنس في أخبار إفريقية وتونس

تأليف

الفقيه النبيه أبي عبد الله الشيخ

محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني

المعروف

بابن أبي دينار

رحمهما الله تعالى



دار المسيرة

للصحافة والطباعة والنشر

بيروت



الطبعة الثالثة
1993

طبع من الكتاب 3000 تحت رقم 0550
طبع في بيروت



دار المسيرة

لبنان ـ بيروت ـ هاتف: ٣٥٠٤٦٥/٦ ـ ٣٥١٢٨٠
تلكس: LE ٢١٥٩٢ مسيرة ـ فاكس: ٣٥٠٦٥١ ـ ص.ب: ١٣/٦٠٠٠

مقدمة الناشر

كتاب «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس»، كتاب من الكتب الهامة، يلقي الضوء على جزء من تاريخ هذه المنطقة من وطننا العربي منذ الفتح الإسلامي، ويؤرخ لتاريخ إنشاء مدينة تونس كما يقول المؤرخ إبن الشماع، أنها أسست بعد العام الثمانين للهجرة.

في هذا الكتاب تسمية «إفريقية»، لا يقصد بها قارة إفريقيا، وإنما يقصد بها القيروان، في حين أن بعض المؤرخين وأهل السير يجعلون «إفريقية» إقليماً مستقلاً وله حدود ولهم اختلاف فيه. كذلك يذهب البعض إلى إطلاق هذه التسمية على هذا الإقليم لأنه المكان الذي فرق بين الشرق والغرب. ويمتد هذا الإقليم من مدينة برقة في ليبيا ماراً بتونس والجزائر إلى وادي درعا على المحيط الأطلسي.

كذلك، يذهب البعض إلى أن هذا الإقليم سمي بإسم سكانه الأفارقة.

وعلى العموم، ومهما كان هذا التحديد، فإن كتاب «المؤنس»

يتعرض لحقبة من تاريخ هذه البلاد، بعضها تم سرده بالنقل كما يقول مؤلف الكتاب محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المشهور بإسم إبن أبي دينار عمن سبقوه من المؤرخين، وبعضها جمع جمعاً على لسان السقاة الذين يحفظون التاريخ والوقائع.

وإذا كان هذا الكتاب الذي قمنا بإعادة نشره، فيه الكثير من المفردات والعبارات العامية بلهجة بلد منشأ المؤلف، إلا أن الطبعة الثانية للكتاب التي نقلنا عنها ورد بهامش أحد صفحات التعريف بالمؤلف: - أن مصحح المطبعة التونسية صحح الكثير في الكتاب وأصلح عربيته، لأن النسخ الخطية التي وقعت أيديهم عليها كثيرة اللحن - . إلا أن الهام إيضاحه أننا عندما قررنا إعادة نشر الكتاب لأهميته، لم نتمكن من الحصول على أية نسخة خطية أو مطبوعة غير تلك التي نقلنا عنها حتى نقوم بتحقيق الكتاب، إلا أننا أعدنا جمع الكتاب وصححنا ما يمكن تصحيحه ووضعنا الشيء القليل من الهوامش، آملين أن نتمكن في وقت لاحق، الحصول على نسخ من الكتاب غير النسخة التي نقلنا عنها، والتي كانت قد نشرتها «مطبعة النهضة» بتونس سنة 1350 هجرية، أي قبل واحد وستون عاماً، هذا في حين أن الطبعة الأولى للكتاب صدرت في عام 1286 هجرية، ولم نتمكن من الحصول عليها أيضاً.

ودار المسيرة التي دأبت دائماً بالبحث عن كل قديم جديد لجيلنا وللأجيال القادمة، لتعريف القارىء الكريم بقضايا تاريخه وتراثه العربي الأصيل، وجدت أن من الهام والضروري نشر الكتاب من جديد، واعدة القارىء العزيز أنها ستسعى بكل إمكانياتها للحصول في وقت لاحق على نسخ أخرى لإعادة تحقيق الكتاب وإخراجه بالحلة التي ترضى عنها ويرضى عنها جمهورها من القراء.

الناشر

1993/9/19 م

21/صفر/1411هـ



التعريف بابن أبي دينار وبكتاب المؤنس
كما جاء في الطبعة الأولى

مؤلف هذا الكتاب، محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المشهور بابن أبي دينار ـ كذا يؤخذ من ديباجة كتابه المؤنس ـ كان في طبقة الذين اخذوا عن الشيخ محمد فتاتة، ولكن لم يأخذ عنه، وإنما أخذ عن ابنه الشيخ أحمد مسائل، واستفاد منه. قال في أواخر الفصل الأول من خاتمة «المؤنس» أثناء الكلام على الشيخ فتاتة ما نصه: وإن كنت حرمت أن أغترف من بحره، ولم يساعدني الحال أن ألتقط من درره، ولقد أصابني رذاذ من وابله، وذلك أن نجله السعيد النجيب الشاب الأنجد الشيخ أبا العباس أحمد بن الشيخ المذكور له عندي يد، أفادني بمسائل فتق ذهني بها، واستفدت به زاد الله في حسناته اهـ، وأخذ عن الأستاذ محمد المعروف بابن الشيخ، من علماء عصره على ما يؤخذ من قوله أواخر الفصل الثالث من الخاتمة، عند الكلام على علماء الحاضرة: ومنهم شيخنا وصديقنا الشيخ الفقيه الحبر النبيه الوجيه الشيخ الأمجد أبو عبد الله محمد عرف بابن الشيخ الخ. وأخذ أيضاً عن الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري على ما يؤخذ من قوله في تأليف له في

الأدب: ولما اجتمعنا بالعالم الجليل الذي فاق بنظمه الرائق سبري. والخليل. فرد الزمان. وواحد الأقران العالم الراوية ذي التآليف العجيبة والتقاليد الغريبة. شيخنا أبي الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري الخ.

والذي يستفاد مما وصل إلينا من مؤلفاته وما وقفنا عليه من نظمه ونثره أنه كان ضعيفاً في العربية وصناعة الإعراب[1]. ويبعد غاية البعد أن يكون كل ما وقع في مؤلفاته من اللحن الكثير تحريف الناسخين.

ولعله باشر التدريس، وأقرأ الشفاء للقاضي عياض. قال في تاليفه في الأدب الذي سبق النقل عنه، إذ تكلم على ما امتحن به القاضي رحمه الله وأجزل مثوبته: وقد تعرضنا لذلك في تخلص ذوي المودة والصفا لختم أواخر الشفاء.

وكان والي قضاء سوسة، ثم نقل عنه إلى قضاء القيروان، صرح بهذا في تأليفه الأدبي، وأنه كان قاضيا بالقيروان على عهد مراد باي ابن الأمير حموده باشا. ويؤخذ من تأليفه هذا أنه سكن حاضرة تونس. ولا نعلم أنه سكنها قبل ولايته القضاء بسوسة والقيروان أم بعدهما. قال رحمه الله: وكنت اجتمعت مع الصاحب الجليل. آخر كل صديق وخليل. فخر الزمان. ورئيس الأقران. الشيخ الكبير أبي الحسن علي ثابت رحمه الله بدار القاضي فضل الله «افندي» قاضي الحضرة العلية قبل سكناي بها الخ. ولم نقف على تاريخ وفاته. وغاية ما استفدناه أنه أدرك الخمس الأول من العقد العاشر من القرن الحادي عشر، إذ ذكر أنه فرغ من كتابه المؤنس ليلة النصف من شعبان المبارك سنة اثنتين وتسعين وألف.

(شعره ونثره) ترى في أواخر كتابه هذا نبذة من شعره. ومعظمه من

---

(١) الظاهر أن هذا الكتاب أصلح عربيته مصحح المطبعة التونسية لما طبع هناك، لأن النسخ الخطية التي وقعت بأيدينا كثيرة اللحن ومنها النسخة التي بالجامع تحت عدد ٤٩٦٠٦ ولعلها التي طبع عليها الطبعة الأولى.

الشعر الوسط. وفي كتابه الأدبي نبذ آخر منه. فمن ذلك قوله عند مفارقته القيروان وفيه التورية:

وبي علتـان من مفـارقـة الحمى عسى بهما أني سأمنع من صرفي
حنيني وشـوقي لـلديـار وأهلهـا ولكن قضا المقدور يؤذن بالصرف

وأما نثره فدونك نموذجاً منه: قطعة من رسالة له بعث بها إلى مفتي بلده الشيخ عبد الحفيظ الغرياني أوردها برمتها في كتابه الأدبي:

وبدءاً فإن من كرم غريزة الرجل حنينه إلى وطنه. وتذكار أهل محنته وسكنه. ولكن لما أن خلت الديار. وتزاحمت الأغيار. ولم يبق صديق قائم بحق الصحبة. ولا أنيس تشكو له ألم الكربة. وبقيت مع من بقيت كما قال لبيد.

ذهب الـذين يعـاش في أكنـافهم وبقيت في خلف كجلد الأجـرب

فاشمأزت[1] النفس من الركون إلى الجهال. وتنكر الـوقت يشعر بتنكر الحال. وقلمـا سكنت النفس عن السؤال عن أحوالكم. وطـالما تشوقت إلى تذكار فعالكم وخصالكم. والدهر لم يصف من كدر. والأمور تجري بحسب القضاء والقدر. فعقم شكلي عن الإنتاج. وتعطل لساني عن المجادلة واللجاج. وكلما عملت[2] لتحرك عامل الحزم والجزم انقلب إلى السكون. فقلت عند هذه المصيبة إنّا لله وإنّا إليه راجعون اهـ.

«مؤلفاته» المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. وهو الكتاب الذي أعدنا طبعه اليوم، بعد أن كان طبع في مطبعة الدولة التونسية سنة ١٢٨٦. رتبه على سبعة أبواب وخاتمه، واعتمد فيه ما كتبه ابن الشماع، الذي وقف سير قلمه في تاريخه في أثناء دولة الأمير أبي عمرو وعثمان بن محمد بن

---

(١) قوله فاشمأزت جواب لما ولا محل للفاء.
(٢) كذا ولعل الصواب أعملت.

عبد العزيز آل حفص، المتبوىء أريكة الملك التونسي في صفر عام ٨٣٩، وزاد عليه ونبه على هذا بقوله في أوائل الفصل الأول من الخاتمة: وقصر« ابن الشماع» في أماكن كثيرة ونبهت على بعضها. ثم أضاف إليه ما زاده الزركشي على قلته، قال رحمه الله أثناء الكلام على دولة هذا الأمير: وهنا انتهى ابن الشماع وزاد الزركشي نبذة، ولنأتِ بها مختصرة كما اختصرنا ابن الشماع ا هـ، وأما ما جمعه بعد هذا، فهو مما تلقاه بالرواية، والسند، وصرح بهذا في ديباجة الكتاب، إذ قال: فجمعت ما كان متفرقاً بالرواية والسند، وجعلته مقام تبريد اشتعال الكبد بموت الولد[1]

ومن أفضل ما امتاز به هذا التأليف، ما في الفصول الأربعة من خاتمته، من بيان نظم البلاد السياسة والعلمية وعوائد أهلها.

«تخلص ذوي المودة والصفا لختم أواخر الشفاء» هذا التأليف ذكره صاحب التاريخ رحمه الله، أثناء كتاب له في الأدب، ويظهر أنه كتابه على أواخر الشفاء على ما جرت به العادة من أفراد أواخر الكتب بالكتابة عليها.

«رضاب العقيق في الروض الأنيق. في مجارات الأخوان وأحوال الصاحب والصديق» ذكر هذا الكتاب في تأليفه الأدبي أيضاً في مواضع متفرقة منه.

«كتاب الأدب» توجد نسخة منه بالمكتبة الأحمدية في جامع الزيتونة تحت عدد ٤٧٠٠ أوله: نحمدك اللهم أن شرفتنا بشرف الأدب. ومنحتنا مما لديك بالفهم والتصرف بالإعراب في لسان العرب. قال في ديباجته: هذا وقد طلب مني من حل مني محل الروح من الجسد. وصرت منه بمنزلة الوالد من الولد. بعض الألماع من الأدبيات، فكتبت له هذه الرسالة. بمنزلة الجزئيات من الكليات ا هـ. وقد أودعه نبذا من شعره وشعر غيره وطرفا أدبية شتى.

---

(١) راجع: صفحة ١٣ من هذا الكتاب.



مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي لا يبدأ أحد في كتاب إلا باسمه ليصل إلى التمام. ولا يدون ديواناً إلا ويشحنه بالثناء عليه بما له على العباد من الفضل والإنعام. ولا يؤرخ تاريخاً إلا ليعلم من عجائب مخلوقاته وغرائب مصنوعاته ما تعجز عنه العقول وتقصر عنه الأفهام. الملك الذي بيده مقادير الأمور مدى الدهور والأعوام. الذي اخترع العالم بحكمته وأبرزه للوجود بقدرته تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام. أحمده حمد من أقر بربوبيته، وأعترف بوحدانيته من غير شك ولا إيهام. وأشكره شكر من وهبه جزيلاً من فضله فطلب منه المزيد بالشكر لقوله أشكروني أزدكم من الخير والإنعام. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المنفرد بالتصرف في ملكه وملكوته بالعدل والإكرام. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي جاء بالصدق وقطع دعوة الملحد ببلاغة من كلام العزيز العلاّم. وهاجر من أعز البقاع إلى أعز البقاع، فأقام الدين وأظهر شرائع الإسلام. ويوم هجرته صار تاريخاً لمن تمسك بشريعته بين الأنام ﷺ صلاة عاطرة يتضوع من نشرها مسك الختام، وعلى آله الطاهرين الطيبين الذين أثنى عليهم الملك

العلاّم. إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا من جميع الآثام. وعلى أصحابه الذين فتحوا مشارق الأرض ومغاربها وهدموا صوامع الشرك وقتلوا عباد الأصنام. وأعلنوا بكلمة التوحيد، فأنار الهدى وانقطع الباطل وارتفع الخصام. صلاةً وسلاماً أدخرهما ليوم العرض والزحام. يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه تكون لي نجاة من النار ومثوبة بالفوز في دار السلام ورضي الله عن التابعين وتابع التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين السادة الفضلاء الأعلام، ما ترنم الطير على أيكه ورقت على منابر الأصابع خطباء الأقلام.

وبعد فيقول العبد الفقير إلى رحمة الملك الغفار. محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المشهور بإبن أبي دينار، عامله الله بلطفه، وأسبل عليه ستائر حلمه وعطفه، بمنه وكرمه. آمين.

قال بعض أهل العلم: إن في علم التاريخ عبرة لمن اعتبر. وتذكرة لمن يتذكر. لأنه ينبيء عن صنع الله في القرون الخالية وكيف تصرفت قدرته بإرادته في الأمم الماضية. وحكمته تعالى جارية في مخلوقاته بعدله وإحسانه بحسب إرادته على مر الدهور والأزمان. وهو سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن. وقال تعالى قل سيروا في الأرض على أحد أقوال المفسرين هو النظر في كتب السير والتطلع على أخبار الماضين من البشر. فمن أمعن النظر في أخبار الماضين رأى ما يعجب منه العجب. وإن تأمل سير الملوك سرح طرفه بمرآة الزمان في مروج الذهب. وإن شنف سمعه بأخبار الزمان، أغنته أزهار حدائقها عن قلائد المرجان. وعلم أن الدر المشرق في أخبار أهل المشرق وإن استغرب فالمغرب، عن أحوال أهل المغرب. فإن اختصر فالمختصر في أخبار البشر. والحديث شجون. والعشق جنون. والجنون فنون. وكل حزب بما لديهم فرحون. ولهذا كثرت كتب السير في غالب المعمور من الأرض إلا إن كل أمة يستمد بعضها من بعض. والبلاد متفاوتة على قدر مراتبها. والعقول مختلفة فيما يتجمعه من عجائبها وغرائبها.

الحامل على التأليف

إلا إن مدينتنا الخضراء العلية، وعروس البلاد الإفـريقية. تـونس حرسها الله تعالى لم يتقيد لجمع أخبارها مصنف. وإذا تأمل المتأمل إلى معناها وترتيبها، وجدها أحق بالتصنيف من غيرها إذا كان المتأمل منصفاً لا متعسفاً. لأنها عروس بلاد المغرب ونزهة الإقليم الإفريقي ودار الخلفاء من بني أبي حفص. وهي أشهر من نار على علم وخبرها روته الثقاة بالنقل والنص. ونمت محاسنها وإن كانت غير ناقصة بالدولة العثمانية. وعظم صيتها بين حبائبها لما نشرت عليها الأعلام الخاقانية. إلا إنه تقدم لابن الهنتاتي مجموع لطيف أخبر فيه عن أحوال القوم. وأنفق من بضائع بني أبي حفص ما تيسر له ولكنه غالى في السوم. وما ذاك إلا لأنه لم ينظر إلى حلية تونس في هذا الزمان. ولم ينظر إلى معناها ومغناها الذي له شأن وأي شأن. ولو أدرك زماننا لطغى بقلمه وألقى العصا. ولو شاهد حسنها في حلل الهنا لقال: هذا مما لا يعد ولا يحصى.

ولما تمت محاسنها أصابها سهم من نظر المعيان[١]. فلم تخطىء رميته حتى رأينا مصارع العشاق في حرب الأخوين ومقاتل الفرسان. وكانت قبل اليوم في ذروة الشرف. وأهلها في نعيم مقيم في الدعة والترف. إلى أن قدر الله علينا بخطوب وأي خطوب. وقابلها الزمان بعـد التبسم بوجـه قطوب. فتكدرت أحوال أهل البلد. وأصبح كل إنسان يقول نفسي نفسي ولا يسأل أحد عن أحد. وقد كنت أتمنى أن أجد من فيه نباهة ليجمع ما حدث في زماننا من الوقائع العجيبة. ويضيفه إلى ما جمعه ابن الشماع في تلك المدة البعيدة إلى هذه المدة القريبة. كم تشوقت إلى هذا الجمع بنفسي، وملت إليه بحسي وحدسي، إلى أن قدر الله عليّ بفرقة الأحباب وموت الأولاد. وذهبت بما تقطع منه كبدي وكبد غيري من أهل البلاد. فكان هذا هو الباعث لي في هذا التقييد. واستشرت مأموناً في مشورته

---

(١) المعيان: هنا المقصود بها صاحب النظرة، أو الذي يقال عنه أنه يصيب بالعين.

فرسم لي برأيه الرشيد. فجمعت ما كان متفرقاً بالرواية والسند. وجعلته مقام تبريد اشتعال الكبد بموت الولد. وجعلت أتسلى به عن حزني، لأني في غمرات امتلأ القلب منها وقال قطني[١]. ورحم الله ابن الوردي حيث قال:

لي مهجة في النازعات وعبرة في المرسلات وفكرة في هل أتى

وإلا فكيف لي أن أكون من فرسان هذا الميدان. ولست من أبناء الخضراء على الحقيقة حتى يحصل لي هذا الشأن. ورحم الله الأحنف حيث قال:

فسد الزمان فسدت غير مسود ومن الشقاء تفردي بالسؤدد

ولكن لي العذر وقد تطفلت على موائد الكرام وإساءتي مغفورة عند العلماء من أهل الحضرة[٢] وإن كنت معدوداً من العوام. وإلا فكيف لي أن أضرب بقداحي بين القوم وأفوز بسهم. أم كيف يكون لمثلي بين العقلاء نصيب أو قسم. وأنا خائض في غياهب الجهالة، وسارح في مروج اللهو والبطالة. فصرت كحاطب ليل أو جامع سيل. وطلع صباح الشيب فبدت آية النهار مبصرة فمحت آية الليل. وفقد الشباب والأحباب، أعظم المصاب. قال بعضهم:

شيئآن لو بكت الدماء عليهما عيناي حتى تؤذنا بذهاب
لم يبلغ المعشار من حقيهما فقد الشباب وفرقة الأحباب

وها أنا استهدفت للرامي. وأبرزت مرامي. وقدمت ما أورده ابن الشماع ليكون البناء على أساس. وأجمع إلى كلامه ما أنقله عن غيره وما رويته عن غير واحد من الناس. وإذا ذكرت شيئاً مما ثبت عنده، أذيل عليه

---

(١) قطني قد تكون في الأساس قنطي أي يأسي، وإنما كما هي واردة معناها ثوب القطن. والأرجح هي قنطي.

(٢) الحضرة: المقصود بها تونس.

بنكت من كلام الغير وكل أحد ينفق ما عنده. وأبذل جهدي بقدر الطاقة عسى أن يحصل لي نصيب. وأجتهد فيما أردته إن شاء الله وما كل مجتهد مصيب. فإن ظفرت بشيء مما رمته وبلغت المنى كنت ابن ظفر على الحقيقة ونظمت في سلك نجباء الأبناء. ومن الله استمد الإعانة والطول. لأني عاجز ولا قوة لي ولا حول. وأسأله التوفيق في القول والعمل. والنجاة من الخطأ والزلل. إن شاء الله تعالى. وسميته «المؤنس في أخبار إفريقية وتونس». ورتبته على سبعة أبواب بعدد أبوابها وخاتمة.

الباب الأول في التعريف بتونس ـ الباب الثاني في التعريف بإفريقية ـ الباب الثالث كيف فتحتها الجيوش الإسلامية ـ الباب الرابع كيف استولى عليها الخلفاء العبيدية ـ الباب الخامس في الأمراء الصنهاجية ـ الباب السادس في الدولة الحفصية ـ الباب السابع في الدولة العثمانية ـ والخاتمة تتضمن أحداثاً ظهرت في الديار التونسية. ومآثر تفخر بها بين جيرانها الإفريقية. وما تميزت به في البلاد المغربية.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الأول

في التعريف بتونس

قال ابن الشماع: مدينة تونس هي إسلامية أحدثت بعد الثمانين من الهجرة، وكان أبو جعفر المنصور العباسي، إذا قدم عليه رسول صاحب القيروان يقول له: ما فعلت إحدى القيروانين؟ يعني تونس تعظيماً لها.

وهي اليوم قاعدة البلاد الإفريقية، وأم بلادها، وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين، ومهاجر أهل الأقطار من الأندلس والمغرب وغيرهما. فكثر خلقها، واتسع بشرها، ورغب الناس في سكناها، وأحدثوا بها المباني والكروم وبينها وبين قرطاجنة عشرة أميال. وبين تونس ومرساها بحيرة يقال: إنها كانت كثيرة الجنات والمياه والزرع، طيبة الفواكه فغلب عليها ماء البحر اهـ. قلت: عرّف بها صاحب الجغرافية حيث قال: ومدينة تونس في الجزء الثاني من الإقليم الثالث. ومدينة تونس في ذاتها قديمة اسمها في التواريخ «ترشيش» ولما افتتحها المسلمون وأحدثوا البناء بها سموها تونس.

ومدينة تونس في جون خارج عن البحر، وهي على بحيرة محتفرة وعرضها أكثر من طولها، وذلك أن طولها ستة أميال وعرضها ثمانية أميال،

ولها فم يتصل بالبحر وهو المسمى فم الوادي. وذلك أن هذه البحيرة لم تكن قبل، وإنما حفر في البحر حفير انتهي به إلى مدينة تونس، ومن فم هذه البحيرة إلى مدينة قرطاجنة ثلاثة أميال ونصف. قلت: الذي ذكره صاحب الجغرافية أنها قديمة لا شك فيه لقول غيره. وذكر سبب فتحها وكذلك حفر البحيرة يدل أنه كان في زمن الإسلام، لأنه قبل الإسلام كانت قرطاجنة حائلة بينها وبين البحر والبحر بعيد عنها جداً، وإنما أحدث البحر خراب قرطاجنة. وما ذكره ابن الشماع أنها كانت بساتين ومزارع تشهدلها الآبار التي في وسطها، وربما وقع فيها صيادو السمك أحياناً، ويتجنبون مواضعها ولهم بها خبرة.

قال ابن الشماع: ولمدينة تونس سور يدور بها، وأن دورها أربعة وعشرون ألف ذراع. قلت: ولم يذكر الباني لسورها حيث كانت عنده إسلامية، والجاري على ألسنة أهلها أن بناءه كان على يد الشيخ سيدي محرز، والشيخ المذكور كان في أول المائة الرابعة، إلا أن يكون الشيخ جدده بعد المحنة، التي وقعت عليها من أبي يزيد الخارجي، وذلك في سنة ست عشرة وثلثمائه، لأنه نهب إفريقية ومدينة تونس، ونهب منها نحو اثني عشر ألف خابية زيتاً، غير الأموال والعبيد والأمتعة والدواب والنساء والأطفال وغير ذلك، وسيأتي خبر أبي يزيد بعد إن شاء الله تعالى، وكذلك القصبة لم يذكر بناءها. وقال عند ذكر المولى عبد الواحد أنه سكن بقصبتها عند حلوله بتونس، وهذا يدل على أن قصبتها متقدمة عن زمن بني حفص. قلت: ولعلها من بناء بني الأغلب كما سيأتي، والعمال كانوا يسكنون بها، وأبناء خراسان كانوا بها، لما خرجوا عن طاعة بني باديس. والغالب على ظني أنها القصبة القديمة، وأما هذه فهي بناء بني حفص كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

حاضرة تونس أسماؤها وجامعها وشيء من آثارها

قال ابن الشماع: وجامع تونس مليح الصنعة، حسن الموضع، مطل

على البحر، بناه عبيد الله بن الحبحاب، ودار الصناعة سنة أربع عشرة ومائة، وأنفذ إليها البحر. قلت: عبيد الله الحبحاب كان عاملاً لهشام بن عبد الملك بن مروان على مصر، وأرسله إلى إفريقية سنة عشر ومائة، فلما وصل القيروان أخرج المستنير من السجن، وأرسله إلى تونس والياً عليها، ولعله لم يدخل إلى تونس، وتقدمه البكري حيث قال: ومدينة تونس دورها أربعة وعشرون ألف ذراع وذكر بناء عبيد الله بن الحبحاب.

قال: ومدينة تونس اسمها في الأوائل «ترشيش» ويقال لبحرها: بحر رادس ومرساها مرسى رادس، وأن حسان بن النعمان افتتحها، وذكر غيره: أن زهير بن قيس البلوي افتتحها. قلت: وقع التناقض بين قوله من بناء بني أمية، وبين قوله افتتحها حسان، وقول غيره افتتحها زهير. وزهير كان سنة سبع وستين، وحسان سنة سبع وسبعين، والبناء سنة ثمانين: إلا أن يكون الفتح أولاً ثم استقر بها قدم المسلمين واستوطنوها، واتخذوا بها المنازل والديار، وكان نزولهم بها في سنة ثمانين، فلذلك نسبت إلى بني أمية، ولم يكن قبل ذلك ينزلها أحد من المسلمين. وابن الشماع أدرى ببلده. وقال البكري: وبمدينة تونس بحيرة دورها أربعة وعشرون ميلاً، وهي في سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو، وفي بحيرتها جزيرة مقدار ميلين تسمى: شكلي، تنبت الكلخ، وبها آثار قصر حرب. قلت: في زماننا هذا بها قصر مشيد، والذي حكاه البكري وغيره عمر بعد ذلك في حدود الأربعين والتسعمائة على أيدي النصارى، وبنوا فيه حصاراً مبعاً، إلى أن أخذه من أيديهم العسكر العثماني، وسيأتي ان شاء الله تعالى، وخرب وما تبقى منه إلا آثاره، وجدد في زمان الحاج مصطفى داي بعد السبعين والألف، وهو إلى يومنا هذا غير عامر.

قال ابن الشماع: وتونس دار فقه وعلم، وعلى عشرة أميال منها غرباً وادي مجردة، ويقال: إن من شرب منه قسا قلبه. وسميت تونس لأن المسلمين لما فتحوا إفريقية، كانوا ينزلون بإزاء صومعة «ترشيش» ويتأنسون براهب هناك فيقولون: هذه الصومعة تونس، فلزمها هذا الأسم. قلت ذكر

غيره: إن العرب كانوا يسمعون أصوات الرهبان طول الليل في صوامعهم، فيتأنسون بهم فقالوا هذه البقعة تونس. وقال ابن الشباط وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد، فقالوا هذه تونس وسمي المسجد بجامع الزيتونة.

وذكر غيره أنهم لما نزلوا بإزاء صومعة تونس الراهب، الذي نسبت إليه الصومعة، فقالوا صومعة تونس أطعمهم دشيش الحنطة، فصار عادة لأهل البلد في رأس كل سنة، حتى كاد أن يكون عندهم من الواجب، وأنهم رأوا مكاناً محوقاً عنه بالشوك، فسألوا الراهب عن سببه، فأخبرهم أنه يرى في بعض الليالي نوراً ساطعاً من تلك البقعة قال: - فعلمت أن سيكون لها شأن، فصنتها من القذارات وبول الكلاب - فصلوا في تلك البقعة، وهي موضع المحراب، واتخذوا هناك مصلاهم. قلت: إن صح هذا فالشرف سابق لهذه البقعة، بحيث صلى بها الصدر الأول من المسلمين والفضلاء من المتأخرين، وأم بالناس فيها عدة أعلام ونجباء كرام، وهي بقعة مباركة يستجاب فيها الدعاء إلى يومنا هذا ولله الحمد.

وقال البكري: يدور بتونس خندق حصين، ولها خمسة أبواب. وقال ابن الشباط: لها في زماننا عشرة أبواب، بعضها في البلد وبعضها في القصبة. قلت: وفي زماننا لها سبعة أبواب، ولم يبق في القصبة إلا باب عدر وهو مغلق في هذا الوقت. وذكر غير واحد أن لها خمسة أسماء. ترشيش. وتونس وقيل تانس. والحضراء. والخضراء. والدرجة العليا. فترشيش اسمها في القديم وتونس حادث لها واشتقاقه من التأنيس. والحضراء لأنها حضرة السلاطين من بني حفص. والخضراء لكثرة زيتونها. والزيتون لا يزال أخضر طول الزمان وهو الشجرة المباركة. أو لأن خيراتها كثيرة عن غيرها وسعة أرزاقها. وقد يقال لمن هم في سعة من الرزق خضر المرابع، فلذلك عبر عنها بالخضراء. والدرجة العليا قيل: لأن بها الجامع الأعظم وقيل: لارتفاعها عن غيرها من البلدان، وارتفاع سيتها في كل أوان.

ولقد أخبرني من أثق به، أن السلطان أحمد صاحب مراكش، لما أرسل جيشه صحبة محمود باشا مملوكه إلى بلد السودان وفتحها إلى تنبكتو وأخذ على أهلها البيعة لأستاذه، وكان بها إذ ذاك الأستاذ العالم العلامة الشيخ أبو العباس أحمد عرف بابا رحمه الله، سأل الناس لمن بايعوا، فأخبروه لسلطان مراكش فقال: لست أعلم في إقليم الغرب سلطاناً إلا صاحب مدينة تونس حرسها الله تعالى. أنظر أيها المتأمل كيف ثبت عند هذا العلامة خبر تونس وسلطانها، مع قرب بلاده من مراكش وبعدها عن تونس، والشيخ أحمد صاحب اطلاع وهو من أكابر علماء وقته، وما ذاك إلا لفخامة ذكرها وعلو قدرها زادها الله علوا.

ولنرجع إلى قول ابن الشباط قال: وجامع تونس رفيع البناء. مطل على البحر. ينظر الجالس فيه إلى جميع جواره، ويرقى إلى الجامع من جهة المشرق، على اثنتي عشرة درجة. قلت: ابن الشباط محقق فيما ينقله ولم يذكر من الباني لهذا الجامع، إلا ما ذكره غيره، وهو أن عبيد الله بن الحبحاب هو الباني له، كما مر آنفاً ولعل عبيد الله هو الذي أسسه.

وذكر ابن ناجي أن زيادة الله بن الأغلب بنى جامع الزيتونة وسور تونس وقصبتها، فهي من بناء بني الأغلب. قلت: ولعل البناء الضخم هو من بناء الأغالبة، ويشهد لذلك ما هو مكتوب في القبة التي فوق المحراب اسم أمير المؤمنين المستعين بالله العباسي سنة خمسين ومائتين، وزيد فيه على بنائه الأول، كما زيد فيه في أيام أبي حفص والله أعلم.

وقال ابن الشباط: وبتونس أسواق كثيرة، ومتاجر عجيبة، وفنادق كبيرة رفيعة، وبها خمسة عشر حماماً. قلت: في وقتنا هذا بها أربعون حماماً. قال: وعضادات أبوابه دورها كلها رخام بديع، وهي دار علم وفقه، ولي منها قضاء إفريقية جماعة كثيرة.

ويصنع بتونس آنية للماء من الخزف شديد البياض في نهاية الرقة تكاد تشف، ليس يعلم لها نظير في سائر الأقطار. ومدينة تونس من أشرف

مدائن إفريقية وأطيبها ثمرة وأنفسها فاكهة، وبها من أجناس الحوت الذي لا يكون مثله في غيرها. قلت: رحم الله ابن الشباط وغيره لو شاهدوا ما في هذا الوقت من خيراتها وكثرة بساتينها وجناتها لأعجزهم الوصف، ورأوا من الفواكه ما ليس له حد ولا طرف، وشهادة لله أنه يوجد فيها ما لا يوجد في غيرها كثرة وحسنا، بحيث لا يدخل تحت حصر، وإذا افتخر المصريون بمصرهم قلنا لهم: هذه أخت مصر. وناهيك أن في فصل الخريف يدخل إليها كل يوم أزيد من ألف حمل من العنب، هذا خلاف ما يباع مع العنب من تين وبطيخ وغيرهما من الفواكه الرطبة واليابسة.

ولقد أخبرني بعض خدمة المحتسب في سنة إحدى وستين وألف أنه حصر ما بيع للخمارات من العنب فكان مقداره ستين ألف حمل، خلاف ما بيع في أسواقها، وقس على هذا القدر وفيه كفاية. وأما الخزف فهو أقل شيء في الفخر وهمم أهل الحضرة أعلى من ذلك.

وقال صاحب اقتباس الأنوار: وتونس من بلاد إفريقية بينها وبين القيروان أربع مراحل، وهي مما بناه بنو أمية، والمدينة القديمة الرومية اسمها قرطاجنة، وينسب إلى تونس جماعة من العلماء منهم: أبو الحسن علي بن زياد التونسي سمع من مالك الموطأ وتفقه عليه، وتفقه به سحنون وعاش بعد مالك نحواً من خمس سنين، وقبره بداره داخل باب المنارة.

وقال ابن الشماع: ومنهم الشيخ الإمام العابد سيدي محرز بن خلف، وقبره بداره داخل باب السويقة. ويقبلي مدينة تونس جبل يعرف بجبل التوبة لا ينبت شيئاً، وهو المسمى بجبل الجلاز، وفي أعلاه قصر مبني مشرف على البحر. قلت: القصر الذي ذكر هو مقام الشيخ العارف بالله سيدي ابي الحسن الشاذلي متقدم على ابن الشماع بزمان، أو لعل المقام لن يشتهر إلا من بعده. قال: وشرقي القصر غار منحني الباب يسمى بالمعشوق، وبالقرب منه عين جارية. قلت: لم يبقَ له أثر إلا أن يكون المغارة التي تنسب للشاذلي أيضاً في زماننا هذا، والغار الذي أدركناه قبل اليوم تحت الجبل وبه عين ماء يقال لها الحمام وخرب، واليوم

في موضعه ماجل وهو على الطريق على شاطيء البحيرة. قال: وجامع تونس يرقى إليه من ناحية المشرق على اثنتي عشرة درجة، وقد تقدم هذا النقل عن غيره بزيادة إيضاح. وقال ابن الشباط: ومحاسن تونس ومبانيها في عصره مما يقصر عنه الوصف وانشد لبعض الشعراء يمدحها:

فتونس تونس من جاءها وتدركه حسرة حيث سار
فلو حل عنها لأرض العراق لحن إليها حنين الحوار
يحن إليها ويشتاقها اشتياق الفرزدق فقد النوار

والنوار امرأة الفرزدق الشاعر المشهور وله فيها عدة قصائد في محبته إياها.

وذكر البلاذري أن زهير بن قيس افتتحها. وقال البكري افتتحها حسان بن النعمان، وقاتل النصارى بفحصها فاذعنوا له وسألوه أن لا يدخل عليهم ويضع الخراج عليهم، ويقوموا له بما يحمله وأصحابه، فأجابهم إلى ذلك وكانت لهم سفن فاحتملوا فيها أموالهم وأهليهم ليلاً وأسلموا المدينة، فدخلها حسان فحرق وخرب وبنى فيها مسجدا وخلف فيها طائفة من المؤمنين.

قال: وأغارت الروم من البحر على من بقي فيها من المسلمين، فقتلوا وسبوا وغنموا، ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوهم، ووصل الخبر إلى حسان، فرحل إلى تونس وأرسل أربعين رجلاً من أشراف العرب إلى عبد الملك بن مروان، وكتب إليه بما نال المسلمين من البلاء، فلما بلغ ذلك عبد الملك عظم عليه الأمر. وكان إذ ذاك التابعون متوافرين وفيهم اثنان من الصحابة: أنس بن مالك وزيد بن ثابت، فقالا للمسلمين: من رابط يوماً برادس فله الجنة. وقالا لعبد الملك: أدرك هذه البلاد وانصر أهلها ليكون لك ثوابها فإنها من البلاد المقدسة، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز، وهو وال على مصر، أن يتوجه لتونس ألف قبطي بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش وهي تونس، وكتب إلى حسان بن النعمان يأمره أن يبني لهم

دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين إلى آخر الدهر، وأن يصنع بها المراكب ويغير منها على سواحل الروم. فوصل القبط إلى حسان وهو مقيم بتونس فأجرى البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتها.

قال ابن الشباط: وقد تقدم عبيد الله بن الحبحاب هو الذي بنى دار الصناعة، فلعل من روى ذلك يريد أن عبيد الله جددها وزادها تحصيناً، فلم تزل تونس معمورة من يومئذ يغزو منها المسلمون بلاد الروم ويكثرون فيهم النكاية والإذاية. وذكر البكري: أن حسان هو الذي خرق البحر من مرسى رادس إلى دار الصناعة. وقال غيره: أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما علم أن الروم أغاروا على تونس وبلغ ذلك من المسلمين كل مبلغ، وأن علماء المشرق كتبوا إلى أهل إفريقية من رابط عنا يوما برادس حججنا عنه حجة، وعظم قدر رادس عند العلماء وزاد فضلها، وأن حسان بعث إلى الوليد يعلمه بإذاية الروم، فكتب الوليد إلى عمه عبد العزيز بن مروان، وهو وال على مصر وإفريقية أن يوجه ألف قبطي وألف قبطية ويحملهم إلى بلاد إفريقية ، وأمره أن يخرق البحر إلى تونس.

وذكر غيرهما أن الذي خرق البحر إلى تونس هو موسى بن نصير، وجعل دار الصناعة بتونس، وجر المجرى إثنا عشر ميلاً، حتى أقحمه دار الصناعة، فصارت ميناء للمراكب، وأمر بصناعة مائة مركب وغزا بها بلاد الروم، وعقد لولده عبد الله عليها، وأمره بالانصراف إلى صقلية وكانت أول غزوة غزيت في بحر إفريقية، فسار عبد الله إلى صقلية فافتتح فيها وأصاب ما لا تدرى قيمته، ثم انصرف قافلاً سالماً، وكانت تسمى غزوة الأشراف، وعقد بعد ولده لبعض أصحابه على مراكب أخر، فوصل سرقوسة وملكها والله أعلم بحقيقة ذلك.

وحاصل الأمر أن تونس ليست محتاجة إلى تعريف وذكرها طبق الوجود، فهي كما قيل في المثل طابق الإسم المسمى، لأنها تؤنس الغريب، وقلما يوجد غريب دخلها إلا وحصلت له بها علاقة ولا يفارقها

إلا وهو متحسر عليها، ومن قطن بها حنت عليه وحن لها إن فارقها وعزّت عليه. وذكرها غير واحد من العلماء وأثنى عليها بمحاسن كثيرة لا تعد ولا تحصى. وزمزم الحداة بذكرها في المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

وكيف يصح في الأذهان شيء: إذا احتاج النهار إلى دليل وهي حرسها الله واسطة البلاد الإفريقية، كما أن إفريقية واسطة البلاد الغربية، فهي بمنزلة الرأس من الجسد، بل بمنزلة العين من الرأس.

وإذا ثبت ما قلته وتقرر ما نقلته، فالذي صح عندي أنها قديمة من بناء الأوائل، والذي ذكر فتحها هو أقرب من غيره، وأن حسان هو الذي فتحها وبنى بها مسجداً وعبيد الله بن الحبحاب زاد في ضخامته، كما أن زيادة الله بن الأغلب زاد فيه وضخمه، وكملت ضخامته في أيام بني حفص، كما سيأتي بعد إن شاء الله تعالى.

وحسان بن النعمان هو الذي فتح قرطاجنة وقطع عنهم القناة المجلوب عليها الماء، وفتح تونس واتخذ بها مسجداً وهو الجامع الأعظم وسمي بجامع الزيتونة كما مر في أول الكتاب.

وتونس لا شك أنها قديمة البناء، وكانت معاصرة لقرطاجنة. واسمها «ترشيش» وقيل هذا الإسم علم لها من قديم الزمان الذي هو تونس. وسألت بعض النصارى ممن لهم علم بالتاريخ فقال: اسمها تنس في كتبنا وهذا الاسم باللسان الإغريقي معناه تقدم، وأوقفني على كتاب عنده في التاريخ، وكلتا المدينتين فيه مصورتان تونس وقرطاجنة والحناية ووادي مجردة وتونس أصغر حجماً من قرطاجنة. وسألته عن تاريخها فقال أزيد من ألفي عام. والنصارى لهم اهتمام بهذا العلم والبلاد كانت لهم. وصاحب الدار أدرى بالذي فيها ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى. وأما من قال بناها بنو أمية في حدود الثمانين والذي بنى الجامع ودار الصناعة عبد الله بن الحبحاب سنة أربع عشرة ومائة فبعيد، إذ كيف يمكن أن يقال: مكثوا نيف وثلاثين سنة بغير مسجد، وهؤلاء القوم كانوا في صدر الإسلام،

إلا أن يكون تأسيس المسجد في الأول والبناء الضخم في الآخر وبهذا يرتفع الإشكال بحول الله.

وأما السور فمن بناء بني الأغلب والقصبة أيضاً، وكانت عمال إفريقية سكناهم القيروان. وأول من سكن تونس من العمال الأغالبة. قال ابن ناجي رحمه الله: واتخذ بنو الأغلب تونس لمتنزهاتهم وبنوا الجامع الأعظم. قلت: ومات بتونس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن الأغلب سنة ست بعد التسعين والمائتين مقتولاً، قتله بعض خدمته باتفاق مع ابنه زيادة الله واستقل بالملك بعده.

وبالجملة فإن مدينة تونس لها حظ وافر. وحسن باهر. حازت قصبات السبق في البلاد الغربية. وعظم شأنها بين جيرانها وحبائبها الإفريقية. ولا سيما في هذه الدولة التركية. والسلطنة الخاقانية. خلد الله أيامها. وسير بالعدل أحكامها. وكثرت خيراتها. وعمرت فيها الأسواق والدور. وبنيت فيها المنازه والقصور. وظهر فيها كل حسن غريب. وهاجر إليها البعيد والقريب. وطابق الإسم المسمى كما يقال تؤنس الغريب. إلا إنها في هذا الزمان أصيبت بالمحن. وقام بها سوق الخوف من بعد الأمن من شدة الفتن. عسى الله أن يجعل بعد عسر يسرا. وأهلها ولله الحمد لهم أخلاق رضية ونفوس أبية. وعقل ثاقب. ورأي صايب. وعلو شأن. وحدة أذهان. وعلماؤها مميزون عن من سواهم بالذكاء والنباهة حتى إن الواحد منهم إذا لازم الاشتغال يحصل له في سنة ما لا يحصل لغيره في عدة سنين. ورزقها الله تعالى سراً تميزت به بين البلدان. وأعظم سرها جامعها الأعظم كأنه بين المساجد مسجد سليمان. وذكرها العبدلي في رحلته وأثنى على أهلها خيراً. وذكر علماءها بما هم أهله ولما ذكر مصر قال سماعك بالمعيدي ومن كابر في النقل فلينظر الأصل. وكان العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن مصطفى الأزهري نزيل تونس رحمه الله لما استوطن هذه الديار التونسية وتأنس بها وحضر عند أهلها وأمرائها يقول: لو سئلت عن ثلاث لأجبت بلا ولو قطع رأسي لو قيل لي: هل رأيت أعلم

من الشيخ إبراهيم اللقاني؟ لقلت لا. ولو قيل لي: هل رأيت أسر من جامع الزيتونة؟ لقلت لا. والسؤال الثالث يأتي في محله إن شاء الله تعالى. ولقد غالى بعض العلماء في مدح تونس وحريمها حتى قال من لم يتزوج بتونسية ليس بمحصن وفي هذا القدر كفاية. لمن له خبرة ودراية. ولو تتبعنا محاسنها لطال بنا الكلام وخرجنا عن الشرط. ولما مد القلم لسانه في هذا المحل حكمنا عليه بالقط. وعسى أن نصل إلى ما هو أهم. وننتقل من الخصوصية إلى الأعم. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الثاني

في التعريف بإفريقية

إفريقية من بلاد المغرب وعند أهل العلم إن أطلق اسم إفريقية فإنما يعنون به بلد القيروان ، وأما أهل السير فيجعلونه إقليماً مستقلاً وله حدود ولهم اختلاف فيه، وإفريقية أوسط بلاد المغرب وخير الأمور أوسطها. وقيل إنما سميت بإفريقيا لأنها فرقت بين المشرق والمغرب ولا يفرق بين الاثنين إلا أحسنهما. وقيل سميت إفريقية باسم أهلها وهم الأفارقة، والأفارقة من ولد فاروق بن مصرايم. وقال آخرون: الأفارقة من ذرية قوط بن حام بن نوح عليه السلام. سموا باسم البلاد وقيل إن إفريقش بن ابرهة بن ذي القرنين لما غزا بلاد المغرب، ودوخ البلاد بنى مدينة سميت باسمه فقالوا إفريقية وسموا أهلها الأفارقة، ذكره المقريزي. وقيل اسمه إفريقين بن قيس ابن صفي الخميري، افتتحها وقتل ملكها واسمه جرجير فسميت به، ويومئذ قال لأهلها ما أكثر بربرتكم فسموا بربر، قاله ابن خلكان. وقيل كان اسمه إفريقس بالسين المهملة فعربتها العرب بالشين المعجمة. ونقل ابن الشباط عن بعضهم أنه كان يقول اسمها إبريقية من البريق، لأن سماءها خال من السحب، قلت: وهذا القول بعيد لأن إفريقيا كثيرة السحب حتى قال بعضهم: إن القيروان لا تخلو من السحب في غالب

السنة. ويعبر عن فحص القيروان بمزاق لأن السحب تتمزق منه حتى قال بعضهم: تنشأ السحابة بالقيروان وتمطر بصقيلة وغالب بلاد إفريقيا كثيرة البرد والأمطار وغالب الأوقات لا تخلو من السحب.

وسمعت بعض الفقهاء يقول معنى قوله تعالى ﴿أولم يروا انا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾[1] يعني الأرض المخرشفة على أحد التأويل ولا يوجد في غالب المعمور أكثر خرشفا من إفريقية والله اعلم.

وإفريقية إقليم عظيم جمع المحاسن الجميلة. والفوائد الجليلة. والمدن العظيمة. والمزارع الكريمة. والمياه العذبة. والفواكه اليابسة والرطبة. والمباني المنيفة. والمعادن الشريفة. والمسارح المعدة للضرع. والآثار البديعة للزرع. وجميع ما يحتاج إليه وتقبل النفوس عليه.

وجعلوا حدود المغرب من سيب بحر النيل بالمشرق إلى ساحل البحر المحيط من ناحية المغرب. وحد إفريقية بالطول من برقة إلى طنجة، وعرضها من البحر الشامي إلى الرمال التي أول بلاد السودان، قاله غير واحد.

قلت في زماننا هذا لا يعبر بإفريقية إلا من وادي الطين إلى بلد باجه.

وقال ابن الشباط: وأوصاف إفريقية أشهر من أن تذكر. أو يخاف عليها من أن تجحد وتنكر. ولم يزل بها على مر الزمان من العلماء والكتاب وذوي البراعة في المعارف والآداب، من تزدان بأوصافه الأقطار، وتشرق بأنوار كلامه الأسطار. وذكر أحاديث شريفة في فضل المغرب وفضل إفريقية. وتقدمه ابن الدباغ في ذلك وأورد أحاديث وردت في فضل المنستير ورادس. وقال ابن ناجي: لا شك أن الأحاديث التي في المنستير ورادس موضوعة. وها أنا أورد من تلك الأحاديث ما ثبتت صحته على وجه التبرك. ذكر ابن الشباط: قال في كتاب مسلم: حدثنا يحي بن يحي قال:

---

(١) الآية ٢٧، سورة السجدة.

حدثنا هشام عن داوود بن أبي هند عن أبي عثمان عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة». وفي كتاب الطبقات في علماء إفريقية، حدثني فرات بن محمد قال: حدثنا عبد الله بن أبي حسان اليحصبي عن عبد الرحمن بن زياد عن أبي عبد الرحمن الحلبي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين أناس من أمتي من إفريقية يوم القيامة وجوههم أفضل نوراً من نور القمر ليلة البدر». وذكروا عدة أحاديث وردت في إفريقية وأن المنستير باب من أبواب الجنة. ولا شك أن لها فضلاً وشأناً والله اعلم.

وحكى بعض المؤرخين عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم أنه قال: كانت إفريقية من طنجة إلى طرابلس ظلاً واحداً وقرى متصلة عامرة، فأخرجت جميع ذلك الكاهنة وذلك لما هزمت حسان بن النعمان الغساني بعد ما فتح قرطاجنة وتونس وهزم البربر هزيمة شنيعة وفروا أمامه إلى برقة، ورجع إلى القيروان فسأل: هل بقي أحد ممن له شوكة قوية من البربر؟ فقيل له: امراة ساحرة يقال لها الكاهنة وهي بجبل أوراس في عدد عظيم. فسار إليها والتقى معها فاقتتلوا أشد قتال فقتل من العرب خلق كثير وانهزم حسان وتبعته الكاهنة حتى خرج من عمل قابس وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان. وكتب حسان إلى عبد الملك يخبره بما لقي المسلمون، فوافاه الجواب يأمره بالمقام حيث أدركه كتاب أمير المؤمنين، فأدركه وهو في عمل برقة، فأقام هنالك خمسة أعوام بموضع يقال له قصور حسان وبه سمي إلى الآن. وملكت الكاهنة إفريقية خمس سنين منذ انصرف حسان عنها، وقالت للبربر: إن العرب يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنما نطلب منها المزارع ولا نرى لكم إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها، وأرسلت قومها إلى كل ناحية لقطع الشجر والزيتون فخربت البلاد بأسرها وهدمت الحصون وكانت كلها قرى متصلة.

وفي تواريخ النصارى أنه كان لملك إفريقية وهو صاحب قرطاجنة

مائة ألف جفن بين حصن ومدينة يحكم عليها، وأنه لما غزا إلى رومة المدائن أخذ من كل بلدة رجلا وديناراً وسار إليها على ناحية المغرب على بحر الزقاق من ناحية الأندلسية وإفرنجة، وأناخ على رومة وحاصرها حصاراً شديداً وبعث صاحب رومة عسكره في البحر إلى قرطاجنة وأناخ عليها ووقع القتال بينهم على وادي مجردة وكان بينهم قتال شديد، وكان الخيالة من أهل قرطاجنة ثمانين ألفاً غير الرجالة، فعند ذلك رحل صاحب قرطاجنة عن رومة ورجع إلى بلاده، ومن ذلك الوقت بقيت الأفارقة في الأندلسية وملكوها مئات من السنين والله أعلم.

وقال الملشوني: لم يدخل إفريقية نبي قط وأول من دخلها بالإيمان حواري عيسى عليه السلام. قلت: الحواري الذي دخلها اسمه متى العشار وقتل بقرطاجنة وهو أول من كتب الإنجيل بلسان العبراني بعد رفع المسيح بتسع سنين. وقال غيره: بل دخلها نبي الله خالد بن سنان العبسي وكان في زمن الفترة ولكن لم يدخلها بدعوة. وهو مدفون في المغرب في بلد بسكره، وأنكر بعض الفقهاء ذلك وصححه آخرون. والشيخ التواتي ممن اثبته أنه هو، ورأيت بخط والدي رحمة الله عليه قال: حضرت الشيخ المذكور وهو متوجه لزيارة نبي الله خالد بن سنان العبسي، وله كتاب صنفه الشيخ وثبت عنده صحته، وهو في تلك البلاد يسمونه خالد النبي ويزورونه ويتبركون بمقامه ﷺ.

ومن مدن إفريقية ـ برقة ـ وطرابلس ـ وغدامس ـ وفزان ـ وأوجله ـ وودان ـ وكوار ـ وقفصة ـ وقسطيلية ـ وقابس ـ وجربه ـ وتيهرت ـ وباجة ـ والأربس ـ وشقبنارية ـ وصبرة ـ وسبيطلة ـ وباغاية ـ ولميس ـ وأذنة ـ ودرعة ـ ومجانة ـ وسوسة ـ وبنزرت ـ وزغوان ـ وجلولا ـ وقرطاجنة ـ وتونس ـ .

وكل هذه وقع عليها الفتح. وإنما كانت دار الملك أولاً في قديم الزمان بقرطاجنة لما كانت بيد الأفارقة الإغريقيين، إلى أن دخلت عليهم البربر من بلاد المشرق بعد ما قتل ملكهم جالوت وتفرقوا في البلاد، فانحاز أكثرهم إلى إفريقية والمغرب، واستوطنوا البلاد سهلها ووعرها،

إلى أن ظهر فيهم دين النصرانية، فتغلبت الروم على سواحل البلاد وصارت البربر لهم ذمة.

وكانت قرطاجنة أعظم مدن المغرب وهي قديمة البناء. قال بعضهم: إنها بنيت في زمن داوود عليه السلام وإن بين بنائها وبناء رومة اثنتين وسبعين سنة، ولم يذكر ما السابق منهما. قلت: هذا بعيد جداً إلا أن يكون بناءها الثاني أو الثالث لقول أحد المفسرين أن الذي كان يأخذ كل سفينة غصبا هو صاحب قرطاجنة. وموسى كان قبل داوود عليهما السلام بزمان طويل. وذكر أن مجمع البحرين برادس والجدار بالمحمدية وهي طنبدة وأهل تلمسان أيضاً يسمون بلادهم بالجدار إلى الآن والله اعلم.

ويشهد لقدمها ما روته الثقاة عن عبد الرحمن بن زياد بن انعم قال: كنت وأنا غلام مع عمي بقرطاجنة نتمشى في آثارها ونعتبر بعجائبها، فإذا بقبر مكتوب عليه بالحميرية: ـ أنا عبد الله بن الأواسي رسول رسول الله صالح. وفي رواية بعضهم ـ شعيب بعثني إلى أهل هذه القرية ادعوهم إلى الله تعالى أتيتهم ضحى فقتلوني ظلما حسيبهم الله. وذكر بعض المؤرخين أن موسى بن نصير لما فتح الأندلسية ذكر له بها شيخ كبير فدعا به فإذا الشيخ وقعت حاجباه على عينيه فقال له: أخبرني كم أتى عليك من السنين؟ قال: خمسمائة عام. فسأله عن أشياء فأجابه إلى أن قال له: أين بلدك؟ قال قرطاجنة، قال له: كم عمرت بها؟ قال: ثلاثمائة عام وبهذه البلاد مائتي عام. فسأله عن خبر بناء قرطاجنة فقال: بقية من قوم عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم فعمروها ما شاء الله ثم خربت وبقيت ألف سنة خرابا، حتى أتى النمرود بن لأوذ بن النمرود الجبار فبناها على البناء الأول، ثم احتاج إلى الماء العذب فبعث إلى أبيه وكان أبوه بالشام والعراق وعمه على السند والهند، فأرسل إليه أبوه المهندسين والفعلة، فهندسوا له الماء حتى أوصلوه إلى المدينة ومكثوا يرتادون الماء أربعين سنة. ولما حفروا أساسه وجدوا حجراً مكتوباً عليه بالخط الأول سبب خراب هذه المدينة إذا ظهر فيها الملح، فبينما نحن ذات يوم عند غدير بدار الصناعة

بقرطاجنة، إذ نحن بالملح منعقد على الحجر، فعند ذلك رحلت إلى هنا ومن كان على مثل رأيي في ذلك. وسأله عن عمر الملك فقال: عمّر سبعمائة عام والله أعلم.

وهذه الحناية من أعجوبة الدنيا، وإذا افتخر المصريون بالأهرام، تفتخر أهل إفريقية بهذه الحناية على مصر، لأن أصل الماء منبعث من عين جنقارو واليوم اسمها الحميدية، وهي وراء زغوان بمسافة بعيدة، وجلبوا ماء زغوان معها وكلما وجدوا في طريقهم ماء جلبوه من اليمين والشمال عدة فراسخ، وكانت من أولها إلى آخرها محفوفة بالبساتين والمياه جارية بينها. وفي تواريخ النصارى أن طول مسافة الحناية من منبعثها إلى المدينة ستون ميلا على الإستقامة، وبتعريجها وعطفاتها ثلثمائة ميل ونيف وثلاثون ميلاً، وأنها كملت في ثلاثمائة سنة وأربع سنين. قلت: لا يستغرب طول هذه المدة لأن هذا البناء من أغرب الأبنية، وإذا كان طولها ثلثمائة ميل ونيف وثلاثين ميلاً، فلا يبعد أن يكون البناء في كل سنة ميلاً، مع هذا الإتقان الذي بها وطول أعمار القوم، ومن شاهدها حكم بعقله بصحة ذلك.

وعند النصارى كان بقرطاجنة ثلاثة أسوار دائرة بها والبحر يضرب في سورها، وهي من أعجب بلاد الله وكان تكسيرها أربعة عشر ألف ذراع، وهي من أعظم بلاد إفريقية.

وقال البكري: لو دخلها الداخل أيام عمره لرأى كل يوم أعجوبة، وبها قصر يعرف بالمعلقة مفرط في العلو، فيه طبقات كثيرة مطل على البحر. قلت لم يبق مما ذكر إلا هذا الاسم، وبقيت خرائب بها يسمونها المعلقة إلى الآن. قال: وبها قصر يسمى الطياطر، فيه دار الملعب وقصر يقال له ترمس، فيه سواريَ من رخام مفرطة في الطول، يتربع على رأس السارية عشرة رجال، وبينهم سفرة وسبعة مواجيل تعرف بمواجيل الشياطين، فيها ماء لا يدرى من أين دخلها. قلت: المواجيل موجودة ليومنا هذا. قال: وداخل المدينة ميناء تدخلها السفن بشرعها، وهي اليوم ملاحة عليها قصر ورباط يعرف ببرج أبي سليمان. قلت: الملاحة التي

ذكرها وبرج أبي سليمان، هي الآن البلد التي عمرها الأندلس، وبرج أبي سليمان بها معروف، وملاحة أخرى قريبة من أوهام المرسى والله أعلم أيهما كانت. قال: وبها قصران من رخام يعرفان بالأختين، فيهما ماء مجلوب من قبل الجوف لا يعرف من أين منبعثه. قلت: هووالله أعلم الماء الذي عليه آبار سكرة مجلوب من الجوف من تحت الجبل الذي خلف جعفر، وفيه أيضاً ماء مجلوب من تحت الملاحة التي بها، لأنهم وجدوا أرض سكرة كثيرة المياه والغالب عليها الرمل، فحصروا الماء بتحكيم البناء العظيم وجعلوه متصلاً بعضه ببعض وأداروا بالبناء كالحلقة لجمع الماء فيها وانحصاره، ولها منفذ إلى قرطاجنة. وأخبرني بعض من اطلع عليها أنه رأى المنفذ الجاري ورأى بعض بنيانها من ناحية الجوف، والذي من ناحية قمرت من تحت الملاحة. ويقول من لا خبرة له إن هذا الماء بقصد بساتين سكرة وهذا شيء لا يفي بعضه ثمن سكرة أضعاف مرات، وإنما هذا من عمل الملوك لأمر مهم. وكذلك الحناية لما أحيا بعضها المولى المستنصر الحفصي وجلب الماء عليها إلى بساتينه بأبي فهر ويعبر عنه اليوم بالبطوم، عجز عن بنائها بالحجر، وجعل أقواسها طابية، وهي أقواس يسيرة وجلب الماء إلى البركة التي هنالك وهي باقية إلى الآن هذا مع ضخامة ملكه وعلو سلطته وارتفاع صيته، لم يستطع إصلاح بعض ما فسد منها ولا قدر على ردها كما كانت أول مرة. وبقية الحناية وآثارها باقية إلى يومنا وهي تدل على أمر عجيب.

وأما آثار المدينة فلم يبق منها إلا بقية خراب يعبر عنها بالمعلقة، فيها أماكن كان يستقر بها الماء. وآثار يراها من يركب البحر، وبقية البنيان ظاهرة من تحت الماء وهي ممتدة في البحر بين القبلة والمشرق. ولا شك أن البحر الذي في حلق الوادي اليوم لم يكن قبل هذا الوقت، وإنما حدث بعد ما خربت قرطاجنة. وإذا كانت المعلقة قصراً من قصورها وبرج أبي سليمان متصل بها ومحسوب منها، بل كما قالوا: إنه من البناء الذي في وسطها، تكون مسافتها أزيد من اثنتي عشر ميلاً والله أعلم. وسمعت من يذكر أن باب جهم من بعض أبوابها، وهي متصلة إلى الجبل الذي

بإزاء بلد سليمان المسماة به في زمننا هذا. وفي سليمان المذكورة قصر أبي سليمان السابق ذكره، وبه داموس لم يعلم أحد منتهى طرفه. فسبحان المتصرف في البلاد والعباد. وسبحان من أيد دين الإسلام وعصابته بالنصر على أهل العناد. وتمزيقهم في كل واد.

وفتح الله تعالى هذه المملكة العظيمة على يد حسان بن النعمان. في خلافة عبد الملك بن مروان. في سنة تسع وسبعين من الهجرة ودخل إلى إفريقية في جيش لم يدخل بمثله أحد قبله ومقداره أربعون الفا. ولما نزل على قرطاجنة وبها خلق عظيم التقى الفريقان والتحم الحرب وقتل حسان شجعانهم وأبطالهم، فاجتمع رأيهم على الهرب وكانت لهم مراكب معدة فارتحل الملك ومن قدر معه ليلاً، فمنهم من هرب إلى الأندلس ومنهم من هرب إلى جزيرة صقلية. ولما علم أهل بواديها بهروب الملك تحصنوا بها فقاتلهم حسان وحاصرهم إلى أن دخلها بالسيف وأرسل إلى من حولها وأمرهم بهدمها وكسر القناة المجلوب عليها الماء، وذلك من قبل أن ينفذ البحر إلى تونس، وإنما حدث من بعد ولله عاقبة الأمور. وإنما أطلت الكلام عليها لأنها بديعة الآثار قريبة من هذه الدار وآثارها تنبيء عن أخباره والله يعلم وانتم لا تعلمون.

الباب الثالث

في فتح جيوش المسلمين إفريقية وذكر كل أمير دخل إليها، في زمن الصحابة وفي زمن التابعين وفي زمن الخلفاء، ومن بعدهم إلى أن ينتهي بنا الغرض إن شاء الله تعالى.

إعلم أن الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم، فتح في أيامهم جل بلاد المشرق. ولما فتح عمرو بن العاص مدينة مصر والإسكندرية، بعث عقبة بن نافع إلى برقة وزويلة وما جاورهما من البلاد، فصارت تحت ذمة الإسلام. وسار عمرو بن العاص فغزا مدينة طرابلس ففتحها، وافتتح جبال نفوسه وكانوا على دين النصرانية. كل هذا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في سنة ثلاث وعشرين. وفي إقامة عمرو بن العاص على طرابلس بعث بشر بن أرطات، ففتح ودان وجبال نفوسه ولم يتجاوز عمروبن العاص إلى إقليم إفريقية ورجع إلى مصر قافلاً رضي الله تعالى عنه.

الخبر عن قدوم عبد الله بن أبي سرج

وفي خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه أقر كل عامل كان لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب. وكان لا يعزل أحداً إلا عن

شكاية. فأقر عمرو بن العاص على مصر، وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح من جند مصر. فأمره عثمان على الجند وسرحه إلى إفريقية، وكان أخا عثمان من الرضاعة وسرح معه عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وعبد الله بن نافع بن الحصين، فساروا حتى وصلوا إفريقية وأوغلوا فيها ونازل قابس في طريقه ورحل عنها، وبث سراياه في إفريقية وكان معهم من الجند عشرون ألفاً إلى أن وصلوا سبيطلة. وكان الملك إذ ذاك جرجير وهو أعظم ملك بأفريقية. وقيل إنه كان عاملاً لهرقل وخلع طاعة هرقل واستقل بالملك وضرب الدينار باسمه، أي باسم جرجير وكان سلطانه من برقة إلى طنجة ودار ملكه سبيطلة، وكانت بين عبد الله بن أبي سرح وبين جرجير مراسلات، فأبى جرجير عنها وتأهب للحرب، وجعل ابنته على ديدبان عال واقسم بدينه لا يقتل أحد أمير العرب إلا زوجه ابنته. وبلغ الخبر إلى عبد الله بن أبي سرح، فأقسم بالذي جاء به محمد لا يقتل أحد جرجيراً إلا نفله ابنته. والتحم القتال وكان عسكر جرجير مائة ألف وعشرون ألفا. فنصر الله المسلمين وقتل جرجير، قتله عبد الله بن الزبير وأخذ ابنة جرجير. وقاتل المسلمون المشركين وهزموهم إلى أن دخلوا مدينتهم. فنزل عليها المسلمون وحاصروهم بها وفتحها الله عليهم وذلك في سنة سبع وعشرين، وأصابوا فيها ما لا يحصى من ذهب وفضة، وبعث بالفتح إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان وكان رسوله ابن الزبير، فيقال إنه بلغ المدينة في خمسة وعشرين يوماً وبث عبد الله بن أبي سرح سراياه، فبلغت خيله قصور قفصة فذلت الروم بإفريقية والتجأ أكثرهم إلى الحصون وداخلهم الرعب، وبعثوا إلى عبد الله يطلبون الصلح، وبذلوا له ثلاثمائة قنطار من الذهب وأن يرجع من حيث جاء. فأجابهم عبد الله إلى ذلك وصالحهم وقبض المال ثم انصرف عن إفريقية بعد إقامة سنة وشهرين، وكر راجعاً إلى مصر بعد ما أذعنت له بلاد إفريقية كلها وقسم الغنائم على الجند.

وقيل إنه بعث عبد الله بن نافع بن الحصين وعبد الله بن نافع بن عبد القيس من فورهما ذلك إلى الإفرنجة والأندلسية فأتياها من قبل البحر وغنما ما شاء الله. وقيل لما رجع عبد الله إلى مصر استعمل على عمله

عبد الله بن نافع بن عبد القيس، وهذا قول من قال : إن الأندلس كان فتحها في زمن عثمان وأكثر الناس من المؤرخين يقولون في زمن الوليد بن عبد الملك، وهو الصحيح أو لعل الفتح مرتان قاله غير واحد والله أعلم.

الخبر عن قدوم معاوية بن حديج إلى إفريقية

وفيه خلاف بين المؤرخين

قيل إنه غزا إفريقية في سنة أربع وثلاثين قبل مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه وله ثلاث غزوات الأولى سنة أربع وثلاثين والثانية سنة أربعين والثالثة في خلافة معاوية ولم يذكر أحد من المؤرخين ما كان في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ولا ولده الحسن، إلا إن معاوية بن حديج كان سنة خمسين، وكان معاوية بن أبي سفيان إذ ذاك خليفة، وسنة أربعين كان الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه والله أعلم.

وفي سنة خمس وأربعين في زمن معاوية بن أبي سفيان أرسل معاوية ابن أبي حديج إلى إفريقية في عشرة آلاف مقاتل، وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير بن العوام، وعبد الملك بن مروان، ويحي بن أبي الحكم بن العاص، وعدة أشراف من قريش، ففتح مدينة سوسة وكان أرسل إليها عبد الله بن الزبير وقاتل النصارى الذين بها وظهرت منه شجاعة قوية على باب سوسة، بحيث إنه صلى صلاة العصر والعدو قريب منه ولم يكترث به ورجع إلى معاوية بن حديج وأرسل ابن حديج عبد الملك بن مروان إلى جلولا، فحاصرها أياماً وقتل من أهلها عدداً كثيراً، وفتحت عنوة وسبوا الذرية وأصابوا مغنما كثيراً، وقسم معاوية الفيء بين المسلمين. والله أعلم هل كانت في سنة أربعين وثلاثين أو خمس وأربعين.

وبين جلولا والقيروان أربعة وعشرون ميلاً، وبقرب جلولا منتزه لبني عبيد يعرف بسردانية، ليس بإفريقية أجمل منه وكانت كثيرة الثمار وأكثر رياحينها الياسمين والورد وبها قصب السكر.

قال ابن ناجي: كان يدخل إلى القيروان أربعون حملاً ورداً جلونيا في اليوم وبوردها يضرب المثل.

وأرسل معاوية بن حديج جيشاً في البحر في مائتي مركب إلى صقلية ففتحوها وسبوا وغنموا وأقاموا شهراً وانصرفوا بغنائم كثيرة. وبعث معاوية بالخمس إلى معاوية بن أبي سفيان.

وفي سنة إحدى وأربعين فتح بنزرت وكان معه عبد الملك بن مروان فشذ عن الجيش فمر بامرأة من العجم فقرته وأكرمته، فشكر لها ذلك ولما ولي الخلافة كتب إلى عامله بإفريقية أن يحسن لها ولأهل بيتها.

وبنزرت قديمة البناء وهي أجمل بلاد على ساحل البحر. قلت وسمعت من يقول معنى قوله تعالى﴿وثمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾[1] هي بنزرت. وسمعت من يقول في قوله عز وجل﴿ وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾[2] هي بنزرت. وسمعت من يقول: كان الحاكم بها يهودياً في الزمن السابق ولما ضعف أمرهم وصاروا تحت الذمة عاملهم المسلمون الذين تملكوهم بأن جعلوا سوقهم يوم السبت، نكاية لهم عن ما سبق من أذاهم، حتى لا يتصرفوا معهم في معايشهم يوم السبت والله أعلم بحقيقة ذلك.

وبعث معاوية بن حديج رويفع بن ثابت الانصاري إلى جربة ففتحها، وهي جزيرة في البحر تقرب من قابس وبينها وبين البر مجار، وفيها بساتين كثيرة وزيتون كثير. وقيل إن رويفع بن ثابت كان عاملاً لمعاوية بن حديج على طرابلس سنة ست وأربعين، فغزا إفريقيا من طرابلس سنة سبع وأربعين وفتح جربة والله أعلم.

ورجع معاوية بن حديج إلى مصر، فلما وصل مصر عزله معاوية بن

---

(١) الآية ٩، سورة الفجر.

(٢) الآية ١٦٣، سورة الأعراف.

أبي سفيان عن إفريقية وأقره على مصر، ووجه معاوية عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية في عشرة آلاف من المسلمين، وقاتل من بها من النصارى والبربر حتى أفناهم واتخذ قيرواناً للعسكر وهي القيروان التي في زماننا هذا. وسبب بنائها مذكور في غير هذا المكان مبسوط بزيادة بيان، واختط بها الجامع الأعظم وصلى فيه وكان عقبة رضي الله تعالى عنه مستجاب الدعوة. وقيل إن غزوته هذه كانت سنة اثنتين وأربعين والله أعلم. وفي سنة إحدى وخمسين عزل معاوية بن أبي سفيان عقبة عن إفريقية، وولى مسلمة بن مخلد على مصر وإفريقية.

الخبر عن ولاية مسلمة بن مخلد الأنصاري

فلما وصل إلى مصر بعث مولى له اسمه دينار، ويكنى بأبي المهاجر إلى إفريقية فلما وصل إليها كره أن ينزل في بلد اختطه عقبة، فبعد عن القيروان وبنى مدينة وأخلى القيروان وأمر الناس بعمارة بلدة واسمها بيكروان، فلما سمع عقبة بذلك حنق عليه ودعا الله تعالى أن يمكنه من أبي المهاجر فاستجاب الله دعاءه وسيأتي بعد.

وفي ولاية أبي المهاجر فتحت جزيرة شريك. قلت: جزيرة شريك هي الجزيرة المعلومة في زماننا هذا التي بها حمام الأنف وبناها الأندلس، مثل سليمان وتركي وغيرهما، وإليها ينسب باب الجزيرة في يومنا والله أعلم.

وجزيرة شريك كانت عامرة في ذلك الوقت، وبها مدن وقصور كثيرة وخيرات ومزارع حسنة، وهي بين مدينة سوسة ومدينة تونس. وسميت جزيرة شريك نسبة إلى شريك العبسي الذي كان والياً عليها، وبعث إليها أبو المهاجر حنش بن عبد الله الصنعاني، فافتتحها وغنم منها وقتل أهلها وسبى سبياً عظيماً.

ورجع عقبة إلى المشرق، فشكى إلى معاوية ما فعله أبو المهاجر به فوعده بالرجوع إلى عمله.

وتوفي معاوية رضي الله تعالى عنه، واستخلف ولده يزيد بعده، فولى عقبة بن نافع إفريقية في سنة اثنتين وستين من قبل يزيد بن معاوية، فثار عقبة حنقاً على أبي المهاجر. فلما بلغ إفريقية أوثقه بالحديد، وأمر بتخريب مدينته التي بناها، وأعاد الناس إلى القيروان وعمروها، وأجمع عقبة على الغزو في سبيل الله. واستخلف زهير بن قيس البلوي على القيروان، ومضى في عسكر عظيم حتى نزل مدينة باغاية، وهي قريبة من جبل أوراس والجبل مطل عليها، وكان قد لجأ إليها جمع من البربر والنصارى فقاتلهم عقبة قتالاً شديداً وهزم الروم والبربر وغنم منهم خيلاً لم يروا أحسن منها. ولجأ جلهم إلى الحصن وارتحل عنهم إلى مدينة لميس، وهي إذ ذاك من أعظم مدائن الروم، فقاتلهم أشد قتال وهزمهم إلى باب الحصن. ولميس قريبة من بلد قسمطينة وبينهما مرحلتان، وأكثر أشجارها التين والعنب والخوخ والجوز.

وفتحت في أيام عقبة غدامس أيضاً ولكن في ولايته الأولى سنة اثنتين وأربعين، فقتل وسبى وبلغ في غزوته إلى بلد السودان وعامة بلاد البربر وفتح فزان وفتح ودان وقفصة وقسطيلية فتحاً ثانياً لأنها فتحت قبله وارتدوا فأعادهم بغزوته هذه حتى أذعنوا له. وكذلك نفطة ونفيوس وقابس والحامة. ولما غزا فزان خرج إليه ملكهم فصالحه على ثلاثمائة عبد وستين عبداً، وغزا قصور كوار وفرض على أهلها ثلاثمائة عبد وستين عبداً، وهنالك أدركه هو وأصحابه العطش فصلى ركعتين وسأل الله سبحانه وتعالى الماء، فجعل فرسه يبحث برجليه حتى طلع الماء وهو الذي يقال له عين الفرس إلى زماننا هذا. وضايق على أهل كوار ورحل عنهم وأخذهم بغتة بعد ما رحل عنهم واطمأنوا، فأباح ما في مدينتهم وسبى نساءهم وذراريهم ثم انصرف إلى زويله، ثم رجع إلى معسكره، فأقام فيه عدة أشهر وسار بعد ذلك إلى قفصة وقسطيلية. وذكروا أن باني سور قفصة غلام النمرود.

ثم توجه إلى المغرب ففتح مدينة سبتة ومدينة طنجة. وسبتة مدينة على بحر الزقاق من ناحية المغرب، وكان صاحبها إليان وهو الذي أعان

طارق بن زياد على دخول بلاد الأندلس. وهي مدينة قديمة من بناء الأول وهي في زماننا في يد أعداء الدين أعادها الله للإسلام. فصالحه صاحبها وأقره على بلاده وسار إلى طنجة وقتل رجالها وسبى من فيها، وهي طنجة البيضاء، وكانت دار ملك لملوك المغرب. وقيل إنه كان لملك من ملوكها في عسكره ثلاثون فيلاً، وهي آخر حدود إفريقية في المغرب وبينها وبين القيروان الف ميل، وهي اليوم في يد الكفرة أعادها الله تعالى للإسلام، وما ذلك إلا من أصل الفتن التي كانت بين ملوك المغرب الأشراف، الذين كانوا بمدينة مراكش حرسها الله، وملكوا العرايش والمعمورة والبريجة ووهران وعدة أماكن بالمغرب، أعادها الله تعالى للإسلام وذلك بعد الألف من الهجرة.

ووصل عقبة إلى السوس الأدنى والسوس الأقصى، ومن طنجة إلى تاجرا مدينة السوس الأدنى عشرون يوماً، وليس في بلادهم شجر ولا نخل ولا زيتون، وعندهم القمح والشعير والأغنام ولباسهم الصوف. ومن تاجرا إلى طرفلة مدينة السوس الأقصى مسيرة شهرين. وليس وراء طرفلة أنيس في المغرب إلى منتهى بحر الرمل. ومن طرفلة إلى غانة ثلاثة أشهر والله أعلم.

قال: وقاتل عقبة أهل السوس وسبى منهم سبياً كثيراً وفتح مدينة يعلى وسبى منها سبياً لم ير مثله حسناً. وكانت الجارية منه تباع بألف وأكثر من ذلك أي من الدنانير. وفتح درعة وهي مدينة عظيمة لها وادي يجري بالماء وعليه أسواق بعدد أيام الجمعة، كل يوم سوق وربما كان سوقان في اليوم الواحد في أماكن متفرقة وذلك لكثرة أهلها وطول عمارتها. وفتح مدينة نفيس وكانت حصينة، وإليها التجأ كثير من البربر والنصارى لحصانتها، فحاصرهم عقبة وقاتلهم حتى فتحها وأصاب غنائم كثيرة. ووصل إلى درعة من بلاد السوس الأقصى ودخل الى بلاد لمتونة في الصحراء، وفر الناس أمامه لا يقوم بين يديه أحد ولا يعارضه، إلى أن بلغ إلى البحر المحيط ـ قال: فأدخل فيه قوائم فرسه وقال: ـ وعليكم

السلام ـ فقال له أصحابه: وعلى من تسلم يا ولي الله؟ فقال: على قوم يونس ولولا البحر لأريتكم إياهم. ثم قال: ـ اللهم إنك تعلم أني إنما أطلب السبب الذي طلبه وليك ذو القرنين ألا يعبد إلا الله ـ ثم كر راجعاً وتخلى الناس عن طريقه خوفاً من جيوشه وقد دوخ البلاد وليس بإفريقية من يخالفه.

ووصل إلى مدينة طبنة وكان ملكهم كسيلة، فتقدمت جيوش عقبة وبقي في نفر يسير من أصحابه إلى أن بلغ تهوده وبادس، فعفلوا أبوابهم دونه وشتموه من أعلى أسوارهم، ودعاهم إلى الله فلم يجيبوا وبعثوا إلى كسيلة، وكان ممن أسلم على يد أبي المهاجر لما فتح تلمسان. ثم صار في عسكر عقبة فاستخف به عقبة وكان ذبح غنماً لأصحابه، فأمر كسيلة بسلخ شاة فقال كسيلة: أيها الأمير هؤلاء غلماني. فأبى عليه فقام مغضباً وجعل يسلخ الشاة ويمسح يده على ذقنه، والعرب تسخر منه فمر بهم رجل من العرب فقال: إن البربري يتوعدكم. وقال أبو المهاجر لعقبة: إن الرجل قريب عهد بالإسلام فلا تهنه فلم يلتفت إليه عقبة.

ولما أرسل له الروم امكنته الفرصة فقال أبو المهاجر لعقبة: عاجله قبل أن يجتمع إليه أمره فزحف إليه عقبة ففر أمامه ووافاه بمقبرة من تهودة فنزل عقبة وصلى ركعتين وأطلق أبا المهاجر، وقال له عقبة: الحق بالمسلين فقم بأمرهم وأنا اغتنم الشهادة، فقال أبو المهاجر: وأنا اغتنمها أيضاً، فكسروا أغماد سيوفهما ومن معهما من المسلمين والتحم القتال بينهم فتكاثر العدو فقتل عقبة وأبو المهاجر ومن كان معهما ولم يفلت إلا القليل.

واجتمع إلى كسيلة جميع أهل المغرب من الروم والبربر واشتعلت إفريقية ناراً، وزحف كسيلة إلى القيروان فلما سمع زهير حرض الناس على لقائه، فامتنعوا منه وأقبل كسيلة إلى القيروان بعساكر البربر، فخرج أهل القيروان هاربين منه ولم يبق بالقيروان إلا الذراري والضعفاء،

فبعثوا إلى كسيلة وطلبوا منه الأمان فأمنهم ودخل كسيلة القيروان وفر زهير بمن معه إلى برقة وأقام بها إلى أن مات يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وتولى ولد معاوية الأصغر ومات، واجتمع الناس بالشام على مروان بن الحكم وتوفي سنة خمس وستين، وقام بالأمر بعده ولده عبد الملك بن مروان. فلما اشتد سلطانه سألوه أن ينظر في أحوال إفريقية وتخليصها من يد كسيلة فقال: ما أرى لها إلا زهيراً لدينه وورعه وهو أعرف الناس بسيرة عقبة، فبعث إلى زهير وأمده بالجيوش والأموال وأرسله إلى إفريقية، فلما ترادفت عليه الجموع أقبل إلى إفريقية في جيش عظيم، وذلك في سنة سبع وستين وقيل تسع وستين من الهجرة والله أعلم بحقيقة ذلك.

الخبر عن إمارة زهير بن قيس البلوي

ولما قدم زهير إلى إفريقية وسمع به كسيلة رحل عن القيروان ونزل على لميس وقيل ممس. ولما بلغ زهيراً خبره لم يدخل إلى القيروان وأقام على بابها ثلاثاً، وارتحل رابع يوم حتى أشرف على كسيلة، فنزل الناس وباتوا على مصافهم، ولما أصبح صلى بالناس ثم زحف بهم والتحم الحرب، فقتل من البربر خلق كثيرة وفر كسيلة وقفل إلى مميس. ومضى المسلمون في طلب البربر يقتلونهم كيف شاؤوا، ورجع زهير إلى القيروان، فخافه جميع من بإفريقية وتحصنوا بمعاقلهم ولم تقم لهم شوكة بعد ذلك، وفتح تونس على أحد أقوال بعض المؤرخين كما سبق. وقيل إن حسان بن النعمان افتتحها وقد مر في أول الكتاب. وقيل أن زهيراً كانت ولايته من قبل عبد العزيز بن مروان وعبد العزيز على مصر من قبل عبد الملك أخيه، ثم إن زهيراً رأى بإفريقية ملكاً عظيماً فكره الإقامة بها لرفاهية عيشها، وقال: إنما جئت للجهاد وأخاف أن تميل بي الدنيا، وكان من الزاهدين العابدين، فكر قافلاً إلى المشرق فلما انتهى إلى برقة أمر العسكر بالمسير على الطريق، وأخذ هو في عصابة قليلة على طريق البحر فوجد أقواماً من النصارى أخذوا جملة من المسلمين أسارى فاستغاث به المسلمون، فوقع بمن معه فاستشهد رحمة الله عليه ومن معه. ولما انتهى

الخبر إلى عبد الملك بن مروان عظم عليه ذلك وكانت مصيبته به مثل مصيبة عقبة رحمهما الله، واستغاث المسلمون لعبد الملك وسألوه أن ينظر في أمر إفريقية فاتفق رأيه على حسان بن النعمان الغساني، وكان حسان بمصر في عسكر عظيم عدة لما يحدث.

وفتحت في أيام زهير بن قيس باجة وشقبنارية، وهي اليوم تسمى الكاف والأربص وهي قرية قريبة منها ومدينة تونس وقرطاجنة على الاختلاف في هذين البلدين والله أعلم.

الخبر عن ولاية حسان بن النعمان الغساني

فكتب إليه عبد الملك يأمره بالتوجه إلى إفريقية وأطلق يده على أموال مصر يعطي منها ما شاء لمن يرد عليه من الناس، فوصل إفريقية في أربعين ألفاً ولم يدخل إفريقية أعظم منه قبله، وذلك في سنة سبع وسبعين وقيل في سنة ست وسبعين وقيل تسع وسبعين. فلما بلغ القيروان سأل عن أعظم ملك بإفريقية فقيل له صاحب قرطاجنة، وكانت مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها وبينها وبين تونس إثنى عشر ميلاً، وبين تونس والقيروان مائة ميل، وقد سبق التعريف بها ولكن جئت بها هنا لإتمام الفائدة.

وأعجب ما بقرطاجنة دار الملعب ويسمونه التياتر وقد بنيت أقواساً على سواري وعليها مثلها. وصور في حيطانها جميع الحيوان وأصحاب الصنائع. وفيه صور الرياح فصورة الصبا وجه مستبشر وصورة الدبور وجه عبوس. ورخام قرطاجنة لو اجتمع أهل إفريقية على نقله لم يمكنهم ذلك لكثرته. قلت لم يبق بها في زماننا من الرخام شيء.

وضبط ابن الشباط قرطاجنة بفتح القاف وسكون الراء المهملة وبعدها طاء مهملة وفتح الجيم وتشديد النون وتاء مؤنثة وقيل بكسر الجيم. وقال: سمعت من يقول قرطاجنة بفتح الجيم وكانت دار الملك بإفريقية. فبعث إليها الخيل وضايق بها وقطع القناة التي جلب عليها الماء،

وكان البحر لم يطرق إلى تونس وإنما خرق بعد ذلك. وهدم المدينة وشتت أهلها واستقام أمره.

ثم إن حساناً بلغه أن النصارى تجمعوا له وساعدتهم البرابرة. فسار إليهم وهزمهم إلى برقة ورجع إلى القيروان فاستراح بها، وسأل هل بقي أحد إذا قتل خافت البربر والنصارى، فقيل له: امرأة يقال لها الكاهنة وهي بجبل أوراس، تخافها النصارى والبربر. فتوجه إلى لقائها وعلمت الكاهنة بأمره فقدمت إليه في عسكر عظيم من البربر والروم. فالتقى الجمعان واقتتلوا قتالاً شديداً ففر حسان منهزماً وقتل من العرب خلق كثير وأسرت من أصحاب حسان ثمانين رجلاً، واتبعت حساناً حتى خرج من عمل قابس ونزل في برقة بمكان يعرف به إلى اليوم يقال له قصور حسان، وقد سبق في أول الكتاب بما فيه كفاية ومكث هنالك خمسة أعوام إلى أن جاءه كتاب عبد الملك بن مروان وأمده عبد الملك بالمال والرجال وكر راجعاً إلى إفريقية.

فلما سمعت به الكاهنة بعثت إلى عمال إفريقية كلها وقطعت أشجارها وخرجت بساتينها، علماً بأن العرب لا يطلبون إلا المدن وإذا أخلت المدن لم يكن لهم إرب في إفريقية، واسم الكاهنة دهية بنت ينفاق وهي من عظماء البربر الذين ملكوا إفريقية، وكما سبق في أول الكتاب أنها كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى طنجة. وكانت الكاهنة أطلقت من أسرته من العرب إلا واحداً اسمه خالد فآخت بينه وبين ولديها وقالت لهم إني مقتوله، وكأنها تنظر إلى رأسها يركض به إلى ناحية المشرق، ثم أمرت ابنيها وخالداً أن يمضوا إلى حسان ويستأمنوه، فتوجهوا إلى حسان وأعلموه بالخبر.

ثم تقدم حسان حتى التقى بها واقتتلا قتالاً عظيماً حتى ظن الناس أنه الفناء، فانهزمت الكاهنة وتبعها حسان وقتلها بمكان يعرف ببئر الكاهنة وقيل في طبرقة، وبعث برأسها إلى عبد الملك.

وعقد لولدي الكاهنة على اثنى عشر ألفاً من البربر الذين أسلموا

وبعثهم إلى المغرب يجاهدون في سبيل الله، ولم يبق له بإفريقية منازع، فرجع إلى القيروان وقد دانت له البلاد وذلك في سنة أربع وثمانين، وكتب الخراج على النصارى وعلى من تمسك بدين النصارى من البربر، وتقدم أن زهيراً افتتح تونس، نقله ابن الشباط عن البلاذري وعن البكري أن حساناً افتتحها. قال ابن الشباط: ولعل الفتح كان مرتين والله أعلم. وسبق في أول الكتاب أن حساناً هو الذي خرق البحر إلى تونس وأنه بعث إلى عبد الملك بن مروان يخبره بحال تونس، حتى بعث له القبط كما مر آنفاً ومهد قواعد إفريقية إلى أن عزل بموسى[1] بن نصير والله أعلم.

الخبر عن إمارة موسى بن نصير القرشي

من قبل الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد ما عزل عنها حساناً، وقيل إنه استعفى منها وأن الوليد أراده إلى إفريقية فامتنع منها وحلف عنها، فكتب الوليد إلى عمه عبد العزيز أن يبعث موسى بن نصير إلى إفريقية، وقطع إفريقية عن عمه عبد العزيز وأرسل إليها موسى بن نصير، فقدم لإفريقية سنة ثمان وثمانين فوجد البلاد خالية لاختلاف أيدي البربر عليها، ولما سمعوا به فروا أمامه إلى المغرب فتبعهم يقتل ويسبي ولا يدفعه أحد، حتى بلغ السوس الأدنى فاستأمنه البربر فأمنهم وولى عليهم والياً واستعمل على بلاد طنجة طارق بن زياد مولاه وترك معه سبعة عشر ألف فارس من العرب والبربر، ثم رجع إلى إفريقية ففتح مجانة. وقيل كان فتحها على يد بشر بن أرطاة استعمله موسى بن نصير ويعث بخمسها إلى الوليد، وفتح زغوان وكان بها عدة قرى وبها من البربر عالم عظيم فغزاها موسى بن نصير وفل جمعهم وسبى منهم سبياً عظيماً، فبلغ سبيهم عشرة آلاف وهو أول سبي دخل القيروان في ولاية موسى بن نصير، وغزا هوارة وزناتة وصنهاجه، وقيل إن موسى كانت أول ولايته من قبل عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين ولم يزل أيام الوليد بن عبد الملك، فتوالت عليه فتوحات موسى بن نصير فعظمت منزلته عند الوليد. وقيل إن موسى هو

(١) بموسى: ويقصد بها في عهد موسى.

الذي خرق البحر إلى تونس، وبنى دار الصناعة وصنع بها مائة مركب وغزا صقلية. وبعث ولده مروان إلى السوس الأقصى في خمسة آلاف فارس فغنم منه ما لا يبلغ الحصر. قيل إن السبي بلغ أربعين ألفاً. وبلغ موسى إلى ما لا يبلغه غيره إلى البحر المحيط، ورأى عجائب يقصر عنها الوصف وهي مدونة في غير هذا الموضع يطول شرحها لمن تتبعها ورأى ما لم يره غيره.

وبعث إلى الأندلس طريفاً مولاه ولقبه أبو زرعة في سنة إحدى وتسعين، وبلغ إلى جزيرة طريف وبه سميت إلى الآن.

وفي سنة اثنتين وتسعين بعث مولاه طارقاً إلى الأندلس، وكان عامله على طنجة وأعانه على الدخول إليها إليان صاحب طنجة وقيل صاحب سبتة وقيل إليان وصل إلى القيروان مستنجداً بموسى بن نصير لأمر حدث عنده من قبل ردريق ملك الأندلس وهون على موسى فتح بلاد الأندلس، وأن موسى كتب إلى طارق يأمره بالمسير إلى الأندلس. وكانت دار الملك بها مدينة طليطلة، وركب طارق في البحر ونزل في جبل الطار هكذا اسمه في زماننا هذا، وإنما اسمه جبل طارق لأنه سمي به وأعانه إليان صاحب الجزيرة الخضراء من عمل طنجة وشرحه يطول ذكر ذلك صاحب كتاب المغرب، وفي الاكتفاء لابن الكردبوس، والطبري وصاحب المختصر وغير واحد من أهل السير والعمدة عليهم.

ولما حل طارق بجبل طارق وسمع به ردريق ملك الأندلس حشد جيشه وجمع جموعه وأتى إلى طارق فالتقى معه وكانت أيام القتال بينهم ثمانية أيام فهزم الله الكافرين ومنح النصر للمسلمين. وكان مع طارق اثنى عشر ألفاً وعسكر الروم شيء عظيم وأصاب المسلمون من السبي ما لا حد له من الذهب والفضة والجوهر، حتى إن الرجل منهم إذا ضلعت دابته وجد في حافرها مسمارا من ذهب أو فضة أو حصبات من جوهر وهذا شيء لم يسمع بمثله. وفتح اشبيلية وقرمونة وشذونة ومورور واستجه وقرطبة وطليطلة وباجة وماردة وسرقسطة وأكثر بلاد الأندلس.

ولما سمع موسى بن نصير بهذا الفتح أحب أن يكون شريكاً معه، فاستخلف ابنه عبد الله على إفريقية وشخص بنفسه، وذلك في سنة ثلاث وتسعين، وكان في عشرة آلاف فارس. فسار على غير الطريق التي سلك عليها طارق وفتح في طريقه عدة مدن أخر. وغزا موسى من طليطلة إلى الجلالقة فطلبوا الأمان من موسى، وسار على سرقسطة مسيرة عشرين يوماً وبين سرقسطة وقرطبة مسيرة شهر. وكانت إقامته بالأندلس عشرين شهراً، وخرج عن الأندلس وقدم إلى الوليد كتاباً يقول فيه: - يا أمير المؤمنين إنه الحشر وليس بالفتح - وأقبل بمائة عجلة وثلاثين عجلة مملوءة بالذهب والفضة واللؤلؤ وآيات لا يعلم قيمتها إلا الله ومن ابناء الملوك والأسرى ما يقرب من ثمانين ألف أسير، والمائدة التي كانت لسليمان بن داوود عليه السلام وأتى إفريقية سنة أربع وتسعين واستخلف ولده عبد الله على إفريقية وعلى الأندلس ولد عبد العزيز. وأقبل يجر الدنيا خلفه ووصل إلى مصر سنة خمس وتسعين ورحل إلى الشام فوجد الوليد في شكايته التي مات فيها.

وبعث إليه سليمان أخوه يامره أن لا يدخل في أيام الوليد لأنه كان ولي العهد فخالفه موسى ودخل دمشق والوليد في مرضه، فلما ولي سليمان الخلافة حقد على موسى بن نصير وصادره بمائتي ألف دينار[1] وحج سليمان ومعه موسى، فمات في تلك السنة بعد ما طلب في مصادرته في أحياء العرب وقاسى كرباً حتى إن خادمه هم بالهروب عنه لما قلق منه، فلما رأى موسى ذلك دعا الله أن يقبضه، فأصبح ميتاً، رحمة الله تعالى عليه وكان مجاب الدعوة. فسبحان المعز المذل بعد ما ملك ما لم يملكه غيره وحاز نصف المعمور من الدنيا لم يمت حتى احتاج إلى السؤال في أقرب مدة ومات في مصادرته رحمة الله عليه. وإنما أطلت الكلام هنا لأن غالب أهل بلدنا ليس لهم اعتناء بالأخبار، فإذا نظر أحد في هذه الأوراق علم أن إفريقية لها صيت في كل زمان، وأن هذه البلاد كلها فتحت على

---

(١) بل أضعاف أضعافها انظر الإمامة والسياسة لابن قتيبة.

يد عمال إفريقية. وكانت دار الإمارة بالقيروان. ومنها فتحت صقلية أيضاً في آخر المائة الثالثة كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وموسى بن نصير هذا من التابعين يروي عن تميم الداري رضي الله تعالى عنه. وكان عاقلاً كريماً شجاعاً لم يهزم له جيش قط ذكره ابن خلكان وأثنى عليه بزيادة ثناء. ونقل عن الليث بن سعد أنه قال: بلغ الخمس وستين ألف رأس في غزوة إفريقية على يد موسى بن نصير وأنه وجه ولده عبد الله فأتاه بمائة ألف رأس من السبايا، ووجه ولده مروان إلى ناحية أخرى فأتاه بمثلها.

وقال الصدفي لم يسمع بمثل سبايا موسى بن نصير في الإسلام، واستصحب عند قدومه إلى الوليد سبعة وعشرين تاجاً[1]، مكللة بالدر والياقوت، تيجان ملوك الأندلس اليونانيين، ومن الرقيق ثلاثون ألف رأس وقيل إن الوليد بن عبد الملك هو الذي نقم عليه وأقامه في الشمس يوماً كاملاً حتى خر مغشياً عليه. والأصح أنه صادره سليمان بن عبد الملك وحج معه في سنة تسع وتسعين وقيل سبع وتسعين ومات في الطريق بوادي القرى والله أعلم. ذكره المسعودي وابن خلكان وغالب المؤرخين بأبسط من هذا. وكانت ولايته بإفريقية ست عشرة سنة ومات وله من العمر ثلاث وسبعون سنة.

ولما ولي سليمان بن عبد الملك الخلافة سنة ست وتسعين عزل عبد العزيز بن موسى بن نصير عن الأندلس. وقيل عبد العزيز هذا كان أخا موسى بن نصير. وبعث إليها الشيخ ابن مالك. وكانت ولاية عبد العزيز على الأندلس سنة. وبعث إلى إفريقية عبد الله بن كريز وأقام بإفريقية إلى أيام أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه. وعبد الله بن كريز هذا هو القائل: كنت عامل إفريقية في أيام عمر بن عبد العزيز فشكوت إليه الهوام والعقارب التي بإفريقية فكتب إلي وما على أحدكم إذا أمسى أن

---

(١) في بعض النسخ سبعة تيجان.

يقول: ﴿وما لنا ألّا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما أذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾[1] قلت: وعلى رأس المائة الأولى دانت له جميع إفريقة من برقة إلى السوس الأقصى، ولم تقم بعد قائمة للنصارى والبربر الذين بها. فمنهم من دخل في الإسلام ومنهم من ضربت عليه الجزية. وكانت بها عدة قرى عامرة بالكفر إلى بعد المائة الرابعة. وكانت الأساقفة تأتي من الإسكندرية من قبل البطريك الذي بها إلى نصارى إفريقية والآن طهر الله تعالى هذه البلاد من دنس الشرك ولله الحمد. وكانت الولاة في الزمن الأول سكناهم القيروان يبعثون بعمالهم إلى أقصى المغرب.

وفي أيام عمر بن عبد العزيز عزل عبد الله بن كريز الذي كان عاملاً لسليمان بن عبد الملك وبعث إلى الأندلس حذيفة بن الأحوص. وبعث لإفريقية محمد بن زيد الأنصارى فأقام بها إلى ولاية يزيد بن عبد الملك بن مروان، فعزله يزيد بن عبد الملك بن مروان وبعث إلى إفريقية يزيد بن أبي مسلم، الذي كان وزير الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان سجنه سليمان بن عبد الملك بن مروان وبقي في السجن أيام سليمان وأيام عمر بن عبد العزيز. فلما استخلف يزيد بن عبد الملك أطلقه من السجن وبعثه إلى إفريقية والياً عليها، فلما قدم إفريقية واجتمع بمحمد بن يزيد الأنصاري قال له يزيد: الحمد لله الذي مكنني منك والله لو حال القضاء بيني وبينك لسبقته إليك. وقيل كان بيده عنقود من العنب وأنه قال: والله لو سبقني ملك الموت عن أكل هذا العنقود لسبقته إليك. وأمر بتقييده وحطه في النطع فبينما هم في المحاورة إذ أقيمت صلاة المغرب، فقام يزيد ليصلي بالناس فلما سجد طعنه رجل فقتله وأشار إلى محمد بن يزيد أن سر في أمن الله، قال محمد: فسرت وأنا متعجب من صنع الله. ذكره ابن خلكان بأبسط من هذا. وذكره صاحب الفرج بعد الشدة. وقيل سبب قتل يزيد بن ابي مسلم انه أراد أن يسير في الناس بسيرة الحجاج فدسوا عليه من قتله. وقيل إن الذي قتله من الخوارج.

---

(١) الآية ١٢، سورة إبراهيم.

وقيل إن أهل إفريقية كتبوا إلى أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك: ـ أنا لم نخلع لك طاعة وإنما عاملك سار فينا بالجور فقتلناه ـ. فرد عليهم محمد بن يزيد الأنصاري وصرفه ببشر بن صفوان الكلبي. وبعث إلى الأندلس عقبة بن الحجاج وأقام بشر بن صفوان الكلبي بإفريقية إلى سنة خمس ومائة. فقفل من إفريقية بهدية عظيمة إلى يزيد بن عبد الملك فبلغه في الطريق وفاة يزيد فأقبل بهديته إلى هشام بن عبد الملك فرده إلى عمله بإفريقية فلم يزل بها إلى أن مات في سنة تسع ومائة. واستخلف بشر على إفريقية ابن قرط الكلبي فعاث بها.

ولما بلغ خبره إلى هشام عزله وولى مكانه عبيدة بن عبد الرحمن القيسي، وذلك في صفر سنة عشر ومائة فلما قدم عبيدة إلى إفريقية بعث المستنير بن الحارث غازياً إلى صقلية فأصابتهم ريح فاغرقتهم وسلم المركب الذي به المستنير والقته الريح إلى طرابلس. فكتب عبيدة إلى عامله بطرابلس يأمره بإمساك المستنير وأن يشد وثاقه ويرسله إليه، ففعل به ذلك وأرسله إلى القيروان فلما وصل إلى عبيدة جلده وطيف به في القيروان وألقاه في السجن. وإنما انتقم من المستنير لأنه أقام بأرض الروم حتى دخل الشتاء واشتدت عليه أمواج البحر حتى عطبت المراكب، ولم يزل محبوساً إلى ولاية عبيد الله بن الحبحاب فأطلقه ابن الحبحاب وبعثه إلى تونس كما مر في أول الكتاب وسيأتي بقية خبره إن شاء الله.

قلت وهذا ينافي ما تقدم من أن عبيد الله بن الحبحاب هو الذي بنى دار الصناعة بتونس ـ ودار الصناعة عبارة عن المكان الذي ينشأ به المراكب لأن المراكب غزت بحر تونس من قبل أن يتولى عليها ابن الحبحاب بزمن طويل ـ ويؤيد قول من قال: إن الذي بنى دار الصناعة هو حسان بن النعمان أو من قال: إن موسى بن نصير هو أول من غزا في بحر تونس أو غيره. وابن الشماع صح عنده أن الباني لدار الصناعة عبيد الله بن الحبحاب والعقل والنقل يشهدان بخلاف ذلك والله أعلم وسيأتي بمزيد إيضاح.

ولم يزل عبيدة بن عبد الرحمن القيسي إلى سنة عشر ومائة فقفل

إلى المشرق وقدم على هشام من إفريقية ومعه هدايا كثيرة. وكان في ما قدم به من العبيد والإماء والجواري المتخيرة سبعمائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والأواني من الفضة والذهب، فقدم على هشام بهداياه واستعفاه فأعفاه، وكان خلف على إفريقية عقبة بن قدامة التجيبي.

الخبر عن ولاية ابن الحبحاب

فكتب هشام إلى عبيد الله بن الحبحاب وكان عامله على مصر فأمره بالمسير إلى إفريقية وولاه إياها وذلك في ربيع الآخر سنة عشر ومائة، فاستخلف ولده على مصر وقدم إلى إفريقية فاستخرج المستنير من السجن وولاه تونس. وبعث حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع إلى السوس وأرض السودان فغنم مغنماً لم ير مثله وأصاب ذهباً كثيراً وكان في ما أصاب جاريتان من جنس تسميه البربر أجان ليس لكل واحدة منهما إلا ثدي واحد. ووجه خالد بن أبي حبيب الفهري إلى البربر بطنجة ومعه وجوه أهل إفريقية من قريش ومن الأنصار، فقتل خالد ومن معه ولم ينج منهم أحد فسميت غزوة الأشراف، وقفل عبيد الله بن الحبحاب إلى هشام في جمادي الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة. ذكره صاحب كتاب الاكتفاء ابن الكردبوس.

ونقل ابن الشباط أن عبيد الله بن الحبحاب أرسل حبيب بن أبي عبيدة في البحر غازياً إلى صقلية في سنة اثنتين وعشرين ومائة، فظفر ظفراً لم يرَ مثله ونزل على سرقوسة وهي أعظم مدنهم بصقلية، فقاتلهم وقاتلوه حتى ضرب بابها بالسيف فأثر فيه فهابته النصارى فأذعنوا بأداء الجزية فأخذها منهم ورجع سالماً إلى عبيد الله بن الحبحاب. وكان ابن الحبحاب رئيساً نبيلاً جليلاً وكاتباً بليغاً حافظاً لأيام العرب وهو الذي بنى الجامع بتونس ودار الصناعة سنة أربع عشرة ومائة كما تقدم، كذا نقل ابن الشباط وذكر عن غيره أن ولايته كانت سنة عشرة ومائة، وقفل إلى المشرق في جمادي الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائة والله أعلم.

الخبر عن ولاية كلثوم بن عياض القيسي

قال صاحب الاكتفاء: وفي جمادى الثانية من سنة ثلاث وعشرين ومائة وجه هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض القيسي إلى إفريقية فلما قدمها غزا إلى طنجة فقتله البربر هنالك ولم يذكر وفاته وإنما ذكر ذلك إجمالاً لا تفصيلاً، ولم أطلع على خبره في غيره ولعل صاحب تاريخ القيروان ذكره بأبسط من هذا، وإني متشوق إلى رؤية هذا التاريخ ولم أتصل به ولعل ما ذكرته في هذا المجموع هو موجود في تاريخ القيروان بزيادة إيضاح وما جمعت هذا القدر اليسير إلا من غيره ولي العذر فيما جمعته من تشتت البال وترادف المحن والأهوال ومن ضيق الوقت وكثرة المقت وقلة الاطلاع وقصر الباع وقلة المساعد وكثرة الناقد والله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الخبر عن ولاية حنظلة بن صفوان

قال ابن الكردبوس: ولما سمع هشام بن عبد الملك بوفاة كلثوم بن عياض أرسل إلى إفريقية حنظلة بن صفوان في صفر سنة أربع وعشرين ومائة فأقام بها إلى أيام مروان بن محمد.

وفي أيام هشام بن عبد الملك عزل عقبة بن الحجاج عن الأندلس وولى مكانه الحسام بن ضرار الكلبي، فأقام والياً بالأندلس تسعة أعوام وهو الذي جَهَّز إليها من أهل الشام عشرة آلاف رجل وهزم بهم ابن يفرن الزناتي إذ كان قام بها عنيه فظفر به وصلبه وصلب عن يمينه كلباً وعن يساره خنزيراً وخلفه قرداً وأمامه دباً وأسكن أهل دمشق البيرة وأهل فلسطين شذونة وأهل الأردن وشقة وأهل قنسرين حيان وأهل مصر باجة وأهل حمص إشبيلية وبهم سميت إشبيلية حمص، ومات بها في أيام هشام فولى عوضه الهيثم بن الكلبي وما ذكرت هذه النبذه إلا لأبين أن الأندلس كانت من تحت أيدي ولاة إفريقية ومنها فتحت والمزية لإفريقية عما سواها من بلاد المغرب وكل بلد بالمغرب كانت تحت أيدي البلاد الإفريقية، ولم تزل الولاة تتردد إليها من أيام الفتح من قبل الخلفاء الأمويين إلى أيام هشام بن عبد الملك.

ولما توفي هشام سنة خمس وعشرين ومائة في ربيع الآخر وكانت خلافته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام قام بالأمر بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك في اليوم الثاني من موت هشام. وكان يحب اللهو والصيد وأظهر الملاهي وانهمك في شرب الخمر وجاهر بالكبائر وعم الجور في أيامه حتى كاد يقال فيه جبار بني أمية ومثالبه مذكورة في غير موضع، وقام عليه يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم فبعث إليه الوليد جيشاً فقتل يحيى في تلك الحروب وجيء برأسه إلى الوليد وصلبت جثة يزيد ولم يزل مصلوباً إلى أيام أبي مسلم.

والوليد هو الذي قرأ في المصحف قوله تعالى ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾[1] فنصبه للنشاب وجعل يقول:

تهددني بجبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

فلم تطل أيامه حتى عاجله القدر وقام عليه ابن عمه يزيد بن الوليد فلم يترك له عيناً ولا أثراً وقطع راسه وحمله إلى دمشق وكانت خلافته سنة وشهرين، وقام بالأمر بعد الوليد المذكور ابن عمه يزيد.

الخبر عن ولاية يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

بويع بعد موت ابن عمه الوليد في جمادي الأخرة سنة ست وعشرين ومائة ويسمى يزيد الناقص. وقام عليه مروان بن محمد بن مروان بن الحكم غضباً لما فعله يزيد بالوليد. ولما دخل دمشق فر يزيد فظفر به مروان بن محمد فقتله وصلبه وكانت خلافته ستة أشهر. وقام بالأمر بعده أخوه إبراهيم.

الخبر عن ولاية إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

بويع في اليوم الذي مات فيه أخوه، فلم تطل أيامه ولم يكن له في

(١) الآية ١٥، سورة إبراهيم.

دولته إقبال، فكانوا تارة يسمونه بأمير المؤمنين وتارة بالأمير فقط، وقام عليه مروان بن محمد وسار إليه في سبعين ألفاً. وبعث إبراهيم إليه سليمان بن هشام في مائة ألف فاقتتلوا بغوطة دمشق فظهر عليهم مروان وقتل منهم خلقاً كثيراً ودخل دمشق. وخلع إبراهيم نفسه وكانت خلافته شهرين وبعد شهرين من خلعه قتله مروان بن محمد واستقل بالأمر بعده.

الخبر عن ولاية مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن أخي عبد الملك بن مروان

بويع في صفر سنة سبع وعشرين ومائة ولقبه مروان الحمار ومروان الجعدي. ولما ولي الخلافة نبش قبر الوليد وأخرجه وصلبه وعزل عبد الملك بن قطن عن الأندلس وقدم عليها ثوابة بن نعيم الأنصاري فأقام والياً بالأندلس أربع سنين إلى أن ظهرت الدولة العباسية فبقي الأمر بالأندلس سدى، واتفق رأيهم على أن يقدموا يوسف بن عبد الرحمن الفهري، فأقام والياً عشر سنين إلى أن دخل إليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان كما سيأتي إن شاء الله.

ولنرجع إلى ذكر مروان الجعدي. وفي أيام خلافته خالفت عليه حمص ففتحها وهدم سورها ولم يزل في تشتيت من أمره واضطراب النواحي وهو في ذلك يقيم الحج إلى سنة ثلاثين ومائة، وقام أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العباس سنة تسع وعشرين ومائة. وكانت حروب كثيرة بينهم، وفر مروان بن محمد وتبعه جيش بني العباس إلى قرية من قرى الصعيد يقال لها ـ أبو صبر ـ سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وكانت خلافته خمس سنين وعشرة أشهر وبه انقرضت دولة بني أمية من المشرق وظهرت دولة بني العباس. وكانت أيام بني أمية ألف شهر.

ولما دانت لبني العباس بلاد المشرق قتلوا من وجدوه من بني أمية إلا من استخفى منهم أو من كان دخل إلى بلاد المغرب. ومن الذين دخلوا المغرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان

بن الحكم. دخل بلاد الأندلس سنة تسع وثلاثين ومائة، فوجد أحوال الأندلس غير مجتمعة ولم تصل إليهم ولاة من قبل الخليفة والناس فرق بين هاشم وأمية فاجتمع إلى عبد الرحمن كل من كانت في باطنه حرارة أو موجدة عن يوسف بن عمر الفهري، فانضاف إلى عبد الرحمن وقاسى بها عبد الرحمن خطوبا. وله بها وقائع مشهورة إلى أن دانت له البلاد. وقاتل الفهري وهزمه وقتله وملك مدينة قرطبة ودانت له البلاد وبقي ملكاً ثلاثاً وثلاثين سنة وتداولتها بنوه من بعده، ولم يخطب أحد منهم لبني العباس، ولم يدخل تحت طاعتهم إلى أيام عبد الرحمن الذي تلقب بالناصر لدين الله، وتسمى بأمير المؤمنين لما ظهرت بنو عبيد في إفريقية وتسموا بأمراء المؤمنين، تسمى عبد الرحمن بأمير المؤمنين. وقيل إن من تقدمه من آبائه كان يخطب لبني العباس وعبد الرحمن هذا الذي تلقب بالناصر هو ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي، توفي سنة خمسين وثلاثمائة. وكانت إمارته خمسين سنة ونصف سنة وعمره ثلاث وسبعون سنة. ولما مضت من إمارته سبع وعشرون سنة ورأى ضعف الخلافة بالعراق وظهور العلويين بإفريقية تسمى بأمير المؤمنين.

وتولى بعده ابنه الحكم وتلقب بالمستنصر وتوفي سنة ست وستين، وكانت إمارته خمس عشرة سنة وخمسة أشهر وعمره ثلاث وستون سنة وسبعة أشهر. وعهد إلى ولده هشام وعمره عشرة أعوام وتلقب بالمؤيد وهو الذي حجبه محمد بن عبد الله بن أبي عامر الملقب بالمنصور واستحكم على أمر المؤيد هشام وأمال إليه الجند، ولم يبق للمؤيد إلا الخطبة والسكة فدانت له ملوك الشرك وأنزلهم من صياصيهم وحكم على ملوكهم وجعلهم عمالاً له ودخلوا في طاعته.

وكان حازماً عاقلاً وأكثر الغزوات في بلاد الكفرة حتى أذلهم الله على يده وجعلهم ينقلون التراب من أقصى بلادهم إلى قرطبة وبنى بها الجامع وفعل بهم ما لم يفعله غيره ممن تقدمه، وكان يقال في حقه أنجب مولود ولد في الإسلام. ونقل ما في خزائن بيت المال وجعله تحت يده

وكان خراج الأندلس حصر في زمن عبد الرحمن الناصر فبلغ خمسة آلاف ألف دينار، فكان يجعل ثلثه في بيت المال والثلث للجند والثلث الباقي لبنائه وصلاته للشعراء والعلماء وغير ذلك. وما أطلت في هذا الفصل إلا لكون الأندلسية أصل افتتاحها من هذه البلاد ومتنت بناء الحكاية ليتصل بعضها ببعض وربما لم يخل هذا الموضع من فائدة وإن كانت في غير هذا أبسط من هذا، وليعلم الواقف على هذه النبذة أن إفريقية لها الشرف السابق بين بلاد المغرب، لأن الأندلسية فتحت منها في زمن الجاهلية وفي زمن الإسلام وكذلك الصقلية فتحت منها. وكانت عمالها من تحت عمال إفريقيّة مئات من الأعوام.

وكانت دار ملك بني الأغلب القيروان ثم قامت بها بنو عبيد الفواطم ثم تملكت عليها ملوك صنهاجة. وكان لهم ضخامة ملك وهم عمال للفواطم عندما رحلوا إلى بلاد المشرق. وكان حكم بني الأغلب ومن كان قبلهم من الأمراء ومن كان بعدهم من صنهاجة إلى حد السوس من بلاد المغرب، إلا ما خرج عن أيدي بني الأغلب عند تمكن الأدارسة من بلاد المغرب.

وكان أولهم إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وذلك بعد السبعين والمائة في أيام المهدي أمير المؤمنين العباسي، وإدريس بن إدريس هذا هو الذي بنى مدينة فاس، وبقية أخبارهم تأتي بعد إن شاء الله تعالى عند ذكر الخلفاء الذين كانوا بالمغرب وملوك لمتونة، وبني عبد المؤمن الذين يقال لهم دولة الموحدين لكي يرتبط النظام بدولة بني حفص ومن بعدهم إن شاء الله من الأمراء الذين كان استيلاؤهم بتونس، وكيف تنقل الأمر من حال إلى حال والله هو المتصرف في البلاد والعباد لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ولما آل الغرض إلى هنا نذكر الآن من دخل إفريقية من أمراء بني العباس ونسرد أسماؤهم على الولاء من غير إطناب إلا ما تمس الحاجة بنا إليه، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

ذكر الولاة من قبل العبابسة

ولما كان قيام بني العباس بالمشرق وتشتت جمع بني أمية وكثرت الفتن بإفريقية واشتغل بنو العباس بتمهيد البلاد في المشرق وهاجت فتن الخوارج بالمغرب، قام أبو الخطاب رأس الخوارج بإفريقية وكثر ضررهم واشتدت شوكتهم، فأرسل أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعب بن عقبة الخزاعي سنة أربع وأربعين.

وقال ابن نباتة: الذي بعث محمد بن الأشعث أمير المؤمنين عبد الله السفاح سنة ثلاث وثلاثين ومائة والقول الأول أصح. فحارب الخوارج وقتل أبا الخطاب وشرد الصفوية وبددهم وبنى سور القيروان من الطوب سعته عشرة أذرع وذلك في ربيع الأول من السنة المذكورة وكمل في رجب الفرد الأصب سنة ست وأربعين وهو أول قائد للمسودة، والمسودة كناية لبني العباس لأن شعارهم السواد، وكانوا يلبسون السواد وكانت أعلامهم سوداء لأنهم خرجوا طالبين لدم الحسين وزيد رضي الله تعالى عنهما فجعلوا شعارهم السواد.

عمر بن حفص بن أبي صفرة

فمنهم عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخو المهلب بن أبي صفرة المشهور لنباهته ذكره ولقبه هزار مرد، معناه ألف رجل بالفارسية لغة فارس، وما لقب بهذا إلا لشجاعته، كان يقوم مقام ألف فارس في الحرب وكان بطلاً شجاعاً أولاه المنصور أمير المؤمنين واسمه عبد الله المنصور أخو أمير المؤمنين عبد الله السفاح ولي الخلافة سنة ست وثلاثين ومائة وكنيته أبو جعفر، وكان مقدماً لعمر بن حفص ولاه ولايات منها البصرة والسند وغيرهما وسيره إلى إفريقية سنة إحدى وخمسين ومائة ومعه خمسمائة فارس، واجتمع إليه وجوه أهل القيروان فواصلهم وأحسن إليهم وأقام الأمور المستقيمة ثلاث سنين وأشهراً، ثم سار إلى الزاب وبنى مدينة طبنة وذلك بعد أن ورد عليه كتاب المنصور، وقتلته الخوارج بإفريقية.

الأمير يزيد بن حاتم بن أبي صفرة

ومنهم الأمير يزيد بن حاتم بن أبي قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة دخل إفريقية سنة خمس وخمسين ومائة من قبل المنصور وكان معه خمسون ألفاً من العسكر، فقتل الخوارج الذين قتلوا عمر بن حفص المتقدم ذكره، ومهد البلاد ودانت له العصاة ودخل القيروان لعشر بقين من جمادي الأخيرة من السنة المذكورة ورتب أمر القيروان وجعل كل صناعة في مكانها، وكان جواداً مشهوراً وحكى عنه سحنون أنه كان يقول والله الذي لا إله إلا هو ما هبت شيئاً قط كهيبة رجل واحد يزعم أني ظلمته وأنا أعلم أنه لا راحم له إلا الله يقول: بيني وبينك الله. وهدم جامع القيروان ما عدا المحراب وبناه واشترى العمود الأخضر بمال جزيل. وكان جواداً سرياً يعد من الكرماء. ولما رحل عن العراق كان في صحبته يزيد السلمي عامل مصر فكان يزيد بن حاتم ينفق على الجيش من عنده وهذا غاية الكرم. وقصده جماعة من الشعراء فأحسن إليهم وقصده مروان بن أبي حفصة الشاعر فأنشده هذين البيتين:

إليك قصرنا النصف من صلواتنا ... مسيرة شهر ثم شهر تواصله
فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا ... لديك ولكن أهنأ البر عاجله

فأمر للجند بعطاياهم وقال: من أحبني يعطي هذا الشاعر درهماً. فحصل له خمسون ألف درهم وزاده من عنده خمسين ألفاً فرجع الشاعر بمائة ألف درهم في بيتين.

قلت: أنظر أيها المتأمل إلى نفاذ سوق الأدب في ذلك العصر وقلة نفاذه في زماننا هذا، حتى إن الشاعر في هذا الزمان ربما جهد جهده في قدح إنسان ويود أن يحصل له من الممدوح السماع فضلاً عن الجائزة فلا يحصل على شيء وكفى بمن يبخل بسمعه والأمر لله.

وكانت ولاية يزيد خمس عشرة سنة، ومات بالقيروان سنة سبعين،

واستخلف ولده من بعده، فعزله أمير المؤمنين هارون الرشيد بأخيه روح بن حاتم، رحم الله تعالى الجميع.

الأمير روح بن حاتم

والأمير روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن ابي صفرة الأزدي أخو يزيد بن حاتم المقدم ذكره كان عالي الهمة والي الولايات الكبار لخمسة من الخلفاء - السفاح - والمنصور - والمهدي - والهادي - والرشيد - ودخل إفريقية سنة إحدى وسبعين بعد موت أخيه يزيد وأقام بها أربع سنين.

ومن الاتفاق الغريب أنه كان والياً على السند وأخوه يزيد على المغرب، فلما مات أخوه يزيد كان الناس يقولون ما أبعد قبري هذين الأخوين أحدهما بإفريقية والآخر بالسند. فاتفق أن الرشيد عزله عن ولاية السند وبعثه إلى إفريقية فمات بها في شهر رمضان سنة أربع وسبعين ومائة ودفن مع أخيه في قبر واحد ولله عاقبة الأمور.

وفي أيامه ظهرت دولة الأدارسة بالمغرب، وبويع الإمام إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب بمدينة وليلى يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائة، واستفحل أمره بتلك البلاد وسيأتي بقية من خبره إن شاء الله تعالى.

الأمير هرثمة الهاشمي

ومنهم الأمير هرثمة بن أعين الهاشمي، ولاه أمير المؤمنين هارون الرشيد إفريقية سنة تسع وسبعين، وقدم إلى إفريقية يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الآخر من السنة المذكورة، وأقام بها إلى سنة ثمانين. وفيها بنى بلد المنستير قاله ابن خلكان. ونقل ابن الشباط أنه بنى القصر الكبير بالمنستير سنة ثمانين على يد زكريا بن قادم. وبنى سور مدينة طرابلس وأمن الناس في أيامه. وقفل إلى المشرق في رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة بعد ما كتب إلى الرشيد يستعفيه عن الولاية لما رآه من

الخلاف فأعفاه الرشيد. وكتب إليه بالقدوم إلى المشرق وعاش إلى أيام أمير المؤمنين المأمون وكان يعتمد عليه في الأمور العظام. وفي سنة مائتين حقد عليه وحبسه ثم أرسل إليه من قتله في السجن رحمه الله. وكان من أكبر قواد المأمون ممن عاضد طاهر الحسين في محاربة الأمين.

إبراهيم بـن الأغلب

ومنهم إبراهيم بن الأغلب كان سنة أربع وثمانين ومائة من قبل هارون الرشيد، وقيل خمس وثمانين وهو الذي بنى مدينة القصر على ثلاثة أميال من القيروان. وهدم دار الإمارة التي كانت بالقيروان قبلي الجامع، وانتقل إلى القصر وجعله دار الإمارة وعمرت بإزائه مدينة القصر وصار بها أسواق وحمامات وفنادق وجامع وذلك في سنة أربع وثمانين ومائة ومات سنة خمس وثمانين ومائة.

زيادة الله بن إبراهيم بن الأغذب

ومنهم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، استقل بالأمر في سنة إحدى ومائتين وأقام في الولاية إلى سنة ثلاث وعشرين ومائتين.

وقام عليه منصور الطبنذي وحاصره اثنتي عشرة سنة ونسبه أهل القيروان إلى الجور وآخر الأمر انتصر على الطبنذي وهزمه. وكان الطبنذي قام مع جماعة من الجند وملك مدينة القيروان وإفريقية، وكانت بينهما وقعات وفي آخر الأمر انهزم منصور الطبنذي وفتح الله عز وجل لزيادة الله، وعاد إليه ملك إفريقية وهو الذي سور مدينة القيروان وحضر الجامع بها وأنفق عليه ستة وثمانين ألف دينار بعدما هدمه ما عدا المحراب. وبنى سور مدينة سوسة أيضاً.

وفي أيامه بعث إلى صقلية أسد بن الفرات وكان قاضيه بالقيروان ومعه من الجيش نحو عشرة آلاف، فركب البحر من سوسه وسار إلى صقلية والتقى بصاحبها بلاطة. ويقال إنه كان في مائة ألف وخمسين ألفاً، فهزم

الله الكافرين وغنم المسلمون أموالهم وبددوا شملهم واستفتحوا من صقلية مواضع كثيرة. وتوفي اسد بن الفرات وهو محاصر لسرقوسة في ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة ومائتين ودفن هنالك، وسكنها المسلمون واستوطنوها ما شاء الله، وتداولت عليها الولاة من قبل القيروانيين. وكان محمد بن عبد الله ابن الأغلب والياً على صقلية سنة ثمان عشرة ومائتين ومات سنة سبع وثلاثين، وفتح فيها فتوحات عظيمة، وكان مقامه في بليوم لم يخرج منها وإنما يبعث سراياه ومدة إمارته تسع عشرة سنة إلى أن أخذها منهم العدو، وذلك بعد الأربعين وخمسمائة، وسيأتي بقية خبرهم فيما بعد إن شاء الله. وتوفي زيادة الله سنة ثلاث وعشرين ومائتين رحمة الله عليه.

الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب

ومنهم أبو عقال اسمه الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب أخو زيادة الله المتقدم ذكره، وتوفي أبو عقال سنة ست وعشرين ومائتين رحمة الله عليه.

أحمد بن إبراهيم بن الأغلب

ومنهم أبو العباس أحمد بن إبراهيم، وكان في زمانه سحنون بن سعيد، وفي أيامه منع سحنون أهل الأهواء من المسجد الجامع، وكانوا قبل ذلك يجتمعون فيه ويتظاهرون بمذاهبهم مثل: الإباضية والصفرية والمعتزلة فمنعهم سحنون من الاجتماع.

وكان عامله بصقلية ابن عمه محمد بن عبد الله بن الأغلب المتقدم ذكره، ومات بها سنة سبع وثلاثين ومائة.

وتولى بعده العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزاره، وسيأتي بعد إن شاء الله تعالى.

محمد بن إبراهيم بن محمد بن الأغلب

ومنهم محمد بن إبراهيم بن محمد بن الأغلب، وكان في سنة

أربعين ومائتين. وفي أيامه عصى أهل تونس عليه فغار عليهم وسبى منهم خلقاً كثيراً وله واقعة مشهورة مع الإمام سحنون في رد المسبيات ومنع بعض أمرائه من التصرف فيهن واستخرجهن من داره. وبعث الأمير محمد إلى سحنون في ردهن فأقسم لا يردهن ما دام قاضياً إلا أن يرفع يده عن القضاء فكف عنه، رحم الله الجميع.

وفي أيامه فتح العباس بن الفضل بن يعقوب بن فزارة مدينة بانة من صقلية وبنى بها مسجداً وصلى فيه الجمعة وهي دار الملك عندهم، وكان الملك قبل ذلك يسكن سرقوسة، وتوفي بها سنة سبع وأربعين ومائتين وتولى بعده ولده عبد الله بن العباس أميراً على الجزيرة.

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن الأغلب

ومنهم إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن الأغلب، قام بالأمر بعد أبيه ومات في سنة تسع وأربعين ومائتين.

زيادة الله بن الأغلب

ومنهم زيادة الله بن محمد بن إبراهيم بن الأغلب، قام بالأمر بعد أخيه وكانت ولايته عاماً وستة أشهر وتوفي سنة إحدى وخمسين ومائتين.

أبو عبد الله بن الأغلب

ومنهم ابن أخيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن الأغلب، تولى بعد عمه زيادة الله سنة إحدى وخمسين ومائتين في جمادي الأولى، وكانت إمارته عشر سنين وخمسة أشهر ومات سنة إحدى وستين ومائتين

وكان عامله على صقلية خفاجة بن سفيان أرسله من إفريقية فغزا فيها عدة غزوات، وفتح فتوحات عظيمة ولم يزل بها إلى أن اغتاله رجل من عسكره فقتله وفر إلى العدو وأقام الناس ابنه محمد بن خفاجة وأرسل إليه الأمير محمد فأقره على عمله، ولم يزل إلى سنة سبع وخمسين ومائتين

فقتله خدمه الخصيان واستعمل بعده الأمير محمد الأغلبي على الجزيرة أحمد بن يعقوب. ومات الأمير محمد سنة إحدى وستين ومائتين.

أحمد بن الأغلب

ومنهم الأمير أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الأغلب، قام بالأمر بعد أبيه وهو الذي بنى جامع القيروان وجامع تونس وله واقعة مشهورة.

إبراهيم بن أحمد بن الأغلب

ومنهم الأمير إبراهيم بن أحمد بن محمد الذي بنى مدينة رقادة وانتقل إليها، وابتدأ بناءها سنة ثلاث وستين ومائتين فكملت سنة أربع وستين وسكنها واتخذها داراً لملكه. وكان يكثر الإقامة بتونس وكان ذا فطنة عظيمة وصاحب معروف وطالت مدته وكانت ولايته سنة إحدى وستين ومائتين، وبعث الى صقلية الحسن بن العباس عاملاً عليها فبعث الحسن سراياه وفتح أماكن مشهورة ودانت له البلاد وصلح حالها في أيامه، وانتقل من إفريقية إلى صقلية بعد ما استخلف ولده أبا العباس أحمد وجاهد في الله حق جهاده: وفتح الفتوحات العظيمة وتوفي بالدرب وحمل إلى القيروان سنة تسع وثمانين ومائتين وتصدق بجميع ماله رحمة الله تعالى عليه. وكانت إمارته ثماني وعشرين سنة. وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعي بأرض كتامة يدعو إلى آل البيت وسيأتي بقية خبره.

أبو العباس أحمد بن إبراهيم

ومنهم الأمير أبو العباس أحمد بن إبراهيم المتقدم ذكره، استخلفه أبوه على إفريقية عند مسيره إلى صقلية وأقام بها بعد وفاة والده إلى أن توفي سنة ثمان وثمانين ومئتين وقام بالأمر بعده ولده عبد الله بن أحمد.

عبد الله بن أحمد بن الأغلب

ومنهم الأمير عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن محمد،

وكان حسن السيرة كثير العدل صاحب معروف وإحسان، انتقل إليه الأمر بعد أبيه سنة ثمان وثمانين وكانت إقامته بتونس وقيل سنة تسع وثمانين ومات بتونس سنة خمس وتسعين مقتولاً، قتله ثلاثة من الصقالبة باتفاق من ابنه زيادة الله لأنه سجنه بسبب شربه الخمر فاتفق معهم على قتل أبيه فقتلوه وأحضروا رأسه بين يدي زيادة الله ولده وهو في السجن فلما تولى زيادة الله أمر بقتلهم، فقتلوا وهو الذي كان أمر بذلك.

زيادة الله بن عبد الله بن الأغلب

ومنهم الأمير زيادة الله بن عبد الله بن أحمد، استقل بالأمر بعد أبيه ولما تم له الأمر انعكف على لذاته ولازم المضحكين وأهمل أحوال الرعية والمملكة وقتل من أعمامه وأهل بيته من قدر عليه، وفي أيامه استفحل أمر أبي عبد الله الشيعي القائم بدعوة الفاطميين بالمغرب. وأرسل زيادة الله عسكراً مع ابن عمه إبراهيم وقدره أربعون ألفاً فهزمهم أبو عبد الله الشيعي. ولما رأى زيادة الله هزيمة عسكره وضعفه عن مقاومته جمع ما قدر عليه من الأموال وخرج عن ملكه فاراً إلى المشرق، وذلك في خلافة المقتدر بالله العباسي، فوصل إلى مصر وبها النوشري عاملاً عليها. فكتب إلى المقتدر يخبره بزيادة الله ثم سار زيادة الله إلى أن بلغ الرقة فوافاه كتاب أمير المؤمنين بالعود إلى بلاده لقتال الشيعة ويأمر عامل مصر أن يمده بما يحتاج إليه من المال والرجال. فرجع إلى مصر فماطله العامل بها وزيادة الله في أثناء ذلك منعكف على لذاته واستماع الملاهي وشرب الخمر، فلما طال مقامه تفرق جمعه وفرت عنه أصحابه وتتابعت به الأمراض فتوجه إلى بيت المقدس لقصد الإقامة بها فمات بالرملة ودفن بها ولم يبق بالمغرب من بني الأغلب أحد.

وكانت مدة ملكهم مائة واثنتي عشرة سنة تقريباً. فسبحان من لا يزول ملكه ولا يفنى دوامه وتتصرف في العباد أحكامه يفعل في ملكه ما يشاء وهو على كل شيء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الرابع

في ذكر الدولة العبيدية
وابتداء أمرهم والقائم لإصلاح دولتهم

فأولهم أبو عبد الله الشيعي، واسمه الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا من أهل صنعاء وقيل من أهل الكوفة، أخذ أسرار الدعوة عن ابن حوشب وأرسله إلى المغرب، فقدم إلى مكة أيام الحج واجتمع بجماعة من المغاربة من أهل كتامة، وكان عندهم طرف من ذكر آل البيت فجلس إليهم وتحدث معهم وذكر لهم فضائل أهل البيت فأنسوا به وأعجبهم ومالوا إليه وسألوه عن قصده فاظهر لهم أنه يريد مصر لقصد التعليم فاستصحبوه معهم إلى مصر.

ولما آن رحيلهم أخذ يودعهم وقد عز عليهم فراقه فسألوه الصحبة معهم إلى بلادهم، إذا كان قصده التعليم والثواب فأجابهم لما طلبوه وقفل معهم إلى المغرب ولم يظهر لهم مراده وفي اثناء ذلك يسألهم عن خبر بلادهم وعشائرهم إلى أن أحاط بها خبرة. ولما وصلوا إلى بلادهم تنافسوا فيه وعند من تكون إقامته إلى أن كادت أن تكون بينهم فتنة. فعند ذلك سألهم عن فج الأخيار ولم يكن سألهم عنه قبل ذلك فعجبوا منه وقال: إذا

جئناه نأتي كل قبيلة منكم في مكانها فرضوا بذلك وكان اسمه عندهم أبا عبد الله المشرقي وقدم المغرب منتصف ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين وأتاه البربر من كل مكان وذلك في زمن إبراهيم بن أحمد الأغلبي. فلما سمع به استصغر أمره.

ثم مضى أبو عبد الله إلى تيهرت فملكها وأتته وفود البربر من كل فج، ولا زال في زيادة من أمره إلى أيام زيادة الله الأحول فبعث إليه عدة بعوث فهزمهم أبو عبد الله ولما رأى زيادة الله أبا عبد الله يتزايد أمره فر بأهله وماله إلى المشرق كما تقدم.

ولما اتصل الخبر بأبي عبد الله أن زيادة الله هرب وكان إذ ذاك في بلد سبيبة رحل عنها وقدم بين يديه عروبة بن يوسف بن أبي خنزير في ألف فارس، فأرسلهم إلى رقادة وأمرهم أن لا يتعرضوا لأحد بمكروه. فلما سمع أهل القيروان بذلك خرجوا إلى أبي عبد الله وهنأوه بالفتح ودخل رقادة يوم السبت أول رجب سنة ثلاث وتسعين ومئتين.

ولما حضرته الجمعة كتب كتاباً لخطيب رقادة وخطيب القيروان بما يقولان. ونقش على السكة من وجه ـ بلغت حجة الله ـ وعلى الوجه الآخر ـ تفرقت أعداء الله ـ ولما استقام له الأمر ومهد البلاد واجتمع بأخيه أبي العباس استخلفه وخرج من رقادة في أول رمضان من سنة ست وتسعين وتوجه إلى سجلماسة فاهتز له المغرب وخافته زناته وقبائل العرب والبربر والمخالفون له فطلبوا منه أمانا.

ولما قرب سجلماسة سمع به اليسع بن مدرار وكان عاملاً لبني الأغلب وكان زيادة الله كاتبه يخبره بخبر المهدي وهو إذ ذاك في بلده فبعث إلى المهدي وسأله عن حاله فأنكر وكان وصل إلى بلاده في زي التجار فتجاوز عنه، ولما بلغه الخبر عن أبي عبد الله الشيعي أمسك المهدي وسجنه فلما سمع أبو عبد الله بإمساكه للمهدي كاتب اليسع وتلطف إليه فلم يغن عنه شيئاً وخرج إليه اليسع فقابله ساعة من نهار

وانهزم فدخل أبو عبد الله البلد واستخرج المهدي وولده من السجن وقرب إليهما مراكب رائعة، فركبا ومشى أبو عبد الله ووجوه القبائل بين يدي المهدي وأبو عبد الله يبكي من الفرح ويقول هذا مولاي ومولاكم وأنزله في فسطاط أعد له ورحل أبو عبد الله في طلب اليسع فظفر به وقتله بعد ما طيف في العسكر وضرب بالسياط، وأقام المهدي في سجلماسة أربعين يوماً ثم نهض إلى إفريقية وكان دخوله إليها في أزيد من مائتي ألف فارس وراجل. وكان وصول المهدي إلى رقادة يوم الخميس لعشر بقين من ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومائتين ونزل بقصر من قصورها وفرق باقيها والدور على جميع الأجناد.

وكتب إلى جميع البلاد فأخذ البيعة وأمر الخطباء أن يذكروا اسمه على المنابر، واستبد بالأمر ودون الدواوين وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين.

وفي هذه السنة زالت دولة بني مدرار من سجلماسة الذين آخرهم اليسع بعد مائتين وستين سنة ودولة بني رستم من تيهرت بعد ثلاثين ومائة سنة ودولة بني الأغلب بعد مائة واثنتي عشرة سنة. والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن خلافة الإمام المهدي

هو أبو محمد عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، نقله ابن خلكان عن صاحب تاريخ القيروان. وقال ابن خلكان: وجدت في نسبه اختلافاً. قلت: وللناس مذاهب في نسبهم والله سبحانه وتعالى أعلم ومولده بسلمية وقيل ببغداد سنة ستين ومائتين، واستقل بالأمر سنة سبع وتسعين وكان جميلاً مهيباً جسيماً عالماً بكل فن، عارفاً بالسياسة والتدبير للمملكة ولما تم له الأمر باشر الأمور بنفسه وبعث العمال وجبى الأموال

واستعمل على صقلية أبا عبد الله الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي.

ولما استبد بالأمر داخل أبا العباس الحسد وأخذ في تغيير قلوب أهل الدولة وظهر الخبر والمهدي مسر لذلك إلى أن فشا بين الناس فنقم المهدي على أبي عبد الله وعلى أخيه أبي العباس فقتلهما سنة ثمان وتسعين ومائتين. وكان أبوعبد الله الشيعي يلبس الخشن من ثياب الصوف ويأكل الخشن من الطعام ويظهر الزهد والورع وهو الذي بنى أساس بيت الفواطم في مملكة المغرب، وكان كالباحث عن حتفه بظلفه.

واستقام الأمر للمهدي وعهد إلى ولده أبي القاسم محمد، ونفذت الكتب عنه بولي عهد المسلمين وعصت عليه صقلية فبعث إليها اسطولاً وفتحها وبعث إليها عاملاً من قبله.

وخالفت عليه طرابلس فبعث إليها جيشاً ففتحها واغرم أهلها ثلاثمائة ألف وأربعين ألف دينار.

وفي سنة ثلاثمائة خرج بنفسه إلى تونس وقرطاجنة يرتاد لنفسه موضعاً يمنعه لأن عنده خبراً برجل يخرج على دولته فوقع اختياره على المهدية فبناها وحصنها ولما مد الخيط على أول حجر من أساس البلد أمر رامياً فرمى بالقوس فانتهى السهم إلى موضع المصلى فقال ـ إلي هذا الموضع أي موضع السهم يبلغ صاحب الحمار ـ يعني أبا يزيد الخارجي. وأمر بقياس مسافة الرمية فبلغت مائتي وثلاث وثلاثين ذراعاً فقال: ـ هذا مقدار ما تقيم المهدية في أيدينا.

وبعث ولده ولي العهد إلى مصر فملك الإسكندرية والفيوم وحاربه عامل مصر فهزمه ورجع إلى المغرب ثم رجع أيضاً سنة سبع وثلاثمائة إلى المشرق فوقع الوباء في عسكره فكر راجعاً إلى المغرب. وفي سنة خمس عشرة خرج ولي العهد إلى المغرب وبلغ إلى تيهرت وأمر ببناء مدينة وسماها المحمدية وهي المسيلة، وأمر عامله أن يخزن من الأقوات بها ويستكثر منه.

ولما دانت له العباد وصفت البلاد عاجله حمامه ودنت أيامه وتوفي للنصف من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة عن ثلاث وستين سنة. وكانت خلافته خمساً وعشرين سنة رحمة الله عليه ودفن بالمهدية وبلغت دعوته من برقة إلى المغرب.

وفي أيامه انقرضت الفواطم الأدارسة عن المغرب ولم تكن لهم قوة بعد ذلك وبانت أعماله بفاس وأعمالها إلا مدينة سبتة كانت لبني أمية. وملك مدينة فاس سنة خمس وثلاثمائة على يد قائده مصالة وبايعه صاحبها وسيأتي إن شاء الله تعالى.

الخبر عن خلافة القائم بأمر الله أبي القاسم نزار

تولى بعهد من أبيه فقام واتبع سيرته وجهز أسطولاً وأمر عليه علي بن إسحاق فسبى مدينة جنوة وبعث ميسور الفتى في عسكر ضخم إلى المغرب فبلغ إلى مدينة فاس.

وفي أيامه ظهر أبو يزيد بن كيداد الخارجي. ولنذكر طرفاً من أخباره: هو أبو يزيد مخلد بن كيداد مولده ببلد السودان وأصل أبيه من مدينة توزر، وهو زناتي الأصل وأتى به أبوه إلى المغرب فتعلم القرآن العظيم وخالط جماعة من النكار فتعلم مذهبهم الخبيث.

وكان يعلم أولاد المسلمين وكانوا يتصدقون عليه. ومذهبه تكفير أهل السنة واستباحة أموالهم. وسكن تقيوس ولزم بها مسجداً يعلم الأطفال. فكان يلبس جبة صوف وعلى رأسه قلنسوة صوف وفي عنقة سبحة وكان يعتقد الخروج عن السلطان وصارت له جماعة يعظمونه ويسمعون منه وذلك في أيام المهدي، ولم يزل على ذلك إلى أن اشتدت شكيمته وقويت شوكته فنشر غاراته في بلاد البربر.

وفي أيام القائم عظم أمره وأفسد البلاد وحاصر باغاية وقسطيلية وفتح مجانة، وهنالك أهدي له حمار أشهب كان يركبه وبه دخل إفريقية ونهب

بلد الأربض ففر الناس إلى جامعها فقتلهم فيه، وافتض أصحابه فيه الأبكار وفعل بهم ما لا يفعله مسلم، وأرسل القائم جيشاً مع بشر الفتى لحراسة بلاد باجة فسمع به أبو يزيد فرحل إليه وجعل كل ما على مكان أفسده وسبي حريمه والتقى مع بشر فهزمه بشر أولاً وعاود معه القتال ثانياً فهزم بشراً وفر بشر إلى مدينة تونس ودخل أبو يزيد باجة بالسيف وأباحها ثلاثاً وحرق ديارها وسبى حريمها وعبث بالأطفال الرضع وفعل بأهلها العجائب فخافته جميع القبائل وأتوه طوعاً وكرهاً. وعمل الأخبية والبنود وبعث جيشاً إلى بشر وهو بتونس فخرج إليه بشر بالتونسيين وهزمه. ووقعت فتنة بتونس فكاتب أهل تونس أبا يزيد فامنعهم وولى عليهم رجلاً منهم ونزل أبو يزيد بفحص أبي صالح.

قلت هو الفحص المعلوم في زماننا قريب من بلد زغوان واقتتل مع الفتى بشر على هرقلة فانهزم عسكر أبي يزيد مرة أخرى وقتل منه أربعة آلاف رجل وأسر خمسمائة فانفذهم إلى المهدية فقتلوا هناك. ورجع أبو يزيد فجمع جموعاً أخر وانصرف إلى الحريرية بقرب القيروان فاقتتل مع طلائع الكتاميين فهزمهم إلى رقادة. ونزل أبو يزيد على أربعة أميال من القيروان ومن الغد نزل في شرقي رقادة في مائة ألف بين فارس وراجل وزحف إلى القيروان فاقتتل مع أهلها فهزمهم. وأتى أبو يزيد إلى ماجل باب تونس من القيروان وركن بنوده. ودخلت البربر إلى القيروان فنهبوا وأفسدوا. ونزل بعد ذلك في رقادة وخرج شيوخ القيروان وطلبوا منه الأمان فقال: ـ هلا طلبتم قبل اليوم ـ فاعتذروا له فماطلهم وعسكره مع ذلك ينهبون في البلاد ويقتلون. فسألوه ثانياً وقالوا له: قد خربت القيروان ـ فقال لهم: ـ وما عسى أن يكون خربت مكة وبيت المقدس مرتين ـ ثم أمنهم بعد ذلك وأتاه الخبر أن عسكراً قادم من نحو القائم فنادى في القيروان: ـ من تخلف عن الجهاد معي حل دمه وماله ـ فنفر معه خلق كثير والتقى مع عسكر القائم بعد ذلك فكادت الهزيمة أن تقع على أبي يزيد ثم انتصر وملك الأخبية والفازات وهزم عسكر القائم حتى بلغ المنهزمين المهدية فوجلت قلوب الناس إذ ذاك وانتقلوا من الربض إلى

المدينة، وأقام أبو يزيد في مقيطنته ثمانية وستين يوماً وهو يبعث سراياه إلى جميع بلاد إفريقية والحصون التي بها على البحر وأخذ جميع ما فيها من أقوات وسلاح.

وبعث جيشاً إلى بلد سوسة فدخلها بالسيف وحرق المنازل وسبى النساء ومثل بالناس بقطع الأيدي والأعضاء وشق فروج النساء وبقر بطونهن وفعل بأهل سوسة ما لا يفعله أعداء الدين ولم يبق بإفريقية منزل عامر. وفرت الناس إلى القيروان حفاة عراة ومات أكثر أهل إفريقية جوعاً وعطشاً ونهب مدينة تونس وأخذ منها اثني عشر ألف خابية زيتاً غير الأموال والعبيد وقد مر خبرها في أول الكتاب. ونهب من غيرها من البلاد ما لا يحصى وحمل ذلك البربر إلى بلادهم لأن عامة جنده بربر. وكتب إلى قبائل البربر يحثهم على الجهاد إلى المهدية.

وفي سنة ثلاثة وثلاثين وثلاثمائة أمر القائم بحفر خندق على أرباض المهدية. وانفذ الكتب إلى صنهاجة وكتامة يستفزهم إلى المهدية ويحرضهم على قتال أبي يزيد. ورحل أبو يزيد ونزل قريباً من المهدية ونهب ما حولها وخرج إليه جيش القائم واقتتلوا معه فهزمهم وسار أبو يزيد إلى الخندق المحدق بخاصته واقتتل مع الحراس الذين هنالك فهزمهم.

واقتحم أبو يزيد ومن معه البحر إلى أن وصل الماء صدور الدواب وجاوز السور وبلغ إلى مصلى العيد ولم يبق بينه وبين المهدية إلا رمية سهم وأصحابه في زويلة ينهبون ويقتلون ثم قويت نفوس المهدية وتحاموا واقتتلوا قتالاً شديداً فأزالوا أبا يزيد وأصحابه عن البلد ورجع أبو يزيد إلى مقيطنته وأمر بحفر خندق على عسكره واتته جميع القبائل من طرابلس وقابس ونفوسة والزاب وأقاصي المغرب.

وحاصر المهدية أشد حصار ومنع الداخل والخارج وزحف إليها مرة أخرى وكان بينهما حرب شديدة مات فيها وجوه عسكر القائم، وزحف إليها مرة ثالثة فكان بينهما الفناء الأعظم فانتصر فيه عسكر القائم وانهزم أبو يزيد وقتل من أصحابه خلق كثير ورجع إلى موضعه مخزياً.

وزحف إليها المرة الرابعة فكان بين الفريقين القتال الشديد. واشتد الغلاء في المهدية وخرج منها عالم عظيم من شدة الجوع. فعند ذلك فتح القائم خزائن الطعام المدخرة عنده من عهد أبيه ففرقها في جنده وعبيده. وعظم البلاء على الرعية حتى أكلوا الميتة والدواب والكلاب. وفر غالب أهل البدو حتى لم يبق مع القائم إلا جنده. والبربر كل من وجدوه في الطريق شقوا بطنه لعل يكون فيها ذهب وفعلوا بهم من المنكرات ما لا يحل.

وكتب القائم إلى كتامه واستفزهم وفي أثناء ذلك تفرقت عساكر أبي يزيد لاشتغالهم بالنهب ولم يبق معه إلا اليسير فعلم القائم بذلك فتأهب للخروج لأبي يزيد فخرج عسكره والتقى مع أبي يزيد، فتناوشوا الحرب ساعة ورجع كل إلى موضعه واتصلت بينهما عدة وقائع والحرب تارة وتارة.

ودخلت سنة اربع وثلاثين وثلاثمائة وقع فيها اختلاف في عسكر أبي يزيد فتفرقت جموعه ولم يبق معه إلا ثلاثون رجلاً، فرجع إلى القيروان وأسلم ما كان معه. فخرج الناس من المهدية ونهبوا ما خلفه فصلحت حالهم ورخصت أسعارهم وأخذوا جميع ما خلف من طعام وأمتعة وأخبية وفازات وغير ذلك.

ولما وصل أبو يزيد القيروان نزل بالقصر ولم يخرج إليه من أهل البلد أحد والصبيان يسخرون به ويضحكون منه. وبلغ القائم خبره فبعث عمالاً إلى البلاد وأخرجوا عمال أبي يزيد وتسامعت الناس أنه هزم. ثم تقوى عزمه مرة أخرى وأتته البرابر من كل فج فبعث عسكراً إلى تونس فدخلها بالسيف يوم السبت لعشر خلون من صفر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وانتهبوها وسبوا النساء والأطفال وقتلوا الرجال وهدموا المساجد. ولجأ كثير من الناس إلى البحر فماتوا غرقاً ودخل غيرهم قناة قرطاجنة فماتوا جوعاً.

وبعث القائم عسكراً إلى تونس فالتقى بعسكر أبي يزيد عند وادي مليان فاقتتلوا فانهزم عسكر القائم ولجأ إلى جبل الرصاص وأعادوا القتال ثانياً فانهزم أصحاب أبي يزيد ورجع عسكر القائم إلى تونس فنهب وقتل

من بها من النكار الخوارج وأخذ لهم نحو ثلاثة آلاف جمل من الطعام، وذلك يوم الإثنين لخمس خلون من ربيع الأول من السنة المذكورة ورجع إلى المهدية. ولما سمع أبو يزيد بهذا الخبر جمع جيشاً عظيماً وزحف به إلى تونس فقتل من عاد إليها من أهلها وأحرق ما بقي منها وتوجه إلى باجة ففعل بها كذلك.

وكان بإفريقية من السبي والهرج ما لا يوصف، ولما وصل سبي تونس إلى القيروان وثب الناس فانتزعوا السبي من أيدي البرابر. وانتدب جمعاً آخر فاجتمع له عدة أقوام ورحل إلى سوسة وحاصرها في جمادي الأخيرة سنة أربع وثلاثين ومعه من البربر سبعة وثمانون ألفاً.

وأقام على سوسة إلى أن فوض القائم الأمر إلى ولده المنصور وجعله ولي عهده في شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة. وفي شوال من السنة المذكورة توفي القائم بأمر الله وتولى ولده المنصور الخلافة.

الخبر عن خلافة المنصور بالله

أبو الطاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم نزار بن الإمام المهدي، بويع بعد وفاة أبيه سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، ولما توفي والده كتم موته وبذل المال للجند وكان شجاعاً قوي الجأش فصيحاً مفوهاً يرتجل الخطبة، ولما استوثق له الأمر جد في قتال أبي يزيد وخرج في طلبه فأزاله عن مدينة سوسة بعد عدة واقعات وانهزم أبو يزيد إلى القيروان فمنعه أهلها من الدخول، وقتلوا من دخل إليهم من أصحابه والتحق به المنصور إلى القيروان وكانت بينهما عدة وقائع والحرب سجال. وآخره انتصر المنصور بالله وهزم أبا يزيد إلى المغرب وأسره بعد عدة وقائع جرت بينهما هنالك ومات أبو بزيد بعد أسره بأربعة أيام، آخر المحرم سنة ست وثلاثين وثلاثمائة فلما مات سلخ جلده وملأه قطناً وبعث بالبشائر إلى جميع عماله وقفل إلى إفريقية، ولما وصل القيروان خرج إليه الناس وهنأوه بالفتح وأظهر لهم أبا يزيد ووضع على كتفه قرداً، وطيف به في الناس ثم حمل إلى المهدية وصلب على السور إلى أن نسفته الرياح.

وبنى المنصور مدينة المنصورية بإزاء القيروان تفاؤلاً بهـذا النصر ورجع إلى المهدية وأقام بها إلى أن مهدها ورجع إلى قصره بالمنصورية ولم يظهر وفاة أبيه إلا بعد ظفره بأبي يزيد وهناك تسمى بأمير المؤمنين.

وفي أيامه أطاع زيري بن مناد وخدم بني عبيد هو وبنوه من بعده، وفي سنة ست وثلاثين بعث المنصور إسماعيل بن الحسن بن علي بن الحسين عاملاً على صقلية ودامت ولايته إلى سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وبقيت في عقبه.

وفي سنة أربعين بعث المنصور أسطولاً عظيماً إلى صقلية لأنه سمع بملك الروم عازماً على الحركة إليها وتوفي رحمه الله يوم الجمعة آخر شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة وعمره أربعون سنة وولايته سبع سنين وثمانية عشر يوماً وكان أكد بالعهد لولده أبي تميم معد ودفن بصبرة في قصره رحمه الله تعالى.

وكانت له مواقف مشهورة مع أبي يزيد وباشر القتال فيها بنفسه، وكادت تكون الدائرة عليه مراراً شتى لولا لطف الله به وثبات جأشه وكان أبو يزيد قد استولى على جميع بلاد إفريقية حتى لم يبق للقائم أبيه ولا له إلا المهدية. ولما مات أبوه وأبو يزيد محاصر له أخفى موت أبيه وهو يدبر الأمور، ولم يظهر موت أبيه إلا بعد ظفره بأبي يزيد الخبيث، وكانت أيام أبي يزيد أزيد من ثلاثين سنة دمر فيها غالب الإقليم الإفريقي.

والمنصور رحمه الله تعالى أربى عن أبيه وجده في الصبر وقوة الجأش والتخلق بالأدب. قال أبو جعفر المروروذي: خرجت مع المنصور يوم هزم أبي يزيد فسايرته وبيده قضيب ريحان فسقط من يده فمسحته وناولته إياه وتفاءلت له وانشدته.

فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالإياب المسافر

فقال: ـ ألا قلت ما هو أحسن من هذا وأصدق فألقى موسى عصاه

فإذا هي تلقف ما يأفكون ـ فقلت: أنت ابن بنت رسول الله ﷺ قلت ما عندك من العلم وأنا قلت ما عندي.

وكان موته من أرق أصابه فعالجه طبيبه إسحاق بن سليمان الإسرائيلي ونهاه عن دخول الحمام فلم يقبل منه، ودخل الحمام فيبست الحرارة الغريزية ولازمه السهر والطبيب ملازم على معالجته والسهر باق على حاله فلما اشتد أمره سأل عن طبيب غيره فأتوه به فشكا إليه حاله وقلة النوم فعالجه بما ينام به فمات رحمه الله.

الخبر عن ولاية المعز لدين الله

أبو تميم معد بن المنصور بالله أبي الطاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله، مولده بالمهدية سنة تسع عشرة وثلاثمائة، وبويع بعهد من أبيه في حياته وجددت له البيعة بعد وفاة أبيه في شوال وقيل في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة، فدبر الأمور وساسها وأجراها على أحسن أحكامها وفي يوم الأحد سابع ذي الحجة جلس على سرير ملكه ودخل إليه الخاص والعام وسلموا عليه بالخلافة وله من العمر اثنتان وعشرون سنة.

وكان المعز عالماً فاضلاً جواداً سمحاً شجاعاً جارياً على منهاج أبيه من حسن السيرة وإنصاف الرعية، وفي سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة رحل المعز إلى المغرب وصعد إلى جبل أوراس وجالت فيه خيوله، وقاتل من به من العصاة حتى أطاعوا له وعقد إلى مولاه قيصر بولاية المغرب كله، وعلى أشير زيري بن مناد الصنهاجي، وعلى المسيلة وأعمالها جعفر بن علي بن حمدون المعروف بابن الأندلسي، وعلى باغاية وأعمالها نصير الصقلي، وعلى فاس أحمد بن بكر، وعلى سجلماسه محمد بن واسول، وقد عصى فيما بعد وتلقب بالشاكر لله، وعلى قابس بن عطاء الله الكتامي، وعلى مدينة سرت باسيل الصقلي، وعلى اجدابية ابن كافي الكتامي، وعلى برقة وأعمالها أفلح الناسب، وعلى خراج إفريقية صولة الكتامي، واستوفت له أمور البلاد كلها وهاداه ملك الروم.

وفي سنة خمس وأربعين وثلاثمائة ارتفعت رتبة جوهر الكاتب وصار في رتبة الوزارة وجعل مظفر الصقلي على أعنة الخيل وتحت يده من رقادة إلى أعمال مصر يدبرها ويجبي أموالها.

وفي سنة سبع وأربعين وثلاثمائة في صفر بعث عسكراً ضخماً وولى عليه غلامه جوهر المذكور وكان جوهر رجلاً حازماً وأمره أن يأخذ من كل بلدة عدداً معروفاً، فخرج جوهر بأمم لا تحصى فدخل مدينة أفكان فنهبها وأمر بهدمها وسار إلى مدينة فاس وحاصرها فلم يفتحها ورحل إلى سلجماسه وأسر صاحبها محمداً وكان قد خطب لنفسه وتسمى بالشاكر لله، ثم مضى لا يدافعه أحد إلى أن بلغ إلى البحر المحيط وأمر بصيد السمك وجعله في قماقم بالماء وأرسله إلى مولاه المعز وكتب إليه كتاباً وجعل فيه من ضريع البحر، ورجع إلى فاس فنزل وفتحها وحاصرها، وأخذ صاحبها وقيده وجعله مع صاحب سجلماسة وجعل لهما قفصين من خشب وجعل كل واحد في قفص وحملهما على الجمال وقفل إلى إفريقية بعد ما دوخ المغرب وخطب لمولاه في سائر بلاد المغرب ما عدا سبته، وكانت غيبته ثلاثين شهراً ووصل إلى المنصورية فطيف بصاحب فاس وصاحب سجلماسة في البلد وسجنا.

واستوت للمعز البلاد ودانت له العباد ولم يبق بلد إلا اجتمعت فيه دعوته ودخل تحت طاعته الفواطم الذين في أقصى المغرب وبعث إلى صقلية الحسن بن عمار بن علي بن الحسين وتوفي بها سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وبعث المعز إلى ولده أحمد بن الحسين بولاية صقلية.

وفي سنة أربع وخمسين خرج المعز مستشرفاً على البلاد ومتنزهاً وبلغ إلى تونس وقرطاجنة ورأى عجائبها، ثم ارتحل إلى غيرها وأقام ثمانين يوماً في غيبته ثم رجع إلى المنصورية. قلت: وهي المعبر عنها بصبرة في زماننا هذا.

وفي سنة خمس وخمسين وثلاثمائة أمر بحفر الآبار في طريق مصر وأن يبنى له في كل موضع قصر وفي آخر جمادي الثانية من السنة المذكورة جاءه الخبر بوفاة كافور صاحب مصر، وفيها وجه مولاه جوهر إلى المغرب في عسكر عظيم فمهد البلاد وحشد سائر الأجناد وقبائل كتامة وجبى ما على البربر، ورجع إلى مولاه سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وخرج المعز بنفسه إلى المهدية وأخرج من قصور أبيه خمسمائة حمل دنانير ورجع إلى قصره ولما كان في يوم السبت لأربع عشرة خلون من ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة رحل القائد جوهر في عسكر عظيم من البربر وكتامة والزويليين والجند بعد ما وسع المعز عليهم بالأرزاق والعطايا وأنفق فيهم مالاً جزيلاً وأعطى من ألف دينار إلى عشرين ديناراً حتى عمهم كلهم بالعطاء.

وسار القائد جوهر في عدد يقصر عنه الوصف ومعه ألف حمل من المال، وأما الخيل والعدد والسلاح فلا تحصى. ودخل جوهر إلى مصر يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقين من شعبان من السنة المذكورة وصعد المنبر لعشر بقين من شعبان ودعا لمولاه المعز.

وفي النصف من رمضان وصلت النجب بالبشارة إلى المعز وصورة الفتح فعمه السرور وصار في كل وقت تصل إليه كتب القائد جوهر يحثه على الرحيل إلى مصر وأن الشام والحجاز تحت طاعته وقامت له الدعوة في تلك البلاد.

وفي سنة ستين وثلاثمائة وصل جعفر بن القائد جوهر بهدية من عند أبيه، وفيها من أواني الذهب والفضة والعماريات والسروج المحلاة وأحمال الأمتعة وصنوف الثياب وطرائف المشرق وذخائر الملوك ما لا يوصف، ومعه القواد الذين حكم عليهم جوهر عند تملكه مصر فأقبل عليهم المعز وعفا عنهم وجلس لهم في زي عجيب وجعل التاج على رأسه ودخلوا عليه فسلم عليهم ولاطفهم وأكرمهم غاية الإكرام.

وفي شوال سنة إحدى وستين عزم على المسير إلى مصر ورحل من المنصورية وأقام بسردانية ولحقه عماله وأهل بيته وجمع ما كان له في قصوره، وكان مقامه بسردانية أربعة أشهر وسردانية قريبة من القيروان وكانت قصورهم وبساتينهم بها.

وفي أول صفر رحل منها وأطلق النار في زربها ولما حاذى صبرة قال: ـ سلام عليكم من مودع لا يرد أبداً. وخلف على إفريقية بلكين بن زيري الصنهاجي وكتب له بولاية المغرب كله وسيأتي خبره بعد إن شاء الله تعالى: وكان بلكين فارقه من عمل قابس.

ورحل المعز من قابس يوم الأربعاء عاشر ربيع الأول من السنة المذكورة ودخل طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرين من الشهر، ورحل عنها يوم السبت لثلاث عشرة بقين من ربيع الثاني، فوصل إلى سرت في الرابع من جمادي الأولى ورحل عنها ونزل بقصره الذي بني له باجدابية. ورحل من أجدابية فنزل بقصره المعروف بالمعزية في برقة، وظل في سيره منها إلى أن وصل الإسكندرية فنزل تحت منارها وأتاه أهلها فسلموا عليه ولما دخل عليه قاضي الإسكندرية سلم عليه ولم يسلم على ولي عهده فقال له المعز: يا قاضي هل حججت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين فقال له: هل سلمت على الشيخين؟ قال: لا، فقال له: ولماذا؟ قال: شغلني السلام على رسول الله ﷺ كما شغلني السلام على أمير المؤمنين حين لم أسلم على ولي عهده. فأعجب المعز منه. وسأله مرة أخرى فقال له هل رأيت خليفة قط؟ قال: واحداً يا أمير المؤمنين فقال له: ومن هو؟ قال: أنت، والباقون ملوك. فسر بكلامه ودخل الإسكندرية ومشى في منازلها ودخل الحمام بها.

ثم رحل عنها ووصل إلى مصر يوم السبت لليلتين مضتا من شهر رمضان، وأقام هناك ثلاثاً وأخذ العسكر في التعدية بأثقالهم وأنزل الناس في مصر والقاهرة وغالب العسكر في الفازات والمضارب بين مصر والقاهرة.

والقاهرة هي التي بناها القائد جوهر لأجل العسكر لما ضاقت بهم مصر فسميت باسم استاذه المعز فيقال القاهرة المعزية وهي التي فيها القلعة والجامع الأزهر ومصر في ذلك الوقت هي مصر العتيقة الآن ويقال لها الفسطاط بنيت في زمن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه، وأما مصر فرعون فيقال لها منف[1] والله أعلم.

ويوم الثلاثاء لخمس خلون من رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة عبر المعز النيل ودخل القاهرة ولم يدخل مصر، وتلقاه القائد جوهر عند الجسر الثاني فترجل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه ولما دخل القاهرة دخل القصر الذي كان معداً له، فدخل مجلساً وخر ساجداً لله تعالى ثم صلى ركعتين وفي العشر الأخيرة من المحرم سنة أربع وستين عزل المعز القائد جوهر عن دواوين مصر وجباية أموالها وكان في المعز عدل وانصاف وكان ينظر في النجوم.

والمعز لدين الله هو آخر الخلفاء العبيديين بالمغرب وأول الخلفاء منهم بمصر، وأسكن الجند بالقاهرة واقتسموا منازلها وسكنت كل طائفة بمكان معروف بها، فيقال حارة زويلة إلى يومنا هذا ينسب إليها باب زويلة من أجل الزويليين سكنوا هناك، وحارة كتامة والبرقية وعدة حارات بها باقية إلى اليوم باسمائها.

وتوفي المعز لدين الله بمصر في سابع عشر ربيع الأول سنة خمس وستين وثلاثمائة وعمره خمس وأربعون سنة وقيل ست وأربعون، وكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وأيام مقامه بمصر سنتان وتسعة أشهر، وبقيتها ببلاد المغرب.

وسبب موته أن ملك الروم أرسل إليه رسولاً عدة مرات وتردد إليه بإفريقية ومصر فخلا به بعض الأيام وكان اسمه نكولة، فقال له المعز لدين الله أتذكر إذا اتيتني وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن علي بمصر وأنا ملك عليها قال: نعم، فقال له وأنا أقول لك الآن لتدخلن علي ببغداد وأنا

---

(١) منف: والمقصود بها ممفيس.

خليفة، فقال الرسول: إن أمنتني نفسي ولم تغضب أقول لك ما عندي، فقال له: قل ما عندك وأنت آمن قال: بعثني إليـك الملك ذاك العام فوصلت إلى صقلية فلقيني غلامك بجيشه فرأيت منه العجب. ثم جئت إلى سوسة فرأيت بها من جندك وضخامته ما أذهل عقلي، ثم سرت إلى المهدية فما كدت أصل إليك من كثرة أجنادك وخدمك وكثرة أصحابك فكدت أموت، ووصلت إلى قصرك فرأيت نوراً غطى بصري ثم دخلت عليك وأنت على سريرك فرأيت عظمتك فظننتك خالقاً لا مخلوقاً فلو قلت لي أنك تعرج إلى السماء لتحققت ذلـك ثم جئت إليك الآن فما رأيت من ذلك شيئاً ولما أشرفت على مدينتك هذه كانت في عيني سوداء مظلمة ثم دخلت عليك في قصرك فما وجدت عليك مهابة مثل ذلك العام فقلت إن ذلك كان مقبلاً وإنه الآن بضد ما كان عليه. فأطرق المعز رأسه وخرج الرسول من عنده وأخذت المعز الحمى لشدة ما وجد وثقل مرضه واتصل به حتى مات رحمة الله عليه، وعهد لولده أبي منصور نزار المتلقب بالعزيز بالله.

الخبر عن خلافة العزيز بالله

أبو منصور نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور أبي الطاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي عبيدالله، مولده يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة أربع وأربعين وثلاثمائة بالمهدية، وولي الأمر بعد وفاة أبيه في ربيع الآخر سنة خمس وستين، وكان شجاعاً حسن العهد أديباً فاضلاً خطب له بمصر والشام وإفريقية وفتح حمص وحماه وحلب والموصل وخطب له باليمن، وكان استناب بالشام يهودياً إسمه ميشما واستكتب عيسى بن نسطور النصراني فاعتز بهما النصارى واليهود.

فكتب أهل مصر قصة وجعلوها في يد تمثال من قراطيس وفيها: ـ بالذي أعز اليهود بميشما والنصارى بعيسى وأذل المسلمين بك إلا ما كشفت ظلامتي ـ فلما رأى الرقعة أمر بأخذها وقرأها فعلم ما أريد

بذلك فقبض عليهما وأخذ من ابن نسطور ثلاثمائة ألف دينار ومن اليهود شيئاً كثيراً.

وصعد المنبر يوماً فرأى ورقة مكتوباً فيها:

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
إن كان ما تدعيه حقاً بين لنا كاتب البطاقة

لأن العزيز كان يدعي علم الغيب وذلك أنه كانت له عجائز يسرقن الأخبار من الدور ويأتينه بها، فكان يقابل الناس ويقول: ما بال أحدكم قال كذا وفعل كذا، فيتوهم السامع ويظن أن ذلك عن سر أعطيه ويزعم هو أنه يعلم المغيبات ولا يعلم الغيب إلا الله.

وكان خليفته بإفريقية خليفة أبيه بلكين ووزيره يعقوب بن كلس كان يهودياً وأسلم وكان من عجائب الدهر، وخبره مشهور في غير ما موضع ولولا الاختصار لذكرنا جميع أخباره. وكتب العزيز بالله إلى الحكم صاحب الأندلس كتاباً فيه فأجابه الحاكم قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك هجوناك، يعني به أنه دعي في نفسه وقيل أن الحكاية بالعكس والله أعلم بذلك، ومات بمدينة بلبيس من أمراض لحقت به كالنقرس والقولنج وله من العمر اثنتان وأربعون سنة في ثامن عشر من رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة رحمة الله تعالى عليه.

الخبر عن خلافة الحاكم بأمر الله

أبو علي منصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله بن المنصور بالله ابن القائم بأمر الله بن المهدي عبيد الله مولده ثالث ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ست وثمانين وثلاثمائة وعمره عشر سنين وقيل إحدى عشرة، أخذ له البيعة برجوان خادم أبيه وكان خصياً أبيض اللون وهو الذي دبر دولة الحاكم بأمر الله وبالغ في النصيحة له، وقتله الحاكم بعد ذلك وبرجوان له بمصر حارة مشهورة إلى يومنا هذا يقال لها حارة برجوان.

وكان الحاكم متناقض الأخلاق يأمر بالشيء ثم ينهي عنه، وأخباره في ذلك شهيرة وكان سفاكاً للدماء قتل عدداً كثيراً من أهل دولته ومات في ذي القعدة سنة إحدى عشرة وأربعمائة وعمره سبع وثلاثون سنة، وأيام خلافته خمس وعشرون سنة. وقيل إن أخته دبرت في قتله لأمور ظهرت منه، فأمرت من اغتاله وكان ينفرد بنفسه ويركب حمارة ويطوف في الأسواق ويقيم الحسبة بنفسه. فاتفق ركوب الحاكم إلى جبل جلوان، وكان قد كمن له فيه من قتله هناك واتوا به إلى أخته سراً فدفنته وكان بعض شيعته من المغاربة يزعمون أنه يعود فكانوا إذا رأوا سحابة في الجو سجدوا لها زعماً منهم أنه في السحاب. وقيل إنه أراد أن يدعي الألوهية تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً وأخذت أخته البيعة إلى ولده أبي هاشم علي الظاهر لإعزاز دين الله.

الخبر عن خلافة الظاهر لإعزاز دين الله

أبو هاشم علي بن الحاكم بأمر الله أبي منصور بن العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الظاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدي عبيد الله، مولده في رمضان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة،بويع له يوم عيد النحر سنة عشر وأربعمائة وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفاً للرعية يحب الدعة والراحة.

وفي أيامه طمع من طمع في أطراف بلاده وتضعضعت دولته ومات في منتصف شعبان سنة ست وعشرين وأربعمائة،وأيام خلافته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وأيام وبلغ عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وقام بالأمر بعده ولده المستنصر بالله أبو تميم.

الخبر عن خلافة المستنصر بالله

أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله، مولده بالقاهرة المعزية سنة عشرين وأربعمائة، بويع بعد وفاة أبيه في شعبان سنة

سبع وعشرين وأربعمائة وجرى في أيامه ما لم يجر في أيام أحد من أجداده.

منها الغلاء الذي وقع في أيامه حتى أكل الناس بعضهم بعضاً. ومنها أنه خطب له ببغداد سنة ولم تكن لغيره قبل وذلك سنة خمس وثلاثين ومنها قيام الطليحي باليمن وخطب له على منابرها. ومنها أنه لم تزل دعوتهم بالمغرب من أول أمرهم إلى أيامه قطعها المعز بن باديس الصنهاجي وسيأتي خبره. وخطب له بالكوفة وواسط والموصل. ومنها أنه ولي وهو ابن سبع سنين وأقام في الخلافة ستين سنة وهذا شيء لم يبلغه أحد من أهل بيته ولا من بني العباس.

وأقام الغلاء في أيامه سبع سنين حتى توجهت أمه وبناته لبغداد من شدة الجوع، وبيع الرغيف الواحد بخمسين ديناراً، وكان في هذه الشدة يركب وحده وحاشيته مترجلون وربما استعار دابة يركبها صاحب المظلة من عند كاتب الأشياء ابن هبة الله، وقاسى شدائد واستوزر بدر الجمالي وحسنت أحواله فيما بعد، وكانت وفاته في ثامن عشر ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة وعمره ثمان وستون سنة وهو أطول العبيديين مدة وأقام بالأمر من بعده ولده المستعلي بالله.

الخبر عن خلافة المستعلي بالله

أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله بن المعز لدين الله بن المنصور بالله أبي الظاهر بن القائم بن المهدي عبيد الله، مولده في المحرم سنة تسع وستين وأربعمائة بالقاهرة، ولي الأمر بعد أبيه سنة سبع وثمانين وأربعمائة وله من العمر إحدى وعشرين سنة وفي أيامه أخذ الإفرنج انطاكية والمعرة والقدس ووهنت دولتهم ولم يكن له مع الأفضل ابن أمير الجيوش حكم، وانقطعت دعوتهم من بلاد الشام وتغلب عليها الأتراك ومات في صفر سنة خمس وتسعين وبلغ عمره تسعاً وعشرين سنة، وكانت خلافته ثماني سنين وأياماً واستخلف بعده ولده أبو علي.

الخبر عن خلافة الآمر بأحكام الله

أبو علي منصور بن المستعلي بالله أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الطاهر لإعزاز دين الله أبي هاشم علي بن الحاكم بأمر الله ابي علي منصور بن العزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي الطاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم المهدي أبي محمد عبيد الله، ومولده في المحرم سنة تسعين وأربعمائة، بويع له بالخلافة سابع عشر صفر سنة خمس وتسعين وهو ابن خمس سنين ولم يقدر على الركوب وحده لصغر سنه ودبر دولته الأفضل بن أمير الجيوش.

ولما اشتد الآمر بأحكام الله قتل أمير الجيوش المتقدم ذكره، والأفضل هذا لقبه شاهنشاه واسمه أبو القاسم بن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني، قتل سنة خمس عشرة وخمسمائة.

والآمر هذا كان قبيح السيرة ظلم الناس وأخذ أموالهم وسفك الدماء وارتكب القبائح. وفي أيامه ملك العدو كثيراً من بلاده ومات سنة أربع وعشرين وخمسمائة في صفر ولم يكن أعرق منه نسباً في خلافة العبيديين، لأنه العاشر في الخلفاء على نسق واحد أباً عن جد، وتوفي قتيلاً أيضاً وتولى الخلافة بعده ابن عمه الحافظ لدين الله.

الخبر عن خلافة الحافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي، مولده سنة سبع وستين وأربعمائة وتولى يوم قتل ابن عمه في صفر سنة أربع وعشرين وخمسمائة وغلب على أمره أبو علي أحمد بن الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش الجمالي، وبقي الحافظ صورة معه من تحت حكمه وحبسه، وآخر الحال دس الحافظ على الوزير فقتله واحد من الخاصة فبادر الأجناد إلى الحافظ وأخرجوه من السجن وبايعوه مرة أخرى.

وكان الحافظ ملازمه مرض القولنج فصنع له شيرماه الديلمي طبل القولنج، وكان مركباً من المعادن السبعة والكواكب السبعة في اشرافها فإذا ضرب به صاحب القولنج خرج منه ريح متابعة فيستريح. وهذا الطبل وجده صلاح الدين في خزائنهم عند تملكه الديار المصرية.

ومات الحافظ في جمادي الأولى سنة أربع وأربعين وخمسمائة، فكانت خلافته عشرين سنة وله من العمر بضع وسبعون سنة وتولى بعده ولده إسماعيل بوصية من أبيه وتلقب بالظافر بالله.

الخبر عن خلافة الظافر بالله

أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد ابن المستنصر بالله بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور ابن القائم بن المهدي عبيد الله، مولده منتصف ربيع الأول سنة سبع وعشرين وخمسمائة، بويع بالأمر بعد أبيه وقتل في نصف المحرم سنة تسع وأربعين لأشياء أضربنا عنها لأجل الاختصار وهي مشهورة في كتب التواريخ، وبويع ولده أبو القاسم عيسى ولقب بالفائز بنصر الله.

الخبر عن خلافة الفائز بنصر الله

أبو القاسم عيسى بن الظافر بالله بن الحافظ لدين الله بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله، بويع بالخلافة يوم قتل والده في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة وله من العمر خمس سنين ولما أراد الوزير مبايعته أدخل الجند وقال هذا ابن مولاكم فبايعوه.

وكان الوزير هو الذي قتل أباه فلما رآه الأجناد ضجوا بالبكاء في وجه الفائز وكان على كتف الوزير، ففزع الطفل من ذلك وصار يعتريه الصرع والاضطراب إلى أن مات في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة وهو ابن عشر سنين، فكانت خلافته خمس سنين رحمة الله تعالى عليه.

الخبر عن خلافة العاضد لدين الله

أبو محمد عبد الله العاضد بن يوسف بن الحافظ لدين الله بن المستنصر بالله بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد الله، مولده سنة ست وأربعين وخمسمائة، بويع بعد وفاة الفائز بنصر الله في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة، واستولى على وزارته الملك الصالح طلايع بن رزيك فكان العاضد كالمحجور عليه. وكان رافضياً خبيثاً.

وفي أيامه دخل شاور بالغز من الشام وقتل طلايع ومات قتيلاً في أثناء ذلك شاور على يد أسد الدين شيركوه أرسله نور الدين إلى مصر وبعده، تولى الوزارة ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن شادي، وتمكن من المملكة وبقي معه العاضد صورة إلى أن خلعه.

وخطب في حياته لبني العباس، والخليفة العباسي في ذلك الوقت الإمام المستضيء بأمر الله في بغداد وذلك في حياة العاضد، وكان مريضاً فلم يعلم بشيء من ذلك، ومات يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة، وانقرضت دولتهم من سائر البلاد فسبحان من لا يفنى ملكه.

قال ابن خلكان: سمعت من أهل الديار المصرية أن العبيديين في أول أمرهم قالوا لبعض الكتاب اكتب لنا ألقاباً تصلح للخلفاء حتى إذا ما تولى أحد خليفة لقب بشيء منها، فكتب لهم ورقة فيها عدة ألقاب آخرهم العاضد فكان هذا العاضد آخر خلفائهم. وكانت أيامهم مائتي سنة وستين سنة، منها في مصر مائتا سنة وثمان سنين، واثنتان وخمسون سنة بالمغرب، وعدد خلفائهم أربعة عشر خليفة أولهم المهدي وآخرهم العاضد.

وما أطلنا الكلام عليهم إلا لارتباط أخبارهم وإتمام الفائدة، وإنما غرضنا أن نذكر من ملك إفريقية لا غير. ولما كان أول ملكهم بإفريقية وكان ظهورهم بالخلافة منها ورحلوا عنها للديار المصرية، جذبتنا مسافة

الأخبار عنهم إلى نهاية أيامهم، ولولا خيفة التطويل لأتينا من أخبارهم بما فيه الغرض وأخبارهم مطولة في غير هذا.

ومنهم من صحح نسبهم وأثبته، ومنهم من قدح فيه ورفضهم ولا يعلم الغيب إلا الله، وبقيت لنا نبذة من أخبارهم نأتي بها في آخر الفصل الذي بعد هذا في محله إن شاء الله تعالى.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب الخامس

في الأمراء الصنهاجية

هذا الباب نذكر فيه ملوك صنهاجة، وإن كانوا في الحقيقة عمالاً لبني عبيد، فإنهم بلغوا درجة الملوك وكانت لهم ضخامة وصيت وغالب أهل تونس لا يتحققون ولايتهم، وأنا أستغفر الله أقول: إن أيامهم ودولتهم أقوى من دولة بني حفص إلا إن بني حفص خطب لهم بأمراء المؤمنين ولم يخطب لصنهاجة بهذا الاسم، وزادت أيامهم على مايني سنة، واستقلوا بالأمر في إفريقية حين سار المعز لدين الله إلى مصر فاستعمل على عمله أبا الفتوح يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي.

وصنهاجة قبيلة من البربر، وقيل صنهاجة فخذ من ولد عبد شمس ابن واثل بن حمير وأن الملك إفريقيش بن واثل بن حمير، وقيل إفريفش بن أبرهة بن ذي القرنين لما ملك حميراً وغزا المغرب وبنى مدينة إفريقية خلف فيها من قبائل حمير وزعمائها صنهاجة، وقدمهم على البربر ليدبروا أمرهم ويأخذوا خراجهم وقيل صنهاجة أبو صنهاجة بن حصين بن سبأ لصلبه، وقيل هم فخذ من هوارة، وهوارة فخذ من حمير وصنهاجة تنقسم على

سبعين قبيلة، منهم لمتونة الذين ملكوا بلاد المغرب وسيأتي من أخبارهم شيء إن شاء الله تعالى، وفي هذا القدر كفاية.

وأول اتصال زيري بالمنصور لما دخل المغرب في طلب أبي يزيد الخارجي، ودخل بلاد صنهاجة سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، هناك وافاه زيري بعساكره وأهل بيته ودخل في طاعته فخلع عليه ووصله بصلة ونصب له فازة وقلده سيفاً وعقد له على أهل بيته ومن اتصل به من أهل صنهاجة والبربر وعظم شأنه، وحضر مع المعز لدين الله عند دخوله المغرب سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، واستعمله على أشير وما والاها وكان حازماً شجاعاً شديد البأس، وحضر مع جوهر لما دخل المغرب في سنة ست وأربعين وثلاثمائة على فاس، وجوهر محاصر لها، فكان زيري سبباً لفتحها، فزادت رتبته في الدولة وزاده جوهر ولاية تيهرت فضمها إلى عمله واتسعت ولايته، وكان بينه وبين جعفر بن علي المنعوت بالأندلسي وكان عاملاً على المسيلة ضغائن في النفوس بسبب الولايات.

وجعفر هذا أبوه الذي بنى المسيلة وانضاف إلى جعفر عمل الزاب من بلاد المغرب. وكان طائعاً للدولة العبيدية ويخطب لهم في بلاده وكان يعد من الملوك.

ولما عزم المعز لدين الله على التوجه إلى الديار المصرية، شاع بين الناس ان المعز يريد أن يستخلف يوسف بن زيري على جميع بلاد إفريقية، فعظم ذلك على جعفر بن الأندلسي، واتفق أن المعز أرسل إلى جعفر يأمره بالقدوم إليه، وكرر ذلك مراراً فأظهر جعفر أنه قاصد له فخرج من المسيلة وفر إلى زناتة فقبلوه وملكوه على أنفسهم، فخلع طاعة المعز، فلما بلغ الخبر إلى زيري بادر بالخروج إلى جعفر في عدد من صنهاجة فالتقى معه، وكانت وقعة عظيمة فكبا بزيري فرسه فقتل ومات قدامه خلق عظيم. ويعث جعفر بن علي أخاه يحيى إلى الأندلس والخليفة بها الحاكم الأموي يبشره بقتل زيري.

ولما علمت زناتة أن يوسف بن زيري يطالبهم بدم أبيه أضمرت الغدر لجعفر وعزموا على إمساكه فلما أحس بذلك فر إلى الأندلس بأهله وأولاده، فقبله الحاكم وأجرى عليه الوظائف السنية وبقي عنده في أعلى مكان مدة ثم نقم عليه الحاكم ونكبه ثم أفرج عليه بعد ذلك وعاد إلى رتبته، ولم يزل هنالك إلى أيام الوزير أبي عامر فقتله سنة سبع وستين وثلاثمائة وبعث برأسه إلى بلكين. وكان زيري المذكور حسن السياسة والتدبير في الرعية والتشديد على البرابر ما رأى الناس مثل أيامه في المغرب، وأقام على حسن السيرة ستاً وعشرين سنة.

ولما مات كما ذكرنا وبلغ الخبر إلى ولده بلكين وهو بأشير وكان هو المقدم عند معد، يعظمه على جميع أخوته، جمع أهل بيته وعبيده واختار من جنده من أحب وخرج طالباً لثأر أبيه. فأدرك زناتة وكانت له فيهم فتكات فقتلهم قتلاً ذريعاً وسبى نساءهم وأطفالهم وأجلاهم من البلاد. فبلغ الخبر إلى معد فسره ما فعل وأرسل إليه يأمره برد السبى والقدوم عليه، فقدم على المعز بعد ما استخلف على عمله من يثق به ومهد قواعد بلاده ونفذت كتبه إلى عماله من يوسف بن زيري خليفة السلطان. ولم يترك في المغرب عند أحد من البرابرة فرساً ولا جملاً، ولم يترك إلا من يحرث ويحصد، وقدم إلى المنصورية وقد شاع بين الناس أنه المستخلف في إفريقية فهادته على قدر مراتبهم وكثر أموالهم وزادت مكانته.

ولما وصل إلى المعز جلس له في الإيوان وأدخل عليه، فقبله أحسن قبول وتحدث معه وشكر أفعاله وقلده سيفه وخلع عليه خلعة من لباسه وقاد بين يديه أربعين فرساً بسروج الذهب المثقلة وأربعين تختاً بالثياب الفاخرة وخلع على جميع أصحابه وأكرمهم غاية الإكرام.

ومن هنا نذكر توليته وبنيه من بعده. وما قدمنا هذه النبذة إلا توطئة لخبرهم وليعلم الناظر في هذه الأوراق مبتدأ أمرهم إلى أن يأتى على آخرهم، إن شاء الله تعالى لا رب غيره ولا خير إلا خيره.

الخبر عن ولاية الأمير بلكين

هو يوسف بن زيري الصنهاجي أبو الفتوح بلكين، فوض له الأمر بإفريقية والمغرب كافة، ما عدا طرابلس وصقلية لم يدخلا في علمه، وذلك يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي الحجة سنة إحدى وستين وثلاثمائة عند رحيل المعز لدين الله إلى المشرق، وكتب له سجلاً وأمر الناس بالسمع له والطاعة وسار معه إلى قابس، وكل يوم يوصيه ويؤكد عليه ولما أراد وداعه قال له: «يا يوسف إن نسيت ما أوصيتك به فلا تنس ثلاثاً: لا ترفع الجبايا عن البادية ولا ترفع السيف عن البرابرة ولا تول أحداً من أهل بيتك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، وأوصيك خيراً بأهل الحاضرة». وودعه وانصرف راجعاً إلى المنصورية، فدخلها يوم الخميس لإحدى عشرة خلت من ربيع الأول سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، فنزل بقصر السلطان بصبرة وخرج إليه أهل القيروان فهنأوه وأظهروا السرور بقدومه، وأقام هنالك شهرين وبعث العمال والولاة إلى جميع البلاد، ونفذت أوامره في إفريقية والمغرب.

ولما مهد الأمور بإفريقية رحل إلى المغرب في شعبان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة. وفيها عصى أهل تيهرت فنزل عليها وظفر بأهلها، فسبى الذرية ونهب الأموال، وبلغه الخبر عن زناتة أنهم نزلوا على تلمسان وملكوها فرحل إليهم ففروا أمامه وفتح تلمسان. وبعث إليه المعز كتاباً يأمره ألا يتباعد عن إفريقية ولا يتوغل في الدخول إلى المغرب.

وفي أيام إمارته قام بالمغرب زيري بن عطية الزناتي، فملك فاس وسجلماسة وما جاورهما وخطب فيهما لبني أمية، فسار إليهما بلكين بعساكر ضخمة ففتحها وطرد عمال بني أمية.

ونازل مدينة سبتة وحاصرها أياماً ثم رحل عنها وأتى إلى البصرة فنهبها. قلت: البصرة التي بالمغرب هي التي يقال لها أصيلة في زماننا هذا.

وبعث هدية إلى مصر سنة خمس وستين وثلاثمائة فبلغه خبر موت المعز وولاية ولده العزيز، فرد الهدية من طرابلس واستأنف هدية أخرى وسيرها باسم العزيز، فكانت أول هدية قدمت عليه. فكتب العزيز تجديداً بولايته على المغرب وبعث له سجلاً ودراهم من السكة التي ضربت باسمه اي باسم العزيز بالله صاحب مصر.

وبعث بلكين إلى العزيز بالله يطلب منه ـ سرت ـ وإجدابية ـ وطرابلس ـ وأن يضيفها إلى عمله فأنعم عليه بها، وبعث بلكين إليه عماله، وغزا بني غواطه فكانت بينهما حروب انتصر بلكين فيها وسبى منهم سبايا، لم يدخل لإفريقية أعظم منها، وتوغل في المغرب حتى لم يبق له به منازع. وهربت زناتة أمامه حتى دخلوا الرمال في الصحراء وخالفته أهل سبتة فدافعه منصور بن أبي عامر عنها بأن بعث إليه برأس جعفر بن الأندلسي الذي قتل أباه زيري وتقدم ذكره، وكانت مكاتيب معد الذي هو المعز بالله تصل إليه من مصر إلى مدينة فاس.

وفي سنة سبعين وثلاثمائة بعث ولده المنصور إلى القيروان لتجهيز هدية إلى مصر، فوصل إلى رقادة وأقام بها مدة وبعث بالهدية، وكانت أول هدية خرجت على يده، وأول وصوله إلى القيروان لأنه لم يكن دخلها قبل ذلك لأن ولادته كانت في أشير وإقامته بها، ولم يدخل إلى إفريقية إلا في هذه السنة، ورجع إلى المغرب.

وفي سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة، خرج ابن حزون وضرب على سجلماسة فنهبها، فوصل الخبر إلى بلكين. فرحل إليه بلكين فأصابه في طريقه قولنج فمات في مكان يقال له واركلان، لسبع بقين من ذي الحجة بعد ما أسند وصيته إلى ولده المنصور رحمه الله.

الخبر عن ولاية المنصور بن بلكين بن زيري

استقل بالأمر بعد وفاة أبيه وكان ببلد أشير، فأخذ البيعة عن الأجناد وأطاعه الخاص والعام وخرجت الأوامر عن أمره، وبعث إلى العمال

ونفذت كلمته، وكان رجلاً عاقلاً عفيفاً عن الدماء، يحب الرفق بالأمور، فجبلت الناس على محبته، ومهد الأمور بتدبيره، وجلب القلوب بإعطائه وتبذيره، ووفدت إليه العمال بالهدايا فقبلهم أحسن قبول وعمهم بالعطايا، وخرج من القيروان القضاة والأمناء ووجوه الناس قدر مائتي رجل لتهنئته بالملك وتعزيته في أبيه، فوصلوا إليه بأشير فوجدوه خارج البلد على جبلها، فسلموا عليه وقبلوا يده ودعوا له، ففرح بهم وأنزلهم منزلاً حسناً.

وفي ثاني يوم من وصولهم، جلس لهم مجلساً عظيماً ودخلوا عليه وهو في زي عجيب من ضخامة الملك، وأوقف حوله الصقالبة والأجناد وأظهر لهم من أبهة الولاية ما أبهر عقولهم وقال لهم: - يعز عليّ حركتكم في هذا الزمان، إلا أن سروري برؤيتكم أحب إليّ من الدنيا وما فيها -. وأمر لهم بعشرة آلاف دينار ففرقت فيهم، وفي خامس يوم من وصولهم أمر بهم فدخلوا عليه فلاطفهم ومما قال لهم: - إن أبي وجدي كانا يأخذان الناس بالقهر وأنا لا آخذ أحداً إلا بالإحسان ولا أشكر على هذا الملك إلا الله سبحانه وتعالى - . ثم أمر لهم بالانصراف إلى بلادهم وأولى عبد الله الكاتب جميع إفريقية، والنظر في جميع أمورها على ما كان عليه في أيام أبيه.

وفي سنة أربع وسبعين وصل المنصور إلى رقادة، فتلقاه أهل القيروان بأجمعهم فسر بهم ووعدهم وعداً جميلاً، وأتته العمال من كل بلد بالهدايا، وأهدى إليه عامله على القيروان ما لا يدخل تحت حصر. وأمر بتجهيز هدية بعث بها إلى نزار من قبله بعد وفاة أبيه بلكين وكانت قيمتها ألف ألف دينار، وصام رمضان برقادة وأمر ببناء مصلى للعيد فيها، وخرج يوم العيد للصلاة في زي عجيب بسرج مكلل بالدر والياقوت.

وفي آخر ذي الحجة رجع إلى المغرب وصحبته عبد الله الكاتب خليفته على القيروان وخلف ولده يوسف بن عبد الله المذكور، وسلم إليه أعمال إفريقية قاطبة.

وفي هذه السنة يعني سنة أربع وسبعين وثلاثمائة ازداد للمنصور ولده

باديس وكنيته أبو مناد لإحدى عشرة خلون من ربيع الأول من السنة المذكورة وفيها بعث عسكراً مع أخيه يطوفت إلى فاس وسجلماسة لتغلب زيري بن عطية الزناتي عليهما، فالتقى العسكران فكانت بينهما مقتلة عظيمة وانهزم عسكر المنصور وبلغ أخوه منهزماً إلى أشير، فلم يتعرض المنصور بعد ذلك إلى بلد زناته.

وفي سنة ست وسبعين بنى قصراً له بصبرة فبلغ الإنفاق عليه ثمانمائة ألف دينار، وغرس حوله الأشجار من كل ناحية.

وفي هذه السنة قتل عبد الله الكاتب وولده يوسف وأعطى أعمال إفريقية لمولاه يوسف بن أبي محمد، وفيها دخلت عمال المنصور إلى بلد كتامة وجبوا منها الأموال ولم تكن قبل ذلك تدخل إليها، وفيها بعث نزار الخليفة بمصر هدية إلى المنصور، وفيها خالف عليه عمه أبو البهار ببلد تيهرت فزحف إليه المنصور بعسكره ففر أمامه إلى المغرب فدخل المنصور تيهرت فنهبها وطلب أهلها الأمان فأمنهم ورجع إلى أشير. وفي هذه السنة مات عامل صقلية عبد الله بن محمد بن أبي الحسين، وأوصى ولده يوسف من بعده، وأتاه سجل من نزار خليفة مصر بالولاية فصلحت أحوال صقلية في أيامه يعني أيام يوسف بن عبد الله.

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وصل المنصور بن بلكين إلى قصره الذي بناه في صبرة وعيد فيه عيد الأضحى، وخرج للناس يوم العيد في زي عجيب من المركوب والملبوس، ورفع عن أهل البادية بقية خراج، وكون مالاً عظيماً وعد ذلك من مناقبه.

وفي شهر ربيع الأول ختن ولده باديس وأهدت له العمال على قدر مراتبهم، وأتته هدية من عند ابن الخطاب عامله على زويلة فيها زرافة وطرف من أثاث السودان وشيء مستكثر. وقدم إليه عامل طرابلس بهدية جليلة فيها مائة حمل من المال سوى الخيل ولطائف المشرق. وفي هذه السنة وصل إليه سجل من المشرق بولاية ولده باديس من بعده فسر بذلك،

وفيها عزل عامله عن الأربض وسير إليها مولاه قيصر فوجد في المخازن التي للوالي المعزول ستمائة ألف قفيز من الطعام.

وفي ذي القعدة خرج متنزهاً إلى سردانية وخرج إليه الشيوخ من أهل القيروان وسألوه أن يعيد عندهم فأجابهم إلى ذلك. وفي سنة ثلاث وثمانين خرج ولده ولي عهده باديس إلى مدينة أشير ومعه جدته يعلان.

وفي سنة أربع وثمانين رجع من المغرب إلى المنصورية وكانت أول سفرة سافرها، فخرج إليه أبوه وأهل الدولة وجميع أهل القيروان فسلموا عليه وكان يوماً مشهوداً. وأتته من مصر هدية سنية ومعها الفيل فركب المنصور بعسكره وتلقاها. ولما كان يوم العيد خرج باديس لصلاة العيد والفيل أمامه وركب في موكب عظيم ولم يخرج معه أبوه ذلك اليوم. وأقاما بإفريقية ولم يرجعا إلى المغرب.

وفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة توفي المنصور يوم الخميس لثلاث خلت من ربيع الأول ودفن في قصره الكبير الخارج عن صبرة، وكانت إمارته نحو ثلاث عشرة سنة، وكان رحمه الله كريماً جواداً صارماً حازماً عاقلاً عادلاً بين الرعية وأيامه طيبة.

وفي هذه السنة في شهر رمضان كانت وفاة نزار خليفة مصر، وتولى بعده ولده الحاكم بأمر الله بعد وفاة المنصور بستة أشهر.

باديس بن المنصور

ومن الملوك الصنهاجيين باديس بن المنصور بن يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي وكنيته أبو مناد، تولى ملك إفريقية بعد وفاة أبيه المنصور في ربيع الأول سنة ست وثمانين وثلاثمائة، ورحل إلى قصره بسردانية في رجاله وعبيده وأتته الوفود بالتعزية في أبيه وتهنئته بالملك. واستقامت له الأمور، واحتفل بتجهيز هدية يرسلها إلى خليفة مصر فجاءه الخبر بوفاته في شهر رمضان كما ذكر، فبقيت بحالها في رقادة إلى أن سيرها باسم الحاكم.

وفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة عقد لعمه حماد بن بلكين على أشير والمغرب وجعله عاملاً على تلك البلاد. وفي هذه السنة جاء تسجيل من الحاكم بأمر الله إلى باديس ولقبه بنصير الدولة يخبره بوفاة نزار والده ويعزيه في والده المنصور، وبعث من أخذ البيعة عن باديس وأهل بيته من بني مناد.

وقلد باديس أمور إفريقية لمحمد بن أبي العربي، وخرج إلى المهدية متنزهاً، فقصد سوسة فأقام بها أياماً ولما وصل المهدية لعبت المراكب بين يديه ورمى النفاطون بالنفط، وأقام بها أياماً ورجع إلى صبرة.

وفي يوم العيد سنة سبع وثمانين وثلاثمائة خرج في زي لم ير مثله لمن تقدمه من آبائه وبين يديه الفيل وزرافتان وجمل أبيض ساطع البياض. وأرسل له الحاكم خليفة مصر هدية تشتمل على جوهر نفيس وأثاث وطرف من بلاد المشرق توله العقل، فتلقاها باديس ودخلت بين يديه لصبرة. وجاءه الخبر أن زيري بن عطية الزناتي خرج بالمغرب وقصده إلى بلد أشير، فجهز إليه جيشاً عظيماً وأرسله مع محمد بن أبي العربي عامله على إفريقية فالتقى بزيري بن عطية قريباً من تيهرت فكانت بينهما حروب انهزم فيها عسكر باديس واحتوى زيري بن عطية على جميع الأثاث والأثقال والمال والسلاح. فلما بلغ باديس خبر الهزيمة خرج بنفسه إلى قتال زيري بن عطية، فخرج من رقادة بعساكره وشيعه مشايخ البلد والفقهاء وأهل القيروان، وجدّ في سيره إلى أشير وكان زيري محاصراً لها، فلما بلغه خبر باديس رحل عنها وظل باديس في طلبه إلى أن ادخله المغرب وكر راجعاً إلى أشير. وفي هذه السفرة خالف عليه أعمامه وكانت بينهم وبينه حروب انتصر فيها باديس بعد ما كان بينهم الفناء. مات فيها سبعة آلاف من زناتة الذين كانوا مع أعمامه ورجع إلى القيروان منصوراً وبعث برؤوس القتلى فطيف بها في المنصورية والقيروان.

وقام في أيامه فلفل الزناتي، وعاث في جميع أعمال باديس وكانت له مع فلفل وقعات عديدة. وخرج عنه بعض الثوار بطرابلس فخرج بنفسه

إليه، واستنفذ طرابلس وولى عليها من قبله. وكانت أيامه كثيرة الحروب والثوار عليه من أعمامه ومن الزناتيين وكان منصوراً عليهم في أيامه.

وفي سنة ثلاث وأربعمائة جاءته هدية من الحاكم صاحب مصر وسجلات له ولولده المعز، فخرج باديس إلى لقائها وخرج ولده المعز ولم يكن خرج قبل ذلك ومعه القضاة وأكابر الدولة وترجل لها وقُرِئَتْ على الناس، وفيها إضافة برقة إلى ما بيده من الأعمال فأرسل عامله إلى برقة.

ولم تزل أيام باديس في مكافحة الأعداء ورحل إلى المغرب عدة مرات وكان مقداماً جواداً يعطي العطاء الضخم وكان محسناً لأصحابه ويعفو عن إساءاتهم. وخرج إلى المغرب لقتال زناتة فأدركه أجله على مدينة المحمدية آخر ليلة من ذي القعدة سنة ست وأربعمائة، فكتم أكابر دولته موته وتشاوروا بينهم، فاتفق رأيهم على تولية ولده المعز وكان صغيراً إذ ذاك لم يبلغ عشر سنين، فجعلوا باديساً في تابوت ورجعوا به إلى إفريقية بعد ما حلفت الأجناد لولده المعز وانقادت له أجناده بعد موته أحسن انقياد، وأوصلوه في تابوته إلى المهدية، وكان ولده المعز بها خرجت به جدته للنزاهة وجعلتها حرزاً لأموالها لما كانت ترى من الفتن في دولة ولدها باديس فاستوطنت المهدية.

وكانت ولاية بني زيري في مدينة أشير وانتقل المنصور بن بلكين إلى صبرة ثم ولده باديس كانت غالب أوقاته بصبرة، إلا إن أيامه كانت أكثرها حروباً. وأول من بويع من بني مناد بمدينة المهدية المعز كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

المعز بن باديس

ومن ملوك صنهاجة المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي، بويع الإمارة يوم وفاة أبيه أخذت له البيعة على الأجناد بمدينة المحمدية لثلاث خلت، من ذي الحجة سنة ست وأربعمائة وعمره إذ ذاك ثمان سنين وسبعة أشهر.

ولما وصل الخبر بموت باديس خرج عامل القيروان ومعه الفقهاء والشيوخ من أهل البلد وأكابر صنهاجة فوصلوا إلى المهدية وعزوا المعز في والده وهنأوه بالملك وكانت جدته تباشر الأمور وتصرف الأحوال من رأيها فأحسنت لأهل القيروان وأمرتهم بالرجوع إلى بلادهم، وركب المعز بالطبول ونشرت البنود على رأسه وقبل الوفود بأحسن قبول وظهرت عليه مخائل الملك وفرح الناس بما رأوا منه من العقل والنجابة وشمائل الكرم مع صغر السن، وقابل كل إنسان بما يليق به.

وفي أول المحرم وصل العسكر الذين كانوا مع أبيه وأتوا به محمولاً في تابوت فدفن وجددت له البيعة مع الأجناد، وركب المعز للقائهم وعرضت عليه أكابر الدولة وتعرف أحوالهم وأحسن إليهم ورحل من المهدية إلى مدينة صبرة فحل بها ونزل بقصره وفرح الناس بقدومه. ولما استقر بصبرة خرجت طائفة من القيروان وقتلوا جماعة من الشيعة لأنهم كانوا يتجاهرون بمذهبهم الخبيث، فقتلت نساؤهم وأولادهم وكانت فتنة بالقيروان من أجل النهب والقتل، ولجأت طائفة منهم بالجامع في المهدية فقتلوا فيه. وكان لا يرى بالقيروان أحد منهم في الطريق إلا ضرب ضرباً عنيفاً وربما قتل وأحرق. واجتمع منهم قدر ألف وخمسمائة رجل تحت قصر المنصورية واستعانوا بالمعز فأمر بالكف عنهم.

والمعز هذا هو الذي طهر الله تعالى على يديه إفريقية من مذهب الشيعة وإن كان من عمالهم، إلا إنه كان يتمذهب بمذهبهم. وحمل الناس في أيامه على مذهب الإمام مالك رضي الله تعالى عنه وقطع ما عداه. وكانت بإفريقية مذاهب الصفرية والشيعة والإباضية والنكارية والمعتزلة، ومن مذاهب أهل السنة الحنفية والمالكية فلم يبق في أيامه إلا مذهب الإمام مالك.

والمعز هذا لما اشتدت سلطته خرج عن طاعة بني عبيد وخطب لبني العباس كما سيأتي. وخرج عن طاعته عمه حماد بالمغرب وحاصر أشير فزحف إليه المعز بعساكر لا تحصى، وكانت بينهما وقعات وحروب انتصر

بها المعز على عمه، وآخر الحال رجع إلى الطاعة وبعث ولده بكتاب يسأل فيه العفو عما سبق منه فعفا عنه. وأجرى المعز على ابن عمه حماد في إقامته كل يوم ثلاثة آلاف درهم وخمسة وعشرين قفيزاً شعيراً لدوابه ودواب أصحابه، وخلع على أصحابه مائة خلعة وأعطاه ثلاثين فرساً بسروج الذهب ومن الثياب المثقلات ما لا يدخل تحت حصر، وأنفذه إلى حضرة أبيه وفرق عماله في جميع بلاد المغرب. وبعث إليه الحاكم خليفة مصر تجديداً بولايته ولقبه بشرف الدولة.

وفي سنة ثمان وأربعمائة بعث إليه مولاه صندل، وكان عاملاً على باغايه، هدية فيها ثلاثمائة وخمسة وثلاثون برذوياً بالسروج المحلاة، وعبيداً وشيئاً مستكثراً. وأهدى له الحاكم صاحب مصر سيفاً مكللاً بالدر ليس له قيمة وكتب إليه تشريفاً لم يكتب مثله لأحد من أجداده قبلاً.

وتوفيت جدته سنة إحدى عشرة وأربعمائة، فكفنها بما قيمته مائة ألف دينار وعمل لها تابوتاً من العود الهندي مرصعاً بالجوهر وصفائح الذهب وسمر التابوت بمسامير الذهب وزنها ألف مثقال وأدرجت في مائة وعشرين ثوباً وذر عليها من المسك والكافور ما لا حد له وقلد التابوت إحدى وعشرين سبحة من نفيس الجوهر. وقومت التجار قيمة ما صرف عليها فبلغ ما ذكرناه. وحملت إلى المهدية فدفنت بها، وأمر المعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاة فنحرت وانتهبها الناس، وفرق في مأتمها على النساء عشرة آلاف دينار. وصنع وليمة لعرسه سنة ثلاث عشرة وأربعمائة لم يكن مثلها لأحد في بلاد المغرب. ولما بدأ بالحركه للعرس نصبت القباب خارج المدينة ونشر ماهيأ من الأثاث والثياب، وحمل المهر على عشرة بغال كل بغل عليه عشرة آلاف دينار، وحضر من آلات الملاهي ما لا يوصف، وقوم حذاق التجار ما حمل للعروسة فكان أزيد من ألف ألف دينار. وبنيت له مصانع وقصور لم ير مثلها وصنع إيوانه الأعظم وبنى الخورنق تشبيهاً بخورنق النعمان بن المنذر بالعراق. وأيام ملكه أربت في الحسن على أيام بني مناد.

وفي أيامه اشتدت شوكة زناتة من ناحية طرابلس وكانت له معهم

حروب وله فيهم فتكات. قلت: والزناتيون هم الذين يثني عليهم عدد من العمال ويذكرون كثيراً من جملة أخبارهم عند ما يذكرون سيرة بني هلال وما جرى لهم مع خليفة الزناتي، ولأهل طرابلس اهتمام بسيرتهم حتى لا يذكر بينهم حديث إلا بها، وكذلك عند عوام أهل مصر لها صيت لاستماعها. والمعز كان أكرم أهل بيته بالمال وكان ديناً يجتنب سفك الدماء إلا في حق وكان رقيق القلب حديد الذهن عارفاً بعدد صنائع من الألحان والتوقيعات وعلم الأحجار، وله شعر جيد وهداه ملك الروم بهدية جليلة وفتح جزيرة جربة.

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أظهر الدعوة لبني العباس، وورد عليه عهد من الإمام القائم بأمر الله العباسي، وفي سنة أربعين وأربعمائة قطع خطبة بني عبيد وقطع بنودهم وأحرقها بالنار. وفي أيام المعز خرج غالب البلاد عن طاعته وكثر عليه المخالفون وخالفت سوسة وقفصة وباجة وخرج جل البلاد الغربية وفي أيامه كان ظهور لمتونة ببلاد المغرب واستولوا على جميعها وسيأتي بعض خبرهم إن شاء الله تعالى.

وفي أيامه جاءت العرب من المشرق وسكنوا بإفريقية وسبب دخول العرب إلى إفريقية أن المعز بن باديس لما قطع خطبة صاحب مصر وهو المستنصر بالله كان يسب بني عبيد سراً إلى أن صرح به على المنابر، وكان يكاتب وزير المستنصر ويستميله ويعرض له بالتحريف عليهم وإنما يكتب له تلويحاً لا تصريحاً، وكتب إليه قطعة بخط يده وتمثل فيها ببيت من الشعر وهو:

وفيك صاحبت قوماً لا خلاق لهم لولاك ما كنت أدري أنهم خلقوا

فقال الوزير لبعض أصحابه ألا تعجبون من صبي بربري مغربي يحب أن يخدع شيخاً عربياً عراقياً، وإنما أراد المعز أن يوقع بين الوزير وخليفته الشر، ولما خلع طاعة بني عبيد وجاءته الخلع من بغداد، أشار الوزير على المستنصر العبيدي بإرسال العرب، فأرسل المستنصر إلى عرب الصعيد الذين بمصر وأرسلهم إلى المغرب وأباح لهم من برقة إلى ما

بعدها وأعانهم على ذلك بمال وهم: رياح وزغبة وعدي بطون من بني عامر بن صعصعة، فلما وصلوا إلى إفريقية عاثوا فيها كيف شاؤوا وملئت أيديهم من النهب، فتسامعت بنو عمهم بذلك فطلبوا من الخليفة اللحاق بمن تقدمهم فمنعهم من ذلك إلا أن يعطوه شيئاً من أموالهم، فأخذ منهم أضعاف ما أعطاه لبني عمهم وسرحهم ولما وصلوا إلى المغرب كانت لهم وقعات مع زناته بإقليم طرابلس وكثر ضررهم وأفسدوا البلاد.

ولما قربوا من إفريقية خرج المعز في جمع من صنهاجة وزناتة فاجتمع له عسكر عظيم فالتقى معهم وكانت بينهم مصاف فخذلته زناتة وانهزمت صنهاجة، حتى لم يبق معه إلا عبيده وكان عدد العبيد عشرين ألفاً، وثبت المعز في تلك الحروب ثباتاً لم يثبته أمير هزم جيشه، وآخر الحال انهزم ورجع إلى المنصورية، وأقبل العرب حتى نزلوا بإزاء القيروان واقتتلوا بين رقادة والقيروان ومات بين الفريقين خلق عظيم. ولما رأى المعز ما حل به ركن إلى الصلح ورفع الحرب بين العرب وبينه وأباحهم دخول القيروان ليشتروا منها ما يحتاجون إليه وظن أنهم يرجعون إلى بلادهم، فلم يغن عنه ذلك وملكوا البلاد بأسرها واقتسموا برابرها وأفسدوا حواضرها وكان الخطب جليلاً. فلما رأى المعز كثرة ضررهم وعجزه عن دفع أذاهم رحل إلى المهدية وبها حشمه وكان ولده تميم والياً عليها، وخرج في رمضان سنة تسع وأربعين وأربعمائة، ونهبت العرب القيروان وكان ذلك سبب خرابها وجلاء أهلها عنها، ولما وصل إلى المهدية تلقاه ولده تميم وترجل له وقبل يده وأدخله البلد فسلم الأمر إلى ولده تميم في حياته، فقام بأمور الدولة أحسن قيام، وتوفي المعز سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، فكانت أيام ولايته تسعاً وأربعين سنة وكان من الكرم على جانب عظيم، قيل إنه أهدى لبعض أصحابه في يوم واحد مائة ألف وسبعين ألف دينار، إلا إن أيامه كثرت فيها الفتن وقام كل عامل ببلده وخرج عن طاعته، والملك لله وحده.

تميم بن المعز

ومن الملوك الصنهاجية تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن

بلكين بن زيري، مولده بالمنصورية سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وولاه أبوه المهدية سنة خمس وأربعين واستبد بالملك يوم وفاة أبيه، ودخل إليه الناس وهنأوه بما صار إليه وكثرت في أيام تميم الثورات من كل فج، فقام عليه أهل تونس وخرجوا عن طاعته فأرسل إليهم جيشاً عظيماً فحاصرها سنة وشهرين والقائم بتونس هو ابن خراسان فلما اشتد عليهم الحصار صالحوا عسكر تميم على ما رضي به تميم وارتحلوا عنها، وخالفت عليه بلد سوسة فحاصرها وفتحها عنوة وحقن دماءهم، وخرج عليه حمو بن فلفل البرغواطي ببلد صفاقس فخرج إليه تميم في جمع من البربر والعرب مثل زغبة ورياح فكانت بينهم مصاف وانتصر تميم وانهزم البرغواطي.

وفي أيامه طردت بنو رياح زغبة عن إفريقية وباعت القيروان من الناظر بن علاء الناس بن حماد وجاءت بنوقرة من ناحية برقة، ونزلوا بإزاء القيروان.

وفي سنة سبع وستين وأربعمائة اصطلح تميم مع الناظر بن علاء الناس وزوجه ابنته وأرسلها إليه في عسكر عظيم وبعث معها من الأموال والذخائر ما لا يوصف، وولى ولده مقلداً على طرابلس وتم الصلح بينهما. وقام عليه مالك بن علي الصخري بجمع كثير من العرب ونازل المهدية فقاومه تميم حتى رحل عنها خائباً إلى القيروان، فبعث إليه تميم بعسكر كثير فحاصره بها مدة فلما علم مالك أن لا طاقة له فر عن القيروان، وحاصر تميم قابس وصفاقس في وقت واحد وفي غيبته جاءت عمارة للمهدية من الجنويز والبلنسيان نحو ثلاثمائة مركب فنهبوا المهدية وزويلة وأضرموا النار في البلد ولم يكن بها مدافع لهم لغيبة الجند عن المهدية، وكان عدد الروم ثلاثين ألف مقاتل فغنموا ورحلوا عنها.

وفي أيام تميم كانت المجاعة العظمى بإفريقية والوباء الذي لم يسمع بمثله، وذلك سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وغالب أوقاته كان مقاوماً فيها لمن ثار عليه وقاسى حروباً مع العرب وبني عمه، وكان رحمه الله ذكياً مفرطاً في الذكاء وينظم الشعر ويجيز من مدحه ويحب المنادمة والاستماع،

ومن ندمائه ابن رشيق القيرواني وله فيه المدائح الطنانة، وكان أحلم بني مناد وأعفاهم عن الأمور العظام وأنقدهم للشعر، وله أخبار عجيبة أضربنا عنها خوف الإطالة. وفي أيامه استولى عدو الدين على جميع صقلية وكان ذلك سنة أربع وثمانين وأربعمائة، أعادها الله للإسلام.

وحيث انتهى بنا مساق الحديث إلى صقلية وإن كنا أتينا بطرف من ذكرها فيما تقدم وجب الآن أن نذكر طرفاً منها لزيادة الفائدة، ولكن على سبيل الاختصار وليكن المتأمل هنا على بصيرة من أن صقلية كانت تحت حكم إفريقية برهة من الزمان.

فأقول وبالله المستعان قد تقدم في أول الكتاب فتح الجزيرة على يد الشيخ البركة أسد بن الفرات من قبل إبراهيم بن الأغلب، في خلافة أمير المؤمنين عبد الله المأمون بن الرشيد، وتداولتها العمال من قبل بني الأغلب إلى أيام أبي عبيد، ولما كان الخليفة العبيدي وهو المنصور بالله ابن القائم بن المهدي متمكناً من البلاد الغربية وتم له الحكم على سائر أعمالها، عقد ولاية جزيرة صقلية للحسن بن علي بن أبي الحسن الكلبي وذلك سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، واستمر الحسن بها حتى مات المنصور وتولى ولده المعز، وأقبل الحسن إلى إفريقية واستخلف على صقلية ولده أحمد سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة، ووفد على المعز بجماعة من أهل صقلية فبايعوا المعز وخلع عليهم وأعاده إلى عمله.

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة بعث إليه كتاباً يأمره بختن أطفال الجزيرة وكسوتهم في اليوم الذي يختن فيه المعز ولده في مستهل ربيع الأول من السنة المذكورة، فابتدأ الأمير أحمد بختن أولاده وأخوته ثم الخاص والعام وخلع عليهم ووصلهم من المعز مائة ألف درهم وخمسون حملاً من الصلات ففرقت بين المختونين، وكانت جملتهم خمسة عشر ألف طفل.

وفي سنة اثنتين وخمسين بعث أحمد بسبي طبرمين بعدما فتحها وجملته ألف وسبعمائة ونيف وسبعون رأساً.

وفي سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة بعث المعز أسطولاً عظيماً وقدم عليه الحسن بن علي والد الأمير أحمد فوصل إلى صقلية وكان بينه وبين الروم حرب شديدة انتصر فيها الحسن وقتل من المشركين أزيد من عشرة آلاف، وغنم مغنماً عظيماً ومن جملته سيف منقوش عليه ـ طالما ضربت به بين يدي رسول الله ﷺ ـ فبعث به وبالسبي إلى المعز.

وتوفي الحسن سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وفيها استقدم المعز لدين الله الأمير أحمد من صقلية بماله وولده، واستخلف يعيش مولى أبيه علي الجزيرة، ولما وصل أحمد إلى إفريقية أرسل المعز علي بن الحسن نائباً عن أخيه أحمد، وبعث المعز الأمير أحمد مقدماً على أسطول إلى مصر، فلما وصل طرابلس اعتل بها ومات بها وبعث المعز إلى الأمير علي سجلاً بولايته بعد أخيه فمكث اثنتي عشرة سنة ومات في غزوته بالأرض الكبيرة بمكان يعرف بالشهيد عرف به لأن مقتله هناك.

وتولى ولده جابر من غير عهد من الخليفة وكان جابر سيء التدبير فعزله الخليفة وبعث مكانه جعفر بن محمد بن الحسين، وبقي والياً عليها حتى مات سنة خمس وسبعين وثلاثمائة.

وتولى أخوه عبد الله وتوفي سنة تسع وسبعين.

وتولى ولده أبو الفتوح يوسف بن عبد الله، وكان حسن السيرة وأصابه فالج فتولى ولده جعفر في حياته وأتاه سجل من الحاكم ولقبه تاج الدولة، وأحدث مظالم على أهل صقلية فخرجوا عن طاعته وحاصروه في القصر فخرج إليهم أبوه يوسف في محفة، وشرط للناس عزله وسكنهم وقدم عليهم أخاه أحمد ولقبه تأييد الدولة، وذلك سنة عشر وأربعمائة وبقي إلى سنة سبع وعشرين فخرج عليه أهل الجزيرة وقتلوه.

وتولى أخوه الحسن ولقبه صمصام الدولة واضطربت الأحوال في أيامه، وكثر الثوار فأخرجوا صمصام الدولة وانفرد كل إنسان ببلد فانفرد

القائد عبد الله بن منكوت بمازر وطرابني[1]، وغيرهما وابن الحواس بقصر يانة وجرثنة وغيرهما، والقائد ابن الثمنة بسرقوسة وقطانية، وقامت بينهم الفتن فانتصر ابن الثمنة بالإفرنج من مالطة وهو عليهم أمر المسلمين، وكان أمير النصارى اسمه روجار، فساروا مع ابن الثمنة إلى البلاد التي بأيدي المسلمين فحاصروها واستولوا على مواضع كثيرة من الجزيرة، فحينئذ فارق الجزيرة جماعة من العلماء وأتوا إلى المعز يستنجدونه فبعث أسطولاً للجزيرة فلم يغن شيئاً وذلك لاضطراب الجزيرة فلم يزل العدو يأخذ الجزيرة شيئاً فشيئاً ولم يثبت غير قصر يانة وجرثنة، فحاصرها الإفرنج أشد حصار حتى أكلوا الميتة، فسلم أهل جرثنة وبقيت يانة ثلاث سنين ثم أذعنوا، واستغلب روجار على سائر الجزيرة في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ومات بعلة الخوانيق وعمره ثمانون سنة. وتولى بعده ولده فأربى عليه في الخزي وسلك طريقة ملوك المسلمين من الجناب والحجاب وأسكن الإفرنج في الجزيرة مع المسلمين، وأكرم المسلمين وقربهم ومنع من التعدي عليهم، وكانت أساطيله مشحونة بالمسلمين والإفرنج وأخذ كثيراً من بلاد الإسلام وهو الذي أخذ المهدية وسوسة وجربة وطرابلس وامتدت يده في البلاد، وملك عدة جزائر في البحر وبلغت بعوثه إلى المشرق وملك انطاكية وكانت له فتكات، لعنة الله عليه.

وجزيرة صقلية من أجل الجزائر التي في البحر، وبها مدن عظيمة وأفخر مدائنها مدينة بليرم، وهي المدينة العظمى على ساحل البحر محدقة بها الجبال، وهي ثلاثة أسمطة وبها المدينة القديمة المسماة بالخالصة كانت مستقر السلطان. وكانت الخالصة في أيام المسلمين دار الصناعة لإنشاء المراكب ومكثت في أيدي المسلمين مائتين ونيف وسبعين سنة أعادها الله للإسلام. وما ذكرت هذه النبذة إلا لكونها فتحت على يد عمال إفريقية ولم تزل تحت الحكم إلى أن قدر الله بردها لأعداء الدين والسبب المفضي للهلاك التحاسد والفتن حسم الله هذه المادة عنا، لأننا في طرف منها عسى الله أن يعافينا وبلطفه يداركنا.

---

(١) وفي نسخة بوازر وطرابلس.

ولنرجع إلى ما كنا فيه من بقية أخبار تميم بن المعز، قال ابن أيوب: وتوفي تميم بن المعز صاحب إفريقية سنة إحدى وخمسمائة وعمره تسع وثمانون سنة، وأيام ولايته ست وأربعون سنة وعشرة أشهر وعشرون يوماً، وخلف مائة ولد ذكر وستين بنتاً وتولى ولده يحيى من بعده.

يحيى بن تميم بن المعز

ومن أمراء صنهاجة الأمير يحي بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن يوسف بلكين بن زيري بن مناد، تم له الأمر يوم وفاة أبيه وعمره حينئذ ثلاث وأربعون سنة فركب على العادة بأكابر الدولة، وغير لباس الحزن وفرق في الناس أموالاً ووعدهم بالجميل ففرح الناس به، ولما استوثقت له الأمور عدل في رعيته وجرد عسكراً إلى قلعة أقليبية ففتحها وكان أبوه لم يقدر عليها وبعث اسطولاً إلى بلاد الروم فغنمت، وكانت عمارته في البحر كل سنة منصورة، وكان يباشر الأمور بنفسه عارفاً بها، وكان رحيماً بالضعفاء مطالعاً لكتب السير وأخبار الزمان عالماً بالنجوم وحكامها وبصناعة الطب وينظم الشعر الجيد حسن الخلق، ودامت ولايته ثمان سنين وستة أشهر، وتوفي وعمره اثنتان وخمسون سنة مات فجأة أول ذي الحجة سنة تسع وخمسمائة، وخلف من الذكور ثلاثين ومن البنات عشرين، وكانت أيامه أيام عدل إلا إن ملكه دخلته القهقرى والمُلك لله الواحد القهار.

علي بن يحيى بن تميم

ومن أمراء صنهاجة الأمير علي بن يحيى بن تميم، تم له الأمر بعد أبيه باتفاق من جنده، وكان في صفاقس فارسلوا إليه خفية من أخوته فجاء إلى المهدية وقدم إلى القصر فتولى تجهيز أبيه ودفنه ودخل الناس عليه فهنأوه بالملك واستقام له الأمر، وابتدأ دولته بتجهيز أسطول إلى جربة فحاصرها وفتحها ولم تكن طاعت لمن سلف من أجداده مع سعة ملكهم وكثرة جيوشهم، وحاصر تونس وضيق عليها فصالحه صاحبها أحمد بن

خراسان على ما أراد، وبعث جيشاً إلى جبل وسلات فضايق به وفتحه عنوة وكان أهله إذ ذاك أهل فساد ونفاق.

وعصى عليه رافع عـامله على قابس، وبعث إلى رجـال صاحب صقلية، فدخل تحت طاعته وطلب منه الإعانة على الأمير علي بن يحيى واجتمعت لرافع جموع من العرب، وقصد المهدية وحاصرها فمكـر به الأمير علي باستجلاب نفوس الأعراب ووعدهم وأعطاهم فخذلوا رافعاً، فمر إلى القيروان واقتسمت العرب بينهم البلاد وقويت شوكة العرب في أيامه وكبرت بينه وبين صاحب صقلية الوحشة، فبعث إليه يهدده بغزوه المهدية، فهيأ الأمير على مراكب في البحر واستخدم الأجناد وكثر من الرجال وعمر المدينة وأخذ أهبة الحرب، ومشت بينهما مراسلات بالتهديد من الجانبين وأراد علي أن يستنصر بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، لأن الأمير علياً علم أنه ليس له طاقة بصاحب صقلية فأخذ بالحذر منه بقية حياته إلا إنه وقع بينهما الصلح في الظاهر دون الباطن.

وفي أيام علي دخل محمد بن تومرت إلى المهدية وغير بها المنكر وسيأتي خبره، وتوفي الأمير علي سنة خمس عشرة وخمسمائة من مرض أصابه، وفوض الأمر في حياته لولده الحسن وعمره اثنتا عشرة سنةً، وبويع يوم وفاة والده والله يرث الأرض ومن عليها.

الحسن بن علي بن يحيى

ومن أمراء صنهاجة الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، تم له الأمر يوم وفاة والده وقام بتدبير دولته القائد صندل مولاه وركب على عادته وطاف البلاد وفرح الناس به وفرق أموالاً في العبيد والأجناد وخلع على أصحاب دولته وأكابر أجناده.

وفي أيام الحسن تحرك صاحب صقلية على أخذ المهدية ومنته نفسه أن يستأصل إفريقية، فحشد من جميع البلاد وجمع جيشاً عظيماً وبعث بأسطول عظيم إلى المهدية، فلما أحس الحسن بمجيء أهل صقلية أرسل

إلى البلاد واستعد لهم استعداداً كلياً، واجتمعت له مائة ألف رجل وعشرة آلاف من الخيل، ونزلت طائفة من النصارى من الأحاسي وتحصنوا بقصر الديماس، فأنذر المسلمون بهم فأخذوهم. وكان عدد المراكب الواردة من صقلية ثلثمائة مركب منها ما هو مشحون بالسلاح وآلات الحرب ومن الخيل ألف فرس وفرسان، وكان غالب المراكب عطبت قبل وصولها من شدة هيجان البحر، فلم يرجع منها إلى صقلية إلا قدر مائة مركب ولم ينج من الخيل إلا فرسان.

وفي أيام الحسن قصد صاحب بجاية أخذ المهدية لأنه سمع بالأمير الحسن أنه صالح الملك روجار الرومي صاحب صقلية ووقعت بينهما الهدنة، وكان ذلك لأن الحسن أرسل إليه بهدية وصالحه مخافة من شره، فتم الصلح وشرط اللعين عليه شروطاً فقبلها، فكاتب أهل المهدية يحيى بن العزيز الحمادي صاحب بجاية وأطمعوه بتسليم البلد فوثق بهم وبعث إليها جيشاً في البر ومراكب في البحر، وبعث مقدم الجيش الفقيه مطرفاً فنازلها براً وبحراً وجاءته العربان من كل فج ولم يكن له أرب في القتل لاطماع أهل البلد إياه، وطال الحصار على أهل المهدية واتصل الخبر بروجار صاحب صقلية فبعث أسطولاً عظيماً لنصرة الحسن وأمر المقدم على الأسطول أن يقف عند أمر الحسن ونهيه، فلما جاء أسطول اللعين وانتشر حول المهدية طاح ما بيد صاحب بجاية وأراد النصراني أن يعكس مراكب أهل بجاية فمنعه الحسن وأمره بالكف عن القتال لأنه كره سفك دماء المسلمين، وفرت مراكب بجاية بالخيبة ورحل الذين كانوا منازلي المهدية من البربر بعد إقامتهم عليها سبعين يوماً وذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة، ورجع الأسطول إلى صقلية وكتب الحسن كتاباً إلى الملك روجار يشكره على فعله وأنه داخل تحت أمره ونهيه، فتأكدت بينهما المخالصة وعند ذلك استقامت أمور الحسن.

وفي هذه السنة أرسل عدو الله روجار أسطولاً إلى جزيرة جربة مشحوناً برجال المسلمين من أهل صقلية ورجال من الإفرنجيين بعدد وقوة

عظيمة، ونازل جزيرة جربة وأخذها عنوة بالسيف وقتل رجالها وسبى حريمها وباعهم في صقلية، ورجع إليها من سلم ودخل تحت طاعة روجار وولى عليها عاملاً من قبله وكتب لهم أماناً من عنده وجعلهم خولاً له، ودانت له بلاد المهدية وجربة وخافته البلاد كلها.

وتشمخ اللعين بأنفته والحسن في غالب أوقاته يدافعه عن نفسه بالتي هي أحسن إلى أن كانت سنة ست وثلاثين وخمسمائة ابتدأت بينهما الوحشة بسبب مال استسلفه الحسن من بعض وكلاء اللعين وماطله به. فبعث مراكب إلى المهدية وأظهر شره فدافعه بالحسنى وأهدى إليه عدة أسارى، فلم تغن عنه شيئاً وأرسل الحسن رسولاً إلى الملك روجار ولاطفه، وشرط اللعين شروطاً على الحسن فقبلها ودخل تحت طاعته وجعله عاملاً من عماله وهادنه هدنة مكر.

وفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة نازل اللعين مدينة طرابلس فهزموه ولم يتعلق منها بشيء، وفي هذه السنة بعث إلى جيجل فأخذها عنوة وسفك دماء أهلها وسبى حريمها وأحرقها بالنار، وهي من عمالة بني حماد من ولاة بجاية. وفيها ملك جزيرة قرقنة وسبى أهلها وباعهم في صقلية، ومن سلم ورجع لها دخل تحت طاعته وخافته جل البلاد الإفريقية.

وفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة أرسل مائتي مركب إلى طرابلس وفتحها عنوة وقتل وسبى وعفا عن الباقين وأحسن إليهم وأمن من جاء هارباً وأذعنوا لطاعته، ولما ذاع خبر طرابلس خافته جميع البلاد الإفريقية، وكتب إليه صاحب قابس يتضرع إليه ويتلطف وسلم له ما تحت يده ورضي أن يكون عاملاً، فكتب له سجلاً بذلك وبعث له ما يتشرف به من تشاريف النصارى وجبى أموال قابس من تحت طاعته. قلت: أعوذ بالله من الخذلان وإلا كيف تعد هذه الطائفة من حزب المسلمين وإنما هي من حزب الشيطان لكن حب الدنيا والرياسة ألجأتهم إلى هذه الرذائل وحبك الشيء يعمي ويصمي. وفي هذه السنة كان القحط بإفريقية حتى فر غالب الناس إلى صقلية.

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة استعان معمر بن رشيد بالحسن صاحب المهدية وبجمع من الأعراب على يوسف صاحب قابس وعاضده محرز بن زياد، فحاصروا قابس وقتلوا يوسف عاملها واحتوى محرز بن زياد عليها. وفر القائد عيسى أخو يوسف إلى صقلية وأعلم النصراني أن الحسن ممن أعان على يوسف فأنف اللعين من ذلك لكون كل منهما تحت طاعته فعول على غزو المهدية فحشد جيشاً عظيماً وبعثه في مراكب مشحونة بالسلاح وآلات الحرب، فدهموا المهدية على حين غفلة فانذهل الناس عندما رأوا الأسطول، ففرت الناس ولم يكن لهم مدافع، وفر الحسن دون قتال وحمل أهله ومن ساعده وخلف ذخائر وبعض أهله وتوجه إلى المعلقة التي بمقربة من تونس ونزل عند محرز بن زياد فرحب به وأكرم مثواه، وأما أهل البلد فتراجعوا عنه.

وأما المقدم على الأسطول لما دخل المهدية أمر بالكف عن القتل والنهب ونادى في الناس بالأمان ومن له مسكن رجع إليه وهدن أهل البلد وأحسن لمن رجع واحتوى على ذخائر الحسن وأثاثه ما لا يوصف، ولقي بعض أولاده وأهله وأمهات أولاده يعني أولاد الحسن فأحسن إليهم وأرسلهم لصقلية وعمر عدو الله المدينتين زويلة والمهدية ودفع للتجار رؤوس أموال وأحسن لفقهائهم وجعل قاضياً مرضياً يحكم بين الناس ومهد قواعد البلدين وبعث في أثناء ذلك بجيش أحدهما لسوسه والآخر لصفاقس، أما أهل سوسه فسلموا له البلد دون قتال فاحتوى عليها عدو الدين ونهبها وأعاد لها أهلها، وأما أهل صفاقس فدافعوا عن أنفسهم بقدر طاقتهم وأخذها العدوعنوة وأخذ ما فيها ورد إليها أهلها وأحسن إليهم وأولى عليهم ولاة من قبله.

وجاءته وفود العرب وأكابرهم فدخلوا في طاعته واستوثق له الحكم على أكثر البلاد وجبى خراج رعاياها برفق منه وإحسان واستمال الناس وسار فيهم سيرة حسنة بالرفق بهم ونازل قلعة إقليبية فلم يقدر عليها لتجمع أكثر العرب فيها. ولم تزل هذه البلاد بيد اللعين إلى أيام أمير المؤمنين

عبد المؤمن بن علي، فاستنقذها من أيديهم سنة خمس وخمسين وخمسمائة وورد الأمير الحسن إلى المهدية كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

والأمير الحسن هو آخر الصنهاجيين من بني مناد. وأول من ملك إفريقية بلكين عند رحيل المعز إلى مصر كما سبق في أول الكتاب وإن كان زيري ومناد ملكين فإنهما لن يتصرفا في عمل إفريقية.

وعدد من ملك منهم إفريقية ثمانية آخرهم الحسن، إلا إنه لم يبلغ ما بلغ من قبله لأن ملك من تقدم من أجداده من برقه إلى تلمسان وما وراء ذلك، وقسمت البلاد بينهم بعد موت المنصور بن بلكين فقام حماد ابن بلكين على ابن أخيه باديس وجرت بينهما عدة وقائع.

واحتوى حماد على البلاد الغربية وصارت بلد بجاية دار ملك بني حماد، كما أن بني زيري دار ملكهم أولاً المنصورية ثم انتقلوا إلى المهدية في زمن المعز عند دخول العرب وقد تقدم. ومدفنهم في بلد المنستير بقصر السيدة، وكان لهم ناموس عظيم وعساكر عديدة وبلغوا رتبة السلاطين. قلت وأنا استغفر الله: إن بني حفص لم يبلغوا ما بلغوا وإن كان ذكرهم عند الناس أكثر إلا النادر منهم وكون بني حفص خطب لهم بأمير المؤمنين ولم يخطب لبني مناد بأمير المؤمنين وكانوا كلهم أهل نجدة وشجاعة وإحسان ومعروف.

والحسن هذا الذي هو آخرهم كان قوي النفس مجتمع الفكر لا يتزحزح لعظام الأمور ولا يتضعضع لنوائب الدهور، مستوقد الذهن شجاع القلب كريم النفس حسن الفروسية ينظم الشعر، إلا إن أيام ملكهم أخذت في الإدبار. وانقطعت كواكب سعودهم وأفلت عن منازلهم الشموس والأقمار. وهذه الدنيا لا يدوم نعيمها. ولا ييأس سقيمها. وبهذا جرت عادة الله في خلقه إنما الدهر دول بعد دول لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ولنختم هذا الباب بفائدة وهي أن عبيد الله المهدي لما أراد بناء

المهدية ووضع أول حجر منها أمر أن يرمى بسهم من عند الحجر إلى ناحية المغرب فانتهى إلى المصلى فقال المهدي: إلى هاهنا يبلغ صاحب الحمار، يعني أبا يزيد الخارجي، وأمر بقياس مسافة الرمية فكانت مائتين وثلاثاً وثلاثين ذراعاً. فقال: هذا عدد ما تقيم بأيدينا والبناء سنة ثلاث وثلثمائة وأخذت سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، فاتفق الحساب كما قال تقريباً أو تكون سنين شمسية فالحالة بينهما قريبة على ما أخبر به.

وذلك أن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنه قتل سنة إحدى وستين ولم يكن لبني فاطمة بعده ملك إلى أيام ظهور بني عبيد واستقرارهم في الخلافة، لأنهم يجعلون ابتداء أمرهم بناء المهدية فالمدة التي بين مقتل الحسين وابتداء الملك مائتان وأربعون سنة فتكون أيام دولتهم بقدر ذلك لأن دولتهم انقرضت بأخذ المهدية وإن بقيت بقية منها بمصر في تلك المدة، لأن العاضد توفي سنة سبع وستين وخمسمائة، فإن المهدي لم يخبر بدوام الملك لهم إلا بدوام المهدية وإذا خرجت خرج الملك عنهم فكان كذلك لأن المدة الزائدة كان فيها اضطراب فلا يعد.

ومن ذلك أن المعز لدين الله لما أراد أن يتوجه لمصر قال لبلكين: يا يوسف إعلم أن المهدية دار ملكك وصيانة ذريتك وملكك ملتصق بملكنا فمتى خرب ملك المهدية خرب ملكنا، لأن ملك المهدية خرب بموت علي والد الحسن فإن الحسن لا يعدونه سلطاناً لانخلاعه من الملك وخروجه عن سلطنته كما أنهم لا يعدون من الخلفاء من كان بعد الآمر بأحكام الله، لأن الآمر هو العاشر من الخلفاء على نسق واحد أب عن جد، ومن بعده خرجت لابن عمه وكذلك جعل بعض من يتعاطى هذا الحساب أن العشرة من الخلفاء الذين هم على نسق واحد يقابلونهم بعشرة من صنهاجة على نسق واحد أولهم مناد وآخرهم الحسن، وإن أردت فاسقط الثلاثة الذين حكموا بالمغرب وعد من الذي أخذ مصر وهو المعز إلى الآمر بأحكام الله تجد سبعة على نسق واحد فقابلهم بسبعة من صنهاجة أولهم بلكين لأنه تقدم من قبل المعز على إفريقية.

وكما أن المعز أول المصريين فيوسف أول من تملك في الإفريقيين إلى علي، فيكون العدد سبعة سلاطين وسبعة خلفاء كلهم مستقل غير مغلوب عليه. وهذا علم لا يعلمه إلا الله وما ذكرت هذا الكلام إلا لأن مثله لا يصدر إلا بإلهام من الله أو إخبار عن مصدق وأن نبت هذا الكلام عن هؤلاء القوم فهم عندي من أهل بيت النبـوة بلا شك والله حسيب من طعن في نسبهم بلا دليل ثابت. وهذه الأخبار تكون لهم من الكرامات ورأيت كثيراً من التواريخ تثني عليهم بالمحاسن الجميلة والعلوم الجليلة إلا ما قل منهم والبعض يخرجهم عن دائرة الإسلام لإظهارهم مذهب الشيعة والغلو فيه والتنقص من أصحاب رسول الله ﷺ وأهل البيت يجل قدرهم عن الرذائل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. انتهى خبر صنهاجة وتتلوه الدولة الحفصية.

الباب السادس

في الدولة الحفصية

فيه فصلان: الفصل الأول في ذكر من تولى من الخلفاء بالمغرب ودانت له البلاد، ومن بلغ درجة الملك ولم يبلغ درجة الخلافة، ومن بلغ درجة الخلافة ولم يتسم بها ومن بلغها وتسمى بها ومن لم يبلغها وتسمى بها، وكيف اتصل الأمر ببني حفص ليكون توطئة لأخبارهم. ويعلم المتأمل مبتدأ أمرهم إذا سرح طرفه متتبعاً لآثارهم. والفصل الثاني في كيفية اتصالهم بالملك وبعض أشياء من أخبارهم وسيرتهم ومحاسنهم.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الأول

من تولى من الخلفاء بالمغرب ودانت له البلاد

إعلم إيها المتأمل أصلح الله أحوال الجميع أنه تقدم ما نقلته وأوردته هنا، أن إفريقيا لما فتحت في صدر الإسلام كانت دار الإمارة بالقيروان ومن هناك تخرج العمال إلى آخر المغرب ومنها فتحت الأندلسية وصقلية.

ولما كانت سنة خمس وثلاثين ومائة دخل عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي إلى الأندلس فارا من بني العباس لما سلبوهم ملكهم، فاستحوذ على بلاد الأندلس واستقل بها ودامت في أيدي بني أمية، وخرجت الأندلسية عن طاعة بني العباس فلم تكن لعمال إفريقيا عليها يد.

وقال بعض المؤرخين: بويع أمير المؤمنين هارون الرشيد بإجماع الأمة ما عدا جزيرة الأندلس وذلك لبعدها والبحر حائل بين المملكتين.

وفي سنة ثمانين ومائة ظهر بنو إدريس في المغرب وبايعهم خلق من البربر واستخلفوا هناك وتسموا بأمراء المؤمنين ولكن لم يبلغوا درجة الخلافة، ولما ظهر بنو عبيد بالمغرب وقعدوا مقعد الخلافة، نازعوا

الأدارسة في أعمالهم وأنزلوهم منزلة عمالهم، واستحوذوا على أكثر ما بأيديهم إلى أن ساروا إلى بلاد المشرق وخلفوا صنهاجة عمالاً لهم وملكوهم بلاد المغرب، فظهرت زناتة بالمغرب وتمسكوا بدعوة المروانيين، وكانت بينهم حروب مات من الفريقين ممن تمسك بالدعوتين خلق لا يعلمهم إلا الله تعالى. وخرجت عساكر بني أمية لبر العدوة وأحسنوا إلى من تمسك بدعوتهم وميزوا بين عمل هاشم وأمية إلى أول المائة الخامسة ضعفت فيها الدولتان، وقام بالمغرب عدة أقوام من المفسدين وقليل من المصلحين، فقيض الله سبحانه وتعالى دولة الملثمين صنف من البربر من لمتونة ويقال لهم «المرابطين» فملكوا بلاد المغرب بأسرها وكانت أيامهم مستقيمة إلى أن قام عليهم ابن تومرت المهدي. ولم يتسم أحد من لمتونة باسم السلطان إلا يوسف بن تاشفين تسمى بأمير المؤمنين وخطب له بهذا الإسم ولبنيه من بعده، وكان له سلطان بالمغرب وبلغ درجة الخلافة.

ولما قام عليه المهدي تسمى بأمير المؤمنين ولما مات أوصى بها لعبد المؤمن فورثها وأورثها بنيه وتمت لهم الخلافة إلى أن ظهرت بنو مرين وغلبوا بني عبد المؤمن تسموا بأمراء المؤمنين أيضاً إلى أن نزع الله ملكهم على يد الأشراف الذين قاموا عليهم قبل الألف من الهجرة. ولما ضعفت دولة بني عبد المؤمن بالمغرب وكثر اضطرابها، استقل بنو حفص بإفريقية وتسموا بالخلفاء، ولم يصل أحد منهم إلى رتبتها إلا ما قل منهم، وكانوا عمالاً لبني عبد المؤمن في السابق، واستقام أمرهم بإفريقية ودار ملكهم الحضرة العليا إلى أن وصل إليهم ما وصل لغيرهم وأتى عليهم ما أتى على غيرهم، واستولت الدولة الخاقانية على بلادهم. وطردوا القوم عن أوطانهم. وأوحشوهم بعد الإيناس. وتلك الأيام نداولها بين الناس.

فأقول: أول من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة بنو أمية المغرب كفعلهم بالمشرق.

وأول من تأمر بالأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد

الملك، فانحاز إليه كل أموي كان هناك، وقصد قرطبة دار الإمارة وقتل يوسف بن عبد الله الفهري بعد وقائع، واستولى على الجزيرة وأطاعته الأندلس بأسرها وملكها ثلاثاً وثلاثين سنة، وقاسى بها شدائد إلى أن توفي وتولى بعده ولده هشام بن عبد الرحمن فملكها سبع سنين وتوفي، وولي ابنه الحكم بن هشام فأقام والياً ستا وعشرين سنة ثم توفي، وولي ابنه عبد الرحمن بن الحكم وملكها إحدى وثلاثين سنة ثم توفي، وولي ولده محمد ابن عبد الرحمن فأقام والياً أربعاً وثلاثين سنة، وفي أيامه انتهى جيش المسلمين إلى مائة ألف فارس، منهم عشرون الفاً بدروع الفضة، وأنشأ في البحر سبعمائة عراب، ثم توفي وولي عبد الرحمن وتلقب بالناصر لدين الله وجلس مجلس الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين، وكان من تقدمه يخطب لبني العباس، ولما ظهر بنو عبيد وخطب لهم بأمير المؤمنين اقتدى بهم وأقام والياً خمسين سنة، منها خمس وعشرون في غزو وحروب وباقيها في الخلاعة والراحة، وبنى الزهراء فكملت في خمس وعشرين سنة.

وحصر الأمناء ما انفق عليها فوجدوه خمسة وثلاثين مداً من الدراهم القاسمية، سوى ما سخر فيها من الرعية وزوامله وزوامل أصحابه وأجناده ثم توفي. وولي ولده الحكم بن عبد الرحمن، فكانت خلافته خمس عشرة سنة ثم توفي. وولي ولده هشام بن الحكم وتلقب بالمؤيد وحجب له محمد بن أبي عامر، وكان في غاية الذكاء واستمال الجند وسار في الناس سيرة حسنة وبعث لكل عمل من يثق به وأحسن للرعايا فكانوا معه على كلمة واحدة. وحجر عن هشام وجعل بيت مال ونقل إليه أموال الخلافة، ولم يبق لهشام سوى الخطبة والسكة وينفذ الأمور ويظهر للناس أنها تصدر عن إذن الخليفة، وسمت همته إلى أن قاد العساكر إلى الروم ونال منهم ما لم ينله غيره من قبله ولا من بعده وقادهم بنواصيهم وأنزلهم من صياصيهم، وجاءته من القسطنطينية ومن رومة الرسل والهدايا وطلبوا مسالمته وانزل قوامس قشتالة وجليقة منزلة عماله، وقبلوا سجلاته ودخلوا تحت طاعته وأقام على هذه الحالة ثماني وعشرين سنة وتوفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وأخباره دونت فيها عدة دواوين. وقام بالأمر بعده ابنه

عبد الملك وأقره هشام على ما كان عليه أبوه فأقام سبع سنين ومات وله عدة وقائع مع العدو وكان النصر له وسماه الخليفة الحاجب المظفر، وقام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن فعامل الأجناد والناس بالكذب وطلب من الخليفة أن يجعله ولي عهده ففعل ذلك فلما علم بنو أمية قاموا عليه وقتلوه وقتلوا هشاماً الخليفة معه، وقيل إن الخليفة اختفى ولم يظهر بعده. ولما سمع أهل الجزيرة ثار كل عامل ببلده فثار زيري بن زيري بناحية غرناطة، وعباد القاضي بإشبيلية، وإسماعيل بن ذي النون بطليطلة، وابن هود بسرقسطة، وابن الأفطس ببطليوس، وابن صمادح بالميرية، وابن مجاهد بدانية.

هؤلاء مشاهيرهم. وانقطع اسم الخلافة واشتعل الحرب بين الأمراء وتفرقت كلمتهم وحارب بعضهم بعضاً وكثرت الفتن وانبسط عدو الدين في الجزيرة وبلغ منهم كل مبلغ ما بين قتل وأسر، وآخر الأمر ألقى صاحب قشتالة على أهل الجزيرة الجزية فأدوها. وإنما أهلكهم التحاسد واختلاف الكلمة وها نحن في طرف من ذلك، حمانا الله من هذه الفتن بكرمه آمين. ولما ضعف الطالب والمطلوب من الأندلس وظهر ألفنش بن فردنند قوي عزمه وطمعه في البلاد وضايق على أهلها وكان يغري بعضهم على بعض ويعين هذا على هذا ويستأصل أموالهم، وهم مع ذلك منعكفون على الانهماك والمحاربة. وتسمى كل واحد منهم بغير اسمه كالمقتدر والمعتضد والمتوكل والمؤتمن وغير ذلك.

وكان ابن عباد أرسل إلى ألفنش رسولاً للمهادنة، فلاطفه الرسول بالكلام وأخذ يعتذر عن صاحبه فقال له ألفنش لعنه الله: - كيف يحق لي أن أبقي هؤلاء الحمقى يعني رؤساء الأندلس وكل واحد منهم تسمى باسم خليفة وهو لا يدفع عن نفسه ضراً ولا نفعاً - . قلت: رحم الله ابن رشيق حيث قال:

مما يبغضني في أرض أندلس ... سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب سلطنة في غير مملكة ... كالهر يحكي انتفاخاً صورة الأسد

ولم يزالوا في شرهم إلى أن تبدد شملهم.

ويحكى أن بعض رؤساء الأندلس أهدى لألفنش هدية قيمتها مائة ألف دينار فأعوضه عنها قرداً فكان يفتخر بذلك القرد. أعاذنا الله من الخذلان. وأول مدينة أخذها عدو الدين طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة. ولما ملك طليطلة تسمى لعنه الله بالأمبراطور ومعناه كالخليفة عند المسلمين، وأقسم لا يدع إلا من يدخل تحت طاعته. ولما رأى رؤساء الأندلس أن لا طاقة لهم بمدافعته، بعثوا إلى أمير المؤمنين يوسف ابن تاشفين ودخلوا تحت طاعته، فنصرهم على عدوهم وجلا عنهم ما كانوا فيه وسيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن الملوك الذين كانوا بالمغرب وهم الفواطم الذين يقال لهم الأدارسة، قاموا بالمغرب وامتدت دولتهم ولكن لم يبلغوا درجة الخلافة.

فأولهم إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، بويع بمدينة وليلى في رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائة، واستقام له الأمر وكثرت جموعه وذلك في خلافة هارون الرشيد، فيقال إنه بعث إلى عامله بالقيروان إبراهيم بن الأغلب، فبعث إلى إدريس من اغتاله ومات مسموماً وكانت أيامه خمس سنين وستة أشهر.

وبويع ولده إدريس بن إدريس وكان خلفه في بطن أمه،ولما كبر استقل بالأمر وكانت له عدة غزوات، وهو الذي بنى مدينة فاس وأسسها وصارت دار ملك الأدارسة، وتوفي سنة ثلاث عشرة ومائتين وعمره ثلاثون سنة.

وتولى ابنه محمد بن إدريس بن إدريس، بعد وفاة أبيه وقسم البلاد بين أخوته، وتوفي في ربيع الأول سنة إحدى وعشرين ومائتين، فكانت أيامه ثمانية أعوام.

وقام بالأمر بعده الأمير علي بن محمد بن إدريس بن إدريس، وسنه يوم بويع تسعة أعوام بوصية من أبيه لما يعرف فيه من الذكاء فسار بسيرة

أبيه وجده في إقامة الحق، وتوفي في رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين فكانت أيامه ثلاث عشرة سنة.

وعهد لأخيه يحيى بن محمد بن إدريس، فسار بسيرة أجداده، وكثرت العمارة في أيامه وقصده الناس من الآفاق، وبنى في أيامه جامع القرويين بفاس، ومات من كمد أصابه على حادثة جرت له يطول شرحها.

وقام بالأمر بعده الأمير علي بن عمر بن إدريس بعد وفاة ابن عمه، وقام عليه عبد الرزاق الخارجي فاقتتل معه فانتصر عبد الرزاق عليه، وفر علي المذكور أمامه، وملك عبد الرزاق مدينة فاس فكتب أهل البلد إلى يحيى بن القاسم بن إدريس، فقتل عبد الرزاق واستقل بملك فاس وتم له الأمر إلى أن خرج لبعض أعدائه فمات.

وخلف ابن عمه يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس، وكان أطيبهم ذكراً وأقواهم سلطاناً وعدلاً وكرماً حازماً بطلاً ذا صلاح ودين، ولم يزل على ملكه إلى أيام مصالة قائد الشيعة سنة خمس وثلاثمائة، فحاصره بفاس بعد المدافعة وصالحه عن مال وبايع لعبيد الله الشيعي.

وفي سنة تسع وثلاثمائة عاد مصالة للمغرب، فسعى يحيى لمصالة فأوثقه بالحديد وعذبه وسبى أمواله ونفاه إلى مدينة أصيلا، واستولى على فاس ريحان المكناسي ثلاثة أعوام، وقام عليه الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس سنة عشر وثلاثمائة، ومات في قتاله ابن أبي العافية لما تغلب على مدينة فاس، وخطب لبني مروان، ولما قدم ميسور الفتى قائد الشيعة فر ابن أبي العافية وتبعه ميسور بمن معه، وكانت بينهما حروب إلى أن قتل ابن أبي العافية، ورجع بنو إدريس إلى غالب بلادهم ما عدا فاس وتمسكوا بدعوة الشيعة.

وتولى القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس الملقب بكنون، وتوفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة.

وتولى ولده أحمد بن القاسم كنون وكان عالماً فقيهاً، وكان مائلاً إلى بني مروان، فقطع دعوة العبيديين، ودخل الأندلس بقصد الجهاد فمات هناك سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة.

وتولى أخوه الحسن بن كنون وهو آخر الأدارسة، ولا زال الأمر لبني مروان إلى أيام جوهر لما دخل المغرب فبايع الحسن لبني عبيد. ولما رجع جوهر إلى إفريقية نكث ورجع للمروانيين إلى أيام بلكين عاد إلى بني عبيد وآخره سلب ملكه ومات شريداً وبه انقرضت دولة الأدارسة من المغرب.

وأيام ملكهم تقرب من مائتي سنة، وبلادهم من سوس الأقصى إلى وهران، وقاعدة ملكهم مدينة فاس وكانوا يكابدون مملكتي هاشم وأمية. وتمكنت بعدهم يفرن وزناتة من بلاد المغرب وخطب بها للمروانيين والله أعلم بذلك.

وأما الذين تم لهم الأمر وبلغوا مبلغ الخلفاء هم الذين يقال لهم المرابطون والملثمون، قبيلة من البربر يقال لها لمتونة، ولمتونة فخذ من صنهاجة ولد عبد شمس بن وائل بن حمير، خلفهم إفريقش لما دخل المغرب فاستوطنوا إفريقية وصنهاجة وكتامة من دهاة البربر، والبربر قبائل لا تحصى وأكثرهم صحراويون وبلادهم في القبلة مسيرة ستة أشهر طولاً وأربعة أشهر عرضاً، ولا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فواكه وعيشتهم اللحم واللبن، يقوم أحدهم طول حياته لا يأكل طعاماً وأكثرهم على السنة والجماعة.

قلت والله أعلم هم الذين يقال لهم التوارق في هذا الزمان ويجاهدون السودان. وأول من تملك منهم بالصحراء تيولثان بن تيكلان، ملك الصحراء بأسرها ودانت له ملوك السودان وأدوا له الجزية، وكان يركب في مائة ألف نجيب، وكان في أيام عبد الرحمن الداخل، ودامت أيامه وعاش أزيد من الثمانين ، وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين.

وتولى حفيده الأفرين بن نصير بن فلويومان، فأقام بأمر صنهـاجة وتوفي سنة سبع وثمانين فكانت أيامه خمساً وستين سنة.

وقام من بعده بأمر صنهاجة نضيم بن الأثير إلى سنة ست وثلاثمائة، فقام عليه أشياخ صنهاجة فقتلوه، وتمزق شملهم ولم يجتمعوا على أحد نحو مائة سنة وعشرين سنة، إلى أن قام فيهم أبو عبد الله محمد بن تيفات اللمتوني، فاجتمعوا عليه وقدموه، وكان من أهل الدين والفضل والصلاح والحج، فأقام ثلاثة أعوام واستشهد بغارة، وهم قبيلة من السودان على دين اليهودية، وقدموا بعده صهره يحيى بن إبراهيم الكدالي، فأقام على رئاسته إلى سنة سبع وعشرين وأربعمائة، فارتحل إلى الحج واستخلف مكانه ولده إبراهيم بن يحيى على قبائل صنهاجة يدبر حروبهم مع أعدائهم.

ولما قضى يحيى حجه قفل إلى المغرب فاجتاز بالقيروان فلقي فيها الشيخ الولي أبا عمران موسى بن أبي حجاج الفاسي يدرس العلم، فجلس إليه وسمع منه فرآه أبو عمران محباً للخير، فسأله عن حاله وعن بلاده فأخبره عنها وعن أهلها. فقال: وما ينتحلون من المذاهب؟ فقال: إنهم قوم غلب عليهم الجهل. فسأله هل يعرف شيئاً من الكتاب والسنة فلم يجد عنده شيئاً، إلا إنه حريص على التعلم صادق النية، فقال له الشيخ: وما يمنعك من ذلك؟ فقال: يا سيدي غلب عنا الجهـل وليس عندنـا من يرشدنا، ولو وجدنا من يعلمنا السنة والقرآن لسارعنـا إليه، فـإن أردت الثواب فابعث معي من طلبتك من يعلمنا ولكم الأجر. فانتدب الشيخ طلبته فلم يجد فيهم أحداً فقال الشيخ: إني أعرف رجلاً ببلد نفيس من المصامدة تقياً صالحاً لقيني هنا وأخذ عني علوماً كثيرة اسمه وهاج بن زلوا العظي أكتب إليك كتاباً إليه يبعث معك أحداً من طلبته، فكتب له الشيخ كتاباً، فسار يحيى بن إبراهيم إلى الشيخ وهاج وناوله كتاب أبي عمران فانتدب لذلك رجلاً من طلبته يعرف بعبد الله بن ياسين الجزولي، وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الدين والعلم والصلاح، فخرج مع يحيى إلى بلاده فلما وصلا تلقتهم قبائل كدالة وفرحوا بهما.

ولما نزل ابن ياسين وحل بساحتهم رأى المنكرات فاشية، وإن الرجل منهم يتزوج ما شاء من النساء، فأنكر عليهم ذلك. وصار يعلمهم الكتاب والسنة وينهاهم عن المنكرات، فلما شدد عليهم تبرؤوا منه ونافروه ومع ذلك لم يجد عندهم من الدين إلا الشهادتين. فلما رأى عبد الله بن ياسين إعراضهم وتتبعهم أهوائهم أراد أن يرتحل عنهم. فقال له يحيى: يا سيدي إنما جئت بك لخاصة نفسي وما علي ممن ضل من قومي، ولكن إن كنت تريد الأخرة فهذه عندنا جزيرة في البحر إذا حسر الماء عنها دخلنا إليها على الأقدام فيها الحلال المحض من الشجر والسمك، ندخل إليها ونتعبد فيها إلى الموت فقال له: نعم، فدخلاها ودخل معهما سبعة أنفار من كدالة وبنوا بها رابطة، فأقام معه أصحابه يتعبدون، فتسامع الناس بهم وبخبرهم وأنهم يطلبون الجنة والنجاة من النار فكثر الواردون عليهم وأخذ عبد الله يعلمهم القرآن وشرائع الإسلام ويرغبهم في ثواب الله إلى أن تمكن من قلوبهم فسموا بالمرابطين لملازمتهم رابطة ابن ياسين، فلما اجتمع عنده ألف رجل قام فيهم خطيباً ووعظهم وحذرهم عذاب الله وقال لهم: الآن يجب عليكم قتال من خالفكم فقالوا له مرنا بما شئت، فقال لهم: اخرجوا لقبائلكم وادعوهم إلى التوبة فإن استابوا وإلا فقاتلوهم فخرج بهم إلى قبائلهم وأنذرهم وحذرهم سبعة أيام فلم يرجعوا عن غيهم فقاتلوهم، وأول من قاتلوا منهم كدالة فقتل منهم خلق كثير وأسلم الباقون، ثم لمتونة وأخذ يغزوهم قبيلة بعد قبيلة إلى أن هداهم الله واجتمعوا على الكتاب والسنة وما يجب عليهم، وقسم فيء القتلى على المرابطين وجعل بيت مال على مقتضى الكتاب والسنة، فتسامع به أهل الصحراء وانتشر عدله في بلاد السودان.

وتوفي الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي فقدم عبد الله بن ياسين يحيى بن عمر اللمتوني ليقوم بحروبهم وإن ابن ياسين هو الأمير على الحقيقة يأمر وينهى ولما قدم ابن ياسين يحيى وكان من أهل الدين والصلاح أمره بجهاد العدو.

ولما كانت سنة سبع وأربعين وأربعمائة بعث فقهاء سجلماسة ودرعة

إلى ابن ياسين يشكون إليه جور عاملهم، فغزاهم فوجد عاملها قد استعد له فكانت بينهما حروب انتصر فيها المرابطون وغنموا مغنماً عظيماً، وقسمت الغنائم وأخذ ابن ياسين الخمس، ومهد البلاد وجعل عليها عمالاً وأبطل المكوس وغير المنكرات ورجع إلى الصحراء. ومات الأمير يحيى فقدم عليه عبد الله بن ياسين أخا الأمير يحيى وهو الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني، وكان صالحاً متورعاً، فغزا بلاد المصامدة والسودان ففتح بلاداً كثيرة.

وبعث عبد الله بن ياسين العمال إلى ما تحت يده وأمرهم بالكتاب والسنة، وغزا بالمرابطين مجوس بني غواطه، وهم قبائل كثيرة على مذهب صالح بن طريف لما ادعى النبوة في زمن هشام بن عبد الملك، وشرح لهم ديناً وشرائع سخيفة لعنه الله تركناها خيفة التطويل، فقتل بين الفريقين خلق كثير واستشهد عبد الله بن ياسين في تلك الحروب رحمه الله تعالى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة. وكان رحمه تعالى شديد الورع لم يأكل من لحومهم وإنما يأكل لحم الطير، وكان ديناً حبراً رحمه الله تعالى.

واستقل بالأمر أبو بكر بن عمر اللمتوني وتمادى في غزوات بني غواطة فقتلهم وأستاصلهم، ففروا بين يديه للصحراء وتبعهم إلى أن احتوى عليهم وأسلموا إسلاماً جيداً. وكان أبو بكر ديناً لا يستحل دماء المسلمين فخرج إلى الصحراء لقتال من بها من كفار السودان.

واستخلف على المغرب عمه يوسف بن تاشفين، فخرج أبو بكر للصحراء وبقي يوسف بن تاشفين بنصف الجيش يمهد البلاد، واستقامت أموره، وذلك سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، وفتح غالب بلاد المغرب وكثرت جيوشه، وتوفي الأمير أبو بكر في الصحراء شهيداً سنة ثمانين وأربعمائة.

واستبد الأمير يوسف بملك المغرب كله لا ينازعه منازع، ودانت له البلاد، وكان على جانب عظيم من الدين ولباسه الصوف، ولم يلتفت إلى زخرف الدنيا، ولم يأكل إلا الشعير وألبان الإبل ولحومها مع ما أعطاه الله

من الملك، وملك جزيرة الأندلس والسودان والمغرب إلى جزائر بني مزغنة، ولم يجر في بلاده مدة حياته مكس ولا ما هو خارج عن الشرع، وخطب له على ألف وتسعمائة منبر، وبنى مدينة مراكش وجعلها مستقراً لملكه.

ولما شاع ذكره في الوجود، بعث إليه أهل الأندلس لنصرتهم لأن عدو الدين تغلب على أهل الجزيرة، وكان رسولهم المعتمد بن عباد، فلقيه في أحواز طنجة فشكا إليه بحال أهل الجزيرة وما عليها من الخوف والذل، فوعده بالمسير إليهم، وبعث إلى جميع أعماله يرغبهم في الجهاد ويستفزهم معه، فاجتمع له خلق عظيم ودخل إلى الأندلس بجيوش المرابطين بقصد الجهاد سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وكانت له بها الواقعة المشهورة بالزلاقة.

وكان عدد عسكر ألفنش لعنه الله فيما نقل ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل فلم ينج منهم إلا ألفنش ومعه أربعمائة مثقلون بالجراح، ولم يدخل إلى بلد قشتالة إلا في خمسين فارساً، وبعث يوسف إلى جميع البلاد بهذا الفتح وكان يوم الجمعة ثاني عشر رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وفيه يقول بعضهم من قصيدة:

لم تعلم الروم إذ جاءت مصممة   يوم العروبة أن اليوم للعرب

والعرب تسمي يوم الجمعة العروبة، وانصرف راجعاً إلى العدوة.

ودخل إلى الأندلس مرة أخرى في سنة إحدى وثمانين وأربعمائة فتلقاه ابن عباد بألف دابة تحمل الميرة فعاث في بلاد الكفرة وحرق وخرب ورجع إلى العدوة، فأقام إلى سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة، ثم دخل الأندلس أيضاً برسم الجهاد فلم يلقه أحد من رؤساء الأندلس وهموا بغدره ففطن بهم وكان عاهدهم أن لا يغدر بهم.

فلما أحس بمكرهم استفتى علماءهم فكلهم أفتاه بخلعهم أي خلع

أمراء الأندلس، وقالوا ليوسف: نحن خصماؤك عند الله لأن هؤلاء لا تجوز طاعتهم لما ارتكبوه من الفجور وانتهاك المحارم وضيعوا غالب البلاد. فغار عليهم يوسف وخلعهم واحداً بعد واحد وأخذ ابن عباد أسيراً وسجنه في أغمات إلى أن مات في السجن، ويحكى أن يوم موته نودي عليه الصلاة على الغريب. وروي أن بعض بناته تغزل بالأجر في بيوت بعض خدامهم، وابن ابنه يضرم النار في حانوت صائغ بعد ما كان ملكاً على إشبيلية وقرطبة، ودام ملكهم بها نحو ثمانين سنة، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ولما استوثق المغرب والأندلس ليوسف بن تاشفين تسمى بأمير المسلمين، وضرب الدرهم والدينار باسمه ونقش في الدينار ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ وتحت ذلك ـ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ـ وفي الوجه الآخر ـ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي، ولا زال يبعث جيوشه إلى الأندلس متفقداً لأحوالها إلى أن مات سنة خمسمائة وعمره مائة سنة رحمه الله تعالى.

واستقل بالأمر بعده ابنه أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين، بويع بمراكش يوم وفاة أبيه أول المحرم سنة خمسمائة، وتسمى بأمير المؤمنين، وملك جميع بلاد المغرب من بجاية إلى السوس الأقصى وبلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان، وجميع بلاد الأندلس وملك ما لم يملكه أبوه وخطب له على ألفي منبر وثلاثمائة منبر.

وأقام العدل وتولى الجهاد وسار سيرة أبيه وهديه، وفوض أحكام البلاد إلى القضاة ودخل الأندلس سنة ثلاث وخمسمائة فأقام شهراً على طليطلة. وكان في عسكره مائة ألف فارس، ففتح عدة قلاع ونكى فيها الروم وفعل بهم العجائب ورجع إلى المغرب. ودخل إلى الأندلس مرة ثانية بجيوش لا تحصى، فنزل على قرطبة وتفقد أحوالها وولى ابن رشد القضاء، وغزا عرب الأندلس ففر أمامه الروم وتحصنوا بقلاعهم وقتل وأسر

منهم خلقاً كثيراً لا يحصى، ورجع إلى العدوة سنة أربع عشرة وخمسمائة.

وفي هذه السنة ظهر الإمام المهدي محمد بن تومرت، ونازل مراكش وكسر عدة جيوش لعلي بن يوسف. ومن هذه السنة أخذ أمر المرابطين في التقهقر، ودامت أيام علي بن يوسف في حروب مع جيش المهدي إلى أن توفي سنة سبع وثلاثين وخمسمائة.

وتولى بعده ابنه تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، بويع بعد وفاة والده وجهز الجيوش لقتال عبد المؤمن وكابد في دولته أهوالاً شاقة، ولم يصف له الدهر بشيء لأن دولة عبد المؤمن في الإقبال ودولته أخذت في الإدبار ولم تكن له أخبار يذكر بها، كمثل من تقدمه من أهل بيته إلى أن توفي رحمه الله وهو في مكافحة أعدائه.

وهذه الدولة اللمتونية ويقال لها دولة المرابطين ودولة الملثمين أيضاً، كانت من أجل الدول بالمغرب، وملكت من البلاد ما ذكرنا وما لم نذكره خشية الإطالة، وحسمت دولاً كانت قبلها بالمغرب مثل مغراوة وبني يفرن ملوك فاس، ودولة القيام بالأندلس، ويقال لهم ملوك الطوائف، كإبن عباد وأمثاله، وأحسن أيامهم أيام يوسف بن تاشفين.

وناهيك أن إمام عصره وهو الشيخ الأكمل صاحب العلوم النفيسة أبو حامد الغزالي، كان عزم على دخول المغرب في أيام يوسف بن تاشفين فلما وصل الإسكندرية بلغه موت أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فرجع إلى المشرق. هذا لما سمع الشيخ عنه من الصلاح رحم الله الجميع آمين.

وقيل إنما خرب ملك لمتونة بدعاء الشيخ الغزالي، وذلك في أيام علي بن يوسف دخل كتاب إحياء علوم الدين للغزالي إلى المغرب، وظهر عند الناس ورأوا فيه تشديداً فهجروه وأنكره علماء لمتونة لأنهم كانوا غير عالمين بعلم الأصول فبلغوا في الإنكار فيه إلى أن أفتوا بحرقه وتمزيقه حيثما وجدوه، وتطلبوه عند الناس فمن أنكره حلفوه بالأيمان المغلظة

كالطلاق وغيره، ولما بلغ الشيخ الغزالي ذلك دعا عليهم بأن قال مزق الله ملكهم، وكان إذ ذاك في مجلسه محمد بن تومرت فقال: على يدي يا سيدي، فقال: وعلى يدك. فكان كذلك وانقرضت دولتهم كعادة الدهر ما عز دولة إلا وأعقبها بالقهر، والملك لله وحده لا إلاه غيره ولا معبود سواه.

ومن الدول التي كانت بالمغرب الدولة الموحدية والخلافة المؤمنية، وأصل مبدئها الإمام المهدي وأورثها عبد المؤمن بن علي وبنيه إلى أن بلغت لبني حفص وأنا أذكر طرفاً من ذلك بعون الله سبحانه وتعالى. ذكر المؤرخون أن المهدي اسمه محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن عام بن عدنان بن شعبان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطا بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وقيل هو دعي في هذا النسب ذكره ابن مطروح وقال هو رجل من المصامدة والله تعالى أعلم، وأول أمره كان متقشفاً مشتغلاً بطلب العلم فرحل إلى المشرق ولازم أبا حامد الغزالي ثلاث سنين، وحصل عليه علماً عظيماً.

وكان أبو حامد إذا رأى ابن تومرت يقول: لا بد لهذا البربري من دولة. فذكر بعض الطلبة لابن تومرت مقالة الشيخ وأخبره أن ذلك عند الشيخ في كتاب له، فلازم ابن تومرت أبا حامد إلى أن أطلعه على ذلك، فقفل إلى المغرب سنة عشر وخمسمائة، فما اجتاز ببلد إلا وغير فيه المنكر ويظهر الزهد في الدنيا والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدرس العلم إلى أن وصل إلى إفريقية وإلى المغرب وكان أوحد عصره في علم الكلام، فلما بلغ إلى بجاية وقيل تلمسان لقيه عبد المؤمن بن علي فانضاف إلى خدمته وأطلعه ابن تومرت على ما في مراده فبايعه على مؤازرته في الرخاء والشدة، فلما وصل إلى فاس قام يدرس العلم في بعض مساجدها إلى سنة أربع عشرة وخمسمائة، فارتحل عنها إلى مراكش فقصد مسجداً يأوي إليه وصار يمشي في الأسواق ويغير المنكر ويكسر المزامير.

فبلغ ذلك لعلي بن يوسف، فأمر بإحضاره فرأى تقشفه فسأله عن

فعله فقال له: ـ أيها الملك إنما أنا رجل فقير وغيرت منكراً وأنت أولى بذلك لقدرتك عليه ـ ووعظه وحذره. فلما سمع الأمير مقالته جمع له الفقهاء وأشياخ لمتونة وأمرهم بمناظرته، فأبكت الجميع وكان الغالب عليهم علم الحديث، وليس لهم علم بالأصول والجدل فلما أبكتهم لبسوا عليه وقالوا هذا رجل خارجي، فأمره الأمير بالخروج من المدينة، فخرج إلى الجبانة وبنى خيمة بين القبور وقعد فيها وأتته الطلبة يقرؤون عليه، وكثر تلاميذه وامتلأت قلوبهم بمحبته، وأعلم الخواص منهم بما يريد وأخذ يطعن في دولة المرابطين وأنهم كفرة مجسمون، أنه هو الإمام المهدي المنتظر فبايعه على ذلك ألف وخمسمائة رجل.

فبلغ خبره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف، فبعث إليه وقال له: ـ اتق الله في نفسك ألم أنهك عن هذا الجمع؟ ـ فقال له: أيها الأمير أنا امتثلت أمرك وسكنت بين القبور فلا تسمع لأقوال المضلين ـ فأغلظ له في القول وانتهره، ولما خرج من عنده قال له وزيره ـ هذا الرجل لم يرد بك إلا شراً اقتله وإلا فخلده في السجن وإن أبقيت عليه ليسمعنك طبلاً يسمع به في الخافقين، وأظن هذا هو صاحب الدرهم المربع ـ فبدا لأمير المسلمين فيه وأرسل خلفه من يوثقه فسمع بعض تلامذته فأتى حتى قرب من المهدي ونادى برفيع صوته ﴿يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾[1] ففطن المهدي وخرج على وجهه إلى أن وصل تينمال في شهر شوال سنة أربع عشرة وخمسمائة ·فلحق به أصحابه العشرة عبد المؤمن بن علي ـ وأبو محمد البشير ـ وأبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتي وهو جد الحفصيين الذين ملكوا تونس فيما بعد ـ وأبو حفص عمر بن علي ـ وسليمان بن خلوف ـ وإبراهيم بن إسماعيل الهرجي ـ وأبو محمد عبد الواحد ـ وموسى ابن تمار ـ وأبو يحيى بن مكيث، هؤلاء هم السابقون لدعوته، فبايعوه على الرخاء والشدة وأقاموا بتينمال إلى رجب سنة خمس عشرة وخمسمائة، فاجتمع عليه خلق كثير ولما رأى ذلك أظهر أمره وبايعوه بيعة رضى.

---

(١) الآية ٢٠، سورة القصص.

وأول من بايعه أصحابه العشرة، ثم بايعه أصحاب تينمال وسائر القبائل فأرسل من أصحابه إلى البلاد القاصية ودعوا الناس لبيعته وذكروا لهم فضائله، فدخل الناس في طاعته وأتوه من كل فج عميق وأعلمهم أنه الإمام المهدي المنتظر وجعل لهم توحيداً بلسان البربر، وسمى الذين دخلوا في طاعته الموحدين. ولا زال يخدعهم بمكر، إلى أن تمكن من قلوبهم فاجتمع عنده أزيد من عشرين ألفاً، فخطب بهم وندبهم لجهاد لمتونة فبايعوه على الموت، فانتخب منهم عشرة آلاف وبعثهم إلى مدينة أغماة فاتصل الخبر بأمير المسلمين فبعث إليهم جيشاً فهزمه أصحاب المهدي وأتبعوهم بالسيف إلى أن أدخلوهم مراكش، وأتوا بغنائمهم فقسمت بين الموحدين.

وانتشر خبر المهدي في جميع بلاد المغرب والأندلس وتمادى في قتال من خالفه، وجهز جيشاً آخر فحصروا مراكش ثلاثة أعوام وارتحل عنها، وذلك من سنة ست عشرة إلى سنة تسع عشرة. ولما رجع إلى تينمال استراح بها وخرج إلى أغماة وسائر من خالفه إلى أن دانت له البلاد، وبعث إلى مراكش جيشاً آخر وقدم عليهم عبد المؤمن بن علي وأبا محمد البشير، وجعل عبد المؤمن إماماً للصلاة فالتقى بهم جيش أمير المسلمين علي بن يوسف فهزموه، إلى أن ادخلوه مراكش وغلق الأبواب في وجوههم فحاصروه ثلاثة أيام. ورجعوا إلى تينمال فخرج المهدي إلى لقائهم وفرح بهم وعرفهم بما يكون لهم من النصر والفتح ومدة ملكهم، وأعلمهم أنه يموت في تلك السنة ثم بدأ به مرضه الذي مات فيه وقدم عبد المؤمن للصلاة، وتوفي في شهر رمضان سنة أربع وعشرين وخمسمائة، هذا ملخص خبر المهدي ولو تتبعنا خبره لطال الكلام وإنما أتيت بهذا القدر ليتمهد الأمر إلى دولة بني حفص. وللناس في أخبار المهدي عدة دواوين بين مكثرين ومختصرين ومقلين.

والمهدي ممن مهد الملك لغيره وباء بإثمه وشره، وكان حصوراً فيما قيل عنه وفخذاه ملتصقين إلى ركبتيه، ولا يركب على الدابة إلا متعرضاً والله أعلم بحقيقة أمره واستخلف بعده عبد المؤمن.

الخبر عن خلافة عبد المؤمن بن علي الكوفي الزناتي

هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي الكوفي الزناتي، كان أبوه نجاراً يعمل النوافخ، وعبد المؤمن تطلب العلم من صغره ولازم المساجد إلى أن اتصل بالمهدي فضمه إليه لما أراد الله سبحانه به. بويع بعد وفاة المهدي بيعة خاصة بايعه عشرة من أصحاب المهدي لما يعرفون من سجيته وتقديم المهدي له في حياته. وبويع البيعة العامة سنة ست وعشرين وخمسمائة ولم يتخلف عنه أحد.

وفي أيامه انقطعت دولة لمتونة من المغرب، وأول بلاد تادلا خرج إليها من تينمال في ثلاثين ألفاً من الموحدين، ففتحها وسبى، ثم غزا درعة ففتحها وبلاد فزان وغباثة ولا زال يفتح بلداً بلداً وقبيلة قبيلة ولم تزل الحرب بينه وبين علي بن يوسف إلى أن مات علي وتولى بعده ولده تاشفين، فقامت بينهما الحرب وجرت بينهما وقائع عديدة وسار عبد المؤمن إلى تلمسان فسبقه تاشفين إليها، فأتى عبد المؤمن إليها وحاصره بها وخلف جيشاً عنها ورحل إلى وهران، فخرج تاشفين خلفه ليدرك وهران، فمات تاشفين في تلك الخطرة وفتح وهران وأخذ تلمسان سنة أربعين وخمسمائة. وبعث إلى الأندلس جيشاً ففتحوا ما هنالك وبايعه أهل الأندلس وملك مدينة فاس.

وفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ملك طنجة وفيها ملك مدينة مراكش.

وفي سنة اثنتين وأربعين وفد إليه أهل إشبيلية بالبيعة وفيهم أبو بكر ابن العربي فسأله عبد المؤمن هل رأى المهدي عند الشيخ أبي حامد الغزالي؟ قال: ما لقيته ولكن سمعت به، فقال له: فما كان أبو حامد يقول فيه؟ قال: كان يقول لا بد لهذا البربري أن يكون له شأن.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة دخل عبد المؤمن سجلماسة وأمن أهلها ورجع إلى مراكش، ثم غزا بني غواطة فهزموه ثم كانت الكرة

عليهم، فأجال عليهم السيف حتى من لم يبلغ الحلم، وقام عليه أهل سبتة وخلعوا طاعته وذلك برأي القاضي عياض وبايعوا لابن غانية، فتحرك عبد المؤمن وقاتل أصحاب ابن غانية وهزمهم، فلما علم أهل سبتة كاتبوا عبد المؤمن وطلبوا منه الأمان فأمنهم وعفا عنهم وعن القاضي عياض وأمره بسكنى مراكش، وفيها فتحت مكناسة بعد محاصرتها سبعة أعوام ودخلها بالسيف. وفيها فتحت قرطبة وأخذها من يد لمتونة ومدينة جيان. وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة أخذ مليانة، وفيها فتحت مدينة بجاية ملك بني حماد بعد محاصرتها، ونزل صاحبها بالأمان فأمنه ونقله بأهله إلى مراكش.

قلت: الذي أخذت منه بجاية اسمه يحيى بن العزيز، والذين ملكوا بجاية وأولهم حماد بن يوسف بلكين الذي تقدم ذكره عند ذكر صنهاجة، وحماد هذا قام على ابن أخيه باديس وكانت بينهم ملاحم واستقل بعد ذلك بالبلاد الغربية واتخذ بجاية دار ملك، فبقيت في يد بنيه إلى زمن عبد المؤمن وأولهم حماد كما ذكرنا ثم ابنه القائد بن حماد ثم ابنه الآخر محمد بن حماد ثم بلكين بن محمد بن حماد ثم الناصر بن علاء الناس ابن حماد ثم ولده المنصور بن الناصر ثم ولده باديس بن المنصور بن الناصر ثم أخوه العزيز بن المنصور ثم ولده يحيى بن العزيز، وهو آخر ملوك بني حماد، وانقرضت دولتهم وملك عبد المؤمن جميع ما بأيديهم مثل بونة وجزائر بني مزغنة، وهي مدينة الجزائر اليوم، وقسمطينة وغيرها ورجع إلى مراكش.

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة بايع له أهل غرناطة.

وفي سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة تحرك أمير المؤمنين عبد المؤمن ابن علي من مدينة مراكش وقصد إفريقية بأمم لا تحصى، فوصل الزاب وبلاد إفريقية، فقتل من عصى وأمن من استأمن إلى أن وصل مدينة تونس فحاصرها ثلاثة أيام وارتحل عنها وترك جيشاً محاصراً لها، وسار إلى القيروان ففتحها وفتح سوسة وصفاقس، وارتحل إلى المهدية فحاصرها

سبعة أشهر وضايق عليها براً وبحراً ونصب عليها المجانيق وجعل قتالها نوباً ليلاً ونهاراً حتى فتحها وقتل خلقاً كثيراً من النصارى الذين كانوا فيها ورد إليها صاحبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم الصنهاجي، الذي أخذت منه المهدية، وكان لما فر منها قصد ابن عمه ابن حماد فلم يلق عنده مراده وهم بالقبض عليه ففر منه إلى الجزائر واستوطنها، إلى أيام عبد المؤمن لما قصد بلاد المشرق، فاتصل به الحسن وبايعه وسار معه إلى أن أخذ المهدية فرده إليه وخطب له بها.

وفتح مدينة تونس وخطب له بها وفتح جميع بلاد إفريقية من برقة إلى تلمسان، ولم يبق له منازع وفرق عماله وقضاته. وقيل فتح المهدية كان سنة خمس وخمسين والله أعلم. وفيها أمر عبد المؤمن بن علي بتكسير بلاد إفريقية من برقة إلى السوس الأقصى طولاً وعرضاً بالفراسخ والأميال، وأسقط الثلث من التكسير في مقابلة الجبال والأنهار والسباخ وما بقي قسط عليه الخراج، وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق. وهو أول من أحدث ذلك بالمغرب، وارتحل عن إفريقية إلى المغرب وأخذ من كل قبيلة من عرب إفريقية ألفاً وأدخلهم إلى المغرب بعيالهم.

وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس مستشرفاً على أحوال البلاد ورجع إلى مراكش. وفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة أمر بإنشاء الأساطيل في جميع بلاده وأراد غزو بلاد الروم براً وبحراً، فاجتمع له قريب من سبعمائة قطعة وأمر بضرب السهام في جميع عمله فكان يضرب له منها في كل يوم عشرة قناطير. واستجلب الأجناد والمطوعة من سائر عمله يستفزهم للجهاد، فاجتمع له ما لم يجتمع لغيره من بلاد إفريقية والمغرب والقبائل، واجتمع له من الموحدين وقبائل زناته ومن العرب أزيد من ثلاثمائة ألف فارس، ومن جيوش المطوعة ثمانون ألف فارس ومائة راجل فضاقت بهم الأرض.

. ولما استوفت له الجنود وتطاولت إليه الوفود ابتدأه المرض الذي توفي منه في جمادي الأخيرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وعمره ثلاث

وستون سنة، وأيام خلافته ثلاث وثلاثون سنة وخمسة أشهر، فسبحان الحي الدائم الذي لا يموت، ودفن بإزاء المهدي في تينمال.

وكان رحمه الله فقيهاً فصيحاً عالماً بالجدل والأصول حافظاً لحديث النبي ﷺ مشاركاً في علوم كثيرة الدينية والدنيوية وعلم النجوم واللغة والأدب والتاريخ وعلم القراءات، نافذ الرأي ذا حزم وسياسة وشجاعة وإقدام ميمون النقيبة لم يقصد بلداً إلا وفتحه. وكان سخياً كريم الأخلاق محباً لأهل العلم مقرباً لهم، وله شعر جيد وامتدحه بعض الشعراء وأظنه من بلد بنزرت بقصيدة أولها:

ما هز عطفيه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فلما انشد بين يديه هذا البيت أشار إليه بالسكوت وأمر له بألف دينار. ولما عاد إليه من الغد أنشده البيت المذكور فأسكته وأمر له بألف دينار. ولم يزل ينشده كلما دخل عليه فيأمر له بألف إلى أن أوصله بأربعين ألفاً. فحسده بعض الشعراء وقال له: - إلى متى وما يأمنك من تغيير أخلاق أمير المؤمنين وقد أوصلك بما فيه غناؤك - فارتحل من فوره إلى بلده. وسأل عنه عبد المؤمن فأخبر برحيله فقال: - لا حول ولا قوة إلا بالله لقد ظن بنا غير ما أردناه ولو طال مقامه لزدناه على ذلك - فقيل له: - لمَ لم تسمع تمام القصيدة؟ - فقال عبد المؤمن: - وما عسى أن يقول بعد قوله ما هز عطفيه (البيت). رحم الله هذه النفوس الأبية والأخلاق المرضية ماتوا وذكرهم لم يمت، سبحان الحي الدائم الذي لا يموت.

الخبر عن خلافة يوسف بن عبد المؤمن بن الكوفي الزناتي

بويع في الحادي عشر من جمادي الأخيرة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة بعد وفاة أبيه، وكان عاقلاً صالحاً مترفقاً في سفك الدماء حسن السياسة، أخذ منهج أبيه وسار بسيرته واستكثر من الجيوش ومهد البلاد وضخم الملك. وكان ملكه من قاصية إفريقية إلى السوس الأقصى إلى بلاد القبلة وبلاد الأندلس، تجبى إليه خراجها دون مكس ولا جور فكثرت

الأموال وأمنت الطرقات وكان يتفقد أحوال مملكته لا يتكل على أحد من وزرائه. وجاز إلى الأندلس سنة ست وستين متفقداً لأحوالها وأقام بها أربعة أعوام وعشرة أشهر ورجع إلى مراكش سنة إحدى وسبعين.

ودخل إفريقية سنة خمس وسبعين لقيام ابن زيري بقفصة، فنزل على قفصة وملكها وصلب صاحبها ابن زيري وعاد إلى مراكش.

وفي سنة تسع وسبعين جاز الجواز الثاني إلى الأندلس ونزل على شنتين غربي الأندلس فحاصرها حصاراً قوياً واستشهد هناك فحمل إلى تينمال ودفن هنالك بجنب قبر أبيه. وتوفي سنة ثمانين وخمسمائة وعمره سبع وأربعون سنة، وإقامته في الملك إحدى وعشرون سنة وأشهر وقام بالأمر بعده ولده يعقوب.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين يعقوب

هو المنصور بالله ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي.
كان يعقوب هذا أجل ملوك الموحدين ذا رأي وحزم ودين، محباً للعلماء ويحضر جنائزهم، ويزور الصالحين ويتبرك بهم، عالماً بالحديث واللغة مشاركاً في علوم كثيرة مواظباً على الجهاد، وهو أول من كتب العلامة بيده من ملوك الموحدين وعلامته «الحمد لله وحده» وكانت أيامه زينة الدهر والأمن في جميع عمله، حتى إن الظعينة تخرج من برقة إلى آخر المغرب ولا يتعرض لها أحد، وبنى المساجد في سائر عمله والمارستانات للمرضى وأجرى لهم الأرزاق. وخالفت عليه مدينة قفصة فوصل إليها سنة ثلاث وثمانين وفتحها. وغزا عرب إفريقية فهزمهم واستباح أموالهم ونقلهم إلى المغرب ورجع إلى مراكش دار ملكه.

وفي سنة خمس وثمانين جاز إلى الأندلس فنازل اشترين وأشبونة فنكى فيهما وسبى من النساء والذرية ثلاثة عشر ألفاً، ورجع إلى العدوة ونزل مدينة فاس، فأتته الأخبار أن الميورقي قام بإفريقية فرحل عن فاس ودخل إفريقية ونزل على تونس فوجد الأحوال ساكنة والميورقي فر أمامه

إلى الصحراء حين سمع بقدوم أمير المؤمنين يعقوب المنصور. قلت: ذكر ابن الشماع رحمه الله الميورقي ولم يستوفه من حقه وها أنا أذكره هنا لإتمام الفائدة: هو علي بن إسحاق بن حمويه الصنهاجي صاحب ميورقة ومنورقة ويابسة ثلاث جزر في البحر، توفي أبوه إسحاق سنة ثمانين وخمسمائة وخلف أولادا. فعلي هذا ويحيى أخوه خرجا إلى افريقية وصنعا العجائب بها، وأخوهما محمد خدم دولة الموحدين وأخوهم عبد الله وهو أصغرهم ملك ميورقة وعصى الناصر بن المنصور فتحرك إليه لما دخل إفريقية سنة اثنتين وستمائة. وحاصر الناصر ميورقة فمات عبد الله بن إسحاق في تلك الحروب فحمل رأسه إلى مراكش وعلقت جثته على سور ميورقة ولم تزل ميورقة في يد المسلمين إلى سنة سبع وعشرين وستمائة أخذها عدو الدين كما أخذ غيرها، أعادها الله للإسلام بمنه وكرمه.

وأما علي فإنه عاش بإفريقية عند اشتغال أمير المؤمنين يعقوب المنصور ببلاد الأندلس، فلما سمع به تحرك إليه في هذه السنة ففر أمامه ولما رجع أمير المؤمنين إلى المغرب رجع الميورقي إلى إفريقية وملك المهدية وتونس وعسف عماله على تونس وألزم أهلها مائة ألف دينار، ولم يزل متمادياً على حاله في الفساد حتى تحرك إليه الناصر بن المنصور وكانت له وقعات وحروب وسيأتي بقية خبره عند ذكر الناصر. وكان الميورقي شجاعاً مقداماً وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة في زمن بني حفص ذكره غير ابن الشماع.

ولما فر الميورقي إلى الصحراء رجع أمير المؤمنين يعقوب المنصور إلى المغرب، بعد ما سكن أحوال إفريقية ودخل تلمسان وأصابه مرض ورحل عنها ودخل فاساً فأقام بها حتى عوفي ورجع إلى مراكش فأقام بها إلى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وفيها اتصلت به الأخبار أن ألفنش عاث في بلاد المسلمين ولم يصده أحد واغتنم الفرصة في غيبته ومرضه، أي غيبة الخليفة المنصور، وفعل بالمسلمين الأوابد واستحوذ على أكثر معاقلهم، فانتدب المنصور جيوشه من الموحدين والأعزاز والمطوعة والمرتزقة وقصد الجواز إلى الأندلس فأرسل إليه النصراني كتاباً يقول

فيه: ـ من ملك النصرانية إلى أمير الحنفية أما بعد، فإن كنت عجزت عن الحركة علينا وتثاقلت عن الوصول إلينا فابعث إليّ مراكب من عندك أجوز فيها بجيشي إليك، فإن هزمتني فهدية جاءت إلى بين يديك وأنت أمير المؤمنين، وإن كانت لي عليك كنت أنا صاحب الملتين والسلام ـ . فلما قرأه أخذته الغيرة الإسلامية ورمى بالكتاب إلى ولده وولي عهده. فأجاب على ظهر الكتاب بتوقيع يده ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾[1] فسر المنصور بهذا الجواب ودخل الأندلس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وكانت له على الروم نصرة عظيمة قتل فيها منهم ما لا يحصى وكان ألفنش لعنه الله انضم إليه من جميع الأجناس حتى قيل: كان معه ثلثمائة ألف ما بين راجل وفارس، فهزمهم الله ونصر المسلمين ودخلوا حصن الأراك الذي سميت به الواقعة وأخذوا منه ما لا يعلم قدره إلا الله ومن الأسارى أربعة وعشرين ألفاً فمنّ عليهم أمير المؤمنين يعقوب المنصور وأطلقهم. واستشهد من المسلمين من كتبت له السعادة والذي سبقت له الحسنى وزيادة. ومات فيها الشيخ يحيى بن أبي حفص جد الحفصيين، وكان من أكبر قواده وزعمائه وكانت تحته أخت الخليفة المنصور بالله، وكانت هذه الغزوة العظمى تاسع شعبان من السنة المذكورة وهي أعظم غزوة على أيدي الموحدين. وقسم الغنائم وكتب بالفتح إلى جميع البلاد وأقام بإشبيلية إلى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، خرج إلى غزوته الثانية وفتح قلعة رباح ووادي الحجارة ومعاقل كثيرة.

وحاصر طليطلة وأحرق رباطاتها، ونصب عليها المجانيق ثم ارتحل عنها إلى سلمنكة فدخلها بالسيف وقتل رجالها ونساءها ورجع إلى حضرة ملكه مراكش، وأخذ البيعة لولده محمد الملقب بالناصر وأجلسه في حياته مجلس الخلافة.

ولما استوثق الأمر لولده دخل المنصور إلى قصره فلزمه وبدا فيه المرض الذي مات به في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة بقصبة مراكش وقيل إنه تقشف وزهد في الدنيا

---

(١) الآية ٣٧، سورة النمل.

وارتحل إلى المشرق ومات هناك، وأهل الشام مقرر هذا الخبر عند عامتهم والله أعلم.

وكان رحمه الله أجل ملوك الموحدين وأبعدهم صيتاً وأحسنهم في جميع الأمور، له الهمة العالية والسيرة الحسنة والدين المتين والرأي الصائب. ويحكى أنه بعث لبعض عماله لينظر له رجلاً لتأديب أولاده، فبعث العامل له برجلين وكتب معهما كتاباً يقول فيه: - قد بعثت إليك رجلين أحدهما بحر في علمه والآخر بر في دينه - فلما امتحنهما لم يرضياه فوقع على ظهر كتاب العامل: - ظهر الفساد في البر والبحر - رحمه الله وعفا عنه بمنه وكرمه والبقاء لله لا رب غيره ولا معبود سواه.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين محمد الناصر

هو ابن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع في حياة والده وجددت له البيعة يوم الجمعة صبيحة الليلة التي توفي فيها والده وتم له الأمر وتعاطى تدبير الأمور بيده، وخرج إلى مدينة فاس وبنى أسوارها وقصبتها. وجاءته الأخبار أن الميورقي غلب على أكثر بلاد إفريقية، وأخذ المهدية وضيق على أهل تونس وألزمهم مائة ألف دينار، وقد مر آنفاً، فرحل من مراكش سنة ثمان وتسعين، ولما وصل إلى جزائر بني مزغنة أمر بإنشاء أساطيل، وأخذ في تجهيز العساكر إلى ميورقة ففتحها وقتل صاحبها عبد الله بن إسحاق وفر أخوه يحيى ودخل الصحراء. ووصل الناصر إلى إفريقية فأطاعه كل من عصى عليه ما عدا المهدية لأن العامل بها من قبل الميورقي، وكان شهماً صاحب دهاء فحاصره بها ونصب عليها المجانيق، فلما رأى العامل أن لا طاقة له بقتال الناصر ركن إلى الصلح فصالحه وعفا عنه وكان فتحها سنة إحدى وستمائة.

وفي سنة اثنتين وستمائة أراد الناصر الرجوع إلى المغرب فخلف على إفريقية الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص ومن يومئذ استقرت قدم بني حفص بإفريقية وجعل الشيخ أبو محمد عبد الواحد

تونس دار الإمارة إلى يومنا هذا، جعلها الله مدينة إسلام إلى يوم الدين آمنين.

ومن هنا نشرع في ذكر بني حفص، لأن هذه الحوادث التي ذكرناها، إنما هي تمهيد لما سيأتي من أخبار الحضرة العلية، وليعلم الناظر في هذا المجموع فخامة البلاد الإفريقية، ولكن نأتي ببقية أخبار الخلفاء لإتمام الفائدة، ونرجع للذي قصدناه عائدين، ولا بد للذي من الصلة والعائد. ولما تمكن الشيخ عبد الواحد من البلاد رحل الناصر إلى المغرب فوصل إلى مراكش سنة خمس وستمائة.

وفي سنة ست جاءته الأخبار من الأندلس أن ألفنش ملك بيونة وتغلب عليها، فكتب الناصر إلى سائر عمله واستفز الناس للجهاد وخرج من مراكش سنة سبع وستمائة فوصل إشبيلية واهتزت بلاد الأندلس لخبره، فدخل الرعب في قلب عدو الله فطلب الصلح وبعث إرساله يطلب من أمير المؤمنين أن يصل بين يديه ويحكمه في نفسه وماله، فأذن له في الوصول إلى حضرته وكتب إلى جميع عماله أن من اجتاز به ألفنش ثلاثاً ويمسك من عسكره ألف فارس فمسكت هنالك فقال لعاملها: ـ كيف يكون مسيري وحدي؟ ـ فقال: ـ تسير في ذمام أمير المؤمنين ـ فسار في خدمه ومعه زوجته وقدم بين يديه هديته، وأحضر معه الكتاب الذي كان بعثه النبي ﷺ لبني الأصفر، وبقي محفوظاً عندهم إلى تلك المدة وأظنه إلى الآن موجوداً. ولقد رآه بعض إرسال بني حفص في أيام دولتهم، وأخبر بأنه قرأه، وهو باقٍ عندهم ويعترفون ببركته. ولما وصل ألفنش إلى الناصر أكرمه وأعطاه صلحاً تاماً وكتب له بذلك ـ ما دامت دولة الموحدين ـ وصرفه إلى بلاده. وارتحل الناصر إلى قشتيلية فحاصرها ستة أشهر، ودخل الشتاء وقلت الميسرة وغلت الأسعار، فانتهز عدو الله الفرصة وجمع من كل النصرانية جيشاً وكبس به عسكر المسلمين على حين غفلة ففر عسكر الأندلس أولاً، وعادت الكسرة على المسلمين فهزموا واتبعهم عدو الله ونادى أن لا أسارى إلا القتل، فلم ينج من المسلمين إلا القليل،

وكاد الناصر أن يقع بأيديهم لولا لطف الله به. ومن هذه الكسرة لم ترتفع للمسلمين بالأندلس راية إلى زمان يعقوب المريني وهذه الواقعة يسميها أهل السير بالعقاب.

ولما رجع الناصر إلى العدوة ودخل مراكش أخذ البيعة لولده يوسف وتلقب بالمنتصر، وانعكف الناصر على لذاته إلى أن توفي سنة عشر وستمائة، ومن هنا أخذت دولة الموحدين في الانحلال وقام بالأمر بعده ولده يوسف.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين يوسف المنتصر

هو ابن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي، قام بالأمر بعد أبيه فقرب الأراذل وأبعد مشائخ الموحدين فكانت لا تنفذ أوامره، وأخذت دولة الموحدين في الإدبار وظهرت دولة بني مرين في أيامه سنة ثلاث عشرة وستمائة، وبعث المنتصر جيشاً لقتالهم فكان الظهور لبني مرين واستباحوا عسكر الموحدين. وكان يميل إلى الراحة فكانت لا تنفذ أوامره عند عماله، وكان مغرى بنتاج البقر فدخل ذات يوم بين البقر فقصدت إليه بقرة شرودة فضربته في بطنه فمات من ساعته، وكانت أيام ملكه عشر سنين وأربعة أشهر، وذلك سنة عشرين وستمائة والملك لله وحده. ولما مات اتفق أشياخ الموحدين على مبايعة أبي محمد عبد الواحد.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين أبي محمد عبد الواحد

هو ابن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع ثالث عشر ذي الحجة سنة عشرين وستمائة وهو في سن الشيخوخة، وكان صالحاً متورعاً فاستقام له الأمرشهرين ثم اضطربت أحواله وقام عليه أبو محمد العادل وكان في مرسية، فأخذ البيعة لنفسه وكتب إلى أخيه أبي العلى وكان بإشبيلية يدعوه إلى بيعته، فأجابه وبعث إلى أشياخ الموحدين الذين بمراكش والعدوة فاستمالهم بعد ما وعدهم بجزيل العطاء فاتفقوا على مبايعته ودخلوا على

الخليفة عبد الواحد فطالبوه بخلع نفسه وتهددوه بالقتل فأجابهم فأدخلوا عليه القاضي والشهود فأشهدهم على خلعه وأنه بايع لأبي محمد العادل. وبعد أيام دخلوا عليه فخنقوه ونهبوا قصره وكان أول مخلوع من بني عبد المؤمن، وانفتح باب الفتن بين الموحدين وصاروا كالأتراك بالعراق. وكانت أيام خلافته ثمانية أشهر وتسعة أيام. وقام بالأمر بعده أبو محمد عبد الله ولقبه العادل بأحكام الله.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين عبد الله

هو ابن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع بمرسية في صفر سنة إحدى وعشرين وستمائة وتم له الأمر في شعبان بعد خلع عبد الواحد، ورجع من الأندلس إلى حضرة مراكش وفوض أمر الأندلس إلى أخيه أبي العلاء الملقب فيما بعد بالمأمون فأقام على طاعة أخيه إلى سنة أربع وعشرين وستمائة فنكث بيعة العادل ودعا الناس لمبايعته فأجابوه، وتلقب بالمأمون وكتب إلى أشياخ الموحدين بمراكش واستمالهم فأجابوه فدخلوا على العادل وخنقوه بعمامته حتى مات في شوال أربع وعشرين وستمائة، وكانت خلافته ثلاث سنين وشهرين وكتبوا بيعتهم إلى المأمون أبي العلاء إدريس وبعثوا بها على البريد ثم ندموا وخافوا منه لما يعرفون من شهامته، فرجعوا وبايعوا يحيى بن الناصر.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين يحيى

هو ابن محمد الناصر بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي لقبه المعتصم بالله، بويع في الثاني والعشرين من شوال سنة أربع وعشرين وستمائة، وامتنع من مبايعته كثير من الناس لمبايعتهم المأمون، ووقع لذلك فتن في البلاد واضطربت الأحوال وكثرت المحن وغلت الأسعار وكثر الخوف واتصل الخبر أن المأمون بويع له بالأندلس وأنه جاز البحر إلى مدينة سبتة. فلما علم يحيى بذلك ورأى اختلاف الموحدين عليه بمراكش فر إلى جبل درن ثم رجع إلى مراكش فأقام سبعة أيام ثم

هرب ثانياً وكانت بينه وبين المأمون حروب انهزم فيها يحيى ولم يزل شريداً إلى أن مات سنة ثلاث وثلاثين في أيام الرشيد، وسيأتي خبره، وجدد الموحدون البيعة للمأمون آخر جمادي الأخيرة سنة ست وعشرين وستمائة.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين المأمون

هو أبو العلاء إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي، كان فصيح اللسان ضابطاً للحديث الشريف حسن الصوت والتلاوة عالماً بالعربية واللغة والآداب وأيام الناس سالكاً في أمور الدنيا والدين، وكان حازماً شجاعاً وهو أول من أدخل النصارى إلى مراكش استنصر بهم ودخل معه إثنى عشر ألف نصراني.

ولما حل بمراكش صعد المنبر وخطب الناس وسب مهديهم وقبح مذهبه ومذهب من تبعه ومحا اسمه من الدراهم ومن الخطبة وقال: لا ندعوه بالمهدي. أشياء يطول شرحها، وكتب بذلك إلى الآفاق وقتل أشياخ الموحدين لأجل نكثهم البيعة ولم يبق منهم أحد وكانت جملة القتلى أربعة آلاف وستمائة وكتب لعماله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقام عليه أخوه بالأندلس وكثرت عليه المحن وتوالت عليه الهموم فمات رحمه الله. وكانت أيام خلافته ثلاث سنين وستة أشهر وفي أيامه استولت الروم على جزيرة ميورقة، وبويع ولده عبد الواحد وتلقب بالرشيد.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين الرشيد.

هو عبد الواحد بن إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع أول المحرم سنة ثلاثين وستمائة وعمره أربع عشرة سنة، فأقام بمراكش إلى سنة ثلاث وثلاثين فقتل جملة من أشياخ الخلط فقاموا عليه وحاربوه فانتصر عليهم بعد ما نهبوا مراكش، وهرب ورجع إلى حضرته ولم يزل في شتات إلى أن وافاه حمامه غريقاً في صهريج يوم الخميس تاسع جمادي الأخيرة سنة أربعين وستمائة، وأيام خلافته خمسة

أعوام وخمسة أشهر وأيام، وكان في زمانه وباء وغلاء مفرط بحيث أنه بلغ قفيز القمح ثمانين ديناراً.

وفي أيامه استبد أبو زكرياء يحيى بالإمارة في مدينة تونس ولم يتسم بأمير المؤمنين ، وتغلبت بنو مرين على أكثر بلاد المغرب وقام بالأمر بعده أبو الحسن السعيد.

الخبر عن خلافة أمير المؤمنين المعتضد

هو أبو الحسن علي بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي تسمى بالمعتضد بالله ولقب بالسعيد، بويع يوم وفاة أخيه الرشيد بمراكش عاشر جمادي الأخيرة سنة أربعين وستمائة.

وفي أيامه كثر جمع بني مرين وأرسل إليهم الجيش فكانت الدائرة لبني مرين، وخرج سنة ثلاث وأربعين بنفسه في جمع عظيم وأخذ البيعة على الأمير أبي يحيى بن عبد الحق المريني وجاءه الخبر في هذه السنة بأن المنتصر تسمى بأمير المؤمنين احتقاراً لدولته فأزمع للخروج بنفسه والتقى ببني مرين، وكانت بينهما وقعات وحارب ابن زيان القائم بتلمسان، وفر أمامه إلى بعض القلاع فتبعه السعيد وحاصره بها ثلاثة أيام، وخرج السعيد في الهاجرة يتجسس عن أحوال القلعة وكيف الحيلة في أخذها، فكمن له ثلاثة نفر على غفلة فقتله أحدهم وقتل وزيره معه، ونهب ابن زيان جميع ما كان في محلته وحملت جثته فدفنت خارج تلمسان، وكانت وفاته يوم الثلاثاء آخر صفر سنة ست وأربعين وستمائة وبويع بمراكش المرتضى.

خلافة أمير المؤمنين المرتضى

هو أبو حفص عمر بن الأمير اسحاق بن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي، بويع بعد موت السعيد عقد له البيعة برباط الفتح وارتحل إلى مراكش وأخذ البيعة عن أهلها واستقام له الأمر من مدينة سلا

إلى مدينة السوس، وكان يدعي الزهد والورع ويحب السماع وكانت أيامه أيام هناء ورخاء مفرط ما سمع بمثله.

وخرج سنة ثلاث وخمسين في ثمانين ألفاً إلى قتال بني مرين فلما قرب من مدينة فاس وكان خوف بني مرين خامر قلوبهم انطلق فرس لبعض العسكر فجرى صاحبه في إثره فظنوا أن العدو قد دهمهم، فانهزم العسكر لا يلوي أحد عن أحد واتصل الخبر بالأمير يحيى بن عبد الحق فخرج واحتوى على جميع محلته وسار المرتضى إلى مراكش في نفر يسير فأقام بها إلى أن دخل عليه أبو دبوس فقتله أواخر المحرم سنة خمس وستين وستمائة، فكانت أيام خلافته تسع عشرة سنة إلا أياماً وتولى بعده الواثق أبو دبوس.

خلافة أمير المؤمنين أبي دبوس

هو إدريس بن الرشيد أبي حفص بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي كان شجاعاً مقداماً، وسبب تملكه مراكش كان المرتضى نقم عليه أشياء، فخاف منه وهرب إلى أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق المريني منتصراً به فألفاه بمدينة فاس فأكرم مثواه وأعانه بالمال والرجال واتفق معه أن يعطي لبني عبد الحق النصف فيما يغلب عليه من البلاد، فلما تمكن من مراكش ودخلها على حين غفلة وفر أمامه المرتضى واستقل بالأمر كتب إليه الأمير يعقوب يهنئه ويطلب منه الشرط الذي بينهما فقال للرسول: - قل لأبي عبد الرحمن يغتنم الفرصة ويقنع بما في يديه وإلا أتيته بجنود لا قبل له بها - فلما وصل الخبر إلى يعقوب المريني شن على بلاده الغارات وجهز له الجيوش.

وفي سنة سبع وستين خرج أمير المسلمين يعقوب المريني بنفسه فالتقى معه أبو دبوس ببلاد دكالة، فكانت بينهما حروب قتل فيها أبو دبوس وجيء برأسه إلى يعقوب بن عبد الحق فبعثه إلى مدينة فاس وطف به

هنالك ونهب محلته. وكان قتله آخر ذي الحجة سنة سبع وستين وستمائة وبه انقرضت دولة بني عبد المؤمن.

وكان ابتداء أمرهم من المهدي بن تومرت خمس عشرة وخمسمائة وانقرضت بأبي دبوس سبع وستين وستمائة. وملوك بني عبد المؤمن أربع عشرة خليفة - وانتقلت بلاد المغرب إلى حكم بني مرين - والأندلس إلى الثوار من الطوائف - وإفريقية إلى بني حفص - والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثاني

فيمن تولّى مِن بني حفص في البلاد الإفريقية

وها أنا أذكر بعض سيرتهم والعمدة في ذلك على ما نقله ابن الشماع، ولكن نأتي به مختصراً لئلا نذهب ديباجته ويظن المتأمل أني غرت عليه ونزلت ساحته، وربما نأتي بما ليس فيه وأذكره وأنبه عليه، إن شاء الله تعالى وبه المستعان وعليه التكلان. فأقول وبالله التوفيق.

أول من تملك من بني حفص المولى أبو محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى بن محمد وانودين بن علية بن أحمد بن والال بن إدريس بن خالد بن اليسع بن الياس بن عمر بن وافتن ابن محمد بن نجبة بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كذا قيد نسبه ابن الشماع. قلت هذا النسب غارق في أنساب البربر. والعرب كانت تأنف التزوج منهم وخصوصاً قريشاً، والله أعلم بحقيقة ذلك. ولأجل هذا النسب الشريف خطب لهم بأمير المؤمنين والناس مصدقون في أنسابهم والشيخ أبو حفص من قبيلة هنتاتة من قبائل المصامدة، وهنتاتة أكثرها جمعاً وهم القائمون بدعوة المهدي بن

تومرت والسابقون إليها، وأبو حفص أحد العشرة الذين بايعوا المهدي، وقد سبق خبره.

ولما دخل الناصر بن المنصور إفريقية عند تغلب بن غانية عليها وهزمه الناصر وطرده واسترجع المهدية ورجع إلى تونس وأقام بها حولاً وأراد الرجوع إلى المغرب، أراد أن يولي بإفريقية من يقوم مقامه فوقع اختياره على المولى عبد الواحد فولاه عليها بعد تمنع وشروط شرطها عليه ووفى له الناصر بها، فرفعت رايته بين الموحدين ورحل الناصر إلى المغرب وفارقه المولى عبد الواحد من باجة ورجع إلى حضرة تونس، فقعد مقعد الإمارة بقصبتها وذلك يوم السبت عاشر شوال سنة ثلاث وستمائة، وكان رحمه الله تعالى عالماً فاضلاً ذكياً فطناً شجاعاً محسناً وهو الذي اخترع زمام التضييف بتونس للوفود، وكان يجلس يوم السبت للنظر في مسائل الناس ومدحه بعض الفضلاء بقصيدة تدل على فضله ومنها:

وماذا على المداح أن يمدحوا به ... وفيك خصال ليس تحصره بالعد
نهارك في تدبير ما يصلح الورى ... وليلك مقسوم على الذكر والورد

ودخل عليه الإمام أبو محمد عبد السلام البرجيني من تلامذة الإمام المازري وكان تحت جبوة منه، فقال له المولى عبد الواحد: ـ كيف حالك يا فقيه؟ ـ فقال: ـ في عبادة ـ فقال له المولى عبد الواحد: ـ تعوضها إن شاء الله بالشكر ـ قال ابن بخيل كاتب المولى عبد الواحد: ـ لم نفهم ما أراد فسألت المولى عن ذلك فقال: ـ أراد قول رسول الله ﷺ ـ انتظار الفرج بالصبر عبادة ـ . وهذا يدل على ذكائه رحمة الله عليه وتوفي يوم الخميس أول المحرم عام ثمانية عشر وستمائة وأيام دولته أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر. ودفن بالقصبة وقبره يزار ويتبرك به وبالقرب من تربته مغارة كان يتعبد فيها.

قلت: وتربته إلى يومنا هذا مشهورة داخل القصبة، ولما توفي رحمه الله قدم ولده المولى أبو زيد ثم طلع إلى المغرب هو وأخوته، ثم وصل

إلى تونس أبو محمد عبد الله بن المولى عبد الواحد من قبل العادل بن المنصور ومعه أخوه أبو زكرياء يحيى سنة ثمان عشرة.

وقدم المولى أبو زكرياء على مدينة قابس من قبل أخيه أبي محمد عبد الله ثم وقع بينهما اختلاف، فخرج المولى عبد الله إلى قتال أخيه أبي زكرياء، فخالف عليه الموحدون وأبـو قتال أخيه فرجع لتونس واستقر بها، ثم بعد ذلك تحرك أبو زكرياء إلى تونس فملكها ووجه أخاه في البحر إلى مدينة إشبيلية من بلاد الأندلس واستقر قدم المولى أبي زكرياء في الإمارة.

خلافة أمير المؤمنين يحيى

هو المولى أبو زكرياء يحيى بن المولى أبي محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن المولى أبي حفص عمر الهنتاتي، ولد بمراكش سنة تسع وتسعين وخمسمائة وبويع بالقيروان في رجب سنة خمس وعشرين وستمائة وجددت له البيعـة يوم وصـوله لتـونس في الرابـع والعشرين من رجب المذكور.

وفي سنة أربع وثلاثين، بويع البيعة الثانية وذكر اسمه في الخطبة ولم يتسم بأمير المؤمنين واقتصر على الأمير وعرض له بعض الشعراء بقوله من قصيدة يحرضه فيها وهو وقوله:

الأصـــل بـــالأمير المـؤمـنـيـن فـــأنـت بهـــا أحـق العـــالـمـيـن

فزجره ولم يقبل وذلك في أيام الرشيد بن المأمون بن يعقـوب المنصور عند اضطراب المغرب فاستبد أبو زكرياء بإفريقية.

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة وصلت إليه بيعة زيان بن مردنيش صاحب شاطبة ورسوله أبو عبد الله محمد الأبار، وانشده قصيدته السينية الفريدة التي منها.

أدرك بخيلك خيـل الله أنـدلسـا إن السبيـل إلى منجـاتهـا درسـا

وفي سنة تسع وثلاثين تحرك إلى مدينة تلمسان ففتحها وكان معه من الجيش أربع وستون ألف فارس.

وفي سنة أربعين وصلت إليه بيعة سبتة وبيعة المرية، وفي سنة ثلاث وأربعين وصلت إليه بيعة إشبيلية والمرية وغرناطة ووصل وفدهم لتونس وقرئت بيعتهم على الناس، وكان رحمة الله عليه من الصالحين والعلماء العاملين. ختم على الشيخ الرعيني السوسي كتاب «المستصفى» للغزالي، وغيره من الكتب المفيدة وناظر في النحو على ابن عصفور، وكان فقيهاً أديباً وكان معدوداً في العلماء والشعراء، وكان مختصراً في لباسه ومركوبه وكان يلبس جبة الصوف وحرام الصوف.

ونقل عن ابن القصار أن المولى أبا زكرياء استدعى وزراءه من باب الصرف بعد انفصال مجلسه، والعادة عنده أن من استدعاه من ذلك المكان إنما يستدعيه للعقوبة. قال الوزير: فلما استدعيت أدخل بي باباً إلى أن انتهيت إلى باب قبة الخليفة فوجدته جالساً على كرسي من خشب وبيده إبرة وهو يُرقّع ثوبه، فسلمت عليه فأمرني بالجلوس وإذا بخادم قد أتى بمائدة مغطاة، فلما رفع عن المائدة فإذا بها طعام واحد ورغيف خبز غير نقي فأكل وأكلت معه، فلما فرغ قال لي. انصرف بسلام فخرجت ووقعت عندي حيرة، فأخبرت بذلك بعض أصدقاء لي فقال: وما صنعت؟ قلت: لا شيء إلا إني لما دخلت عليه نظرني شزراً، فقال لي: دخلت عليه في ثيابك هذه؟ قلت: نعم، قال لي: من هنا أتى عليك تراه أخبرك أن كسوته المرقعة وأكله الخشن من الطعام فإن أنت انتهيت عن فعلك ولباسك الثياب الرفيعة وإلا لا تلومن إلا نفسك. قلت: رحم الله هذه الروح الزكية. وهو الذي بنى الجامع بالقصبة وبنى صومعته العجيبة وهي باقية إلى يومنا هذا، ولها شكل عجيب واسمه منقوش عليها وكانت قبل اليوم بارزة ينظر إليها المار بها ويقرأ ما هو مكتوب عليها وقد حيل بينها ببناء ستر أكثرها، ولم يبق منها إلا مقدار نصفها وانستر رونقها على الناظر، وكان بناؤها سنة تسع وعشرين وستمائة، وبنى مصلى العيدين.

قلت: هو الذي يقال له جامع السلطان من ناحية المركاض وكذلك بنى المدرسة التي بطرف سوق الشماعين. قلت: سوق الشماعين يعمل فيه السبابط في يومنا هذا، وبنى سوق العطارين وحضر مدينة تونس، وجمعت دولته من رؤساء العلماء والشعراء وأهل الصلاح ما لم يجتمع لغيره، وجمع بعدله وسياسته أموالاً لا تحصى إلا بالبيت، والبيت عبارة عن ألف ألف، وخلف سبعة عشر بيتاً من المال، ومن الكتب ستة وثلاثين ألف مجلد، وفي سنة سبع وأربعين تحرك إلى الغرب فمات هناك ودفن بجامع بونة ونقل بعد إلى قسمطينة، وكانت وفاته آخر جمادى الأخيرة وهو ابن تسع وأربعين سنة، ودولته اثنتان وعشرون سنة وترك من الأولاد الذكور أربعة وهم محمد المستنصر وأبو إسحاق وأبو بكر وأبو حفص عمر.

ويقال إن في هذه السنة توفي الملك الصالح ابن أيوب صاحب مصر وكان ديناً عفيفاً والملك المنصور ابن رسول صاحب اليمن والأمبراطور صاحب صقلية عظيم النصرانية وألفنش الأحول عظيم النصرانية بالأندلس فكانوا يروون أن حذاق ملوك الدنيا ماتوا في سنة واحدة فسبحان من لا يزول ملكه.

خلافة الأمير المولى أبي عبد الله محمد

هو ابن المولى أبي زكرياء بن المولى أبي محمد عبد الواحد بن أبي بكر بن المولى أبي حفص عمر، بويع صبيحة الليلة التي توفي فيها والده، يوم الجمعة التاسع والعشرين من جمادى الأخيرة سنة سبع وأربعين وستمائة، وعمره اثنتان وعشرون سنة أمه أم ولد اسمها عطف وهي التي أمرت ببناء جامع التوفيق والمدرسة التوفيقية، قلت: المدرسة التوفيقية اندرست آثارها وكانت قبالة زاوية الشيخ الزليجي.

وفي سنة ثمان وأربعين نصبت المقصورة بجامع الموحدين، وفيها بنيت السقاية التي شرقي جامع الزيتونة، وفيها جعلت الشكلة لليهود وبولغ في مذلتهم.

وفي سنة إحدى وخمسين بنيت قبة الجلوس وبنى الممشى إلى رأس الطابية.

وفي سنة اثنتين وخمسين وصلت بيعة بني مرين من مدينة فاس ودعي له على منابرها.

وفي سنة سبع وخمسين وصلت بيعة مكة بإنشاء عبد الحق ابن سبعين، وقرئت على الناس فعند ذلك تسمى بأمير المؤمنين. لقب بالمستنصر بالله، وكان قبل ذلك يدعى بالأمير فقط، ونصب للقضاء في الأحكام الشرعية أبا عبد الله محمد بن إبراهيم المهدوي المعروف بابن الخباز، من أهل العلم والورع، وكان المستنصر يقول: ـ ما يسألني الله عن أمور الأمة بعد أن قدمت عليهم ابن الخباز.

وفي عام ستة وستين أمل المستنصر بناء الحناية التي كان يجري عليها الماء إلى مدينة قرطاجنة في الزمن الأول، فأصلح ما فسد منها وأحياها وأجرى عليها الماء من عيون رغوان، وجعل قطعة من الماء إلى سقاية جامع الزيتونة وباقي الماء إلى جنة أبي فهر. قلت: هي التي يعبر عنها في زماننا بالبطوم، ولم يبق من ذلك إلا الفسقية وبقيت خرائب، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وفي هذه السنة تحرك إلى بني رياح، ومسك جماعة من رؤسائهم، وضربت أعناقهم وبعث إلى تونس برؤوسهم على الرماح.

وفي سنة ثمان وستين وستمائة في ذي القعدة نازل الإفرنسيس مدينة تونس بجموع وافرة فرساناً ورجالاً، وكانت بينهم وبين المسلمين حروب مات فيها خلق كثير من الفريقين ومدة إقامتهم أربعة أشهر وعشرة أيام.

وفي عاشر المحرم سنة تسع وستين مات طاغيتهم، قيل: إن السلطان بعث إليه بسيف مسموم، وقيل: مات حتف أنفه. وأرسل الله وباء على جيشه فمات عدد كثير، وطلبوا الصلح فصالحهم السلطان على الإنصراف من غير تعرض لجهة من جهات المسلمين، على أن يدفع لهم ألف قنطار

ومائة قنطار وعشرة قناطير من الفضة، والهدنة خمسة عشر عاماً فتم الصلح. وكان رحمه الله لم يخرج إلى قتالهم وإنما يمدهم بالجيوش، وسبب نزول الفرنسيس تونس قيل: إنه ذكر يوماً بحضرة المستنصر فهضم من جانبه وقال: هو الذي أسره هؤلاء واطلقوه. يشير إلى الأتراك الذين كانوا بين يديه وكان استخدم منهم جماعة فبلغت هذه المقالة الفرنسيس فحقد لها وعزم على غزو تونس. ولما علم المستنصر بذلك طلب منه المهادنة فامتنع وأغلظ للرسول وعزم على أخذ تونس، فجعل الله هلاكه بها ومن غريب الاتفاق لما نزل تونس قال أحد أدبائها الشعراء.

يا فرنسيس هذه أخت مصر ... فتهيأ لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر ... وطواشيك منكر ونكير

فصدقت الأقدار قوله، ومات بأرض المعلقة وقبر بها وهذه الأبيات يشير فيها بالتلميح إلى ما سبق له بأرض مصر سنة سبع وأربعين وستمائة، نزل على مدينة دمياط وملكها ومدة إقامته بها تسعة أشهر وذلك في زمن السلطان الكامل ابن أيوب، فأمكنه منه فأخذه وجماعة من قواميسه وحمل على جمل ووجهه إلى خلف وطيف به وسجن في دار ابن لقمان ووكل به طواشي اسمه صبيح ففدا نفسه بقناطير من الذهب وحلف أن لا يطأ أرض المسلمين، فلما رجع إلى بلاده عزم على العودة إلى الديار المصرية ونكث العهود بنفسه الخبيثة: فلما علم به صاحب مصر كتب له رقعة من إنشاء كمال الدين بن مطروح وبعثها مع رسوله وفيها قصيدة بليغة، فلما ورد الرسول على الفرنسيس استجلسه فأبى أن يجلس وأنشده وهو قائم بين يديه:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق من مقول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها ... تظن أن الدين باطل ريح

ومنها:

وقل لهم إن أزمعوا عودة ... لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق والطواشي صبيح

وهي طويلة ذكرها المقريزي، وذكر ابن الشماع عدة أبيات منها، والقصة في غير ما موضع مشهورة. فلما سمع المقالة ذلت نفسه على العودة إلى مصر وأراد أن يأخذ ثأره من تونس فدمره الله تعالى وكان نزوله على تونس سبباً لإتلاف الأموال التي تركها المولى أبو زكرياء والتي جمعها ولده المستنصر ففرقت على الأجناد والوفود والأعراب، وتوفي المستنصر بالله في الحادي عشر من ذي الحجة سنة خمس وسبعين وستمائة وعمره خمسون سنة، فكانت خلافته ثمانية وعشرين عـامـاً وخمسة أشهر وأحد عشر يوماً رحمة الله عليه، وتولى بعده ولده المولى أبو زكرياء يحيى ولقب بالواثق وخلع فيما بعد.

خلافة الأمير الولى أبي زكرياء يحيى الواثق

هو ابن المستنصر أمير المؤمنين ابن المولى أمير المؤمنين أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي بكر بن عمر، بويع صبيحة اليوم الذي توفي فيه والده.

ولما ولي سرح المسجونين وأمر برفع المظالم وإحراق ازمة المودات وبالنظر في بناء جامع الزيتونة وغيره من المساجد وأحسن إلى الجند، وكان غير ناهض بأعباء الملك وغلب على أمره ابن الغافقي، وكان ابن الغافقي كثير الإعجاب مفرطاً في التعسف والكبر مشتغلاً بالبناء وآلات الملاهي واقتناء الأثاث، ولا يحسن شيئاً من سياسة الملك والرعية فأدى ذلك إلى فساد الملك، فخرج عليه عمه أبو إسحاق إبراهيم وكان مقيماً بالأندلس لما فر في زمن أخيه المستنصر خيفة على نفسه، وأقام بها زماناً وكان أخوه المستنصر يهادي صاحب الأندلس لإمساك أخيه عنده. فلما مات أخوه وتولى ولده أبو زكرياء ولم يكن لـه ولا لمن بين يديه معرفة بالأمور جاز المولى أبو إسحاق إلى المغرب وقصد إفريقية فملكها وأتى إلى تونس في غرة ربيع الثاني وضايق على المولى أبي زكرياء فخلع نفسه لعمه وسلم له الأمر فكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً، وخرج من القصبة وسكن بدار الغوري بسوق الكتبيين إلى أن مات في صفر سنة تسع وسبعين بعد ما اعتقل ومات مسجوناً رحمة الله عليه.

خلافة أمير المؤمنين أبي إسحاق إبراهيم

هو ابن المولى أبي زكرياء يحيى بن المولى عبد الواحد بن أبي بكر ابن أبي حفص عمر، بويع بتونس غرة ربيع الأخير سنة ثمان وسبعين وستمائة، وكان ملكاً شجاعاً وفيه غلظة ويغيب عن مجلسه لأنسه، ودانت له إفريقية.

وفي سنة ثمانين وستمائة بعث ولده المولى عبد الواحد لجباية الوطن، وأخذ مال هوارة فلما بلغ القيروان بلغه أن مرغم بن صابر الرياحي معه قائم يدعي أنه الفضل بن الواثق فكتب إلى أبيه بذلك.

وفي سنة إحدى وثمانين عظم أمر الدعي وملك قابس واحتوى على أكثر البلاد، فأخرج الخليفة إليه جيشاً من تونس أمر عليه ولده أبا زكرياء، فنزل القيروان ونزل الدعي قمودة فانسل غالب العسكر إلى الدعي ولم يبق مع المولى زكرياء إلا قليل، فرجع إلى تونس وأخبر أباه، فخرج أبوه الخليفة بنفسه في شوال من السنة المذكورة بجيش عظيم وأخرج من الدروع والسيوف ما حمل على تسعين بغلاً، ونزل بالمحمدية فلم يغن شيء من ذلك، وفر عنه أكثر عسكره إلى الدعي ونهب جميع ما كان معه هنالك، فرجع إلى تونس وأخرج نساءه وأولاده ورحل إلى المغرب.

ولما وصل بجاية لقيه ولده أبو فارس وكان عاملاً بها فخلع الخليفة نفسه لولده أبي فارس، وتلقب بالمعتمد وتجهز للقاء الدعي وترك والده ببجاية والتقى المعتمد والدعي بوطأة قلعة سنان فخانت أنصار المعتمد، فأخذ وقتل ونهبت أمواله. ولما سمع أبوه الخبر خرج هارباً فأدركه أهل بجاية فأخذوه وأتوا به إلى الدعي فقتله في تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة فكانت مدته ثلاثة أعوام وستة أشهر وستة وعشرين يوماً، ولجأ ولده المولى أبو زكرياء إلى بلاد المغرب، والدعي هذا هو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة المسيلي، مولده بها ونشأ ببجاية وكان محترفاً حرفة الخياطة خامل الذكر، إلا إنه كان يتطور وخالط السحرة

ويزعم أنه يحيل المعادن إلى الذهب بالصناعة، وتقلّب في البلاد إلى أن وصل إلى طرابلس، وصحب نصيراً مولى الواثق ابن المستنصر، فلما رآه تبين له في شبه من مولاه فأخذ نصير يبكي ويقبل قدميه، فقال له الدعي: ما خبرك فقص عليه خبر مولاه فقال له: صدقني وأنا آخذ بثأر مولاك فأقبل نصير على أمراء العرب وأخبرهم أنه ابن مولاه فصدقوه وأتوا ببيعتهم وزعم أنه الفضل بن الواثق ابن المستنصر، فكان من أمره أن خطب له على منابر إفريقية وكان سفاكاً للدماء خسيساً فاجراً كذاباً، ولم تكن له منقبة غير أنه رفع النزول عن أهل تونس وبنى جامعاً خارج باب البحر للخطبة.

ولما تمادى في جوره وكذبه مقته الناس ومقته جنده وظهر المولى أبو حفص بن المولى أبي زكرياء، وكان مختفياً في البادية والتف عليه الناس فجاء لتونس وحاصر الدعي وانكشف سره فأيقن بالهلاك وفر بنفسه إلى دار فران أندلسي قرب حمام زرقون، فدلت عليه امرأة فاحيط به وضرب أسواطاً فاعترف بتدليسه وبنسبه وشهد عليه الناس بمحضر القاضي، ثم طيف به على حمار ثم قطع رأسه فكانت مدته بتونس سنة ونصفاً غير ثلاثة أيام، وذلك آواخر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

خلافة أمير المؤمنين المولى أبي حفص عمر

هو ابن المولى ابن زكرياء يحيى بن المولى عبد الواحد بن أبي بكر ابن الشيخ أبي حفص عمر، بويع يوم الاثنين الرابع والعشرين من شهر ربيع الأخير من السنة المذكورة، وكان ملكاً عاقلاً كريماً لم تحدث منه عقوبة لأحد، وكان له اعتقاد في الصالحين وخصوصاً في الشيخ الولي الصالح أبي محمد المرجاني ويعظم العلماء والصلحاء ويبرهم ولم يزل على أكمل الحالات إلى آخر عمره وأيامه أيام عدل وأمن وهناء.

ولما أصابه المرض الذي توفي منه عهد إلى ولده عبد الله فلم ترضه أشياخ الموحدين لصغر سنه، فاستشار ولي الله الشيخ المرجاني فأشار عليه

بتولية أبي عبد الله محمد أبي عصيدة فقبل إشارة الشيخ وأنفذ بعهده إليه وتوفي آخر ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة، فكانت خلافته أحد عشر عاماً وثمانية أشهر وله من العمر اثنان وخمسون سنة، وقام بالأمر بعده المولى أبو عصيدة.

خلافة أمير المؤمنين المولى أبي عبد الله محمد أبي عصيدة

هو ابن المولى أبي زكرياء يحيى بن المستنصر بالله بن المولى أبي زكرياء بن المولى عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر، بويع آخر ذي الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة، وسبب تسميته بأبي عصيدة: لما قتل والده وأخوته هربت إحدى جواريه وقد اشتملت منه على حمل، وأتت رباط الشيخ المرجاني فوضعته هنالك، وعق عنه الشيخ وأطعم الفقراء عصيدة الحنطة وسماه محمداً وكناه بأبي عصيدة فبقيت له ذمة مع الشيخ.

وكانت أيامه أيام هدنة وعافية وسلم لا حرب غرست فيها الغراسات، وبنيت الأبراج وامتدت الآمال، كل ذلك ببركة الشيخ المرجاني وتلقب بالمستنصر بالله وكانت خلافته أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماً، ولازمه مرض الاستسقاء فمات منه في عاشر ربيع الآخر سنة تسع وسبعمائة ولم يخلف أبناء فأوصى إلى أبي يحيى أبي بكر.

خلافة أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر الشهيد

هو ابن الأمير عبد الرحمن بن الأمير أبي بكر بن المولى أبي زكرياء يحيى بن الخليفة المستنصر بالله بن المولى أبي زكرياء يحيى بن المولى عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر، بويع يوم وفاة المولى أبي عصيدة لأنه كان تحت كنفه، فأقام ثمانية أيام وتحرك إليه المولى أبو البقاء خالد من بلد قسمطينة، فخرج المولى أبو بكر بمحلته والتقى مع أبي البقاء خالد فانهزم جيشه ورجع هو هارباً إلى القصبة، ووقف بالسبخة وظن

أن الأجناد تلحقه فلم يجتمع له أحد فوقف ساعة وانصرف فلحق وقبض عليه فقتل ولذلك سمي شهيداً فكانت مدته ستة عشر يوماً.

خلافة أمير المؤمنين المولى أبي البقاء خالد

هو ابن المولى أبي زكرياء يحيى بن المولى أبي إسحاق إبراهيم بن المولى أبي زكرياء يحيى بن المستنصر بالله بن المولى أبي زكرياء يحيى بن المولى عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر كان عاملاً في بلد العناب وقسمطينة بعد وفاة والده أبي زكرياء، وكان يضع تاج الملك على راسه ويركب بغلة عاليه.

ولما حل بتونس انعكف على لذاته ولهوه وترك سياسة الملك فقام عليه أبو يحيى زكرياء بن اللحياني وقفل من المشرق.

ولما حل بطرابلس ورأى اضطراب إفريقية طلب الملك، فبويع بطرابلس وانضم إليه أولاد أبي الليل فبعثهم في مقدمته مع شيخ دولته محمد المزدوري فوصل لتونس أول جمادي الأولى سنة إحدى عشرة وسبعمائة، فاجتمع القاضي ابن عبد الرفيع بالسلطان أبي البقاء خالد وحرضه على الدفاع عن سلطنته، فكره اللقاء واعتذر بالمرض وأشهد على نفسه بالانخلاع عن الأمر، فدخل أبو عبد الله المزدوري القصبة وأخذ البيعة عن المولى خالد ومن معه من الأجناد وقتل بعد ذلك، وبويع المولى أبو يحيى بن اللحياني وكانت ولايته عامين وستة أشهر.

خلافة أمير المؤمنين المولى أبي يحيى اللحياني

هو زكرياء بن الأمير أبي العباس بن الشيخ أبي عبد الله محمد اللحياني بن المولى عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر، أخذ له البيعة شيخ دولته المزدوري وأقبل هو بعد ذلك ثاني رجب من السنة المذكورة، يعني سنة إحدى عشرة، ونزل المحمدية وجددت له البيعة هناك، ودخل لراس الطابية وعرض الجند وأسقط من لم يكن ثابتاً،

وكانت له مشاركة في العلم والأدب، وقد طعن في السن وكبر وساس الأمور وجربها وتحرك عليه المولى أبو يحيى أبو بكر من الثغور الغربية، فعلم أن ليس له طاقة على لقائه، واضطربت عليه البلاد فجمع الأموال والذخائر، وباع كل ما في القصر والكتب التي جمعها أبو زكرياء بيعت في الوراقين وجمع نحو عشرين قنطاراً من الذهب سوى الفضة والدر وغير ذلك، وخرج إلى قابس ثم إلى طرابلس وكانت مدته إلى أن بويع ولده أبو ضربة ستة أعوام وثلاثة أشهر ونصف، وقام بعده المولى أبو ضربة وكان الأمير أبو عبد الله محمد بن اللحياني عرف بأبي ضربة مسجوناً عند قاضي الوقت لجناية، فأطلق وتهيأ للقاء المولى أبي بكر، وكان حمزة بن عمر ابن أبي الليل من بطانة ابن اللحياني وأخوه مع أبي بكر، فدس إليه أن يجفل بالعسكر، فأخذل عسكر السلطان أبي بكر ورجع إلى قسمطينة ودخل أبو ضربة لتونس سنة سبع عشرة وسبعمائة في منتصف شعبان، وبويع بالحضرة وتلقب بالمستنصر ولم تطل أيامه وأعاد عليه الكرة المولى أبو بكر فهرب أبو ضربة إلى المهدية وتحصن بها وبلغ خبره إلى أبيه بطرابلس، فبعث أساطيل إلى المهدية فحمل ماله وأهله وسافر إلى مصر وذلك في أيام الملك محمد بن قلاوون، فأكرمه وكانت مدة أبي ضربة ثمانية أشهر وثلاثة أيام واستولى على تونس المولى أبو يحيى أبو بكر.

خلافة أمير المؤمنين المولى أبي يحيى أبي بكر

هو ابن المولى أبي زكرياء بن المولى أبي إسحاق إبراهيم بن المولى أبي زكرياء بن المولى أبي عبد الله محمد المستنصر بن المولى أبي زكرياء ابن المولى عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر، بويع في الثامن عشر من ربيع الأول سنة عشر وسبعمائة، وكان رحمه الله شجاعاً جميل الصورة كامل القامة محبوباً عند الخاص والعام، ولا يولي قاضياً حتى يشهد فيه بالخير، وكان قاضيه ابن عبد السلام وقد تعرض له في بعض أحكامه القائد بن الحكيم فأغلق القاضي بابه وامتنع من الحكم فانتبه له السلطان وقال له: نطالبك بين يدي الله أن توجه لأحد على

ولدي حقّ وتركته، وكان يحب الشرفاء ويكرمهم وكان جده أبو إسحاق اثبتهم في زمام الموحدين.

ولما تولى أبو بكر حوزهم الرباع وملكهم إياها فاقتسموها بينهم، وكانت له وقائع مع بني عبد المؤمن وسافر عن تونس عدة مرات وهزم العرب وفك رقاب أشياخهم ودانت له البلاد وتلقب بالمتوكل على الله. وفي أيامه فتح قائده ابن الحكيم المهدية وكانت في طاعة اللحياني وولده من بعده فتحت سنة تسع وثلاثين.

وفي سنة ثلاث وأربعين نزل العرب على تونس ولم يتخلف منهم أحد وأقاموا سبعة أيام ثم ارتحلوا وخرج السلطان في إثرهم وهزمهم هزيمة شنيعة على رقادة، ورجع إلى حضرته وحجب له ابن تافراجين وقبض على قائده محمد بن الحكيم وعذبه بالسياط وأخذ جميع أمواله. وقيل: إن الذهب الذي أخذ منه وزنه خمسون قنطاراً سوى الفضة والجوهر والياقوت ومائة وستين عتبة من الربع وقتله بعد ذلك.

وكان بتونس في مدته أزيد من سبعمائة حانوت للعطارة، وكان يصنع بتونس كل يوم أربعة آلاف قفيز من القمح ألف تبل وألف تطحن وألف تغربل وألف تعجن، وزهت البلاد في أيامه وطالت أيامه إلى سنة سبع وأربعين فأدخل عليه هلال شهر رجب على عادة قضاة الحضرة وهو في رياضه بامي قهر فلما قرأه قال: - لا إله إلا الله ودخل رجب - وكررها مراراً ثم قام وتطهر وأخلص التوبة وأخبر من معه أنه يموت في رجب ثم ركب واخترق الأسواق ودخل القصبة ولم تظهر به زيادة ثم حك بكتفه فخرجت له حبة صغيرة أخذته منها الحمى، ثم توفي ثاني يوم الشهر وكان عين ولده أبا العباس للخلافة، وكان ببلاد الجريد وبقية أولاده في الأعمال ولم يبق بين يديه إلا ولده أبو حفص فجلس بعده للخلافة.

خلافة أمير المؤمنين المولى أبي حفص عمر

هو ابن المولى أبي يحيى أبي بكر بن المولى أبي زكرياء بن المولى

أبي إسحاق إبراهيم بن المولى أبي زكرياء بن المولى أبي عبد الله محمد المستنصر بن المولى أبي زكرياء بن المولى عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، بويع يوم موت والده ثاني رجب، ولم يلتفت إلى عهد أبيه لأخيه أبي العباس وذلك بإشارة ابن تافراجين، فلما بلغ الخبر لأبي العباس حشد العرب وزحف إلى الحضرة وخرج المولى عمر بمحلته إلى لقائه مع الجند والموحدين، فلما التقى الجمعان نكص ابن تافراجين ورجع وأخذ ذخائره وفر إلى المغرب، وكر السلطان عمر إلى تونس، وبعدها هرب إلى باجه ودخل أبو العباس البلد وأقام بها سبعة أيام، وبعد سبعة أيام رجع المولى عمر من باجه ودخل الحضرة عند الفجر، فخرج ابن العباس هارباً على وجهه لا يدري أين يذهب وقامت العامة على من بها من العرب فلم يفلت إلا القليل منهم.

وأبو حفص عمر زاد خطبة سابعة في جامع سيدي يحيى السليماني، وكان يقال من علامة خراب تونس سبع خطب تكون بها. قلت: اليوم لها ثلاث عشرة خطبة والعلم عند الله. وأقام المولى عمر إلى أن تحرك عليه أبو الحسن المريني فهرب من تونس، فأدركه طلب المريني عند قابس فقتل هنالك، وكانت أيامه بتونس عشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً، ومات سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وانتقل الأمر إلى بني مرين.

الخبر عن خلافة الأمير أبي الحسن المريني

هو علي بن الأمير أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، ونذكر نبذة من نسبهم لزيادة الفائدة. بنو مرين فخذ من زناتة والنسابون مختلفون في نسبهم ولكن يجتمع نسبهم في قيس غيلان وتناكحوا في البربر.

وكانت قبائل البربر يجاورون العرب في مساكنهم وتفرقوا في زمن داوود عليه السلام لما قتل ملكهم جالوت، فتفرقوا على أيدي سبأ وأتوا المغرب. فمنهم من سكن الجبال. ومنهم من سكن المهاد. ومنهم من ظل على حاله ولازم البراري على عادة العرب.

وبنو مرين كانوا يسكنون بلاد القبلة من زاب إفريقية، وينتقلون من مكان إلى مكان وجل أموالهم الإبـل والخيل وطعـامهم اللحم والتمر، ودخلوا بلاد المغرب سنة عشر وستمائة مثل ما دخلت لمتونة، فوجدوا البلاد خالية وملوك الموحدين اختلفت آراؤهم، فشنوا الغـارات وقطعـوا الطـريق فبعث إليهم المنتصر من بني عبد المؤمن جيشاً فهزموه وأخذوا ما فيه واستفحل أمرهم وهابهم الناس ولا زال أمر بني مرين ينمو إلى أن ملكوا بلاد المغرب والأندلس، وكان ملكهم بمدينة تلمسان وأول من تملك منهم الأمير أبو محمد عبد الحق بن خالد بن يحيى بن أبي بكر بن جمانة بن محمد الزناتي المريني ويحيى بن خالد، شهد غزوة الأراك مع يعقوب المنصور واستشهد هنالك، وعبد الحق كان من أهل الصلاح والخير يسرد الصوم كثير الذكر والتسبيح ولا يأكل إلا الحلال من لحوم إبله وغنمه، وقدمته مرين على تدبيرها وساعده القدر وتوارث الملك من بعـده بنوه الأربع ـ أبو سعيد عثمان ـ وأبو معروف محمد بن عبد الحق ـ وأبو بكر ابن عبد الحق ـ ويعقوب بن عبد الحق. ويعقوب هذا دخل الأندلس نحو عشر مرات، نكى المشركين وفعل بهم العجائب وجاهد في الله حق جهاده وله في ذلك أخبار عجيبة اختصرناها خوف الإطـالة، وكـانوا سـلاطين المغرب وتسموا بأمراء المسلمين كما كانت لمتونة، وقرضوا دولة بني عبد المؤمن من المغرب وخطبوا لبني حفص في أول الأمر ثم استقلوا بالملك إلى أن أخذ الملك منهم الشرفاء، وملكوا مدينة فاس ومراكش ولم يبق منهم أحد في يومنا هذا.

ولنرجع إلى خبر أبي الحسن وتملكه البلاد الإفريقية والسبب فيه أن ابن تافراجين لما فر إلى المغرب وفد على أبي الحسن المريني واستحثه على ملك إفريقية، فتحرك من المغرب واجتمعت عليه الأعراب وأخـذ بجاية وقسمطينة، وأنزل عماله فيهما وملك إفريقية ومحا رسوم الموحدين ودخل تونس بجيوش لا تحصى، وشرع في بناء مدينة فوق سيجوم سماها المنصورة لسكنى جيشه فإن المدينة لم تسعهم. وقيل بايعه بتونس خمسين سلطاناً في يوم واحد من بني عبد الواحد والأندلس وغيرهما.

ولما تملك البلاد منع العرب من أعطياتهم ومنعهم الإقطاعات فغضبوا عليه وشنوا الغارات في جميع البلاد، فخرج إليهم والتقى معهم قرب القيروان فانخذل عسكره وفر هو إلى القيروان هارباً فأخذوا محلته بما فيها وحاصروه بالقيروان ومعه ابن تافراجين وذلك سنة تسع وأربعين، وكانت العرب تميل إلى ابن تافراجين فطلبوه من السلطان ليتفقوا معه على الصلح، فلما خرج إليهم قلدوه حجابة سلطانهم المسمى بأبي دبوس واسمه أحمد بن عثمان بن أبي دبوس من بني عبد المؤمن كان مستتراً في بلد توزر فدلهم عليه من عرفه، فنصبوه للخلافة وتوجه أبو دبوس وابن تافراجين لتونس وحاصروا قصبتها ورموا عليها بالمجانيق من ربض المعلم سعد، وكان بالقصبة أولاد السلطان وماله ورجاله. وفي أثناء ذلك داخل السلطان أبو الحسن بعض العرب من أولاد مهلهل أن يفرجوا عنه من الحصار على مال اشترطوه عليه، فوفى لهم به وأسروا به إلى سوسة وركب منها في البحر وقدم إلى تونس. ولما سمع ابن تافراجين ركب البحر وفر إلى الإسكندرية في ربيع سنة تسع وأربعين فلما فقده أصحابه تشتت جمعهم ورحلوا عن تونس فخرج أولياء السلطان من القصبة وملكوا تونس وأقبل السلطان أبو الحسن في ربيع الأخير من السنة المذكورة، وانتفضت عليه إفريقية واشتد الغلاء حتى بيع قفيز القمح بثمانية دنانير. قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله كيف عد أهل تونس هذا القدر عندهم غلاءً ولو شاهدوا ما عايناها لعدّوه من السخف لأنا شاهدناه أضعاف ذلك. وكثر الوباء حتى انتهى عدد الأموات ألف شخص كل يوم، وفيه مات القاضي ابن عبد السلام والفقيه العابد سيدي يحيى السليماني وتحرك المولى أبو العباس لأخذ تونس.

وفي أثناء ذلك بلغ السلطان أبا الحسن المريني أن ابنه أبا عنان استقل بملك المغرب، لأنه سمع بوفاته بالقيروان وقت حصاره بها وشهد له بذلك جماعة فأقام نفسه في سلطنة المغرب. ولما سمع به حياً بعث لجميع عماله أن يصدوا أباه عند توجهه وخرج أبو الحسن من تونس وركب البحر وتوجه للمغرب وخلف بتونس ولده الفضل إلى أن أزعجه فيها أبو

العباس الحفصي، فلحق بالمغرب، وخبره أكثر من هذا تركناه للاختصار. وكانت مدة السلطان أبي الحسن بإفريقية إلى أن خرج عنها ولده الفضل آخر ذي القعدة سنة خمسين وسبعمائة عامين وستة أشهر وخمسة عشر يوماً، ورجع ملك إفريقية إلى بني حفص وملكها المولى أبو العباس.

الخبر عن خلافة الأمير أبي العباس الفضل

هو ابن المولى أبي يحيى أبي بكر بن المولى أبي زكرياء بن إبراهيم ابن أبي زكرياء يحيى بن محمد المستنصر بن أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، بويع أول ذي الحجة سنة خمسين وسبعمائة.

ولما ملك تونس ركن إلى الراحة واللهو، واحتوت العرب على دولته، وكان صاحبه أحمد بن عتوا قد شاركته العرب في الديوان ورحبة الطعام والماشية، وأخذوا البرطيل على تولية الشهود وزوج أبو العباس الفضل أخته لأبي الليل بن حمزة رجاء أن يطول ملكه ولم يسبقه أحد لذلك ويأبى الله إلا ما يريد.

ورجع الحاجب ابن تافراجين من المشرق هو والشيخ عمر بن حمزة، فاتفق ابن حمزة مع أخوته على إدخال تافراجين لتونس. وبعثوا إلى أبي العباس الفضل فقال: لا سبيل إلى إدخاله فبعثوا إليه صل إلينا نتحدث معك، فخرج مع جماعة له فقبضوا عليه وعلى أصحابه الذين معه، وجردوا وأخذت دوابهم ودخل ابن تافراجين لتونس وأخرج المولى أبا إسحاق إبراهيم وأجلسه مجلس الخلافة وقتل المولى أبو العباس آخر جمادي الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، فكانت مدته خمسة أشهر وأربعة عشر يوماً.

الخبر عن ولاية الأمير أبي إسحاق إبراهيم المستنصر

هو ابن المولى أبي يحيى أبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي يحيى

زكرياء بن محمد المستنصر بن أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر جلس مجلس الخلافة بعد أخيه.

واستوزر ابن تافراجين فقام بتدبير دولته وعلت همة ابن تافراجين إلى أن سلم عليه بسلام الملوك، واستخلص قواعد البلد من أيدي العرب وهي بلاد قرطاجنة والقيروان وسوسة وباجة وتبرسق ولاربس وجعلها بأيدي خدامه، واستبد بالمجابي الداخلة والخارجة، وشرع في بناء السور الذي يحيط بأرباض تونس وحبس عليه نصف خراج الأرض ونصف كراء المعاصر التي بداخله لإصلاح ما يختل منه.

وفي سنة خمس وخمسين أخذ السلطان أبو عنان المريني بجاية من أيدي الموحدين.

وفي سنة ست وخمسين أخذت النصارى طرابلس وحملوا ما فيها وسكنوها خمسة أشهر.

وفي سنة ثمان وخمسين أخذ السلطان أبو عنان قسمطينة، وفي آخر شعبان وصل أسطول أبي عنان لتونس فطاردهم ابن تافراجين وهزمهم، ثم وصل الخبر بأن محلة أبي عنان واصلة ففر ابن تافراجين إلى المهدية، فدخل أهل الأسطول وملكوا تونس وكتبت البيعة لأبي عنان وهو بقسمطينة وخطب به بإفريقية ما عدا المهدية وسوسة وتوزر وبقي الأمر على هذا شهرين. ولما أراد أبو عنان التوجه لتونس خالف عليه جيشه فرجع إلى المغرب فقامت نفرة في عسكره الذي بتونس فلجوا إلى أجفانهم وتركوا ما كان معهم، ورجع ابن تافراجين من المهدية وجددت البيعة لأبي اسحاق فدخل الحضرة في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة.

وفي سنة ستين أخذت النصارى الحمامات. وفي شوال سنة إحدى وستين توجه السلطان أبو إسحاق إبراهيم وفك بجاية من أيدي المرينيين.

وفي سنة ست وستين قرىء صداق المولى أبي إسحاق على ابنة

ابن تافراجين بخط ابن مرزوق، قرأه علامة الوجود الشيخ ابن عرفة. وعدد الصداق إثنا عشر ألف دينار وثلاثون خادماً وتوفي ابن تافراجين عقب ذلك. وفي رجب سنة سبع وستين جدد الكتابة التي بالأزورد في قبة جامع الزيتونة.

وفي سنة سبعين وسبعمائة توفي المولى أبو إسحاق في الثاني عشر من رجب فجأة فكانت مدته ثمانية عشر عاماً وأحد عشر شهراً وخمسة عشر يوماً، ونصب ولده من بعده وهو صبي لم يناهز الحلم.

الخبر عن خلافة أبي البقاء خالد بن المستنصر

هو ابن المولى أبي إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى أبي بكر بن أبي زكرياء يحيى ابن المولى إبراهيم بن أبي زكرياء يحيى بن المستنصر بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي بكر ابن الشيخ أبي حفص عمر، جلس بعد موت أبيه وحجب له أحمد اليالقي. فلم يترك أحمد للأمير خالد شيئاً، فانتهب أموال الناس وأهان الأشراف، فعظم على الناس دلك واختل الأمر فلحق منصور بن حمزة بالمولى أبي العباس وحثه على ملك إفريقية، وكان بقسمطينة.

فنهض أبوالعباس إلى تونس وتلقته وجوه إفريقية بالطاعة وانتهى إلى الحضرة وحاصرها أياماً ففر الأمير خالد وأصحابه من باب الجزيرة وانطلق الجند في اتباعهم فقبض على الأمير خالد واعتقل، ثم وجه به وبأخيه في البحر فعصفت بهما الريح فغرقا وكانت مدته بتونس سنة وتسعة أشهر.

الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس أحمد بن المستنصر

هو ابن الأمير أبي عبد الله محمد بن أبي يحيى أبي بكر بن أبي زكرياء يحيى بن المولى إبراهيم بن المولى يحيى بن المستنصر بن يحيى ابن عبد الواحد بن أبي بكر بن أبي حفص عمر، بويع بتونس ثاني عشر ربيع الأخير سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة.

وكان رحمه الله شجاعاً ديناً عاقلاً صفوحاً جال في بلاد المغرب

ووصل مع السلطان أبي سالم المريني لتلمسان، وزار الشيخ أبا مدين وعاهد الله عنده أن لا يكافيء من عمل معه سوءاً إلا بخير.

ولما ملك إفريقيا رفع أنواع الفساد وكفح[1] العرب عن التغلب وانتزع ما بأيديهم من الأمصار وأنمي إليه أن محمد بن تافراجين داخل العرب في الفساد فقبض عليه واعتقله بقسمطينة إلى أن مات بها، ثم لم يزل يحاول أمر العرب إلى أن قطع دابرهم وافتتح بلد قفصة وأخذ شيوخها بني العابد واستولى على أموالهم وفتح توزر واحتوى على ذخائر شيخها ابن يملول.

ومن حسنات المولى أبي العباس أحمد إقامة القراءة في الأسبوع بالمقصورة غربي جامع الزيتونة وأوقف على ذلك وقفاً مؤبداً والسقاية التي ببطحاء الشيخ سيدي مردوم نفع الله به داخل باب قرطاجنة وأوقف عليها أوقافاً جليلة وإنشاؤه البرج الذي هو شرقي قرطاجنة للاحتراس، ورفع التضييف عن قراها عند خروج السلطان لذلك المكان وبناؤه علوه الكبير بزنقة ابن عبد السلام قبالة باب البهور جوفي الجامع الأعظم ليصوم به رمضان كل سنة وأخباره أكثر من هذا ذكرها ابن الشماع وأطال في مدحه وحق له ذلك.

قلت: هذا الملك هو ممدوح العلامة بدر الدين ابن الدماميني رحم الله تعالى الجميع، مدحه بقصيدة بديعية أتى فيها بجميع أنواع البديع ولا بدع إن طلع بدر التم من ذلك الجناب الرفيع وبعث بها من ثغر الإسكندرية إلى الحضرة العلية، ولكن ما استوفى له حق من حقوق السالكين لهذه الطريقة وأجازه بجائزة، إذا ذكرت بين أهلها قالوا هذه مجاز لا حقيقة. وذكر الزركشي مولاهم في شرحه لهذه القصيدة ونثر در معانيها وإن كانت هي الدرة الفريدة إن الممدوح أرسل لمادحها عدد أبياتها دنانير فاحتقرها ابن الدماميني، فقال له الرسول: إن مولانا جعل هذا القدر جائزة لك في كل سنة وهذا من ظرف الرسول أنظر أيها المتأمل إلى كساد سوق الأدب ونفاذه في الصدر الأول في أيام بني العباس، حيث أثابوا عن المدح

(١) كفح: كشف عنهم الغطاء.

بألف درهم على البيت الواحد ومروان بن أبي حفصة ممن أخذ هذا القدر في أيام الرشيد وهلم جرا الأمر من بعده، ولكن بعض الشر أهون من بعض وإلا نحن اليوم في زمان لو مدح أهله بنظم الدر لم يجزه أحد بالخزف.

وهذه القصيدة مدح بها لما افتتح مدينة قابس، وذلك إنها خرجت في الزمن السابق عن ملوك صنهاجة واستقل بها بنو جامع من الهلاليين إلى أن أخذها الموحدون من بني عبد المؤمن ثم ثار بها قراقش الأرمني الملقب بشرف الدولة مملوك الملك المظفر صاحب مصر، وكان بينه وبين الميورقي صاحب المهدية مهادنة واستخلصتها ملوك بني حفص في أول الدولة ثم عصت على أمير المؤمنين أبي العباس أحمد فافتتحها بعد حصار وجهد وأشار الدماميني إلى فتحها بقوله في قصيدته:

ومن نوره أبداً السناء لقابس فلاح لها نور على الحق يسفر

وفي أيامه أقبل عبد الله الترجمان وكان قسيساً من قساوسة النصارى فاسلم على يديه وهو صاحب كتاب «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» ذكره في هذا الميدان واثنى عليه خيراً.

وفي أيامه جاء الجنويون والفرانسيس في ثمانين قطعة ونازلوا المهدية وأقاموا عليها نحو شهرين. وبعث إليها أبو العباس جيشاً فكانت بينهما وقعات ، وارتحلوا عنها خائبين وتوفي رحمه الله ثالث شعبان سنة ست وتسعين وسبعمائة ومدة ولايته بتونس أربع وعشرون سنة وأربعة أشهر رحمة الله عليه.

وهو الذي شيد رسوم بني حفص بعد اندراسها وأقام منار بني حفص في الخلافة ودعم أساسها وكملت في أيام ولده السعد أبي فارس ودرس عمر الأعراب وعمر المدارس.

الخبر عن خلافة الأمير أبي فارس عبد العزيز

هو ابن المولى بن العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي

يحيى أبي بكر بن أبي زكرياء يحيى بن إبراهيم بن أبي زكرياء بن المستنصر بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي بكر بن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني رحمه الله، بويع رابع شعبان بعد وفاة والده وقام بالأمر أتم قيام ورتب الأحوال وأعطى الأموال وأصلح البلاد وقمع أهل الفساد.

وكان شجاعاً حازماً تقياً معتقداً في الصالحين موقراً العلماء كثير الصدقات فطناً ذكياً فصيحاً محباً للخير وأهله. فمن فضائله عموم صلاته لأهل الحرمين وعلماء المشرق يوجه لهم بذلك صحبة الركب الحجازي على الدوام ووظف لأهل الأندلس في كل عام من الطعام وغيره إعانة لهم على جهاد عدو الدين.

ومن حسناته خزانة الكتب المشتملة على أمهات الدواوين وجعل لها مقصورة بمجنبة الهلال من الجامع الأعظم وأوقفها على طلبة العلم ينفعون بالنظر والكتب بشرط أن لا يخرج منها شيء عن محله، وجعل لها قومة يقومون بها في نفضها ومناولتها للطلبة وردها لمكانها ووقت لها وقتاً محدوداً في كل يوم وكان ملازماً لقراءة العلم بين يديه سفراً وحضراً. وقال في تحفة الأريب وأبطل امكاساً كانت بتونس منها سوق الرهادنة وكان مجباه ثلاثة آلاف دينار. ومجبى رحبة الطعام خمسة آلاف دينار. ورحبة الماشية عشرة آلاف. وفندق الزيتون خمسة آلاف دينار. ورحبة الماشية عشرة آلاف. وفندق الخضرة ثلاثة آلاف. والعطارين مائة وخمسين ديناراً. وفندق الأدام خمسين ديناراً. وفندق الفحم ألف دينار. وفندق الملح ألف وخمسمائة. ومجبى الأعمدة ألف دينار. ودار الشغل ثلاثة آلاف دينار. وسوق القشاشين مائتي دينار. ودار الشغل ثلاثة آلاف دينار. والصفارين مائتي دينار. وأبطل القيان ونفى المخنثين من البلد. وأقام العدل في جميع رعاياه بالكتاب والسنة وأنصف المظلوم من الظالم. وجاءته الوفود من المشرق والمغرب.

وغزا صقلية وغنم فيها مغنماً كثيراً. وغزا طرابلس وقابس والحامة وقفصة وتوزر ونفطة وبسكره وقسمطينة وبجاية والصحراء. وكانت العرب

غالبة على من قبله فأهانهم وألزمهم الزكاة والعشر. وقال صاحب القرطاس في أخبار ملوك فاس، إنه أرسل هدية إلى أبي يعقوب المريني وهو بفاس والناصر بن قلاوون بعث لأبي فارس بهدية حافلة في تلك السنة. هذا لعظيم ذكره في ذلك الوقت. وفي أيامه عظم شأن المولد الشريف. قلت: رحم الله هذه الروح الزكية لمثل هذا يقال أمير المؤمنين. لا لمن تغلبت على دولته البغاة من المفسدين. ورأيت ابن حجة الحموي ذكر في كتاب قهوة الإنشاء له رسالة طنانة من إنشائه جواباً عن مكاتبة للسلطان المؤيد، وأثنى عليه في تلك الرسالة بما يستحقه.

وقال ابن الشماع: وافتتح مدينة تلمسان ووصل إلى قريب مدينة فاس. وقال الشيخ الرضاع: رأيته في حدود الثلاثين والثمانمائة ببلد تلمسان. وكان قاضي عسكره أبو عبد الله محمد الشماع ومفتي عسكره أبو عبد الله محمد الحسن. وقرأ البيعة القاضي المذكور بجامع تلمسان. وحضر لقراءتها علماء الوقت منهم ابن مرزوق وأبو القاسم العقباني وابن الإمام وابن النجار وجماعة من العلماء. ونقلت من خط السيد بركات الشريف رحمة الله عليه قال: غزا أبو فارس مدينة فاس لما شكا أهلها إليه بظلم أحمد المريني فغزاه، فخرجت أخت المريني إلى أبي فارس فقالت له: إنك ميت وإنهم ميتون. فعفا عنه وأعاده إلى بلده وأمره بالعدل.

قال ابن الشماع: وفي سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة نزلت النصارى بجزيرة جربة وكان السلطان ببلد الجريد فتلافاها إلى أن رحلوا عنها خائبين ومن حسناته قطعه القبالة التي كانت خارج باب البحر وبنى مكانها زاوية للصلاة وللعلم. قال الترجمان: وكان فندقا للمعاصي والخمر مجباهُ عشرة آلاف دينار. وكان ولده أبو عبد الله محمد ولي عهده موصوفاً بالخير والعفاف والديانه وهو الذي انشأ الزاوية التي بسيجوم وجعل فيها جامعاً للخطبة ورباطاً لطلبة العلم وسماطاً للمقيمين والواردين.

وتوفي سنة ثلاث وثلاثين ودفن بتربة قرب من دار الولي الشيخ سيدي محرز، نفع الله به وهو أبو الخلفاء من بعد أبيه. توفي المرحوم أبو

فارس عام سبع وثلاثين وثمانمائة فجأة بعد ما تطهر ولبس ثيابه. ودفن حيث دفن ولده فكانت مدة خلافته إحدى وأربعين عاماً وأربعة أشهر وسبعة أيام.

قلت ما أطلت الكلام في هذا المحل إلا لكون هذا الإمام هو واسطة بني أبي حفص. وإذا ذكرت خلافة الحفصيين بدونه يظهر في خلافتهم النقص. والله تعالى يكافيه ويجازيه بأعماله الفاخرة. وكما رفع ذكره وقدره في الدنيا يرفعه في درجات عليين في الآخرة. إنه سميع مجيب.

الخبر عن خلافة الأمير أبي عبد الله المستنصر

هو محمد بن المولى أبي عبد الله محمد بن أمير المؤمنين أبي فارس عبد العزيز، وتمام نسبه معروف، بويع يوم عيد الأضحى صبيحة الليلة التي توفي جده فيها، ودخل الحضرة يوم عاشوراء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة وكان شجاعاً كريماً عفيفاً.

ولما ولي أخرج مالاً تصدق به على أهل المدارس وذوي الحاجات والأرامل والأيتام، ووجه بمال إلى جزيرة الأندلس وتصدق به على المجاهدين، وأمر ببناء زاوية الشيخ سيدي أحمد بن عروس، وبنى سقاية الماء بداخل باب أبي سعدون وأوقف عليها ما يكفيها. وشرع في بناء مدرسة ضخمة بالقرب من سوق الفلقة بتونس المحروسة لقراءة العلم، وسافر بمحلة كبيرة فأجعل الأعراب بين يديه فوصل لبلد قفصة فابتداه مرضه الذي مات به، فرجع لتونس ولازمه المرض إلى أن توفي ليلة الجمعة الثانية والعشرين من صفر سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، فكانت مدته عاماً واحداً وشهرين وأحد عشر يوماً ودفن بتربة آبائه رحم الله الجميع.

الخبر عن خلافة الأمير أبي عمرو عثمان

هو ابن المولى أبي عبد الله محمد بن المولى أبي فارس عبد العزيز، بويع صبيحة اليوم الذي توفي أخوه فيه ولم يتخلف عنه أحد.

وكان رحمه الله من أجل ملوك بني أبي حفص وهو ختامهم، طالت مدته وفعل خيرات يكتب ثوابها في صحيفته.

فمن مآثره رحمة الله عليه بناء مدرسة في غاية الحسن بزنقة الشيخ الولي الصالح العابد سيدي محرز بن خلف، وجعل فيها مسجداً للصلاة ودرساً لقراءة العلم ومأوى لسكنى الطلبة وجعل فيها سماطاً مستمراً يتصدق به كل يوم على المحتاجين، وجعل فيها ماء للسبيل وأوقف عليها ما يكفيها ويكفي من بها والقومة.

قلت: أما المدرسة فبقيتها موجودة وأما خيراتها فلم يبق منها شيء، وبنى زاوية بعين الزميت وجعل فيها جامعاً للصلاة ودرساً لقراء العلم ورباطاً للقاطنين، وسماطاً قوياً على ممر الأيام للمقيمين بها والوافدين وأوقف عليها وقفا كافياً ولم يبق منه أيضاً.

ومن حسناته إخراجه لخزانة الكتب بالمقصورة الشرقية من الجامع الأعظم مشتملة على أمهات الدواوين، وجعل لها قومة وأوقف عليها وقفاً كافياً مؤبداً. قلت: والكتب أيضاً لم يبق منها شيء وبعض الوقف باق لكن لغير مستحقيه، وأما الكتب فقد تلاشت لما ملك عدو الدين البلاد وسيأتي خبرها إن شاء الله تعالى.

وبنى ثلاثة مكاتب لقراءة القرآن واحد قبلي الجامع الأعظم، واثنان بربض باب المنارة والميضاة للوضوء بدرب ابن عبد السلام في غاية الإتقان جوفي الجامع الأعظم بتونس، وأوقف عليها وقفاً كافياً. قلت وهي إلى يومنا هذا بها بقية وإن طال الأمر تلاشت أيضاً. ومنها تكملته للمدرسة التي ابتدأ بناءها شقيقه رحمهما الله تعالى، التي بسوق الفلقة على أكمل بناء وأتقنه، وأوقف عليها وقفاً كافياً فعمرت عمارة قوية، أما المدرسة فموجودة وأما الوقف فقد اندرس وأدركنا قبل اليوم بها طلبة مقيمين، ولهم ما يسد رمقهم من العيش، ثم تلاشى الأمر وتداركها حدود التسعين والألف من زعم أنه يستغنم ثوابها وأراد أن يحيي رسومها بعد خرابها، فأصلح ما فسد منها وأوقف عليها وقفاً لمدرس بها وعدة طلبة، فاحتوى عليها من

ينتمي إلى الفقر فعطل مجاريها وتحمل من الوزر ما يقصم منه الظهر، وآثارها موجودة ومحاسنها ظاهرة، وصاحب التدريس اليوم بها شيخنا أبو عبد الله عرفة فسح الله في مدته.

وكان المولى أبو عمرو عثمان يكرم أهل البيت النبوي ويحسن إليهم ويكرم الضيف ويلازم السفر في كل عام لقمع أهل الفساد والنفاق من الأعراب. وهنا انتهى ابن الشماع وزاد الزركشي نبذة ولنأت بها مختصرة كما اختصرنا ابن الشماع. وذلك لوجوده منها الاختصار ومنها خيفة أن تذهب ديباجة كتابة. ومنها أخذنـا منه الزبدة وتركنا الزباد والله المستعان.

قال الزركشي: وخرج بمحلة عظيمة في إثر العرب ومسك أكابرهم مثل نصر الذوادي ومحمد بن سعيد وإسماعيل بن ضرار ومهلهل أربعة من الأشياخ بعد أن احتال عليهم حتى دخلوا المحلة فأعطى ألف دينار لكل شيخ، وباتوا عند القواد فأصبحوا مصفدين وكفاه الله شرهم. قلت هؤلاء العرب أذاهم بالطبع مثل العقرب ولو قطع ذنبها لا يبطل لدغها، وإلى زماننا نحن منهم على وجل نسأل الله أن يحسم هذه المادة بمنه. وأشار الشيخ الرصاع في فهرسته إلى هذه الواقعة قال: تجمعت أولاد أبي الليل من شيوخ إفريقية وحاصروا الحضرة وأعلنوا بالنفاق، فخرج إليهم سلطان الوقت أبو عمرو عثمان فنصره الله تعالى عليهم. وكان الإمام العـلامة سيدي أبو القاسم البرزلي يـدعو عليهم بـدعوات مبتكـرة غير مستعملة فاستجاب الله دعاءه فأخذوا وأخذت أموالهم وديارهم، ونصر الله عليهم الملك وذلك ببركة دعاء الشيخ.

وقال الزركشي: وفي سنة أربع وخمسين وقيل اثنتين وخمسين، كان عرس ولي العهد الأمير الأجل عبد الله محمد المسعود، وكان عرساً حفيلاً ما رؤي بتونس مثله. قلت هذا المولى الأجل لم يأت في بني أبي حفص مثله من عفاف وديانة وبر وأمانة وهو أبو الخلفاء الآخرين لم يلِ أحد إلا من ولده.

ومات في حياة والده وهو ممدوح الشيخ ابن الخلوف وكفاه تلك

الحلل التي طرزها بمدحه في حياته وهي باقية تنشر بعد موته، وله مآثر عديدة منها الختمة التي كتبها بيده في عـدة أسفار وأوقف عليهـا ريعاً للاستغلال، يقيم القارىء بها ويقرأ فيها كل يوم بعد صلاة الظهر نصف حزب أو ربعه، بحسب الأيام وجعلها على التوابيت بإزاء الربعة التي بها البخاري من حبس والده بالجامع الأعظم بتونس. وله أخبار شهرية بأفعال البر أضربنا عنها خوف الإطالة.

وفي سنة ثلاث وسبعين عظم الوباء بتونس، قيل إنه بلغ عدد الموتى به إلى أربعة عشر ألفاً في كل يوم وحصر في الزمام أربعمائة ألف، عدا من لم يدخل في الزمام نحو أربعمائة الف. وفي سنة خمس وسبعين كملت السانية المسماة بالمنصورة قرب برج الصخراء جبل الفتح، وفيـه شاخ مسجد الصخراء وقطعة من الجبـل حتى وصلت حجارتـه للبحر. وفي جمادي سنة خمس وتسعين توفي ولي العهد المولى أبو عبد الله محمد المسعود ودفن بمقبرة أجداده جوار ولي الله الشيخ سيدي محرز، وكان هذا المرحوم أنجب بني أبي حفص غَفَر الله له.

ومن حسنات أبي عمرو عثمان الختمة الكبيرة المرسلة له هدية من البلاد الأندلسية لم ير الراؤون أحسن منها خطاً وتزويقاً بالذهب، وغير ذلك مما يوله العقل وأوقف على قارئين يقرؤون بها قبل صلاة الصبح، وقبل صلاة الظهر وقبل صلاة العصر ألف دينار سنوية، وجعل لها غلافاً مرصعاً وهي الموضوعة قبالة التوابيت.

وبالجملة هو ختام الدولة الحفصية ونظام المحاسن الفاخرة في البلاد الإفريقية، وطالت أيامه في الملك عن من كان قبله إلى أن وافاه حمامه، وبلغ أجله منتهاه وتوفي رحمة الله عليه آخر شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة وقام بالأمر حفيده.

الخبر عن خلافة الأمير أبي زكرياء يحيى

هو ابن المولى عبد الله محمد المسعود بن المولى أبي عمرو

عثمان، بويع يوم وفاة جده وخرج إلى المحلة على حسب العادة، فهربت جماعة من الجند وأخبروا أن المحلة أخذتها الأعراب وأن السلطان مات، ومن غد جيء برأسه فوضع على رمح وطيف به، واستبد بالملك ابن عمه أبو محمد عبد المؤمن ابن الأمير أبي إسحاق إبراهيم بن أمير المؤمنين أبي عمر عثمان، وبويع في رجب من السنة المذكورة.

وفي ذي الحجة منها جيء بجثة الأمير يحيى ودفنت عند سيدي أحمد السقا وكل ذلك مفتعل. ثم بعد ذلك افتضح الأمر وظهر أن السلطان بالحياة، وبعد خبر يطول دخل السلطان أبو زكرياء يحيى وفر عبد المؤمن، واستقل أبو زكرياء بملكه وبعد أيام جيء برأس عبد المؤمن وطيف به كما طيف برأس الخليفة يحيى، وكفى الله المؤمنين القتال، ورجع إلى حضرته بتونس وبويع بيعة ثانية ووقع الحلم منه على الناس وجاءته بيعة بلد العناب وقابس وصفاقس، ودانت له البلاد وظل في ملكه إلى سنة تسع وتسعين، وكان فيه وباء عظيم مات فيه خلق كثيرون ومات به السلطان أبو زكرياء في التاسع من شعبان، فكانت مدة ملكه ست سنين إلا شهراً وعشرة أيام.

الخبر عن خلافة الأمير أبي عبد الله محمد

هو ابن المولى أبي محمد الحسن بن الأمير أبي عبد الله محمد المسعود بن أمير المؤمنين أبي عمر عثمان، بويع يوم وفاة ابن عمه أبي زكرياء يحيى وجلس بالقبة وبايعه الخاص والعام، وكان فطناً ذكياً فصيحاً محباً للخير وأهله معتقداً في الصالحين. وهو الذي بنى المقصورة بطرف صحن الجامع الأعظم بتونس من الجهة الشرقية مما يلي الجوفي، شارفة على سوق العطارين وسوق الطيبيين، وجعل فيها كتباً مفيدة وجعل لها قومة يقومون بها ووقت للانتفاع بها وقتاً محدوداً عند أذان الظهر وبعد صلاة العصر، وأوقف عليها وقفاً كافياً، وجعل سقاية بأسفل منها مما يلي الشرقي، حيث كانت سقاية المولى المستنصر بالله، وجعل النظر لإمام الجامع الأعظم وكان الإمام إذ ذاك العالم العلامة أبو البركات ابن عصفور، سامح الله الجميع وأثابهم على حسن الصنيع.

وفي أيامه توفي الشيخ أبو القاسم الجليزي أول صفر سنة اثنين وتسعمائة ودفن بزاويته داخل باب خالد من تونس، وحضر السلطان جنازته. وفي سنة أربع وتسعمائة في جمادى توفي الولي سيدي منصور بن جردان وخرجت روحه ورأسه في حجر أمام جامع ابن عصفور بالمقصورة الشرقية من الجامع، وكان عمر الشيخ ابن جردان خمسة وثمانين عاماً، وحمله الإمام إلى موضع سكناه بزنقة ابن عبد السلام، فغسله وكفنه وخرجت جنازته من هنالك ودفن بزاويته بحوانيت الفار، نفعنا الله ببركاته.

وفي أيام السلطان محمد كانت وقائع بينه وبين العرب وهزموه على القيروان، ورجع لتونس في ثمانمائة من الخيل. وفي أيامه خرجت بلاد كثيرة عن حكمه وهو الذي ملك الجزائر للقائد عروج التركي، وكان بها برج للنصارى ضيق عليها فملكها عروج وأخذ البرج.

وبعد السنة الرابعة التي كانت فيها الواقعة على أهل تونس كما سيأتي وتمكن الأمبراطور من تونس أرسل إليها عمارة لأخذها، وكان بها حسن آغا نائباً عن خير الدين باشا وبها شيخ شريف، وأراد حسن آغا أن يهرب فمنعه الشريف، وأتى أمر الله فكسرت العمارة بالريح، فصارت لهم غنيمة وهو سبب قوة الجزائر كذا نقلت من خط السيد الشريف بركات رحمه الله.

ومن خطه أيضاً أن السلطان محمداً بعث الغريبي رسولاً إلى سلطان مصر وهو الملك الغوري، وذلك في أول دولة السلطان محمد، وأرسل له الغوري هدية وفيها الزرافة، قال: وكان الغريبي شاخ بباب السويقة فخافه محمد فقتله غدراً. وقال أخذت طرابلس من يد محمد سنة أربع عشرة وتسعمائة، قام بها ابن قراب وملكها للنصارى وبعث لهم جيشاً مقدمه القائد محمد أبو حداد وكان من أكبر قواده، فبارزه قبطان النصارى فأخذه سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وتولى بعده ولده الحسن.

والسلطان محمد هذا كان ختام بني أبي حفص، ومن بعده اسم لا

رسم وتوفي رحمه الله يوم الخميس الخامس والعشرين من ربيع الأخير سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة، وتولى بعده ولده الحسن.

الخبر عن خلافة الأمير أبي محمد الحسن

هو ابن محمد بن الحسن بن المسعود بن المولى عمرو عثمان، بويع يوم وفاة والده يوم الخميس في الخامس والعشرين من ربيع الثاني سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة. ولما تولى رفع المكوسات كلها وأجرى على الناس العادة العثمانية وسار سيرة حسنة في أول الأمر.

وهنا انتهى النقل الذي قيده الزركشي ولم أطلع على ما سواه إلا ما تلقيته. من أهل الحاضرة، ولهذا نأتي به جملاً لا تفصيلاً، ولم أقيد نفسي لتاريخ الوقائع لقلة الضبط، ولم أجد من له اهتمام بهذا الأمر فأقول وبالله المستعان: سمعت من يذكر من أهل تونس أن السلطان الحسن ساءت سيرته في الناس واضطربت عليه البلاد وخرجت عن طاعته مدينة سوسة فقام فيها صهره القليعي. وقام عليه بالقيروان الشيخ عرفة، وكان من مرابطي القيروان من ذرية الشيخ سيدي نعمون وهو جد الشابيين، قام على السلطان الحسن وبايع لرجل من لمتونة اسمه يحيى أوقفه في السلطنة وادعى أنه حفصي جاء من المغرب، وتم له الأمر وهو في الحقيقة اسم لا رسم والشيخ عرفة ينفذ الأمور. وفر بعد ذلك يحيى من القيروان ودخل تونس في أيام السلطان أحمد وهو متنكر فظفر به في المركاض فقطع رأسه وطيف به.

ولما مات الشيخ عرفة صاحب القيروان، قام بالأمر بعده ابن أخيه واسمه محمد بن أبي الطيب، ولم يزل يحارب السلطان أحمد إلى أن أخذ القيروان من يده درغوث باشا بإرسال أهل القيروان إلى درغوث وهو بمدينة طرابلس. فسلموا له البلاد لما جاءهم وانحرفوا عن ابن أبي الطيب وذلك لقبح سيرته في الناس وكان يحارب السلطان أحمد مدة حياته وبينهما عدة وقائع.

ولما أخذها درغوث في مدة السلطان أحمد الحفصي، أخذ ابن أبي الطيب وعلق وفرت أشياعهم من القيروان وسكنوا البادية وهم الذين يقال

لهم الشابيون. لأن أصلهم من الشابة والصبية، وهي بلدة قبالة المهدية عند مكان يقال له قبودية، والعرب الذين يقال لهم دريد هم تلاميذ الشابية، وهم طوائف كثيرة لا يستحقون إلى تعريف في زماننا. والشيخ عبد الصمد الذي أدركناه ممن خرج من القيروان عند انزعاجهم وهو إذ ذاك دون الأربعين يومها ولم أطلع على اسم أبيه والغالب على ظني أنه ابن محمد بن أبي الطيب واستحكم في دريد فيما بعد وشاخ عليهم، وله أخبار ليس هذا موضعها، وقام بعده ولده علي وكنيته أبو زغاية ثم ابنه أبو زيان.

وفي أيام أبي زيان خرجت أكثر رعاياه عن طاعته، ودخلوا في طاعة الترك وعند خروجهم من القيروان دخلتها الأتراك وأقاموا بها، وكان دخولهم على يد رجل من خدام الشابيين يقال له الغالي، وهو الذي تسبب في مجيء الترك لأجل واقعة يطول شرحها. اهـ. ولنرجع إلى خبر السلطان الحسن.

وفي أيامه كانت قسمطينة في أيدي الترك، وإنما كان ولده أحمد نائباً ببلد العناب. وفي أيامه تغلبت الأعراب على جل البلاد، وكانت الشوكة في أولاد سعيد في البلاد وهادنهم السلطان الحسن بستين ألف دينار على الوطن.

وفي أيامه جاءت عمارة من بر الترك لأخذ تونس، أرسلها إبراهيم باشا وكان وزيراً للسلطان سليمان بن السلطان سليم فاتح مصر. وكان إبراهيم باشا ضرب الدينار باسمه، وهو أول وزير تولى الوزارة من أولاد السراية وأهلكه الإدلال والإعجاب بنفسه، ومات سنة إحدى وأربعين وتسعمائة، وكان مخادعاً لسلطانه فأرسل خير الدين إلى تونس من غير إذن سلطانه، فنازل تونس وأخذها وفر عنها الحسن، ودخل خير الدين إلى تونس واستقل بقصبتها، ولم أقف على خبر كم كانت مدته إلا إنه كان قبل الأربعين والتسعمائة، والصحيح عندي والله أعلم أنها كانت سنة خمس وثلاثين أو ست وثلاثين.

وقام أهل باب السويقة على خير الدين وكانت بينهم مقتلة عظيمة.

مات فيها خلق كثير من الفريقين. وكانت من باب القصبة إلى باب البنات على حومة العلوج، وفشا القتل في الناس وانحز القتال. وبعث خير الدين بالأمان وانعكف الفريقان. وخير الدين هذا هو الذي نفى العالم مغوشا لخونه منه لما ملك تونس، ومغوش هذا كان في دولة الحسن وجيهاً، فخرج إلى المشرق وحج ودخل إلى الديار الرومية، والتقى مع العلامة الشيخ المفتي بتلك البلاد علامة وقتـه أبي السعود أفنـدي رحمه الله. وظهرت فضائل العالم مغوش هنالك وطارح علماء القسطنطينية واعترفوا له بالفضل، وترقى في ذلك العصر إلى أن أم بالملك السلطان سليمان خان، وكل ذلك من بركة العلم وبركة الشيخ سيدي منصور بن جردان نفع الله به.

ولما تمكن خير الدين بتونس جاءت عمارة من بلاد النصارى استنجد بها الحسن من قبل الأمبراطور فيها مائة ألف مقاتل. قلت: الأمبراطور في ذلك الزمان هو صاحب إسبانية دمره الله، وإنما تسمى بهذا الاسم لما تحكم على أكثر بلاد الأندلس، شمخ بأنفه وتسمى بالأمبراطور ولم يكن هذا الاسم لأحد من أجداده والأمبراطور من أسماء ملوك الألمان، لأن ملكهم قديم، والأمبراطور عندهم كالخليفة عند المسلمين وإنما نبهت على هذا لئلا يظن أنه الأمبراطور المعهود.

ولما نزلت النصارى قابلتهم الأتراك ومن انحاز إليهم من المسلمين وعددهم ثمانية عشر ألفاً، والتقى الجمعان بخربة الكلخ شرقي تونس، وخير الدين معهم وانتشب القتال بينهم وكانت مقتلة عظيمة. وظهـرت شجاعة خير الدين في ذلك النهار، وكادت أن تكون له على النصارى إلاوالخبر أتاه أن القصبة أخذت وأن الأعلاج الذين بها فتحوا الباب، ففر خير الدين مز وقته ومن معه إلى المغرب. واعترضه العرب عند تبرسق فكانت بينهم حروب شديدة وتخلص منهم إلى أن وصل بلد العناب وركب البحر في عشرين عراباً، وسيأتي بقية خبره إن شاء الله تعالى.

ولما دخل الحسن إلى قصبته واطمأنت الناس وقعد كل صانع في

صناعته، وأهل الربع فتحوا ربعهم واطمأنوا في أماكنهم، دهمهم عدو الدين، فهجمت النصارى عليهم على حين غفلة والأسواق مفتوحة فأخذوا ما فيها من الأمتعة وقتلوا أهلها وسبوا خلقاً كثيراً، وفر الناس بعيالهم ممن قدر على الهرب وراحوا إلى ناحية زغوان. فبعث عظيم النصارى إلى العرب وجعل لهم جعلاً على كل مسلم أتوا به إليه، فخرجت العربان في طلبهم وأخرجوهم من كل شعب وواد وأتوا بهم إلى النصارى، فكان طلب العرب لهم أصعب من طلب النصارى، وأخذوا ما شرطوا لهم والبعض فدى من العرب وبلغت فدية الرجل ألف دينار وأكثر وأقل، ومن لم يفد نفسه من كافر العرب تملكه الكافر الآخر وكان هذا الخطب جسيما.

وهذه الواقعة هي المعبر عنها بخطرة الأربعاء، وكان السلطان الحسن أباح البلد للنصارى ثلاثة أيام. وإلى هذه الواقعة أشار العالم ابن سلامة في قصيدته التي يتشوق فيها إلى تونس ويندب أطلالها. ويذكر أيامها الرافلة في حلل الدعة كيف تغيرت وتبدلت أحوالها. ولله سر في تقلبات الزمان. كل يوم هو في شأن. وقيل في هذه الواقعة أسر الثلث ومات الثلث وهرب الثلث. وسمعت من شيوخ البلد من يقول عدد كل ثلث ستون ألفاً والله أعلم بحقيقة ذلك وكانت هذه الواقعة سنة إحدى وأربعين وتسعمائة.

وأما خير الدين فإنه فر من بلد العناب في عشرين عراباً ورجع إلى بر الترك فعثر على سفينة وفيها رسول من عند إبراهيم باشا، فأخذه خير الدين ورجع به إلى السلطان سليمان وكان مع الرسول دلائل الخديعة التي لإبراهيم باشا، فعفا عن خير الدين وقتل إبراهيم باشا بيده. ولما تفرق الأمبراطور عن تونس بعد نهبها، طالبته نفسه بأخذ الجزائر، فبعث إليها عمارة، فكان من أمرها ما تقدم ذكره، ومن ذلك الوقت لم يضع تاجاً على رأسه ولا أحد من ذريته إلى يومنا هذا، وذلك أنه لما سمع بفساد عمارته على الجزائر رمى بتاجه إلى الأرض وأقسم لا يضعه على رأسه إلا بعد أخذه الجزائر، وهلم جرا الأمر في عقبه زادهم الله خيبة.

وعند استقرار الحسن بتونس تراجع بعض أهل البلد بعد التشتت والنهب وحب الوطن إلى أهله من الإيمان. واستقضى السلطان الحسن بعد هذه الواقعة الشيخ سالم الهواري وكانت فيه رحمة للناس في تأمينهم على أملاكهم، وسار فيهم سيرة مشكورة أثابه الله على صنعه. والشيخ سالم عند أهل تونس يقولون كانت له صبوة أيام صباه وأقلع عن ذلك، وأقول وأنا استغفر الله: معاذ الله أن يكون من أهل ما ينسبونه إليه فإن أهل الحضرة من العلماء في ذلك العصر كانوا أهل دين وعفاف، فكيف يقدمون من كانت فيه تلك الخصال الغير المرضية اللهم إلا أن يكون بدت منه أيام الشباب وأقلع بعد، أو هذا من أقوال المبغضين والعلماء لحومهم مسمومة والله أعلم بذلك.

وبعد سنة الأربعين جمع الحسن عرباناً وجمع جموعاً وخرج إلى القيروان لقصد افتكاكها من يد الشابيين، فلما قرب منها ونزل باطن القرن خرجت إليه أهل القيروان فكبسوه ليلاً فانهزم هو ومن معه وأخذت أمواله ورجع مكسوراً. فأقسم لا يرجع عنها بحال وعزم على أخذها بالنصارى كما أخذ تونس، فخرج بنفسه إلى بلاد النصارى ليأتي بعمارة مثل الأولى ويأبى الله إلا ما يريد. وكان غرض الحسن إباحة القيروان كما أباح تونس فقابله الله على صنعها وخبث نيته.

وكان ابنه أحمد عاملاً في بلد العناب فلما شعر بفعل أبيه وما عزم عليه خاف من إتلاف الحضرة فتلافاها وأقبل إلى تونس خفية وتكلم مع بطانته وجماعة من أهل أريانة وعمدته الشيخ عمر الجبالي، الذي شاخ بباب الجزيرة وأولاده من بعده شاخوا بالربض المذكور، وكان الشيخ عمر ممن قوي قلبه يوم دخوله القصبة فدخلها على حين غفلة. ولما وصل قبالة القصبة عند المكان الذي فيه سكنى المرحوم محمد باشا، وبه يعرف في عصرنا هذا، جبنت نفس أحمد عن الإقدام إلى باب القصبة فوكزه الشيخ عمر بين كتفيه وقال له: تقدم، فقويت نفسه ودخل القصبة فلم يتعرض له أحد واتصل الخبر بالناس فهرعوا إليه وبايعوه. فقال لهم: - إنما فعلت هـذا لأني أنفت لمـا حـل بكم في السـابق، وخفت عليكم ممـا

يأتي ـ فشكروه ودعوا له وسار في الناس سيرة حسنة نفرت بها نفوس أهل البلد عن أبيه الحسن، وبعث من يتعصب للحسن إلى النصارى الذين بحلق الوادي وأعلموهم بالخبر، فبعثوا فرقاطة في إثر الحسن أخبرته بما وقع من أخذ ولده أحمد القصبة واستقلاله بالأمر، فعظم ذلك عليه وبذل أموالاً كثيرة وأتى بعمارة عظيمة وجمع كثير.

ولما وصل الحسن بالنصارى هبطوا إلى البر فسمع السلطان أحمد وأهل البلد، ووقعت هرجة عظيمة وخاف أهل المدينة أن يصابوا مثل المرة الأولى، ففروا خفافاً وثقالاً بنية الجهاد. والمدافعة عن الأموال والأولاد. ونادى منادي أحمد ـ من أتى بأسير أو رأس قتيل فله مائة دينار ـ وجلس عند باب القصبة وجعل الدنانير في قراطيس من الكاغد، وحرض الناس على الجهاد فخرج أهل الربضين بلا سلطان معهم والتقوا بالنصارى والحسن، وكانت المصاف من خربة الكلخ إلى سانية العناب.

وكان يومئذ الشيخ سيدي علي المحجوب ممن حضر الواقعة، فوقف عند كدية القيروان وأخذ قبضة من تراب ومسكها في يده وقرأ حزب البحر للشيخ الشاذلي، نفع الله به الجميع، وعند تمام قراءته رمى بها نحو الكفرة وقال: ـ شاهت الوجوه ثلاثاً ـ ، واصطف الفريقان ولم يكن بينهما قتال، والناس ينظر بعضهم بعضاً إلا وعلم أخضر طلع من المدينة وأقبل من بين شط البحيرة وبين نوايل سيدي سفيان ومعه مائتا رجل لا غير وأميرهم المعلم عمر، فلما رآه الناس تقوت نفوسهم فتقدم الشيخ عمر ومن معه وتقدم الناس، والتقى الجمعان واشتد القتال ساعة من النهار. فأنزل الله النصر على المسلمين. وصدقوا في قتالهم لأعداء الدين فانهزم حزب الشيطان ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[1] وثبت أهل دين الإسلام وخذل الله الكافرين، فقتلوا قتلاً ذريعاً لم يقتل بتونس مثله.

وسمعت من أهل الحضرة من يقول كان السلطان أحمد ذلك اليوم

(١) الآية ٤٧، سورة الروم.

يعطي كل من أتاه برأس من الكفرة مائة دينار، وكثرت الرؤوس حتى صار يعطي العشرة دنانير وأقل وكثر إلى أن أعطى ديناراً. وحضر ذلك اليوم الشيخ سيدي عبد الله بن داود نفع الله به، فجاهد في الله حق جهاده حتى يبست يده على قائم سيفه والدم منعقد عليها جزاه الله خيراً.

وفر الحسن إلى شكلة ودخل في الماء راجلاً بلا فرس وهابته الناس لكونه مرلي أوبر، فدخل أبو الهول فأخرجه وهو ملوث بالغرم فكسي برنساً وجيء به إلى ولده أحمد فوبخه على فعله حتى قال له: ـ خالفت مسماك الحسن ـ وسجنه. وكانت واقعة مذكورة عند أهل تونس بردت بها حراء اكبادهم مما وقع لهم قبل ذلك. واستغاث العوام بالسلطان أحمد وقالوا لا يكون ملكان في مدينة وكثر هرج الناس فاستشار أحمد أصحابه في سجنه أو قتله، فأشار ابن أبي حمزة بسمل عينيه فسملت عيناه.

ولما نفذ أمر الله فيه أخذ نفسه بزيارة الصالحين، ويطلب في ذلك الإذن من ولده فيأذن له، ولا زال ينتقل من ولي إلى آخر حتى استأذنه في زيارة الشيخ سيدي أبي القاسم الجليزي، فقال له ولده أحمد: ـ لعلك تريد أن تلحق بصهرك أبي سلامة القليعي ـ فقال له الحسن: ـ وما عسى أن يكون مني وأنا على هذه الحالة ـ فأذن له فكان الأمر كما قال أحمد. فإنه لما خرج إلى مقام الشيخ الجليزي نفع الله به، أتاه القليعي بالليل وهرب به إلى القيروان.

وأقام بزاوية الشيخ الجديدي برهة من الزمان، وكانت عجائز القيروان يجالسنه ويبيتن معه، وأنا أدركت بعض من أدرك بعض العجائز اللاتي جالسنه وحادثنه. وسمعت من الحاكي أنه قال: دخل عليه أولاد الشيخ عرفة صاحب القيروان في بعض الأيام وأتوه ببربط وهو عود الملهاة وقالوا له: ـ تريد أن تسمعنا من غنائك بالعود ـ وألزموه ذلك استخفافاً به فأخذه وجسه بيده وقد كبر عليه إقدامهم بما لا يليق بمثله فأنشدهم البيت الشهير بين الناس.

وكنا أسوداً والرجال تهابنا أتانا زمان فيه نخشى الأرانبا

وألقى العود من يده وجهش بالبكاء في وجوههم فخرجوا من بين يديه لا يدري أحد أين يضع قدمه، فسبحان المعز وسبحان المذل. . وكان في خبري أنه مات بالقيروان لأنه مقبور هناك، حتى وقفت على ورقة بخط الشيخ بركات الشريف يذكر فيها أن السلطان الحسن هرب إلى بلاد النصارى وهو أعمى وأتى بعمارة لأخذ المهدية فمات في البحر، فأنزل إلى البر ورفعوه إلى القيروان فدفن بها، والله أعلم بحقائق الأمور. ويمكن أن يكون فر من القيروان بعدما أقام بها وهذا هو الأصح لأن إقامته بالقيروان معروفة بين الناس.

الخبر عن خلافة الأمير المولى أبي العباس أحمد

هو ابن المولى أبي محمد الحسن بن المولى أبي عبد الله محمد بن المولى أبي محمد الحسن بن أبي عبد الله المسعود بن الإمام أبي عمرو عثمان وبقية النسب معروفة تغلب على ملك أبيه في حياته كما تقدم ذكره. وقيل إن السلطان الحسن لما فعل بتونس ما ذكرناه، واستحكم أعداء الدين بحلق الوادي وصارت لهم صولة وشاركوه في أحكامه واستوزر الحسن محمد السليطين بن عبد الملك السليطين ، وكانت مدته نحو الأربعين يوماً، كان المشارك له في الحكم النصراني جوان بن جاكمو. وكان من أهل العقْد والحل مع نصارى حلق الوادي، وكان معه ثلاثمائة رجل من النصارى وهو كبيرهم، وكانوا يلبسون المبطن والبرنيطة وسكناهم في الربض الذي خلف القصبة.

وأول من أسكن النصارى بذلك الربض السلطان عثمان لأنهم أخواله واشتدت شوكتهم في أيام ابن عبد الملك. وجوان هذا هو الذي قتل عبد الكريم بن هلال، ضربه على رأسه بفأس في علو الخليفة الحسن، وأشرف من العلو على أصحابه فقال لهم: اقتلوا بقية بني هلال، فقتلوا يومئذ ثلاثة عشر رجلاً. ووجدت قبورهم مبنية، وسببه أن جدهم علج تعلم النجامة على رجل رباه فأخبره بأن بنيه يموتون في يوم واحد ولا يجدون مدفناً، فجعل أكثر من ثلاثة عشر قبراً فلما قتلوا ألحدوا بها.

ومشى محمد بن حذيفة اليماني إلى أبيهم إبراهيم بن هلال في ذلك اليوم وأوعده هو وبقية بنيه إن لم يتوبوا قتلوا بالحديد وهربوا بعد ذلك إلى قسمطينة، وهي إذ ذاك بيد الترك فأكرموهم ورجعوا بعد ذلك على يد القائد إبراهيم الشيخ. وقد التقى مع علي بن حذيفة بن هلال وقال له: تتوب؟ قال: نعم. وبنو هلال من خدام أبي فارس وهم أهل رياسة.

ولما تزايد تسلط النصارى استبدوا بالأحكام حتى أن ابن عبد الملك لما مات قام ولده مقامه، وجوان المذكور ناظر عليه، فأنف أحمد من ذلك وذهب إلى الشيخ صالح فأمده بالمال ورافقه في ذهابه محمد العصاوي وأبو حمزة والبرادعي وصحاه بن جميع وجماعة، وأخذ البلد كما ذكرنا قبل. والله أعلم.

وأول من راسل ملوك الترك السلطان أحمد بن الحسن، بعث أولاً محمد القصيبي في أيام حسن بن خير الدين وجاء معه إلى الجزائر لإحسانه إليه. وبعث بعده محمد المريش وبعد ذلك بعث أبا الطيب تاج الخضار للباشا علي وهو بمدينة طرابلس وعدا معه الباشا علي إلى الجزائر، ووقعت ألفة بينهما أي بين الباشا علي وأبي الطيب وبعثه مرة أخرى إلى القسطنطينية وهي الأخيرة.

ولما تمكن من الملك لم يجدْ في خزائن أجداده شيئاً لأنه أتلفها أبوه في أيامه، وعاثت أولاد سعيد في البلاد كعادتهم الخبيثة، وشنوا الغارة إلى أن وصلوا للجبل الأخضر وساقوا بعض مواشي السلطان، فخرج إليهم بنفسه فأدركهم في سيجوم وطعن بعضهم. وكان شجاعاً مقداماً وفيه فروسية حتى قيل أنه لم يضع رجله في ركاب عند ركوبه. ولما استوثق له الأمر أركب ثلاثة آلاف فارس وسماهم زمازمية وكانوا قبله يسمون موحدية، وأخرج فتوى من علماء الحضرة بقتال أولاد سعيد فبدد شملهم وأهانهم. قلت تقدم في خبر جده عثمان أن الشيخ أبا القاسم البرزلي رحمه الله كان يدعو على أولاد سعيد عند خروج السلطان إلى قتالهم كما ذكره الشيخ الرصاع.

وسمعت من يقول إنه أفتى بقتلهم أيضاً، وبقتل غيرهم من المحاربين من عرب إفريقية ولا فرق، إلا إن هذه الطائفة الملعونة أشد نفاقاً من غيرهم. وابن ناجي أفتى بتحريم مبايعتهم آلات الحرب حتى الأتمقة والرواحي التي يلبسها الإفريقيون من العرب، لا فرق بين هؤلاء إلا إن السعيديين أقوى ضرراً من غيرهم، لأنهم على مر الأيام لا ينسون فسادهم ولا ينتهون عن فعلهم الخبيث.

وكان المولى أبو عمرو عثمان ممن أذلهم ومزق جمعهم وأفلهم وأخذ عليهم أن لا يصلوا إلى نواحي الوطن وسكناهم من وادران إلى القلة لا يتعدونه. وإنما حدث منهم هذا الحادث في أيام السلطان الحسن إلى أيام السلطان أحمد هذا زاد طغيانهم فسلطه الله عليهم.

وكان السلطان المذكور محباً في العدل وإقامة الشرع لا يتعدى أحكامه في رعيته ومن طلب معه الشرع أجابه إليه، والمعتصبون عليه ينسبونه إلى غير هذا والله أعلم. وسمعت من أهل الحضرة من يقول كان يزور الشيخ سيدي أبي القاسم الجليزي وله اعتقاد فيه. وكان المذكور يشاهد النبي ﷺ في نومه كل ليلة جمعة، فلما جيء بالسلطان أحمد ميتاً ودفن بزاوية الشيخ الجليزي المذكور قصر عن زيارته فامتنع من رؤية النبي ﷺ، فلا زال يبتهل بالدعاء إلى الله ويستغيث إلى أن يسر الله عليه فرأى فيما يرى النائم النبي ﷺ فقال: - يا رسول الله ما حجبك عني؟ - فقال له ﷺ: - لم لا تزور الشيخ الجليزي؟ - فقال: - يا رسول الله لأجل الظالم الذي دفن بإزائه - فقال له ﷺ: - إنه كان يذب عن شريعتي فزرهما معاً، فلو لم تكن له إلا هذه المنقبة لكفته سامحه الله تعالى.

وكانت بينه وبين درغوث باشا صحبةٌ أكيدة. ولما كان درغوث باشا محارباً لجربة أرسل له السلطان أحمد المؤونة، وذلك أن جربة عصت عليه لظلم منه وملكتها النصارى ستة أشهر وأفتكت على يد الباشا علي أرسله درغوث والباشا علي هذا هو الذي مشى إليه أبو الطيب الخضار وعدل معه إلى الجزائر.

وفي أيام السلطان أحمد، كانت دولة الجناويين لأنه اتخذ سوداناً وجعلهم جيشاً له لما كان يتوقع من تمليك البلاد لقوم لغتهم غير العربية، فجعل أقواماً من السودان ورفع منزلتهم تفاؤلاً بذلك لكي يكونوا هم الموعود بهم، لما أخبره منجموه ومن يدعي الجفر وكان للسلطان أحمد اهتمام بهذا العلم.

وكذلك ما أخبر به عن أهل هذه الصناعة أن الحكم ينتقل منه إلى رجل اسمه علي من غير جنس العرب وذهاب ملكه على يديه، فأقام مملوكاً له من الأعلاج وسماه علي وأجلسه في مجلسه وفوض له الأمر. والقدر يجري بخلاف ذلك.

وكانت له فتكات في العرب أهانهم وبدد جمعهم غير ما مرة. وفي أهل حلق الوادي له عدة وقائع منها: إنه عزم على السفر إلى إفريقية على عادته، وسار كأنه غاز ومعه ألف فارس وأردف خلف كل فارس رجلاً وسار إلى أن بلغ ماطر، ورجع من هنالك على غير طريقه الأولى إلى أن أتى إلى ناحية المعلقة فكمن هنالك.

وبعث خيل الدالة وأمرهم بالغارة على حلق الوادي والنصارى مطمئنون من جانبه، لأن جواسيسهم وهم المهجرصون، أخبرتهم بأن السلطان خرج عن البلد، فلما أنذروا بخيل الدالة خرجوا من البرج في طلب الخيل وانهزموا أمامهم، فأتبعوهم إلى أن وصلوا إلى قرب الحضرة، فلما علم أحمد بيعدهم جال نحو البرج ودهم الذي به على حين غفلة، ووقف على بابه واندهلت النصارى عن غلق الباب، وامتنع هو من أخذه ورجع، ولو أراد أخذه لتمكن منه لما هو سابق في الغيب، لأن القوم كانوا يرون أن البرج المذكور يحول بينهم وبين عدوهم المتوقعون له. ولما رجع السلطان عن خلفه حال بين الأعلاج الذين خرجوا غائرين وبين البرج فقتل منهم خلقاً عظيماً.

وكان أهل حلق الوادي يأخذون من أهل تونس الرمية من الصوف والجير لبناء برجهم، فإن أعطوهم ذلك وقعت الهدنة وإن لم يعطوا

يضيقون عليهم براً وبحراً وتصبح بطائحهم في البحيرة ويرمون بالمدافع، وفي البر يغيرون هم ومن معهم من المهجرصين فيقاسي من ذلك أهل تونس أكبر التعب. وإن عزم أهل تونس أو السلطان على غزوهم أنذرهم المهجرصون وهذا دأبهم معهم.

وكان أهل تونس في شدة مع العدو في كل حين ولهذا كانوا يدربون أولادهم بلعب المحجر دائماً ليتطيروا بملاقاة العدو ولم يزالوا يقاسون من الكفرة الشدائد إلى أن منّ الله عليهم بهذه السلطنة الخاقانية، أبقاها الله لمجاهدة الكفرة، حسمت عن أهل تونس تلك الأرجاس والله رؤوف بالناس، وسيأتي بعد إن شاء الله تعالى.

وأخبار السلطان أحمد يطول شرحها وفيما ذكرناه كفاية ودامت أيامه وانتشرت بالعدل أحكامه إلى أن نفذ فيه أمر الله لا راد لقضائه.

وقيل أن أبا الطيب كان يتوقع منه القبض عليه. وهذا هو الموجب لانحرافه عليه رأنه دخل عليه في بعض الأيام فوجده في شغل من الفكرة فحدثه بما يسليه فقال له السلطان: - يا أبا الطيب لو جاءني علي من المغرب في عدد يسير ما كنت ألقاه وهذا أنه وأني لفي حيرة من ذلك - فحدثه أبو الطيب بما شرح صدره وأذهب عنه فكره فكان هذا هو الباعث لأبي الطيب إلى أن كاتب الباشا وهو بمدينة الجزائر وحرضه على القدوم لتونس، وكانت بين السلطان أحمد والباشا علي ضغائن في النفوس من وقت استخدامه بمدينة طرابلس.

ولهذا السبب أرسل إليه أبا الطيب فيما تقدم لإصلاح الحال. ولما بلغت مكاتبة أبي الطيب لعلي باشا، تقوى عزمه وخرج بمحلة عظيمة، واجتمع إليه من عمراوة وقرفة وسويد نحو من سبعة آلاف وأقبل بهم. ولما سمع أحمد بمجيء أهل الجزائر خرج ليصدهم عن الوطن والتقى معهم على بلد باجة. وكان مع السلطان أحمد خيله الزمازمية. وأخذ معه من الرجالة ألفاً وستمائة والتقى بهم فلم يغنوا عنه شيئاً. وأخذت محلته وانهزم أحمد بمن معه.

وجاءت الترك إلى وادي مجردة فوجدوه زائداً فمنعهم من العبور، فأرسل الباشا علي إلى بنزرت فجاءته الألواح والقناطر وجعلها جسراً على الوادي وقطع العسكر، والتقى مع السلطان أحمد مرة ثانية قرب سيدي علي الخطاب، فكسر ثانياً وقيل وقع الحرب ثالث كرة عند سيدي عبد الوهاب، ولم تكن للسلطان أحمد قوة، فدخل الحضرة وقد أيس من الملك ورأى المؤانسة لعدوه من عسكره، وفر عنه غالب الناس، وخرج في بعض الليالي إلى ربض باب السويقه وقصد دار الشيخ سيدي علي المني نفع الله به وهو إذ ذاك على قيد الحياة. فلما جلس في صدر البيت ولم يكن الشيخ حاضراً إلا والشيخ قد أقبل ووضع يديه على عارضتي الباب وقال: يا أحمد فأجابه بنعم فاستفتح الشيخ وقال: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾[1] - إلى تمام الآية، فعلم السلطان أن الأمر مدبر، فخرج وهو آيس من الملك فرجع إلى قصبته وجمع ذخائره وأمواله وبعض أهله ومن تبعه وخرج تحت الليل فتبعه العرب والبعض من أهل البلد، فدافع عن نفسه ونهب الكثير من ماله وسار على طريق رادس، ولم يبق معه إلا نفر قليل وعرج في طريقه إلى ناحية البريجة، وقطع إلى حلق الوادي ولم يكن البحر غامراً تلك الجهة، كما هو في زماننا وإنما طغى الماء بعد. ولما وصل إلى الحصار قرع الباب ففطن به العسس فأخبروا كبيرهم فأشرف عليه من فوق فعرفه أحمد بنفسه ففتح له الباب فدخل واطمأنت نفسه.

ولما خرج عن المدينة لم يكن لأهل المدينة قبل بمدافعة الأتراك ففتحوا الأبواب ودخل الباشا علي. ودخل العسكر معه وأصبح جالساً في القصبة وذلك في سنة سبع وسبعين وقيل ثمان وسبعين وتسعمائة، ونادى المنادي في الناس بالأمان وطلع إليه أهل البلد وأخذ عنهم البيعة لسلطانه ومن غد، اجتمعت جماعة من جند السلطان أحمد من الزمازمية الذين رجعوا عنه ومن بقي منهم واتفقوا على الرحيل من البلد فقال قائلهم: - لا بد لنا من الوقوف بين أيدي الترك - فساروا بأجمعهم إلى باب القصبة

(١) الآية ٢٦، سورة آل عمران.

وتكلموا معهم وقالوا: - إنّا كنا خدمنا سلطاننا مدة إقامته ودافعنا عنه بقدر طاقتنا، وأما اليوم فإن شئتم أبقيتمونا في أماكننا وإن شئتم صرفتمونا وأرض الله واسعة - فتشاوروا في أمرهم وأبقوهم على حالهم وقالوا لهم - أنتم نصحتم سلطانكم وليس لكم ذنب وحيث أديتم حق ملككم وقاتلتم في طاعته، فأنتم اليوم معدودون من جماعتنا - فمن ذلك اليوم عرفوا بجماعة الترك إلى يومنا هذا.

وعلمهم أبو الطيب قوانين البلاد وتصرفاتها وأخذ يتصرف في الأعمال، لأن القوم ليس لهم خبرة بأحواله ظناً منه أنه يستبد بالحكم معهم لكونه هو السبب في إتيانهم وممن أعانهم فعاجلوه وقتل صلباً ونهبت أمواله. وإن الله لا يهدي كيد الخائنين وعوقب بنقيض مقصوده، كما هي عادة الله في من ساءت نيته.

ولما تمهدت البلاد رجع الباشا علي إلى الجزائر وخلف في البلاد نوبة من أتراك وزواوة لصيانتها، وخلف قائده رمضان حاكماً في البلد وعدد الأتراك الذين خلفهم ثمانمائة والزواوة كذلك. وكان في عسكر السلطان أحمد أربعمائة من الأتراك ولما أراد أن يدافع أهل الجزائر كما ذكرنا قال للأتراك الذين في خدمة هؤلاء أهل الجزائر من جنسكم وأنا لا أريد أن تقع بينكم عداوة فقالوا له: إنما خدمناك لندافع عنك بأنفسنا فأبى عليهم وبعثهم إلى سوسة إلى أن وقع عليه ما وقع وأخذت الترك البلاد، فتراجعوا بعد ذلك ومكثت في أيدي أهل الجزائر ثلاث سنين والعرب من برها وأهل حلق الوادي من بحرها إلى أن جاءتها العمارة من الأمبرطور بإذن السلطان أحمد وذلك في سنة ثمانين وتسعمائة. وأنفق عليها أموالاً كثيرة.

ولما وصلت العمارة إلى حلق الوادي، أخرج الجنرال كتاباً من عند سلطانه يذكر شروطاً اشترطها على السلطان أحمد فامتنع منها وقال: - مالكم عندي إلا المال لا غير وأما البلاد فليس لكم فيها شيء - فقال الجنرال: - إن تف بها فخير وإلا نقدم غيرك يف لنا بها - وقدموا أخاه محمداً فقبل الشرط ونزل بهم إلى البر، وأما السلطان أحمد ففر إلى جزيرة صقلية وسكن مدينة بلرمو، وبقي بها إلى أن مات رحمه الله، وجيء

به إلى تونس فدفن بزاوية الشيخ الجليزي بعد ما مكث ثلاثة أيام ملقى في الجلاز لم يؤذن بإدخاله البلد، ظناً من القوم أنه حي وأدخل بعد ذلك ودفن والملك لله وحده.

الخبر عن خلافة الأمير المولى محمد بن المولى الحسن

أمه أم ولد وهو خاتمة بني أبي حفص وبانقراضه انقرضت أيامهم، قدم إلى الحضرة بعمارة النصارى، فلما علمت أهل تونس بمجيئه هربوا من البلد خيفة من هول الأربعاء، وهي الواقعة التي جرت عليهم أيام الحسن، وهرب أكثر أهل تونس إلى ناحية جبل الرصاص واختفوا هناك في الدواميس، وهذه الواقعة يعبر عنها بخطرة الدواميس.

وكان فيها الخطب جليلاً وكانت في زمن الخريف وغالب أهل البلاد عرائس، فانهتك حجابهم وافتضحوا ونالهم من الهوان ما لم يعهدوه، وصنعوا نواويل في الغابات وسكنوا بها وتسولوا بين خيام البادية، ونالوا من الخوف والجوع ما لم ينله أحد، وتولى الحرس على النساء والذراري القائد عبد الله والقائد علي بن أبي زيد، وبعث إليهم الشيخ الجديدي يحرضهم عن قلة الطمأنينة. وبعث السلطان محمد بعد ذلك للناس وأمنهم وأمرهم بالرجوع إلى البلد، ثم رجعوا فمن وجد داره أخذها ومن وجدها بيد النصارى، وكل أمره إلى الله. وقسمت المدينة قسمين كفر وإيمان.

وفي تلك الأيام أهين المسجد الأعظم، ونهبت خزائن الكتب التي به وديست بأرجل الكفرة معالم المدارس وتفرق ما جمع فيها من دواوين العلوم، وتبددت في الشوارع حتى قيل أن المار من شرفي الجامع حيث النواوريين الآن إنما يمر على الكتب المطروحة هناك، وضربت النواقيس في الحضرة.

وسمعت بعض أهل البلاد يقول إن النصارى ربطوا خيولهم بالجامع الأعظم ونبشوا قبر الشيخ سيدي محرز بن خلف فلم يجدوا به إلا الرمل، وفعلوا ما لا تفعله الأعداء بالأعداء. وساكنوا المسلمين وصارت

الدار بالدار، وسكن القبطان مع السلطان محمد بالقصبة ويجلسان معاً في سقيفتها للحكم، واستمال القبطان قلوب الناس وساسهم بعدله ومكره ومنع من التعدي عليهم، وانحاز أهل باب السويقة ناحية ومنعوا أنفسهم من الإهانة. وأهل باب الجزيرة، وأهل المدينة أهينوا لأنهم تحت الرمية فجرى عليهم حكم النصارى.

وفي تلك المدة عمر البستيون خارج باب البحر من تونس، وفصلت اسواقه وحوانيته وعمر بالكفرة، ونال أهل تونس من أهل البستيون ما لم ينالوه من غيرهم، حتى كانوا يفتنون الرجل عن دينه. وشاركت النصارى المسلمين في مساكنهم ومعاملتهم، وأقاموا معهم تحت القهر والإهانة، وفي تلك الأيام وقعت خطرة الشكارى بين مسلم ونصراني، كل منهما أراد شراءها فمد النصراني يده في المسلم فصاح المسلم واستغاث، فقامت الناس لنصرة المسلم وقتلوا النصراني، وكانت الواقعة بباب البنات فتسامع أبناء جنسه ففزعوا وخرجوا من باب السويقة، ووقعت بينهم مقتلة دام فيها الحرب من الصبح إلى غروب الشمس وبقيت جنائز الفريقين ملقاة، وخرج السلطان وحز بين الفريقين وجرت النصارى موتاهم على العجل. وسبب هذه الخطرة على يد ابن الصفار كانت داره بالعزافين وقد أدركت ابنه يسكن هنالك وسمعت من ولده يقول كان أبي هو السبب في تلك الواقعة والله أعلم بحقيقة ذلك.

ولنرجع إلى خبر الترك فإنهم لما دهمهم العدو وعلموا أن ليس لهم طاقة بمقاومتهم، سلموا البلد وهربوا إلى ناحية جزيرة شريك ونزلوا على الحمامات، فغلق دونهم أهل الحمامات باب البلد، فطلبوا منهم القوت فمنعوهم وعلقوا سلوقية ميتة على برج عندهم، وبه يسمى برج السلوقية إلى اليوم، وقالوا لهم هذا ما لكم عندنا ـ فباتوا هنالك وجمعوا أمرهم إلى اين يكون ذهابهم فاتفقت آراؤهم على القيروان وبها الباشا حيدر. وكان نمي إليهم الخبر بما وقع بتونس فاضطربت القيروان في تلك الأيام.

ولما أراد الترك أن يتوجهوا إلى القيروان لحقت بهم النصارى على

بلد الحمامات، فلم يكن لهم ملجأ يلجأون إليه فقال كبيرهم: نجعل البحر خلفنا ونستقبل العدو والنصر بيد الله تعالى. . وسمعت من يقول أن أميرهم كان خير الدين وليس كذلك، لأن خير الدين هو الذي أخذ تونس من يد الحسن في حدود الأربعين، وهذه الكائنة في سنة ثمانين إلا أن يكون الحسن بن خير الدين والله أعلم.

ولما وصل العدو إلى الترك صدقوا في القتال وصبروا صبر الأحرار، فهربت الكفرة وركبت الترك أدبارهم إلى أن أخرجوهم من الخنقة التي بقرب الحمامات وقتلوا منهم ما شاء الله وقطعوا رؤوس القتلى وبعثوا منها أحمالاً للقيروان لتسكين الأحوال فيها. ووجدت صناديق للنصارى مملؤة بالريش بقصد من قتل منهم مسلماً رشقوا ريشة في رأس قاتله للمباهاة، فخذلهم الله تعالى.

ومن الغد رجعوا إلى الحمامات فحاصروها وأخذوها عنوة وقتلوا من قدروا عليه من الرجال وفر الباقون وسبيت أولادهم وحريمهم ونهبت أموالهم وفعلوا بهم الفاقرة. وأتى الشيخ الجديدي فأفتك منهم النساء والأولاد وتراجع إليها من هرب. والتحق الترك بإخوانهم بالقيروان وأقاموا هناك عشرة أشهر مدة سلطنة محمد وتحكم النصارى بتونس. واشتد الأمر على الذين بالقيروان وضاقت بهم البلاد. وكان بها الباشا حيدر وهو الذي ضرب الحيدري المشهور بالقيروان. وأراد الفرار عنها لشدة الأمر، وكان يتردد إلى الشيخ سيدي أحمد الزنان، نفع الله به، فكان الشيخ يربضه ويوعده بالخير، فيقف عند إشارة الشيخ إلى أن قدر الله بارتفاع المحن. وإزالة البؤس والحزن. وإظهار شعائر الإسلام بالدرجة العلية. ونشر الأعلام الخاقانية وتطهير الديار التونسية. من الكفر والأرجاس. فسلم الله هذه المملكة بالخاقان سليم ابن سليمان والله رؤوف بالناس.

وكاتب أهل القيروان إخوانهم بطرابلس والجزائر، فأتوا بنية الجهاد من الجزائر ومن طرابلس ومن القيروان، ونزلوا بساحة تونس في يوم واحد وناوشوا القتال لأهل تونس وضايقوها من البر وأقاموا عليها مدة فلم يفعلوا

شيئاً. ولما طالت إقامتهم ولم يحصلوا على شيء عزموا على الرحيل إلى بلادهم. فظهرت لهم مراكب في البحر فظنوا أنها عمارة أتت لنصرة النصارى، فقويت نفوسهم على الرحيل بالليل.

وكان من قدر الله أن العمارة المذكورة من قبل السلطان سليم، أبقى الله البركة في ذريته إلى يوم الدين، والقبطان بها علي باشا وسردارها سنان باشا، فلما وصلوا إلى ناحية المرسى من حلق الوادي وعلم المسلمون الذين هناك بأنها عمارة الإسلام طلع إليهم بعض المسلمين فسألوه عن أحوال البلاد، فأخبرهم بخبر المحال النازلة على البلد، فكتبوا كتاباً وبعثوه إلى أمراء تلك المحال يخبرونهم بمجيء العمارة السلطانية ويأمرونهم بالإقامة في أماكنهم، فلما أتاهم الخبر أيقنوا بالنصر وتقوى عزمهم إلى أن فتح الله عليهم.

وسمعت من أهل الحضرة من يقول سبب مجيء العمارة إلى هذه الديار أن السلطان سليم رأى في منامه الشيخ الولي سيدي محرز بن خلف يستنجده على بلاده وقال له ـ أنا محرز بن خلف ـ فلما أصبح سأل عن الشيخ وعن بلده فقيل له تونس. وقيل أن العمارة كانت معينة إلى الأندلس نجدة لغرناطة لأن أهل غرناطة بعثوا يستنجدونه، فعزم على إرسال هذه العمارة إليهم، فبلغه خبر غرناطة وأنها أخذت في تلك الأيام واحتوى عليها أعداء الدين، ففتر عزم السلطان عن الأندلس وبعث بها إلى تونس. ولعل الاتفاق وقع من الطرفين والله أعلم.

وكان عدد المراكب ثمانية عشر معونة ومن الغلائط وغيرها من السفن ألفاً وخمسمائة قطعة حرس الله هذه السلطنة العثمانية من آفات الزمان. وجعلها تذب على الدين المحمدي وهي بشعائرها مشيدة الأركان. ولم يزالوا مطبقين على تونس من برها وبحرها إلى أن تمكنت أيديهم بسحرها ونحرها، ونزعوا ملكها من أيدي الكفرة بعد ما كانوا استولوا عليها وسلبوا ملك بني أبي حفص بعد ما كانوا ملوك البلاد الإفريقية وغيرها والله يرث الأرض ومن عليها.

وكان ابتداء ملكهم كما قدمنا ذكره سنة ثلاث وستمائة وانقرض بانقراضهم سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، فكانت مدة ملكهم ثلاثمائة وثماني وسبعين سنة. وملك الله هذا الإقليم الإفريقي كما ملك غيره لآل عثمان. وطهره بتوليتهم عليه من أهل الشرك والصلبان. وحيث بلغنا ما أردناه من الأخبار السابقة، نضيف بحول الله وقوته ما تيسر لنا من الأخبار اللاحقة، إن شاء الله تعالى، لا قوة إلا به ولا اتكال إلا عليه.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الباب السابع

في الدولة العثمانية والسلطنة الخاقانية

أدام الله ظلال أمنها في الخافقين. وجعلها دائمة اليمن والبركة قاهرة لأعداء الدين. وخادمة للحرمين الشريفين.

أول من ملك منهم البلاد جدهم عثمان وإليه انتسابهم، وهو عثمان ابن أرطغرل بن سليمان شاه، وكان سليمان هذا في بلاد ماهان قرب بلخ، وهو من جنس التركمان الرحالة النزالة من طائفة التتار، ويتصل نسبهم إلى يافث ابن نوح عليه الصلاة والسلام.

ولما ظهر جنكيز خان وخرب بلاد بلخ وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه، تفرقت أهل تلك المملكة وخرج سليمان شاه المذكور من بلاد ماهان بخمسين ألف بيت من التركمان، وقصد أرض الروم وعبر الفرات، فغرق بفرسه فمات وتفرقت جماعته في أطراف تلك البلاد وبقيتهم موجودة هناك إلى الآن على عادتهم في النزول والارتحال، وخلف سليمان أربعة من البنين، فعاد منهم إلى بلاد العجم إثنان وتوجه إثنان إلى بلاد الروم وقدما على السلطان علاء الدين السلجوقي صاحب بلاد قرمان،

وملكه إذ ذاك بقونية، فأكرمهما وأذن لهما بالإقامة بأرضه فاستأذناه في الجهاد فأذن لهما، واجتمع إليهما جماعة من التراكمة فوصلوا الجهاد في أرض الكفرة ولهم وقائع مشهورة عند أهل السير، ومات أرطغرل وخلف عدة أولاد أشدهم بأساً عثمان، فواصل الجهاد على عادة أبيه، فرأى السلطان علاء الدين جده واجتهاده، فأكرمه وأعزه وأمده وأعانه وجعل له المرتبات السلطانية، وأرسل نوبة خاقانية ودق بين يديه الطبل والزمر وسماه خان تعظيماً وتفخيماً. ولما دقت الطبول بين يديه قام هو على قدميه إجلالاً لمخدومه فمن هناك صارت لآل عثمان عادة القيام عند دق النوبة قانوناً جارياً إلى الآن، وجرى عليه اسم السلطنة سنة تسع وتسعين وستمائة.

وافتتح تلك السنة قره حصار وخطب له فيها وتمادى في فتح تلك الحصون وساعدته المقادير لما سيكون، إلى أن توفي رحمه الله سنة خمس وسبعمائة، وتولى بعده السلطان أورخان بن عثمان، وهو الذي افتتح مدينة برسا في حياة والده وجعلها دار الملك. وفاق والده في الجهاد وفتح بلاداً كثيرة. واجتمع لحربه جملة ملوك نصارى من بلاد الروملي وقصدوا لقاءه في بر الأناطولي فسير إليهم ولده سليمان بك فجاز إليهم إلى بر الروملي، ودهمهم على حين غفلة فمزقهم الله وفرق جمعهم وفتح عدة أماكن وعاد إلى والده منصوراً. وعاش أورخان إلى سنة سبع وأربعين وسبعمائة، فمات رحمه الله. وتولى بعده ولده السلطان مراد بن أورخان بن عثمان سنة سبع وأربعين، وجلس على تخت الملك سنة وفاة أبيه.

وهو الذي فتح أدرنا واتخذ المماليك وسماهم يكشريه، معناه العسكر الجديد، وألبسهم اللبد الأبيض المنثني إلى خلف. وكانت له صولة عظيمة. واجتمعت ملوك الشرك إلى قتاله فهزمهم وقتل زعيمهم الأكبر. وأظهر بعض ملوكهم الطاعة وأقبل لتقبيل يده فطعنه بخنجر كانت معه، فمات رحمه الله. ومن ثم صارت عادة عند آل عثمان لا يدخل أحد بسلاح على السلطان وأن تفتش ثيابه وأن يدخل بين رجلين يكتنفانه.

وتوفي سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة وتولى بعده بايزيد خان. وكنيته

يلدرم معناه الصاعقة وعمره إذ ذاك اثنتان وأربعون سنة، وأقام ستة عشر سنة سلطانا. واستولى على قلاع كثيرة وغصب ملوك الطوائف الذين بآرائه. وأخذ ابن كرمان وحبسه ففر من محبسه وفر منه أيضاً إبن متنسبا في صورة قلندري حلق لحيته وحواجبه وابن اسفندار وغيره من الملوك، ولحقوا بتيمور ملك التتار واستغاثوا به وحرضوه على أخذ بلاد الروم. وتيمور هذا من أشر ملوك الدنيا أهلك ثلثي العالم وملكه، وكان مبتدأ أمره من وراء خرسان، وملك ما وراء النهر والسند والهند والصين والعراق، وجاز إلى الديار الشامية والحلبية ولم ينج منه إلا مصر والمغرب، وسفك من الدماء ما لا يعلمه إلا الله وأخباره كثيرة ليس هذا محلها وقتل من العلماء ألوفاً لا تحصى.

وسئل بعض الفضلاء عن تيمور أي سنة ظهر فيها فقال: ـ في سنة «عذاب». ولما وصل إلى بلاد الروم خرج بايزيد إلى قتاله فخذله من كان في عسكره من التتار وغيرهم. ورجعوا مع تيمور باستمالته إليهم وبقي بايزيد في جمع قليل وقاتل بنفسه إلى أن هجم على تيمور في القيد سنة سبع وتسعين وسبعمائة، وتسلطن بعده بنوه عيسى وموسى وقاسم وسليمان ومحمد. ووقع بينهم القتال والتحاسد نحو اثنتي عشرة سنة.

واستقل بالملك السلطان محمد بن بايزيد في سنة خمس وثمانمائة وعمره إذ ذاك ثماني عشرة سنة ـ وكان مطاعاً مقداماً واسع العطاء عين صدقات للحرمين الشريفين، ومهد البلاد وفتح فتوحات. وتوفي بعد سبع عشرة سنة من سلطنته سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة.

وتولى السلطان مراد الثاني في التاريخ المذكور، أي اثنتين وعشرين وثمانمائة، فأقام الشرع في أيامه ولازم الجهاد على عادة أجداده وفتح بلاداً كثيرة إلى أن كبر ولده محمد فتخلى له عن الملك وأجلسه في حياته على سرير ملكه وتقاعد برضاه إلى أن وافاه حمامه.

ثم استقل بالأمر السلطان محمد خان في سنة اثنتين وخمسين

وثمانمائة وعمره إذ ذاك عشرون سنة. وهو من أعظم سلاطين آل عثمان في الجهاد متوكلاً على الله. وأكبر فتوحاته قسطنطينة العظمى وجعلها داراً للملك. وبنى بها المدارس وقرب العلماء وأجرى عليهم النفقات. واستجلب العلماء العظام من أقطار البلاد، وتزخرفت بأيامه الدنيا وتشرفت العلماء في أيامه. وفعل خيرات لا تحصى. وتوفي سنة ست وثمانين وثمانمائة رحمة الله عليه.

وجلس بعده في الملك السلطان بايزيد ابن السلطان محمد في ربيع الأول من السنة المذكورة وعمره إذ ذاك ثلاثون سنة. وقام بالأمر اثنتين وثلاثين سنة، وفتح عدة قلاع وافتكها من أيدي الكفرة ونازعه أخوه في الملك، ووقع بينهما الحرب، فانهزم أخوه هارباً إلى مصر في أيام قيت باي، فأكرمه وعاد إلى قتال أخيه مرة أخرى فهزم وهرب إلى بلاد النصارى، فدس عليه أخوه من قتله هناك بموس مسمومة حلق رأسه بها.

وفي أيامه ظهر إسماعيل شاه ببلاد العجم وأظهر مذهب الرافضة واستولى على تلك البلاد فغزاه بايزيد، وكان رحمه الله محباً للجهاد مداوماً على أفعال البر. وكانت بيضة الإسلام في أيامه محفوظة بحب الأولياء والصالحين، وبنى المدارس والتكيات وديار المرضى، وهرعت إلى بابه أعيان الناس، ومدحه شهاب الدين بن الخليفة شاعر مكة بقصيدة، وأرسلها إليه فأثابه بألف دينار، وجعل له كل سنة ستمائة دينار. وهي باقية في عقبه تصل إلى أولاده في كل سنة إلى يومنا هذا. وكان له عدة أولاد فرقهم في حياته على المناصب إلى أن ماتوا في حياته. ولازمه مرض النقرس وهو من أمراض آل عثمان، فعجز عن السفر ومال العسكر في حياته إلى ولده سليم، وتقاتل معه وآخر الحال خلع نفسه وقدم ابنه للملك و رج إلى أدرنة فمات سنة سبع عشرة وتسعمائة.

والسلطان سليم جلس على تخت الملك في السنة المذكورة وعمره إذ ذاك ست وأربعون سنة وأيام ملكه تسع سنين. وكان ملكاً جباراً سفاكاً للدماء قوي البطش غزا بلاد العجم وافتك مصر من الشراكسة. وأخذ مدينة

حلب والشام. وهو أول من خطب له بخادم الحرمين الشريفين. توفي في ثامن شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة رحمة الله تعالى عليه.

وقام بالأمر بعده ولده السلطان سليمان في التاريخ ودامت أيامه في الملك سبعاً وأربعين سنة. وفي أيامه فتحت عدة بلاد وغزا بنفسه بلاد الأنكروس وغزا جزيرة رودس وأخذها من أهلها وكانت ليس لها مثيل في الحصانة وأسلموها له بعد حصار شديد، وضايق عليها، وآخر الحال طلبوا منه الأمان على أموالهم وأنفسهم فأعطاهم أماناً، فخرجوا إلى بلاد المغرب وعمروا جزيرة مالطة دمرها الله. وكانت أفعالهم برودس كأفعالهم الآن عسى الله أن يبدد شملهم عن قريب. وفتح رودس أول شهر صفر سنة تسع وعشرين وتسعمائة وجعل بعض الأفاضل فيها تاريخاً وهو «يفرح المؤمنون بنصر الله». ولما تمكنوا من مالطة وزاد ضررهم أرسل إليهم في آخر أيامه عمارة لأخذها فما أمهله أجله.

ومن فتوحاته جزيرة استنكوى وبودرم وقلعة أيدوس. وسافر بنفسه إلى بلاد العجم وهرب أمامه الشاه وخرب بلاد تبريز وأخذ بغداد. وفتح عراق العرب وطلب الشاه منه الأمان والهدنة فأعطاه ذلك ورجع إلى مقر سلطانه. وألطف تاريخ قيل في هذه السفرة «فتحنا العراق». وله رحمه الله ثلاث عشرة غزوة على أهل الشقاق والنفاق ومات رحمه الله في غزوته الأخيرة بقلعة سكنوان، وكتم الوزير موته وأرسل إلى ولده السلطان سليم، فأقبل بسرعة وعند ذلك أظهر الوزير موت السلطان سليمان. ووضع في تابوت ورجعوا به إلى القسطنطينية. كانت مدة سلطنته ثمان وأربعين سنة سقى الله ثراه من صوب الرحمة. وكفاه من الفخر أن علامة الوجود في ذلك العصر وهو المولى أبو السعود رحمه الله رثاه بقصيدة طنانة، تدل على فخرهما الناشد والمنشو.. وهي من غرر المرثيات وبراعة استهلالها حيث قال:

أصوت صاعقة أم نفخة الصور   فالأرض قد ملئت من نقر ناقور

وهي طويلة أضربنا عنها وليس هذا محلها تركناها خشية الإطالة.

وجلس بعده على تخت الملك ابنه السلطان الأعظم السلطان سليم الثاني وبويع يوم الاثنين لتسع مضين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة. ومولده سنة تسع وعشرين وتسعمائة. ومدة سلطنته تسع سنين، وهو المبارك النقيبة على الديار التونسية سلمها الله بسليمها من أوباش النصرانية، وقامت الخطباء باسمه المبرك على منابرهـا، ولاحظت أعين السعادة منازل الحضرة، وأضيف فخر الدولة العثمانية إلى مفاخرها. ولما تمكن من ملكه تبع طريق أسلافه في الجهاد.

فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرس[1]، بالسين المهملة. وفتح بلادَ اليمن بعد ما عصى أهلها. وقد كان فتحها والده السلطان سليمان، فلما مات قام بها مظهر بن شرف الدين يحيى الزيدي واستفحل أمره بتلك البلاد، فبعث إليه عسكراً صحبة الوزير المبارك سنان باشا فافتك البلاد، وبلغ منها ما أراد. وهذا الباشا السعيد لم يكن له نظير في دولة آل عثمان ولا جاء مثله من ذلك العصر إلى هذا الزمان، فكم خلف رحمه الله من المآثر والخيرات حيث حل ركابه وكم بنى من مساجد وتكيات. يحل بها المسافر وينال من خيراتها، ويحمد ذهابه وإيابه، فإنه كان ميمون النقيبة حيثما سار، ولا استقرت قدمه بإقليم إلا بنى فيه أماكن للخير والصدقة، وكثير من الناس شاهد تلك الآثار، حتى أنهم يقولون إن جباية تلك البلاد لا تفي بما صنع من خيراته، وكان محباً لفعل الخير والزيادة إلى أن مات زاد الله في حسناته. وقد سمعت من يقول أنـه كان يعلم سـر الحجر المكرم، ودليل هذا كثرة ما خلف من أماكن محبسة على الفقراء، وإلى يومنا هذا يدعى له وعليه يترحم.

وعلى يديه كان افتتاح هذه البلاد والله رؤوف بالعباد. وذلك أن سلاطين تونس من بني أبي حفص كما بيناه في أول الكتاب، كان منهم من بلغ درجة الملك ومنهم من قاربها ومنهم من نال الاسم من السلطنة فقط، ومنهم من تغلبت عليه العرب وأقاموه في الملك وشرطوا عليه شروطاً

(١) جزيرة قبرس المقصود بها قبرص اليوم.

وفى لهم بذلك، وتمادت أيامهم في إقبال وإدبار إلى أن أتاهم ما أتى على غيرهم، فصاروا عبرة لغيرهم لما خلت منهم الديار.

ولما أراد الله تعالى انقراضهم وضعفوا تفرقت آراؤهم واختلفوا إلى زمن مشينهم لأحسنهم. وأظهر من مساوئه ما غطى به حسنات أحسنهم.

وفي أيامه تملك النصارى حلق الوادي وبنوا فيه حصارهم المشهور، وشيدوا فيه بناء لم يشيده شداد. في إرم ذات العماد. وابتدأوا بناءه سنة سبع وثلاثين وتسعمائة. وهدموا أكثر أقواس الحناية التي كانت لقرطاجنة، وأخذوا أحجارها لبنيانه، وجعلوا الرمية على أهل البلاد من الجير والجص. وحصنوه حصانة لم يكن لها نظير وأداروا به خندقاً وأدخلوا له ماء البحر، إلى أن دار به دور السوار وملأوه بآلات الحرب والرجال وما يحتاجون إليه بحيث صار غصة في الحلق. وصارت النصارى تكمن بأغربتها ومراكبها ويقطعون في البحر على المسافرين ويأخذون كل سفينة غصباً وعمّ أذاهم المسلمين وملكهم إذ ذاك بإشبيلية أعادها الله للإسلام.

وكان استنجده الحسن في السابق كما ذكرنا وتبع أباه أبنه أحمد، وأراد أن يعد من نجباء الأبناء واللعين النصراني ساعده على ضررهم ويضمر في الباطن بمكره على غدرهم، فاستصفى أموالهم وأموال أهل البلد في واقعة الأربعاء وكمل على بقيتهم في خطرة الدواميس ولم يبق لأحد ما سعى.

ولما تمكن عسكره بتونس في أيام السلطان محمد تمكن بالبلد أي تمكن وصار قبطان النصارى يحكم معه في حضرته وهو له قرين، وعلم بذلك صاحب بلاد إسبانية أن تونس في قبضته، وصار يفتخر بها بين زغمائه في قومته وقعدته حتى إذا رأى من قواميسه الميل عنه يقول لهم: - داري عندي يريد تونس. وأراد أن يتولى عليها من أولها إلى آخرها ويفعل بها من إقامة شعائر الكفر كما فعل بغيرها، ولما أراد أن يجعلها مأمنه قيض الله سليماً سلمها منه.

ولما نمت أخبار تونس وما حل بها إلى ملك بني عثمان وهو

السلطان سليم جعل الله النصر والتمكين في عقبه إلى يوم الدين، تاقت همته إلى نزع الديار التونسية من أيدي الكفرة. ويبدل عوضهم أناساً بررة. وقد تقدم أن الشيخ سيدي محرز بن خلف، نفع الله به، تعرض له في منامه وأشار عليه بأخذ تونس في اليقظة، ولم تكن الرؤيا أضغاث أحلام.

وقيل أن الباعث له على هذه العمارة، وقد قدمنا خبرها، أهل غرناطة فإنهم استنجدوه لنصرتهم، فلما عزم برأيه بلغه استيلاء اللعين على حوطتهم، فثنى عزمه إلى هذه الديار وعلى كل وجه بإرادة الله جرت الأقدار. فانتدب لهذا الأمر سنان باشا، رحمة الله عليه، وجعله سرادار العسكر، وأضاف إليه من يكون له النظر على المراكب البحرية ومن كانت له بالبحر خبرة ودرية، وهو قبطان البحر قلج علي باشا، أعلى الله منزلته في درجات الجنان وانعم السلطان عليهما بتشاريفه المعتادة، وخلع عليهما وحكمهما فيما يحتاجان إليه من آلات السفر وزيادة، وشحنت المراكب بما يحتاج إليه من الذخائر والأموال وآلات الحرب، وبرز العسكر من القسطنطينية غرة ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وتسعمائة، وكان يوم خروج العسكر يوماً مشهوداً وشحنت الأغربة بالرجال وعددها مائتا غراب وثمان عشرة معونة وغيرها من السفن الكبار والصغار، بالجملة ألف وخمسمائة قطعة.

وقد سبق التعريف بها وسارت العمارة فوق الماء مثل الطيور ذات أجنحة مثنى وثلاث ورباع. وإن كان البر يضيق بها فلها في البحر اتساع. وطفت على متن البحر كالطوفان. وإن بردت أكباد أهلها بالأمن وجسومهم بماء البحر فإن مدافعهم لأعدائهم سخنت وملئت بالنيران.

واجتمعت في ميناء نورين. ومن هناك توجهوا للمغرب على ربهم متوكلين. واجتازوا بقلعة في بر الكفر تسمى تيجه، وهبطوا للبر فدهمهم العدو واقتتلوا ففر العدو منهم بعد ساعة من نهار، ومات هناك بعض البيات شهيداً. وظهرت علامة النصر وأخذوا في طريقهم عدة قلاع وغنموا شيئاً كثيراً، وفي طريقهم أخذوا مركباً مشحوناً بالقمح، وفي الثاني عشر من الشهر وصلوا قليبية فنزلوا هنالك واستراحوا. وفي الرابع والعشرين من

الشهر بلغوا حلق الوادي ونزلت العساكر بعيداً من رمية المدافع ونزلوا أوطاق الوزير سنان باشا.

وكان من قدر الله تعالى قبل وصول العمارة العثمانية بيوم وصل إلى تونس الباشا حيدر من القيروان. وقد تقدم خبره ولم يكن على علم به أنه كان متولياً على منصب تونس من قبل، حتى وجدت في تاريخ أنه كان صاحب البلاد، وأظنه خرج منها حين دهمه العدو وكذلك مصطفى باشا صاحب مدينة طرابلس فحضرا إلى تونس ونزلا معاً بإزاء المدينة في سيجوم لقصد محاصرتها وفي آخر اليوم ظهرت مراكب في البحر فظنوا أنها نجدة للعدو فعولا على الرحيل ليلاً، ولما كانا على أهبة ذلك جاءتهما الأخبار من عند الوزير سنان باشا مع رجل من أهل المرسى كان طلع للعمارة واستخبره الوزير عن أحوال البلاد فأخبره بخبر المحال، فبعثه إليهم رسولاً يخبرهم بقدوم العسكر العثماني.

فلما صح عندهم الخبر قويت نفوسهم وسار حيدر باشا ومصطفى باشا في تلك الليلة في بعض الخواص إلى حضرة الوزير سنان باشا وسلما عليه وطلبا منه أن يتوجه معهما بنفسه، فأمر طائفة من أمرائه وعين لهم ألفاً من العسكر وأعطاهم مدافع وزرابز وما يحتاجون إليه وأمرهم بالمسير إلى تونس صحبة البكلربكية مصطفى وحيدر، وأرسل معهم إبراهيم بك من سناجق مصر المحروسة ومحمود بك بسنجق قبرس وباكير بك صاحب قره حصار، وصحبتهم ألفان من العسكر مع آغاهم حبيب بك، وتوجهوا في الحال إلى تونس وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم، وناوشوها بالقتال من كل جهاتها.

فلما رأى السلطان محمد الحفصي ومن معه من النصارى كثرة العساكر، علموا أن لا طاقة لهم بالقتال هذا مع أن قلعة تونس كان أكثرها خراباً لتواتر المحن وقلة الاهتمام، وكذلك المدينة لم تكن معمورة بأهلها بل غالبها خراب أيضاً فضلاً عن سعة الشوارع التي بها. فعجزوا عن تحصين البلد وقلعتها فخرجوا إلى مكان يقال له ـ فوملودكز ـ معناه بحر

الرمل، وعملوا به حصاراً من الخشب وحشوه بالرمل والتراب والتجأوا إليه.

قلت: هكذا وجدت اسم هذا المكان مقيداً ولا أعلم في تونس مكاناً يعرف بهذا الاسم إلا ما يذكر أهل تونس عن المكان الذي يعرف بالبستيون خارج باب البحر من شرقي المدينة. وهذه الأخبار تصدق عن ذلك المكان والخبر متواتر عنه، إلا إن صاحب التقييد الذي نقلت عنه هذه الحكاية كان بعيد الدار عن الديار التونسية وإنما بلغه الخبر بلسان المخبر وعنه قيد ما سمع منه.

ولما تحصنوا بهذا المكان وكان فيه نحو سبعة آلاف مقاتل ما بين كافر ومرتد، وشحنوا هذه البقعة بآلات الحرب والمدافع الكبار ومن الطعام شيء كثير، ظنوا أنه يمنعهم من قضاء الله. فعند ذلك خلت المدينة وقصبتها ولم يبق بهما من يصونهما فدخلهما العسكر العثماني من كل جهة وملكوا المدينة وقلعتها وحصنوهما بالأخشاب والألواح والتراب وأحكموا ذلك. هذا والحرب بينهم على ساق. وأهل الملة المحمدية مقابلون لأهل الشقاق.

وبعثوا يخبرون الوزير المعظم سنان باشا بما وقع لهم ويطلبون منه المدد بالإعانة ومن ينصرهم فلما بلغ الوزير ما هم عليه، عول على من يقوم مقامه ويستوفيه فبعث لنصرتهم القبطان قلج علي باشا، رحم الله الجميع، فتوجه بجمع من العساكر المنصورة من طائفة السليمانية ليكونوا إعانة لمن تقدم قبلهم من عسكرهم.

فلما وصل الباشا قلج علي إلى تونس وشهد تحصن البستيون وكثرة النصارى والأعراب المرتدين الذين به رآه حصناً منيعاً، فبعث إلى الوزير يطلب منه عدة مدافع أخرى وزيادة عسكر، فبعث له ألف ينشري ويعث معهم على آغا سلحدار الباب العالي وثمانية مدافع وستة زرابز وألحقهم بالقبطان قلج علي باشا.

فلما وصلوا إليه اجتمع أمرهم أن يدوروا بالبرج من كل جهاته،

وكـان الكفرة ومن معهم من المرتدين كثيرين ما بين فارس وراجل وجاءت لنصرتهم طوائف من العربان وخرجوا من قلعتهم مراراً ودهموا المسلمين، واقتتلوا مراراً ومات من الفريقين خلق كثير. فريق في الجنة وفريق في السعير. واشتد الأمر على المسلمين والمدد متصل بأعداء الدين.

وبلغ الخبر إلى الوزير سنان. فجاء رحمه الله بنفسه إلى إصلاح هذا الشأن. هذا والحرب متواصلة بين أهل حلق الوادي وبين رجال من العسكر العثماني قويي الهمم غلاظ شداد. ولما نظر الوزير إلى حصانة القلعة التي هي البستيون، أشار برأيه السعيد على ما اقتضاه نظره السديد بالتدبير، وأمر بتوزيع طوائف العسكر من كل جهاته، وعين لكل موضع من يقوم به من رجاله وكماته، وأشار على القبطان والبكلربكية بما رآه من الصواب، وهـون على الجميـع حسن العاقبة ووعـدهم بنصـر الله وأحسن إليهم بالخطاب، فاشتدت نفوسهم بكلامه ورويته، وائتمنوا برأيه ومشورته. وعاد من يومه إلى محل أوتاقه من حلق الوادي وقصد الأهم فالأهم وإن كان كل موضع حصل فيه فضل الجهاد. ويأتي تمام الخبر في محله، إن شاء الله تعالى.

وما استطردت إلى هنا إلا لارتباط الحديث لأن أول الحرب وقع في هذا المقام عدة أيام. ولمـا تيسر ابتـداء الفتح بحلق الـوادي كان في البستيون التمام. ولنرجع إلى خبر حلق الوادي ومآثره. ونسوق الكلام إن شاء الله من أوله إلى آخره.

تقدم أن العمارة المنصورة بلغت إلى مستقرها من حلق الوادي يوم أربعة وعشرين في ربيع الأول، ونزلوا المبر على بعد من رمية المدافع ونصبوا أوتـاقهم. وارتجت الأرض بأصـوات مدافعهم ورنين مكـاحلهم وأنزلوا المدافع الكبار التي اتوا بها لهذا القصد، ورموا بها من البعد، إلى أن علا الدخان وصار النهار يحاكي الليل.

وبرز الأمر من الوزير أن يتقدم العسكر على عادته، وأن يأخذ كل

إنسـان أهبته لمـا يعلم من صناعتـه. فمنهم متفرس متمـرس بالحـرب والجلاد، ومنهم من عادته نقل التراب والرمل وقلع الأصلاد، وصـاروا يتقدمون قليلاً قليلاً ويسوقون التراب ويستترون به ويحفرون خنادق في الأرض وينزلونهـا ويجعلون متاريس ويستتـرون من خلفها. وهـذا دأب العسكر العثماني في كل مكان. ولم يزالوا على هذا الأسلوب إلى أن أحاطوا بالبرج من كل جهاته ورموه بالمدافع والمنجنيقات والبندقيات ورموا عليه أصنافاً من آلات الحرب.

وكان هذا الحصن لم ير مثله في الشرق ولا في الغرب. وكان للنصارى به اهتمام وحصنوه بما قدروا عليه من المبتدأ إلى التمام، وأداروا به خندقاً وأجروا الماء فيه. والماء من البحر إلى البحيرة والسفن تجري فيه، وهو منيع من كل جهاته، وأسواره مشيدة مشحونة بحماته. وقد كنت منذ زمان وقفت على رسالة بعثها بعض من شاهد الوقعة لبعض الرؤساء بالديار العثمانية وأخبر فيها بما شاهد من شدة الحرب ومنعة الحصار وكثرة رجاله وذخائره وسعته وطوله بما يعجز عنه الوصف ومن شاهد بقية آثاره حكم بصحة ما وصف، ولكن طال عني وبعد زمانها ولم يحصرني إلا القليل من أخبارها سأذكرها في أوانها.

ومن جملة ما قال فيها: إن سعة السور يسير عليه سبعة من الخيالة من غير ازدحام، وإن البناء الذي به ما سامه طائر عقل ولا عنه حام، وعدد الدور التي حوله لسكنى المهجرصين أزيد من مائتي دار والبحر من جميع جهاته. والخندق به دائر ودور المهجرصين من ناحية المغرب ونارها باقية. وكل ما دعموه من البناء هدمه الله على أيدي المسلمين وبددت صنائع المشركين فهل ترى لهم من باقية. وكان عمق الخندق ستين ذراعاً وقعره متصل بالبحر وفي حافته قبة منيعة أعدوهـا للتحصن فيها ونقبـوا تحت الأرض نقباً طويلاً يتصلون منه إلى تلك القبة. وكانت قريبة من ناحية الوزير ففطن بمن كان فيها فسار الوزير إليهم برجاله وقاتلهم قتالاً شديداً، وملك القبة وقتل من كان بها. وأعجزهم أمر الخندق فما وجدوا له حيلة

إلا أن يملأ بالتراب فبعث الوزير بأمره السعيد إلى العسكر أن يجتهدوا في نقله فامتثلوا إلى أن نقلوه في ثيابهم.

والرسالة التي تقدم ذكرها يقول فيها: ومما رمي به في الخندق من الصوف مقداره بالعدد سبعون ألف شليف. والشليف عبارة عن حمل الجمل، ووضع في كل شليف قنطاران من الرصاص ليثقل به ويغوص في الماء.

قلت: الله أكبر هكذا تكون همم الملوك فإذا كان من الصوف والرصاص هذا المقدار وهذا العدد، ولو تأملت قيمته لكانت مئات من الألوف، فكيف غير ذلك من الأجفان وآلات الحرب وبارود ومصروف من الأموال على الرجال، هكذا تكون والله ملوك الزمان. ولولا أن السلطان سليم رحمه الله من البشر الذين بعد النبوءة لقلنا أنه سليمان ولكن هو ابن سليمان.

وأخبرت من أهل تونس أن الصوف الذي ألقوه في الخندق جيء به من نجع دريد أكثره ومن غيره أقله. وأظن أن الشيخ عبد الصمد ممن حضر الخطرة، كما أن جد أحمد بن نوير المحمودي حضرها هو وجملة من العرب الذين بأرض طرابلس جاؤوا صحبة المحلة التي بها مصطفى باشا. ولما ألقوا في الخندق الصوف ألقوا من فوقه الحطب والتراب والأخشاب، واهتم العسكر بنقل التراب كل الاهتمام، وأقدموا بنيتهم غاية الإقدام إلى أن ملأوه من أوله إلى آخره وصارت فوقه كيمان كالجبال. وحملت الرجال من التراب ما لا تحمله الجمال. وكانت لتلك العساكر نية صالحة. باعوا أنفسهم واشتروا الجنة فكانت تجارتهم رابحة.

وسمعت من نقل عمن شاهد تلك المواطن أنه مر برجل من العسكر وهو حامل على ظهره حملاً من الحطب لكي يلقيه في الخندق وبه عدة جراحات وهو على آخر رمق، قال: فأردت أن أخفف عنه فأبى ولم يزل سائراً به إلى أن ألقاه في محله. ومات لوقته بحضور أجله. رحمه الله وعامله بنيته عن عمله.

ولما أمتلأ الخندق بالتراب بنوا المتاريس فوقه وصار المكان أعلى من حيطان الحصار، واتفق هذا الواقع لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الثاني من السنة المذكورة هذا والحرب نارها متقد في كل الجهات. وافرغ الله الصبر على عصابة المجاهدين والخزي على الطغاة. ونصب الوزير مدافعة فوق الحصار ورمى من كان به من الكفرة من أفواهها بالنار. فالقنهم النار إلى النار.

ووصل في أثناء ذلك رمضان باشا المتولي على مدينة الجزائر في التاريخ، ومعه ثلاثة آلاف واجتمع بحضرة الوزير سنان باشا وطلب منه خدمة يؤديها فأرسله ومن معه إلى إعانة الذين بتونس. فتوجه إليها وحض عليها مع من هنالك من العساكر والبايات، والأمراء والغزاة.

واستمر الوزير في تحريض المسلمين على الإقدام إلى البرج الذي بحلق الوادي وتشديد الحرب عليه من كل جهاته إلى أن وهنت نفوس أهل العناد. ومن قدر الله سبحانه أن محمد عرب كان بعسكر من ناحية رادس، فعزم أهل الحصار أن يدهموه ليلاً على حين غفلة وتكون وصمة على المسلمين، فخرجوا عليه عند الفجر فوجدوه متيقظاً على أهبة فأوقع بهم فانهزموا بين يديه، فتبعهم يقتل فيهم إلى أن أدخلهم إلى حصنهم. ووافق الحال أن الوزير عين من العسكر من يتقدم بنفسه إلى البرج ويبيع نفسه في مرضاة الله، وجعل لهم عطايا سنية الأول فالأول من ألف دينار وأقل وعين لذلك من جميع الأجناس.

ووافق دخول المنهزمين من ناحية رادس وهم ذاهلون، ولم يستطع أحد إغلاق الباب والمسلمون على أهبة، فحملوا حملة رجل واحد من كل الجهات وأعلنوا بكلمة التوحيد وارتفعت الأصوات فتزلزلت الجبال بحملتهم، ودخلوا القلعة والقصر المشيد بنيتهم. وأخذوه عنوة بالسيف، وقتلوا من فيه من المقاتلين بغير تشبيه ولا تكييف.

وكان هذا الفتح القريب والنصر الغريب، الذي سر به البعيد

والقريب لست مضين من جمادي الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة ولله الحمد والمنة، وغنموا ما كان فيه من الذخائر التي لم يوجد مثلها في مكان ومن العدد والسلاح وآلات الحرب ما لا يوصف. وأخبر الوزير أن الذهب الذي انتهبته العساكر ليس له حصر، فأمر الوزير بتفتيش الأخبية والرجال فوجدوا شيئاً كثيراً.

واخبرني بعض الناس قال: أخبرني جدي وكان ممن حضر الفتح وأصابته جراحات يوم الدخول للحصار قال: بينما أنا راقد إذا ببعض اصدقائي وضع تحت فراشي من الدنانير التي انتهبت، فلما دخلوا إلى الخبأ الذي أنا فيه ووجدوني في حالة المرض انصرفوا عني وسلم ما كان تحت الفراش وكان أزيد من ثلاثة آلاف دينار. وأسر قبطان النصارى صاحب البرج والحاكم عليه، ومر السيف على من وجدوه من النصارى والمهجرصين والمرتدين من ساكني البرج وما يليه. وشاع في الخافقين خبر هذا الفتح المبين. وقضي الأمر وقيل بعداً للقوم الظالمين.

وكان هذا الحصار من أعظم ما شيد بنيانه فوق الأرض، فأتاه جيش السلطان سليم وقال أمره السعيد نريد أن ينقض. وكذا وقع الهدم على ذلك البناء العالي إلى أن صار هباء، وحط من أعلاه إلى أسفله وتفرق من كان فيه بأيدي سبأ. ورأى الوزير أن إبقاءه على حالته الأولى لم يأمن عليه من الآفات، وكان إتقانه بالفعل الماضي فوقع عليه الأمر بجزم الفتح، فخشي أن لا يتم له الرفع فيما هو آت. ولم يبق من إثره إلا ما هو معلوم عندنا اليوم وهو المكان الذي كان مسكناً لقبطانهم وباقيه مسكناً للبوم.

ومن عجيب الاتفاق أنه رسمت معالمه في سنة سبع وثلاثين وتسعمائة، ومكثوا في تحصينه مدة ثلاث وأربعين سنة لم يبطل لهم يوم بلا تحصين. ولما أراد الله سبحانه تعالى نزعه من أيديهم أخذ في ثلاثة وأربعين يوماً عدد ما ملكوه من السنين. فكان كل يوم من أيام الفتح يقابل ما ملكوه بسنة، وإن كان طغيانهم تزايد في تلك المدة وانتبهوا لأخذ البلاد فإنه كان سنة. والله تعالى يديم عز هذه السلطنة العثمانية ليدوم بها عز

المسلمين، ويجعل سيفها قاطعاً بحده في الحد وفي رقاب المشركين والمنافقين، وأرسل الوزير البشائر إلى الباب العالي، وكتب بما يسر الملك والأمراء والموالي. ولولا تدارك الله هذه البلاد بنصرة هذا الملك العظيم. لكان الكفر استحوذ على أكثرها حتى لا يكون بها مسلم.

وقيل أن ملك النصارى لما سمع بمجيء العسكر العثماني أطمعته نفسه أن يمد أهل الحصار بمدد من عنده. ويرسل عمارة مشحونة بذخيرته وجنده وظن أن باب الاستدراك واسع. ولم يعلم بأن الخرق اتسع على الواقع. فبعث رجالاً من حكمائه يتطلعون أحوال القوم، فذهبوا ورجعوا في زمن قريب كأنه يوم أو بعض يوم، فسألهم عما شهدوا من أحوال العسكر أو أبصروه، فلم يكتموه بنصيحتهم وأخبروه، وقالوا: رأينا ما أذهلنا، وحير أفكارنا وشغلنا. وذلك أنا وجدنا كل صاحب صناعة مشتغلاً بشغله، وكل من عين في مكان للجهاد ملازماً لقرضه ونفله، والقوم بين طباخ وجزار، وأسواق ملآنة بالباعة من كل صنف والمشتري بين دلال وسمسار، وحداد ونجار وبيطار، وأكثرهم مشتغل بجمع الدرهم والدينار، ومنهم من يتداول الحرب ويعتمد عليه، ومنهم من همته شأن نفسه ولا يلتفت إليه، وليس لأحد علم بما صنع الآخر، وعسكر المقاتلة ليس له أول من آخر، ولو تبعث إليهم بجميع النصرانية، لم يغن عنك شيئاً ولم نبق منهم بقية، فبطل عزمه وزعمه. وعلم أن الهم دهمة وأهمه، فاستوحش لما أخذ له الله بعد التأنس، وأذهب الله رجسه الذي كان بتونس.

ولما أتم سنان باشا ما فتح الله عليه بحلق الوادي، أثنى عزمه المبارك إلى البلد التي لم يخلق مثلها في البلاد، فرجع بعسكره المنصور إلى تونس واجتمع بالغزاة المحاصرين قلعة البستيون وهم في أشد القتال ففرح البكلربكية والأمراء بقدومه واشتد أزرهم به واطمأنوا وتقدم معهم وحملوا على من بالقلعة حملة الأسود الضارية، وتعلقوا بأطراف الحصار من كل ناحية وعملت السيوف والمدافع بين الفريقين، ومات خلق كثير من الملتين. وتواطأ المسلمون على الإقدام إلى أن دخلوا عليهم بالسيف

وقتلوا منهم زهاء ثلاثة آلاف، ورمى بأنفسهم من أعلى الحصار إلى أسفله زهاء خمسة آلاف وبعدوا رمية سهم ثم أرادوا أن يتترسوا بالتراب لأن العسكر كان مشغولاً بالنهب، فتداركهم الوزير قبل أن يستحكم أمرهم فتقاتلوا قتالاً شديداً.

وعلم أهل الكفر أن لا مانع من الموت، فأقدم كل على صاحبه وتضاربوا بالخناجر وعانق بعضهم بعضاً إلى أن بدد الله شملهم وقتلوا عن آخرهم إلا من نجا منهم إلى شكلي ولم ينج من قضاء الله. وملك المسلمون البستيون وأخذوا ما كان فيه من أمتعة وأسباب ولبوسات وآلات حرب ومدافع وبارود كثير وبشماط أعدوه لحصارهم وأخشاب وألواح استعدوها لإتقان حالهم.

وكان البستيون أقوى ضرراً على أهل تونس من غيره لأنهم أرادوا أن يبنوا فيه حصاراً ومدينة، وقد ابتدأوها وفصلوا شوارعها وأسواقها وكادت أن تستكمل، لولا لطف الله بأهل تونس، ولو تأخر العسكر العثماني قليلاً لكان تم لهم ما أرادوه، ولكن قدر الله أعجلهم عن إتمام البناء وإتقانه. ولو تكمل بنيانه لكان أصعب من غيره ولو لم يهتم السلطان سليم بهذا الفتح لأستأصلوا إفريقية بالجملة ويتفرعون من تونس إلى طرابلس، ولم يكن لهم مدافع. هذا مع شدة نفاق العربان الذين بإفريقية لأنهم أو أكثرهم لا يراعون آلاً ولا ذمة والكفر أقرب إليهم من الإيمان، فجزى الله خيراً هذا السلطان علينا وعلى جميع المسلمين. وجعل السلطنة والنصر في عقبه إلى يوم الدين.

ولما أخذ البستيون وجدوا الجامع الذي خارج باب البحر ملآن بالسلال والأغلال وربما أهل البستيون كانوا يفتنون الناس عن أديانهم وما عسى غير ذلك. وكان أخذه بعد حلق الوادي بسبعة أيام وقيل خمسة عشر يوماً وقيل غير ذلك والله أعلم. وأسروا قبطانه فأراد أن يفدي نفسه بالمال فضربوا عنقه لأنهم وجدوه يبني في رودس وأيضاً في جربة لما أخذها درغوث باشا وهذه الثالثة في البستيون فأراح الله منه الإسلام.

ثم إن الطائفة الملعونة لما تحصنت بشكلي طلبت أماناً من الوزير فأمنهم، وقد رأى في ذلك مصلحة فجاء إليه زهاء مائتين منهم وأخبروه بأمور مهمة منها: أن عندهم مائتين وخمسة من رجالهم أهل صناعات غريبة منها عمل الطوب الذي يعجز عنه وتذويب الحديد والنحاس وعمل المدافع الكبار وغير ذلك من الصناعات، فأعطاهم الأمان وأخذ أولئك المعلمين وشرط عليهم تفريغ المدافع وسبك النحاس، وتكون في أرجهلم القيود ويتكفل بعضهم ببعض فرضوا بذلك وأعطاهم على هذا الشرط الأمان وكساهم، وجعل لهم العلوفات واستخدمهم للباب العالي ومن ذلك الزمان كثرت صناعة المدافع بتلك الديار.

وكان هذا الفتح الأخير المبارك يوم الخميس لخمس بقين من جمادي الأولى سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وقتل في القلاع الثلاث عشرة آلاف مقاتل، ومن المسلمين ذلك القدر ختم الله لهم بالشهادة، وبوأهم دار الرضى لما ختم لهم بالحسنى وزيادة، ومات من أعيان العساكر المنصورة أمراء أعلام، فمن مشاهيرهم صفر بك سنجق الإسكندرية، وبايزيد بك سنجق ترحالة، وأحمد بك سنجق أولونة، ومصطفى بك سنجق اسيس، ومن أمراء الأكراد خضر بك وفرهاد زعيم الينشرية ورأس زمرة البنائين. وكثير من الزعماء وأهل الثمارات وغيرهم عدد كثير.

وأخذ الوزير من الأماكن الثلاثة مائتي مدفع وخمسة مدافع كبار غير الصغار وزرابز وترك لحفظ تونس خمسة وثلاثين مدفعاً وأرسل للباب العالي مائة وسبعين مدفعاً من الكبار العظيمة للإعانة هناك. وأرسل بصورة الفتح إلى الأبواب الشريفة خلد الله سلطتها. وأنفذ في الخافقين كلمتها. ورفع درجتها آمين.

ولا يظن الواقف على هذا المجموع إذا سمع لفظة حصار حلق الوادي أنه كجملة الحصارات الموجودة، كلا بل هذا أعظم حصارات المغرب، وناهيك أن النصارى تكلفوا في بنيانه وإتقانه طول المدة التي ذكرناها، وهدموا لأجل ذلك الحناية التي يعجز العالم عن هدمها فما

عسى مبناها، وأخذوا حجارتها المنحوتة من عهد ابن النمرود، وأفرغوا عليها من آلات البناء حتى قيل أنها من صنع داوود.

وإنما أطلق لفظ حصار على هذا المكان مجازاً، وإنما هو مدينة على الحقيقة والبحر بينه وبين من يصل إليه حجازاً، وشكل هذه المدينة مربع، وأربع حصارات في تراكنها الأربع، والبحر من قبلتها والبحيرة من ناحية الجنوب ويلتقي البحر والبحيرة من ناحية الغرب ولهم عند مجمع البحرين قبة وهي المعبر عنها بالبريجة في يومنا هذا، وادخلوا خليجاً من البحر آخذاً من القبلة إلى الجنوب آخذاً في طريق الناحية الشرقية، وخليجاً آخر ماراً من الجهة الغربية ويدوران بالمدينة دوار السوار بالمعصم، وتدخل غلايطهم من البحر إلى الخليج الآخذ من ناحية الغرب وتكون مرساها عند باب مدينتهم، والباب تحت الحصار الذي على ربع المدينة ما بين المشرق والجنوب والخليج المار من شرقيها فيه مرسى الغلائط الكبار.

وغربي المدينة على صورة الربض الدور التي كانت سكنى المهجرصين ومن سواهم من الكفرة أزيد من مائتي دار ولهم حاجز بينهم وبين من يصل إليهم مثل السور، وبناء المدينة بوجهين داخل وخارج كل وجه حجارته من أعظم شيء يكون وما بين الوجهين حجر دقيق مفرغ عليه الجير والرمل كإفراغ الرصاص، بحيث لا تعمل فيه المعاويل ولا الفيسان، بل ولا البارود الذي هو بلا رود. ويشهد لما قلته أن في أماكن من هذه القلعة عدة مواضع كانوا جعلوا فيها الغاماً فلم تغن شيئاً. وآثار هذه الألغام باقية. وآثار الحيطان على حالها راقية.

وفي وسط الحصار كنيستهم باقية آثارها أيضاً، ولهم عدة مواجل لاجتماع الماء الذي ينزل من المطر، وهي مثل الدواميس مقبو عليها من أعظم ما يكون وهي باقية إلى اليوم. وكل ربع من الأرباع منها مستقل بنفسه مبني على أقبية يحير العقل في وصفها الأعلى كالأسفل في الإتقان. وهذا قليل من كثير. وإنما شاهدناه من بعد التدمير. ولم يبق منها إلا الربع الذي بين القبلة والمغرب، وهو الحصار الموجود في زماننا هذا ومفتح

الباب الآن إلى ناحية المغرب. وهو باق على حالته الأولى ولم يتغير منه إلا شيء يسير.

ولما نزلت بساحته العمارة العثمانية صباحاً وانذروا بأخذ ما أحكّموه ﴿فساء صباح المنذرين﴾[1]. ولما أخذهم الله أصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم الظالمين. ونزول العمارة من ناحية المشرق وامتدت إلى ناحية الجنوب ومن هنالك وقع الردم الذي ألقوه في الخندق، كما ذكرنا سابقاً، وجعل فوقه المتاريس إلى أن صارت مدافع المسلمين أعلى من فوق رؤوس أهل الشقاق. والموضع الذي أخذ منه التراب والقوة في المتاريس، انحصر فيه الماء واختلط بماء البحيرة حتى صار كأنه منها يسمونه الغديرة الكحلاء لكثرة مائها وعمقها. وصار السمك فيها كثير. والمكان الذي كان ميناء للمراكب من كل الجهات صار ملاحة يسعى الملح منه الطائفة المرتبون الآن لحفظ الحصار.

وآثار تلك المصانع مشهورة وإنما وقع الهدم على الدور التي كانت من خارج المدينة، وعلى الأماكن المرتفعة منها. وأما الجدران فهي إلى الآن يشهد لها من نظر إليها بأنها كانت غاية لا تدرك وأنها كانت حصينة منيعة لمن ملك أو يتملك وأما المكان الذي يعرف بالبستيون فمعروف، لكن ليس فيه آثار بناء إلا ما وجد فيه في حدود الخمسين بعد الألف في أيام حاكم تونس وهو مراد، ، أي لما أمر بنقل الأزبال التي اجتمعت هناك وألزم أهل المدينة أن ينقلوها ويضعوا في المكان المنخفض ما كان في المرتفع، فوجدوا من كور المدافع شيئاً مستكثراً يستدل به على ما وقع هناك من شدة الحرب، وناهيك بمكان اجتمعت على أخذه أربعة محال وأربعة باشوات: حيدر باشا ومصطفى باشا صاحب طرابلس وأحمد باشا صاحب الجزائر، وكان منفصلاً عنها في التاريخ، ورمضان باشا كان متولياً عليها. والمدد الذي أمدهم الوزير به وهو ابراهيم بك من سناجق مصر ومحمود بك سنجق قبرص وباكير بك سنجق قره حصار. كل هؤلاء ما منهم إلا ومعه عسكر ألفا نفر من عسكر السلطان وألف رجل من الطبجية لخدمة

(١) الآية ١٧٧، سورة الصافات.

المدافع وألف ينشري وعلي آغا سلحدار الباب العالي وجماعته والطامة الكبرى وقلج علي قبطان البحر حضر مع هؤلاء المذكورين وعدة مدافع وزرابز أمدهم الوزير بها ومشاهدة الوزير لهم المرة بعد المرة، وبعد هذا لم يحتووا عليه إلا بعد فراغهم من حلق الوادي. وإن كان هذا الخبر قد سبق ذكره إلا إني أعدته هنا لزيادة التعريف بما وقع من البلاء في وقعة البستيون ولئلا يظن الظان أن هذا المكان ليس بشيء، وأما جزيرة شكلي فأدركنا بها آثار البناء وقد سبق التعريف بها في أول الكتاب.

وهذه الأماكن المذكورة أعجزت سلاطين بني حفص ، ولم تكن لهم قوة على حسم هذه الطامة وأهل تونس معهم في جهد جهيد، ونار حرب كأنما قيل لها هل امتلأت فتقول لها هل من مزيد، إلى أن منّ الله تعالى على هذه المملكة بمن نظر حالها، وفك بعدما استولت عليها أيدي الكفرة عقالها، وهو سلطان البرين والبحرين، وخادم الحرمين الشريفين، وقامع الطغاة والمفسدين، السلطان ابن نسل سلطان السلطان سليم بن سليمان، خلد الله سلطنته، وأبدها في ذريته، وجازاه في دار الكرامة بما فتح بسيفه وحسن نيته، ورحم الله وزراءه الذين اخلصوا له بالطاعة. ولم يشق أحد منهم العصا ولا خرج عن الجماعة، خصوصاً من كان هذا الفتح على يديه، الوزير الأعظم سنان باشا عامله الله بما جرت من الصالحات على يديه.

ولما تم له هذا الفتح، الذي حصل له به الربح والنجح، بعث بالخبر إلى الأبواب العالية، وبشر بأن الكافرين ليس لهم باقية، وأنعم على من كان في ركابه من الزعماء والأكابر، وبذل إحسانه لمن كان معه من العساكر وأنعم على كل صاحب مرتبة بما يستحقه، وعرض ذلك على الباب العالي فبلغ لكل أحد حقه، ومهد البلاد وأمن العباد، وقمع وخافه أهل الفساد، وترك في تونس من العسكر العثماني داراً من ديار الينشرية وهي الواحدة بعد المائة على ما هو المتعارف بينهم، والجاري على عادة القوانين العثمانية ومن سلك طريقهم، ورجع إلى تلك الديار، وخلف من ذكره ما سارت به الركبان وطارت به الأخبار، وأخذ قبطان النصارى وقيده وحمله في مركبه وحمل السلطان محمد آخر بني أبي حفص وهو آخر

العهد وبه انقطعت دولة بني أبي حفص من هذه الديار ولم يبق من نسبهم إلا أرامل وعجائز وثيبات وأبكار. وأنشد لسان الحال:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

ولما تمكن قدم العسكر العثماني في تونس كما ذكرنا ورتب الوزير سنان باشا قوانين صارت من بعده ثابتة الرسوم، وأظهر ناموس الملك وقدر فيها المرتب المعلوم، رجع إلى دار سلطانه بالديار الرومية، وخلف هذا العسكر المعبر عنه بالينشرية، فضبطوا ملك تونس ودعمت قواعدهم واستمرت بأيديهم خلفاً عن سلف والزمان مساعدهم، وأصلحوا ما فسد من بنيان قلعتها، وسكنوها وجعلوا دار الخلافة بها، وهي المعبر عنها بدار الباشا. وكذلك الديوان كان يرسم بها وجعلوا قوانين يتميزون بها وحذوا في أول أمرهم في الأحكام حذو ديوان الجزائر، والمتصرف في أحكام البلد باشا الوقت ونظر العسكر إلى آغاهم، ودونت الدواوين وخرجت الولايات والجباة، ونشرت في الإقليم الإفريقي باسم السلطنة العثمانية الرايات، وترنم الخطباء على المنابر باسم السلطان العثماني وضرب اسمه على الدرهم والدينار، وأضيفت إلى مملكته الشريفة هذه الديار.

واستمرت عليها الولاة العثمانية، وجاءتها من القسطنطينية زعماء الرؤساء وتحكمت فيها الباشوية، وجعلوا اصطلاحاً على عادة أهل الجزائر التحكم في الديوان والعسكر جماعة البلوكباشية، ولكن ساروا في أحكامهم بعنف على من دونهم في العسكر ووقع منهم الجور حتى أن الواحد من البلوكباشية إذا كان عنده صبيان وهم المعبر عنهم بالعزرية تكون له حرمة وافرة وربما مد يده في اليولداش وما عسى من دونه.

فسيمت نفوس العسكر وأضمروا لهم الشر وتعاقدوا بينهم على الفتك بهم في يوم معلوم وهو يوم جمعة، وكان وكيل الخرج في الديوان واحد منهم اسمه طبال رجب وله عقب إلى اليوم فساعدهم على ما أرادوه ووعدهم أنه لا يحضر ذلك اليوم لتكون البيت التي فيها السلاح مغلقة بحيث لا يجدون سلاحاً يذبون به عن أنفسهم.

فلما كان اليوم الذي تواعدوا فيه واجتمع أهل الديوان، دخل عليهم العسكر على حين غفلة ووضعوا السيف في من وجدوه هناك ولم يمنع إلا من لم يحضر ذلك اليوم وتبعوهم في منازلهم وقتلوا منهم من ظفروا به ولم ينج إلا من فر بنفسه، وكانت هذه الواقعة آخر ذي الحجة سنة تسع وتسعين وتسعمائة. وكانت إشارة الشيخ القشاش قد تقدمت بما صار لهم لأنهم كانوا طالبوه بمال ليستعينوا به على مرتباتهم لأن الشيخ كان ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر من كثرة إحسانه للفقراء وإحياء الزوايا التي في المدينة والخارجة عنها وإطعام الطعام وفك الأسارى وأفعال البر حتى قيل أنه كان يتصرف في إنفاقه من كون الله فسولت لهم أنفسهم بمطالبته فطالبوه وأرادوا إكرامه فبعث جماعة من الفقراء إلى المجازر التي بتونس وأمرهم بشراء رؤوس الكباش فاجتمع له منها شيء كثير وفي أثناء ذلك حل بهم ما حل فكانوا يرون هاته الوقيعة من كرامات الشيخ نفع الله به آمين.

ولما فعلوا فعلتهم تحزبوا أحزاباً وصار كل حزب منهم له رئيس فاجتمعت عدة رؤساء وصار كل رئيس يدعو باسم الداي، وهذه اللفظة معناها خال باللسان العربي، وهي عندهم تكبرة بمن ينادي بها، وصارت جماعتهم تقرب من ثلاثمائة رجل، وإذا حل بهم أمر تجمعوا في القصبة وتشاوروا بينهم إلى أن يتفقوا على رأي واحد ولكن لا يتم لهم رأي من كثرة داياتهم.

وكان أكبرهم إذ ذاك ابراهيم داي اشتهر بينهم بشجاعته وكثرة جماعته، إلا إنه لم ينفرد بينهم بالحكم فمكث على حالته ثلاث سنين وطلب منهم دستوراً لزيارة الحرمين فأذنوا له وفارقهم ولم يعد إليهم وعاد إلى بلاد الروم فاستوطنها وعاش إلى بعد الستين والألف.

ولما خرج من بين أظهرهم قام مقامه موسى داي وأراد أن ينفرد بكلمته في الحكم فلم يتم له مراده، فلما رأى الاضطراب في العسكر والهرج بينهم ذلت نفسه فمكث نحو سنة وطلب منهم المسير إلى الحج كما طلب إبراهيم داي فأذنوا له.

فلما خرج من بين أظهرهم بعثوا له أن لا يعود إليهم فما رجع بعد ذلك. ثم تتابعت فيهم الرؤساء وصار كل واحد منهم يريد الاستقلال فقام من بينهم إثنان: أحدهما قاره صفر والآخر عثمان، وكان عثمان أقل من في الدايات جمعاً وذكراً إلا أن الوقت ساعده والقدر موافق له فوقع بينه وبين صفر داي مشاجرة فذهب كل واحد منهما إلى منزله ولبس لامة حربة وأقبل إلى القصبة. فسبق إليها عثمان فدخلها وجلس في سقيفتها، واجتمع إليه بعض جماعته فلما رأى صفر داي مقبلاً إلى القصبة بعث له من رده وأمره بالخروج من البلاد فخرج على وجهه ولم ينتطح بينهما عنزان، فخرج صفر داي وسافر إلى ناحية الجزائر ولم يزل هناك إلى أيام يوسف داي فأعاده إلى البلاد ولم يكن له اسم بعد وعاش إلى قريب من الخمسين والألف ومات بتونس بعد ما تزوج بها وكان له ولد. وأدركت صفراً هذا ورأيته.

عثمان داي

وأما عثمان فإنه لما نفى صفراً هابه من سواه وأخذ في تشتيت أكابرهم وخافه أكثرهم، فهربوا من بين يديه وسكن غالبهم في أطراف البلاد خيفة منه. وهو أول داي انفرد بالكلمة في سنة سبع وألف، فباشر الولاية بجأش متين زائدة وكانت له شجاعة قوية بحيث يباشر الأمور بنفسه، وربما سمع ببعض الجناة في الغابة للمفسدين من الأتراك ينهبون الغلة فيخرج بجماعته في طلبهم حتى يظفر بهم، وكان أهل البساتين قبل ولايته إذا طابت غلاتهم طلبوا من أهل الديوان من يحرسهم ممن يجتري عليهم من العسكر لنهب غلاتهم فيعينون لكل مكان ساقجيا يحرسهم ويجعلون له جعلاً على ذلك، فأبطل عادتهم وصار يحرسهم بعنايته فخافه الناس وجعل تلك العادة يأخذها الساقجي من الباعة الذين يلوجون في الأسواق فلسان على كل واحد، وانحسمت الأشرار من التعسف في الجنات والبساتين وقام بالدولة أحسن قيام لا ترد كلمته، وإذا تكلم لا يراجعه أحد. وأرادوا أن يغتالوه مراراً لكن لن يتم لهم ذلك لأنه يأتي إليه من يعلمه فيتمكن منهم ويقتلهم أشر قتلة.

ولما تم له الأمر نفى أهل جربة القاطنين بتونس لأنهم كانوا تحت حكم أهل طرابلس فأجلاهم عن تونس، وكثرت في أيامه غنائم البحر حتى كانت لا توصف وفي أيامه كبر صيت محمد باي بن حسين باشا وكان قبطان البحر بغلائطه وجر عدة غنائم مشهورة، وكان عثمان داي إذا جاءت غنائمه يطلع إلى حلق الوادي ويبعث الغنيمة هناك فيقع للتجار ربح قوي.

وفي أيامه جاء دال قبطان من بر النصارى وحصر ما بحلق الوادي من المراكب ومنعها من الخروج فخادعه عثمان داي إلى أن غدربه وأسره وسجنه في القصبة وبها مات.

وفي أيامه كان الفناء الأعظم وذلك في سنة ثلاث عشرة وأربع عشرة بعد الألف وهو مشهور بين أهل الحضرة بحيث اجتمعت ثلاث مسائل: الوباء والغلاء وتغيير السكة في زمان واحد، فكان أهل تونس يرون هذه الأمور من أعظم شيء حل بهم بحيث بلغ قفيز الحنطة ثلاثين ديناراً. وأدركنا من كان يستعظم هذا الأمر ولو أدرك ما رأيناه في عصرنا لاستصغر ذلك، لأنا شاهدنا الغلاء المفرط الذي لم يسمع بمثله في إفريقية قط بحيث بلغ القفيز من الحنطة أضعاف ذلك وبيع الصاع من الحنطة بنصف ريال فيكون ثمن القفيز قريباً من المائة ريال وذلك في محاصرة القصبة والمدينة في الكائنة العظمى التي حرقت فيها أبواب المدينة وسيأتي لها ذكر بعد. واجتمعت مسائل غير هذه.

وفي أيام عثمان داي كثرت غنائم البحر كما قدمنا، لأن النصارى كانوا غفلة من الاستعداد لتشحين المراكب الكبار، وإنما كان يسافر الغزاة في الفراقط وما ظهرت المراكب مثل الشيطيات والبطاشات وغيرها من السفن الكبار إلا في زمن عثمان داي. وكذلك في بلاد الجزائر وتمادى الحال إلى اليوم وسافر عثمان بنفسه للمحلة مرتين محلة الجريد وهي التي أخذ فيها بلد سدادة ومحلة الصيف. ومهد البلاد وجعل قوانين للرعايا يكون العمل بها ويسمونها قوانين عثمان داي، وقد تغيرت الآن تلك القوانين.

وفي سنة سبع عشرة قتل عثمان داي محمد باي ابن الباشا حسين، لأنه أراد الوثوب على عثمان ففطن به. وكان اتفق مع جماعة مستفيضة واطلع على أمرهم ساقسلي رجب فأخبر عثمان داي بذلك، وقيل كذب عليهم وفي سبب قتله اختلاف، وأنذر محمد باي فتفرقت جماعته وهرب بنفسه إلى ناحية إفريقية فخانته تلك العرب وقبضوا عليه وأتوا به فسمع عثمان داي فبعث من قتله قبل أن يدخل تونس خيفة من الفتنة. وكان عمر محمد باي إذ ذاك ثماني وعشرين سنة وذكره طبق بلاد النصارى وفعل بهم الفاقره ورزق سعادة في البحر لم يسمع بمثلها، وكان نسيج وحده، رحمه الله وعفى عنه.

وفي هذه السنة والتي تليها جاءت الأندلس من بلاد النصارى، نفاهم صاحب إسبانية وكانوا خلقاً كثيراً فأوسع لهم عثمان داي في البلاد وفرق ضعفاءهم على الناس وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا فاشتروا الهناشير وبنوا فيها واتسعوا في البلاد فغمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن.

ومن بلدانهم المشهورة سليمان وبلي ونيانو أوقر نيالية وتركي والجديدة وزغوان وطبرية وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من أعظم بلدانهم وأحضرها والعالية والقلعة وغير ذلك، بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلداً فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد.

ولما استقام لعثمان داي ما أراده عاجله حمامه وأتى عليه ما اتى على غيره ولحق بربه في سنة تسع عشرة بعد الألف وله عقب إلى يومنا هذا.

يوسف داي

وقام بالأمر بعده يوسف داي، وهو أول داي استقام أمره بلا تعب، وكان عثمان داي رشحه في حياته وزوجه بابنته ولم يدخل بها، وكان في مرضه سألوه من يلي بعده فقال لهم: ـ صاحب الأمر عجم داي ـ (وكان

غائباً في بلد باجة لأن فيه شهامة) ـ وإن أردتم هناء أنفسكم فقدموا يوسف الآن لأن فيه لينا.

وكان قصده توليته لأنه صهره، فلما مات عثمان بعثوا إلى عجم رسولاً وأصبحوا منتظرين في أمرهم وتجمعوا عند دار عثمان داي. فبينما هم كذلك إذ دخل علي ثابت وكان من أصحاب يوسف، فلما رأى جمعهم أقبل بجسارته وقبل يد يوسف داي وبارك له فلم يبق من الجماعة أحد إلا وفعل مثله فبايعه كبار العسكر، وطلعوا به إلى القصبة وأجلسوه على عادتهم، وجاءه الناس وبايعوه على طبقاتهم وتم له الأمر. ومن غد أقبل عجم من باجة فلقي الأمر قد فاته، فلم يسعه إلا المبايعة فكان يوسف داي يكرمه فيما بعد.

وأخذ علي ثابت في تدبير المملكة، وصرف نية يوسف داي عن التزوج بابنة عثمان داي فتخلى عنها، ودبر عليه بتزويج حظايا من بنات الأعلاج لأنه خاف من مصاهرته لأولاد عثمان داي والزهاني جدهم ليستبد هو بالأمر وحده، فكان كذلك فاستقام أمره وساعده جده إلى أن بلغ رتبة لم يبلغها أحد قبله وسيأتي له خبر. وفي أيام يوسف داي تحضرت البلاد وكثرت عمارتها وكان مغرماً بتجهيز المراكب في البحر للغزو، وبلغت عدتها خمسة عشر مركبا من الكبار.

وفي أيامه كثرت الرؤساء في البحر وكانت لمراكبه سمعة وهيبة. ومن أعظم رؤساء عصره قبطان صمصوم وقبطان وردية، كانا نصرانيين فسافرا في أيامه وهما على دينهما وأسلما بعد وكان لهما صيت في البحر.

وساعدته الأيام بالغنائم من البحر والهناء في البر فبنيت في أيامه عدة أماكن في المدينة منها سوق الترك، أمر بتحضيره على ما هو عليه اليوم وكان على غير هذه الحالة، فجاء من أحسن الأسواق التي بتونس وبنى الجامع المشهور به وجعل إمامه من الطائفة الحنفية وجعل له أوقافاً للمؤذنين والقراء والخدمة، فجاء من أحسن ما يكون، وبنى بإزائه مدرسة تعرف به أيضاً وفيها عدة بيوت للقاطنين بها ومدرس على مذهب الإمام

أبي حنيفة وجعل مرتبا للقاطنين بها والخدمة، وأوقف عليهم أرغفة من الخبز لكل من المؤذنين والإمام والطلبة وقد تلاشى أكثر ذلك.

وبنى الميضاة التي تحت القهوة ينتفع بها كثير من الناس وكذلك القهوة التي فوق الميضاة وجاءت من أحسن ما يكون وجعلها وقفاً. وبنى السوق الذي به الجرابة مأوى لتجارهم وهو من أعجب الأسواق وكذلك الحمام القريب من السوق المذكور وبنى عدة فنادق لسكنى الطائفة اللوند.

وكذلك السوق الذي يباع فيه الرقيق من السودان وغيرهم ويقال له البركة وهي من أجمل الأسواق. وكذلك فتح باب البنات بعد ما كان مسدوداً وبوبه وجعل فيه عدة حوانيت فجاء من أحفل الأسواق، وبنى قريباً منه سوقاً يباع فيه الغزل وكان قبل اليوم في غاية العمارة، وقد تلاشى أمرهما ولم تبق إلا رسومهما، وعمرت تلك الناحية بعد ما كانت خراباً من مكان يعرف بزنقة حمودة إلى باب البنات، وكان المار من هنالك في النهار يخاف على نفسه فعمرت تلك الناحية، وهي اليوم من أجمل حارات تونس.

وله غير ما ذكر من الخيرات التي بقيت بعده تذكر. ومن أكبر حسناته أن جلب الماء العذب على الحناية المشهورة به، وفرق ماءها في المدينة في عدة أماكن، منها القبة المرخمة التي تحت الصومعة الملاصقة للجامع الأعظم ومنها في رأس سوق الترك وفي أماكن أخرى وانتفع الناس بهذا الماء زماناً، وقد تعطل في زماننا هذا لقلة من ينظر في شأنه وإهمال الحكام له ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن خيراته بناؤه القنطرة العجيبة التي على وادي مجردة من ناحية بلد طبرية، وجاءت من أجل القناطر، وهي اليوم من أعجب المنتزهات التي لها ذكر بين الناس. وكان عليها برج في حياته ثم زاد فيه من بعده مولاه الفتى نصر آغا ثم تولع به ولده المرحوم أحمد شلبي وضخمه، ثم صار من بعده إلى حفيده أبي الحسن علي باي فزاده ضخامة إلى أن صار يضرب به المثل، وجاء بسمادته على أجمل شكل وسيأتي لذلك زيادة إيضاح.

وبنى في عدة أماكن غير ما ذكر للثواب المواجل في الأماكن المعطشة، وجلب إليها الماء من أماكن بعيدة ينتفع المسافرون بها، وكانت له صدقات عديدة منها إعطاؤه للمؤدبين في ليلة المولد الشريف خمسة ريالات لكل مكتب، حتى أن المكتب ولو تعطل في مدة السنة يجيء في هذه الليلة لأخذ ما هو معلوم أثابه الله على صنعه. وممن زان أيام دولته وسلك في فعل المعروف طريقته. وكان يصدر عن رأيه في قومته وقعدته. المرحوم برحمة الله الحاج علي ثابت وهو رحمه الله تعالى حسنة من حسنات يوسف داي. وكان صاحب إحسان للفقراء والمساكين وله ذكر عند أهل تونس لا يحتاج إلى تعريف.

ومن بعض حسناته تضخيمه للمسجد الذي بإزاء داره داخل باب الجزيرة وجعل له أوقافاً وكذلك تشييده للجامع خارج الباب المذكور والميضات التي بسوق الترك، وجاءت من أجل ما يكون وينتفع بها الغريب، وجعل لها أوقافاً لمن يقوم بها وكانت في غاية الحسن إلا إن بعض حفدته استولى عليها وأمرها صائر إلى التلاشي.

وله اخبار تحتاج إلى ديوان، ومات رحمه الله في سنة إحدى وأربعين وألف، وهو ممن كان يعين يوسف داي على فعل البر ولو تتبعنا حسنات يوسف داي لطال بنا التتبع لها.

وفي أيامه في سنة اثنتين وعشرين وألف كانت محلة الجزائر الأولى ولم يقع بينهما قتال، وفي أيامه كان الفناء الأعظم الذي يقول له أهل تونس وباء سيدي أبي الغيث، لأنه فيه توفي الشيخ رضي الله عنه ونفعنا به، وكان في سنة ثلاثين وإحدى وثلاثين وألف ومات فيه خلق كثير. وفي أيامه في سنة أربع وثلاثين أخذت غرابان من أغربة مالطة وجيء بهما إلى تونس وزينت البلاد لأخذهما.

وفي سنة سبع وثلاثين كانت الواقعة العظمى بين عسكر الجزائر وعسكر تونس، ومات فيها خلق كثير وكانت في شهر رمضان من السنة المذكورة واستجلبهم الشيخ ثابت بن شنوف وأطمعهم في البلاد، ولما

التقى الجمعان كانت الدائرة في أول يوم على أهل الجزائر حتى طلبوا الأمان، ثم إن الأعراب خانت وكان أعظمهم أولاد سعيد فانكسرت محلة تونس ونهبت وعاثت الأعراب في الوطن ومشت جماعة من مشيخة البلاد مثل الشيخ تاج العارفين العثماني والشيخ إبراهيم الغرياني والشيخ مصطفى شيخ الأندلس وغيرهم، وتم الصلح بين الفريقين.

وفي سنة ثمان وثلاثين كانت محلة الكاف لقيام بني شنوف وكابد هذه الأهوال مراد باي وكان صاحب دهاء، وفيها أخذت النصارى غلاطتين لأهل تونس، وفي سنة إحدى وأربعين توفي الحاج علي ثابت وفيها جاء منصب الباشا لك لمراد باي. وفي التي تليها أخذت جماعة من أولاد سعيد وركبوا على الخوازيق في المركاض وفيها ظهرت نجابة محمد باي.
وفي أيام يوسف داي فتحت الحامة بعد نفاق سبع سنين ولم يزل رحمه الله إلى أن سار إلى رحمة الله مشكور السعي عند الناس، وكان مغرماً بالصيد يخرج إلى البادية ويقيم عندهم أياماً ويصطادون معه ولم يكن له منازع في البلد ومات عن سن عالية ليلة الجمعة الثالثة والعشرين من رجب الفرد سنة سبع وأربعين وألف، ودفن في مسجده المعروف به وبنى عليه ولده تربة بديعة الشكل رحم الله تعالى هذه الروح الطيبة وجازاها بما هو أهله.

اصطا مراد

ومنهم اصطا مراد بن عبد الله من الأعلاج، بويع صبيحة اليوم الذي مات فيه يوسف داي واتفق على تقدمه جماعة وأكبرهم مامي من أكبر مماليك يوسف، وكان يرى نفسه أنه أحق بالأمر من غيره إلا إنه خاف من العسكر، إنهم لا يقدمونه ورأى أنه يقدم اصطا مراد فإن رضوا به دبر في خلعه واستبد هو بالأمر. فعاجله اصطا مراد لما تم له الأمر ونفاه إلى زغوان، وقتل هناك، ولما تم له أمره باشر الولاية بجأش متين.

وأول ما أمر به قطع الخمارات التي بين الأزقة وكانت كثيرة، وأبطل برج البستيون، وأبطل بيع القمح الذي كان يباع به، وأبطل أيضاً باعة

السميد والدقيق، ونظر في معايش المسلمين أحسن نظر، وكان الرغيف الذي يباع بناصري زنته ستاً وثلاثين وقية، وبيع اللحم في زمانه بناصري الرطل في فصل الشتاء، وكان الناس في أرغد عيش وأمر بنقض الأزبال التي خارج باب البحر، وكانت كيمان كالجبال وخدم فيها الربضين والمدينة نوباً بينهم، وكان يحضر بنفسه وجماعته كل يوم. وفي أول سنة من أيامه جاءت غلايط الجزائر إلى تونس وكان عددها ثمانية وسافرت مع غلايط تونس، وهي ثمانية أيضاً انتصاراً للسلطان في حرب أولونه فحصرتها عمارة البندقية في مكان استحال الخروج منه، فكان من رأيهم أنهم نزلوا إلى البر بأجمعهم ومن معهم من أسارى النصارى، وأحرقوا الغلائط كلها وتوجهوا براً إلى قسطنطينية فأنعم عليهم السلطان بغلايط من عنده ورجعوا إلى بلادهم، وكانت هذه الواقعة سنة ثمان وأربعين.

وفيها جاء الخبر بأن السلطان أخذ بغداد فزينت المدينة سبعة أيام، وكانت هذه الزينة من أحسن ما شوهد في تونس من الدعة والسناء. وفيها جاء الخبر بوفاة السلطان مراد وتولية أخيه السلطان إبراهيم.

وكانت أيام مراد هذا من أحسن الأيام. وقد اتفقت جماعة على القيام عليه ففطن بهم وقتل منهم جمعاً كثيراً وفر من فر منهم. وكانت له صولة عظيمة وهيبة وهو أول من جعل القواد يلازمون بابه كل عشية بقصد الانصاف لمن يشتكي منهم، ولم تكن هذه العادة لمن تقدمه.

وفي أيامه بنى البرج الذي بغار الملح على يد المعلم موسى، وأمر أن تبنى هناك مدينة واستنفر الناس إلى السكنى فيها وسلفهم دراهم للتعمير والإعانة فاستوطنها جمع من الأندلس وغيرهم وهو السبب فيه حتى صار من أجل المراسي التي ببلاد الإسلام، وكان قبل ذلك مكمناً للنصارى فانحسم ضررهم وهذا بعض من حسناته. وبيع قفيز القمح في أيامه بأربعة دنانير نواصر ومطر الزيت بدينارين ومنع خروج القمح لبر النصارى، ودخلت هيبته في قلوب العسكر والعامة من الناس حتى أن الذمي كان لا يجار عليه ولا يظلم بشيء.

وكانت كلمته لا ترد ولا يراجعه أحد ولو كان ولده. وهو أحد من رأس البحر لأنه كان خدم فيه قبطاناً ورزق فيه السعادة التي لم يرزقها أحد من قبل. وكانت أيامه في البحر من أجل الأيام ولما تولى الحكم بتونس كانت أيامه عند العامة كذلك إلى أن توفاه الله وقدم عليه بعمله، وكانت وفاته سنة خمسين وألف رحمه الله تعالى.

أحمد خوجه

وقام بالأمر بعده أحمد خوجه ويقال له أوزون خوجه باتفاق من العسكر ولم يختلف عنه اثنان لأنه كان في أول أمره وهو خوجه بالديوان، يعامل الناس بالرفق واللين وخصوصاً الأيتام من أبناء العسكر يهش لهم ويتحنن عليهم، فمالت إليه القلوب وقدموه عن رضى منهم فباشر الولاية بجبروت وشهامة، وكان جماعاً للمال.

وفي أول ولايته جاءت أغربة مالطة ودخلت إلى حلق الوادي وأخذت منه عدة مراكب أحدها مركب بوشاشية وحرقوا مراكب أخر وفعلوا فعلاً عظيماً، ولم يمنعهم البرج الذي هناك فعند ذلك أمر ببناء برج آخر لحصانة المرسى ويومئذ أيضاً كان الغلاء المفرط الذي لم يسمع بمثله وفعل فيه براً عظيماً المرحومان محمد باشا وأحمد شلبي لأنهما جعلا صدقات من الأرغفة للضعفاء تفرق عليهم كل يوم، ويقع تزاحم بين الناس في مكان التفريق وربما مات بعض من الأزدحام بمقربة من زاوية الشيخ الجليزي، وانقطعت الأسعار من القمح والشعير ولكن كانت مدة يسيرة. ثم تدارك الله سبحانه عباده وتراجع الحال وأتت في غاية الخصب وارتحم الناس.

وفي أول دولته وقعت المحاسبة بين المرحوم محمد باشا وسليمان باي، وظهر قبل سليمان مال أخذ عوضه محمد باشا غلياطه والزندالة والسانية التي برأس الطابية فوهب كل هذا لأحمد خوجه وهذا يدل على سخاء الباشا المذكور وفي سنة ثلاث وخمسين، كان الفناء الأعظم ودام سبع سنين.

وفي سنة خمس وخمسين كان ابتداء العمارة لكندية، وجاءت الأوامر السلطانية لقصد العسكر والمراكب إعانة للسلطان فندب أحمد خوجه الناس وجعل على أهل المدينة والربضين أموالاً لتجهيز المسافرين، وعين جمعاً من الرعية للسفر ولكل واحد جعلاً من ذلك المال مقداره ثلاثون كرونة لكل رجل، وعين جملة من المساحي والفيسان والقفاف وبعثهم في المراكب وكذلك في السنة التي بعدها ثم قطعت بعد ذلك.

وفي أيامه ابتدأ المرحوم محمد باشا بتزميل الزمول وقويت شوكته على العربان ومشى فيهم الهوان. ومات سليمان باي في أيامه وانفرد الباشا بتدبير وطنه ولم يكن له منازع وحصلت بينه وبين أحمد خوجة مشاحنة لدخول بعض الماكرين بينهما فسلمه الله من شره وتحكم فيه ومات على يديه في أشد إهانة، وكان اسمه حميدة عاشور فانتقم الله منه.

واستقامت أحوال أحمد خوجه، وكان مطاعاً في عسكره بحيث إنه استنفر العسكر إلى غار الملح لأجل واقعة يطول شرحها فلم تكن إلا ساعة من النهار حتى خرج العسكر عن آخره ولم يبق بالمدينة أحد وهذا من نفاذ أمره. وكانت قريبة من موته فلم يعش بعدها إلا أياماً يسيرة وبدأه مرضه الذي مات فيه وكانت وفاته سنة سبع وخمسين وألف.

الحاج محمد لاز

وتولى بعده الحاج محمد لاز في صبيحة اليوم الذي مات فيه أحمد خوجة، وبويع في جمع من أكابر العسكر في سقيفة أحمد خوجة وطلعوا به إلى القصبة وجلس على بابها وجددت بيعته هنالك وكان مسكنه داخل القصبة، فكان يجلس عند الباب لتعاطي الأحكام في كل عشية إلى أن انتقل إلى داره المجاورة لتربة الشيخ ابن خويان.

وفي أول ولايته كانت الوليمة الكبرى التي لم يسمع بمثلها في إقليم المغرب وهي الوليمة التي صنعها المرحوم محمد باشا لولده المرحوم مراد باي بالحرة الجليلة ابنة يوسف داي رحم الله الجميع وأظهر في العروسية

من أبهة الملك ما لم يكن لغيره في الديار التونسية ومكث أربعين يوماً في الاحتفال لها، وأنفقت فيها أموال تجل عن الحصر وشاهد الناس ما أذهلهم مما لم يسمع بمثله وفي جملة الأيام الأسمطة ممتدة بالأطعمة الفاخرة مما يكل عنه الوصف وأكل منها أهل البلد قاطبة ولم يرد أحد عنها، وجاءت الناس من أقطار الأرض والمغنيون من سائر البلاد، ولم تخل ليلة من الليالي من الفرح ويسرج من القناديل ما لا قدر له ويوقد من الشموع كل ليلة ما يشهد له العقل إنه لا يكون إلا بديار الملوك الضخمة، وكانت تلك الأيام تعد من أعمار وجاءت الوفود من كل بلد للتهنئة وانشدت الأشعار وأجيزت أربابها ووصل من الإحسان والبر لمن يستحقه وتحقق عند أهل تونس إنهم ما سمعوا بمثلها حتى في زمن بني أبي حفص، وهي أول وليمة صنعها سامحه الله تعالى وغفر له بمنه وكرمه.

وفي أيام الحاج محمد لاز تقوى أمر بلقاسم المنستيري في الإمارة ومنته نفسه بالغرور وذلك بمعونة كشك مراد مملوك الحاج محمد لاز وكان لاز المذكور يصدر عن رأي مملوكه. وفي أيامه صودر القائد عبد الله أبو خوران واستصفت أمواله وأهين بعد ما كان قائد القواد على يد المرحوم محمد باشا. وفي أيامه صادر الباشا المذكور بلقاسم القفصي وأخذ جملة أمواله واعتقل في زاوية الشيخ سيدي أبي الحسن الحلفاوي ثم رضي عنه فيما بعد ورد عليه ما أخذه منه وبعده استصفى أموال بني صندل ونكبهم على يد كاتبه أحمد المناوي وتقوى شأن علي هوى الترجمان بمساعدة الباشا له حتى أعجبته نفسه ومنته بالمحال فنكب على يد الباشا وأراد أن يفتك به فعاجل نفسه بأن أكل السم ومات وهذا من حسن نية الباشا بحيث لم يفته من أعدائه أحد.

وفي أول ولاية الحاج محمد لاز كانت الطامة الكبرى، وكادت أن تكون فتنة لولا أن تداركها الله برأي الباشا المذكور، وهي التي بيعت فيها عدة نواصر من مرتبات العسكر على يد القائد داود اليهودي الذي كان صرافاً، فكادت أن تكون فتنة بين العسكر، فهدن الله الفتنة برأيه السديد

ورد لكل واحد ما نقص من مرتبه ودفع المال من عنده وحمل من داره إلى الديوان أكياساً على أعناق الرجال وكان شيئاً مستكثراً وسلم الناس من الفتنة وهذه النازلة تعد من مآثره الحسنة الجميلة. ودامت أيام الحاج محمد لاز إلى أن توفاه الله لثلاث وعشرين خلون من شوال المبارك سنة ثلاث وستين وألف بعد مرض طويل ودفن بتربته عند باب القصبة.

الحاج مصطفى لاز

وقام بالأمر بعده الحاج مصطفى لاز، بويع في صبيحة اليوم الذي دفن فيه الداي المذكور وذلك بمشورة الباشا وهو إذ ذاك باي المحال فبعثوا يشاورونه في من يتولى داياً فأشار بتولية الحاج مصطفى لاز فعندما جاء أمره السعيد بايعه العسكر. وعند جلوسه بباب القصبة دخل الباي المذكور من غد وكان قد رجع من سفره فاشتد به عضد الحاج مصطفى لاز وكانت جماعة غيره أعناقهم ممتدة للولاية فطاح ما بأيديهم ويئسوا. ولما استقر في الحكم وتمهد أمره زوجه الباشا بجارية من جوارية وجهزها بجهاز معتبر كإحدى بناته ووهب له داراً من أجل الدور وفعل معه من الجميل ما لا حد له.

وفي أول ولايته نكب بلقاسم المنستيري على يد الباشا لأنه كان حاقداً عليه لأمور بدت منه وكذلك نكب الشيخ مصطفى الأندلسي واستصفيت أمواله وهرب إلى وطن الجزائر ومات هناك، وكذلك نكب الشيخ صالح وفعل به ما فعل بغيره.

وفي أيام الحاج مصطفى جاءت مراكب الإنكليز إلى غار الملح وأحرقت مركباً كان خارج المرسى ورمت على الحصار بالمدافع واستنفر العسكر إلى غار الملح وكانت واقعة مشهورة، وذلك في سنة خمس وستين وألف. وفي السنة التي تليها كانت الوليمة الثانية من الولائم المشهورة التي صنعها لولده محمد باشا الحفصي على ابنة عبد الرحمن باشا وكانت أيضاً تعد من عجائب الدهر.

وفي أيام الحاج مصطفى بعث محمد باشا هديته المشهورة مع ابن

قلمان، ولم تدخل إلى الديار الرومية هدية أفخر منها من بلاد المغرب وطلب منصب البشاوية فأجيب إلى ما سأل وجاءته الأوامر العثمانية سنة ثمان وستين وخوطب فيها الباشا ابن الباشا. وفي أيام الحاج مصطفى لاز كانت الزينة المشهورة التي ضرب بها المثل لما كان بها من الدعة الترف وجاءت من أحسن ما يكون وهي بشارة بأخذ السلطان إقليماً من بلاد النمسة.

وكانت أيام الحاج مصطفى أيام هناء وراحة لأن غالب تدبير الأمور كان يصدر عن رأي الباشا، رحمه الله، وإلا فالحاج مصطفى كان لين العريكة ويكره سفك الدماء إلا ما كان من واجبات الشرع وأكثر الأحكام يقلد فيها الشرع. وفي أيامه كانت الوليمة العظمى التي اجتمع فيها ثلاثة باشاوات، وهي وليمة أحمد باي بابنة عثمان باشا صاحب طرابلس، واحتفل فيها المرحوم محمد باشا غاية الاحتفال وكانت سنة تسع وستين. وطالت أيامه إلى أن توفاه الله ليلة الجمعة التاسعة عشرة من ذي الحجة سنة خمس وسبعين.

الحاج مصطفى قره كوز

وقام بالأمر بعده الحاج مصطفى قره كوز، جلس عند باب القصبة في صبيحة اليوم الذي مات فيه الحاج مصطفى لاز من غير اتفاق من العسكر وإنما قدم نفسه بنفسه واستولى على الأمر بشهامته وكان مهاباً وفيه إقدام فهابه الناس. ويوم ولايته ظهرت عليه سكينة وابتدأ أمره بتنقية أهل الجرائم ومعاقبتهم بالشنق والخنق على أدنى شيء وخصوصاً من اتهم بالسرقة، فكان لا ينظر في أمره بشيء ولا يعرف له إلا لفظة حبل، فشنق خلقاً كثيراً وفر من المدينة كل من كان يتهم بشيء وتفرقوا في البلاد ولم يعد أكثرهم إلا بعد موته.

وكان فيه بعض هرج وتعطل غالب الأحكام في أيامه وصار غالب أهل الديوان وغالب الحكام لا يتصرفون بشيء خيفة من بأسه وضره، وربما تعطلت بعض أحكام الشرع وهو الذي عزل الشيخ مصطفى بن عبد

الكريم عن منصب الفتيا وقدم عوضه الشيخ أبا المحاسن يوسف شهر درغوث، فباشر الفتيا بعفاف وصلابة في الدين والحق إلى أن توفاه الله شهيداً كما سيأتي وهو يعد من حسنات قره كوز. وفي أيامه كانت وليمة محمد باي ابن المرحوم مراد باي بابنة أحمد شلبي بن يوسف داي، واحتفل الباشا كعادته في غيرها من الولائم.

ولم يزل قره كوز في تشديده على الجناة والإقدام على سفك الدماء، حتى أن أكثر المعاملات كادت تبطل وانحسم الشر عن الناس وخافه البعيد والقريب، وانقطعت السرقة من البلد إلا ما قل ونزلت العافية حتى في البادية ولكن لم تطل أيامه. وكان في سن الشيخوخة وقيض الله له قرناه منهم أحمد صنابلي والحاج حسين شاقال فذهبا به كل مذهب وعاجلاه بأن أطعماه سماً فتغيرت أمزاجه وتضاعف ما كان فيه من طبع السوداء حتى صارت تحدث له حالات متناقضة ولم يفعلا به ما فعلا إلا ليتم لأحدهما الأمر بالولاية.

ولما ازدادت فيه السوداء اتفق جماعة من الأكابر ووافقهم بعض رؤساء الوقت فخلعوه وقدموا عوضه الحاج محمد حاج أوغلي. وفي شهر رمضان علق الحاج علي الفلاري وكان ترجماناً. وفي عشية منه أيضاً علق خمسة أنفس على دعوى من غير إثبات.

وفي آخر دولته توفي المرحوم برحمة الله محمد باشا وبموته انفتق الرتق وصار كل أحد بقدر اجتهاده وانفتح باب الخلع على الدايات، فخلعوه أواخر ذي القعدة سنة سبع وسبعين وألف وأخرجوه من القصبة إلى داره بحومة كتاب الوزير فلم تطل أيامه ومات في العشر الأول من ذي الحجة من ا سنة المذكورة. ويوم خلعه نفى من المدينة حسين شاقال وأحمد صنابلي ولم يتم لهما ما أملاه ولله سر في تقلبات الزمان.

الحاج محمد حاج أوغلي

فتولى الأمر الحاج محمد حاج أوغلي المتقدم الذكر، جلس على

باب القصبة يوم خلع قره كوز وأبى أن يدخل دار الإمارة حتى أخرج قره كوز منها، فعند ذلك دخلها وهي دار معدة لمن يتولى هذا المنصب. والحاج أوغلي هذا ممن تريس في المراكب وكان يعد من القياطين المشهورين، وكانت فيه سكينة زائدة فلأجل ذلك قدموه ظناً منهم أنه يحسن السيرة في البلاد فظهر منه خلاف ذلك فقل تدبيره وصار لا يأمر بشيء إلا فيما قل، وربما يأمر بالشيء وينهي عنه كأنه ما أمر به وتلاعبت الأيدي في الأحكام ولم يرد أحد عن مراده.

ونفى جماعة من الأكابر وسأل عنهم بعد ذلك وقيل أنه لم يأمر في أمرهم بشيء، وصارت الأحكام تصدر عن غيره ويوهمون أنها صادرة عنه. وصار الكاتبان اللذان بالديوان هما صاحبا الحل والعقد وهما شعبان خوجة والحاج محمد بيسنارة لا ترد لهما كلمة.

وفي ولايته أمر بخدمة الزبلة التي عند سيدي عبد الله الشريف نفع الله به وخدم فيها الربضين والمدينة عدة أيام، وكان يحضر بجماعته هنالك ودام على حالته إلى أول سنة ثمانين وقيل إحدى وثمانين فخلعوه كغيره وأخرج إلى داره بمقربة من دار الديوان وبعد أيام حجر عليه ولزم بيته إلى أن توفاه الله، وقيل أنه خولط في عقله فلهذا خلعوه.

الحاج شعبان خوجه

ومنهم الحاج شعبان خوجة المذكور جلس مجلس الدايات في القصبة في السنة المذكورة. وفي تلك الأيام كانت الوليمة التي صنعها مراد باي لأخيه حسن باي ولولده علي باي، وجاءت من أجل ما يكون ومشى على طريقة والده وأربى عنه وأظهر من الاحتفال ما لا يوصف. وفي أيام الحاج شعبان كانت الزينة العظمى لاحذكندية في ذي القعدة من سنة إحدى وثمانين.

وأول أمره باشر الولاية بتعفف ونظر في معايش الناس وربما باشر بنفسه ميزان الخبز في الأسواق وكان مهاباً وسكناه بالقصبة، فأخذ له

المرحوم مراد باي داراً ووزن ثمنها وزاد الحاج شعبان في بنائها على ما كانت عليه، فجاءت من أجل الدور وسكن بها.

ثم خالطه بعض أهل الفساد وأغروه بمعاداة البايات وزينوا له كل قبيح وأضمر أن يفتك بهم وفشا الخبر بين الناس وبلغ إلى أرباب المملكة، فمكروا به قبل أن يمكر بهم. والذي أغراه على ذلك ابن القائد جعفر ومحمد بن أحمد خوجة على ما قيل.

فلما رجع مراد باي من محلته محلة الشتاء سنة اثنين وثمانين أبى أن يدخل إلى المدينة وأضمر الشر لشعبان خوجة، فلما فطن لذلك خاف على نفسه وكان مراد باي كاتب أكابر الدولة وأخبرهم بما نوى الحاج شعبان فمالت قلوب الناس عنه وتحقق ما أضمره بما صنع من أمور فيها بعض هضم في جانب البايات، فلما أحس بالشر بعث بجماعة من أصحابه إلى الباي يستعطفونه وحلف لهم بإيمان وكان الباي مراد لم يظهر ما في ضميره إلا بعد ما استحوذ على القائد أحمد بن جعفر وعلى محمد بن أحمد خوجة وأراد أن يجعلها فتنة، فلما وصلت الجماعة إلى مراد باي تكلم معهم في خلعه فخلعوه بالمحلة أواخر ذي الحجة من السنة المذكورة، وقدموا عوضه الحاج محمد منتشالي ويوم دخولهم المدينة دخلوا لقصبتها وأخرجوه منها إلى بستانه برأس الطابية وبعد أيام بعثوا به إلى زغوان فأقام بها يسيراً ومات يوم الثلاثاء لسبع عشرة مضت من ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين وألف، وجيء به إلى تونس ودفن بإزاء داره وقبره معروف هناك.

الحاج محمد منتشالي

ومنهم الحاج محمد منتشالي، بويع في المحلة كما سبق وجددت بيعته يوم دخوله القصبة واستوطنها، وكانت فيه بلادة لم يجرب الأمور وغالب الأحكام في أيامه تصدر عن البايات وهو مساعد لهم لا يخرج عن أمرهم بشيء وقنع بالمنصب واسمه، فقام على سيرته أقل من سنة واتفقت

جماعة من أهل الفساد وزين لهم الشيطان ما نووه فدخلوا القصبة على حين غفلة، وحاصروا منتشالي وبعثوا للباشا صاحب المنصب إذاك وكان متفقاً معهم فخلعوا منتشالي وقدموا الحاج علي لاز وأخرجوا منتشالي وبعثوا به إلى زغوان إلى أن مات هنالك وجيء به إلى تونس ودفن بتربته قبالة داره وقبره معروف هنالك.

الحاج علي لاز

ومنهم الحاج علي لاز، بويع في النصف من ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين يوم الثلاثاء ووافق ذلك أول يوم من الحسوم فتطير الناس من ذلك وساعدوه قوم غير راضين، وزينوا له مجالات عقلية ويوم ولايته فر محمد باي الحفصي ولحق بأخيه مراد باي، ودخلت محلة الشتاء ولم يدخل مراد باي ولا أخوه الحفصي، وكان اجتماع الحفصي بأخيه مراد باي فوق القيروان ثم إنهما توجها إلى ناحية الزواريين. ولما استقروا مشت بينهم الرسل وكل منهم حاقد على صاحبه وضامر له السوء وحدثت في المدينة أحوال تؤذن بالفساد وتحزبت جماعة الحاج علي لاز وزاد ضررهم.

ولما علموا أن مراد باي أخذ حذره منهم عزلوه وأقاموا عوضه محمد آغا ولبسوه قفطاناً وركب في المدينة ونادى المنادي بولايته، أخذ يستجلب الناس والرعايا وينفق الأموال وهو لا خبرة له بالأمور. وبعد أن كان ذلك كذلك بعث مراد باي بعدة أوامر يحذر الناس ويندبهم إلى الرجوع عما فعلوا فلم يزدهم إلا عتواً ثم بعث إليهم أعقادا من الخيل وغاروا على ما حول البلد، فخرجت إليهم جماعة علي لاز وخيله فالتقى الفريقان ووقعت بينهم الحرب في عدة أيام.

وآخر الحال جاءتهم جماعة من أولاد سعيد والمثاليث وغيرهم من الأعراب، فخرجوا بمحلة ظاهر البلد، وكانوا قبل ذلك جعلوا سؤالاً، وحكم فيه القاضي وافتى فيه بعض الفقهاء بما وافق أغراضهم فعند ذلك نهبت دار البايات وغالب أثاثهم وكان الخطب جليلاً.

ولما خرجوا وأقاموا بظاهر البلد وجاءتهم البايات وظهرت طلائع حيلهم بادروا إلى لقائهم وخرج من المدينة كل من يقول بقولهم والتقى بعضهم ببعض فلم تكن إلا ساعة من نهار حتى انهزم محمد آغا ودخل المدينة مكشوف الرأس وخلف عسكره، فتحكمت فيهم أيدي أصحاب مراد باي فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ولم ينج إلا من بعد أجله، وهذه الوقعة تعرف بخطرة الملاسين وكانت بعقبة الجزار ونهبت الأعراب ما حول المدينة، وتحصن الحاج علي لاز وجماعته بالقصبة ومن غد أصبح بابها مغلقاً وباتت المدينة في سوء حال.

وبعث الباي إلى باقي العسكر بالأمان وأمرهم بتولية الحاج مامي جمل، فبعثوا له وبايعوه في الديوان وبعثوا إلى الحاج علي لاز وأصحابه فخرجوا بالأمان ومشوا إلى زاوية الشيخ سيدي محرز بن خلف فلم تغن عنهم وحوصروا بها ومات هنالك أكثرهم وبعث بالحاج علي لاز إلى الحمامات فقتل بها، ونهبت عدة أماكن بالمدينة وتتبع الباي آثار المفسدين فقتلهم وكانت وقعة لم يسمع بمثلها بحيث مكث القتل أكثر من شهر. وكتب الباي أوامر وبعث بها وفوداً إلى الباب العالي مخبراً بما وقع وجاءه الجواب بما في مراده وزيادة، والقصة أطول مما ذكرنا وكانت هذه الوقعة منتصف صفر سنة أربع وثمانين.

الحاج مامي جمل

ومنهم الحاج مامي جمل، بويع منتصف صفر كما تقدم وسار على سيرة منتشالي في مساعدة الزمان إلا إنه كان فيه مرج وغفلة، وكان يظهر التدين والعفاف ويميل إلى الفقراء وذلك منه لأمر ما، وفيه إمساك ويشتكي من الفقر وما ازدان أول دولته إلا برأي البايات، ثم تغير حاله فيما بعد.

وفي أيامه نافق أبو القاسم الشوك بوسلات، فقاتله مراد باي وحاصره وفزع له من سائر البلدان والتم عليه جميع العمالة فطاب له الجبل وقطع رأس الشوك وجماعته وجيء برأسه إلى تونس والقصة طويلة. وفي أيامه أخذت غلياطة محمد باي أخذها عدو الدين. وفي أيامه مات المرحوم مراد

باي في جمادي الأولى سنة ست وثمانين. وفي أيامه وقع الخلاف بين محمد باي وأخيه علي باي وقدم عمهما محمد الحفصي وفي شهر رمضان من السنة المذكورة سافر محمد الحفصي إلى بر الترك.

وفي أيام الحاج مامي قويت الوحشة والفتنة بين الأخوين وأكثرها بمساعدته، وغلبه على أمره جماعة من أصحابه فكانوا يهونون عليه الصعب ولم يزل أمره في تشتيت إلى أن خلع بالحاج محمد بيشارة أواخر ذي الحجة سنة ثمان وثمانين وألف، وخرج من القصبة ودخل الزاوية القشاشية إلى أن كان من أمره ما سنذكره بعد. وفي أيامه كان الوباء العظيم وابتدأ في سنة ست وثمانين وارتفع سنة سبع وثمانين ومات فيه يوسف باشا وقبره بمقربة من الشيخ سيدي محرز، نفع الله ببركاته، وقبر معه ولداه وبنيت عليهم قبة حسنة.

وفي سنة سبع وثمانين المذكورة خرج علي باي إلى ناحية المغرب وفيها كانت وقعة وسلات مع محمد باي ومات فيها خلق كثير وسيأتي طرف من ذلك. وفيها جاء محمد الحفصي من بر الترك ولم يقبل. واضطربت آراء الحاج مامي حتى خلع آخر ذي الحجة كما تقدم وأقيم بدله الحاج محمد بيشارة.

الحاج محمد بيشارة

ومنهم الحاج محمد بيشارة بويع في المحلة على يد الأمجد علي باي آخر ذي الحجة المذكورة وجيء به إلى تونس فجددت بيعته وأخرج الحاج مامي ولم يتعرض له بمكروه واستنفر عسكرا لإعانة علي باي وبعث بالمدافع إلى الكاف وسكن بالقصبة أيام ولايته وكان فيه طيش في أحكامه وهو من كتبة الديوان في السابق وكان يظن أن فيه سياسة فلما تولى لم يظهر عليه شيء منها وكاتبه علي باي في مسائل تصلح به فلم يقبل منه. وأخذ العسكر في أيامه مرتباً واحداً وبعث إلى الحاج مامي مرتبه وهو مقيم بالزاوية.

وخلع في منتصف صفر من سنته وأعيد الحاج مامي إلى الولاية، وذلك حين احتوى محمد باي على المحلة عند الكاف ورحل علي باي إلى الجريد كما سيأتي خبره، فبعث محمد باي إلى تونس وأمر بإعادة الحاج مامي فخرج من الزاوية وطلع إلى القصبة وأخرج بيشارة ونفاه إلى رأس الجبل، وبعد أيام أمر بقتله ولم يف له بما فعل معه ومن يوم رجوعه لم يهنأ له شيء، وبعث بجمع من أصحابه إلى الكاف لكشف الخبر وألزم أهل البلد بالعسس ليلاً وجعل العسكر على الأبواب نوباً ومشى طارق الفتن في غالب الإقليم، وبدأ نفاق القيروان ومكثت تونس في جهد من العسس نحواً من أربعين يوماً.

ومن أغرب بلادته وهرجه أن الجماعة الذين أرسلهم للكاف لما رجعوا وجدوا رجلين في الطريق مسلوبين فسألوهما: - من فعل بكما هذا؟ - فقالا: - أصحاب من جماعة مصطفى سبنيول وهو بمكان كذا - وكان مصطفى المذكور طرق ذلك الجانب فلما سمعت الجماعة من الرجلين ذلك مالوا عن ذلك الطريق وأتوا على غيره خيفة من السبنيول المذكور، ولما أخبروا الحاج مامي بذلك لم يصدقهم فقالوا له هذان الرجلان المسلوبان فسألهما فأخبراه بالصدق فأمر بضربهما فضربا، أعاذنا الله من قلة التوفيق.

ولم يزل يترقب الأحوال إلى أن فشا بين الناس أن علي باي رجع من الجريد والتقى مع أخيه في الفحص وهي الكائنة العظمى، وهرب أبو رخيص وابن عثمان وجماعة كانوا في تونس في صندل من البحيرة. وبعد أيام جاء الخبر مع بلوك باشي وحسين بن مامي قراش فعند ذلك هرب الحاج مامي إلى الزاوية كعادته وبقيت المدينة بلا حاكم فاضطر العسكر إلى داي فوقع اختيارهم على أوزون أحمد فضرب أيضاً ومن غد أخرجوه غصباً وقدموه داياً بعد ما شرط عليهم شروطاً رضي العسكر بها فبايعوه نصف النهار وبات حاكماً، ومن غد خرج إلى الناس ولم يبت إلا وقد تبين خلعه فكان الواجب أن لا يعد من الدايات.

أوزون أحمد

ومنهم أوزون أحمد، بويع في السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وأقام يومين، ولم يبرز حكماً وكان بعث فيه علي باي أن يولوه، فهرب إلى الزاوية كما سبق خبره وأعيد الجواب إلى الباي فعند ذلك بايع بالمحلة محمد رايس طاباق وبعث به إلي تونس ولم يعلم أحد بذلك فلما سمع أوزون أحمد بعث بجماعة من العلماء إلى الجبل الأخضر، لأن مصطفى سبنيول كان هناك محاصراً للمدينة ومنع عنها الداخل والخارج وألزم الباعة أن يجلبوا بضاعتهم للجبل الأخضر وأمر الجزارين ببيع اللحم هناك، وانقطعت المادة عن أهل تونس فوصل الداي محمد طاباق ولم يكن لأهل المدينة علم، فلما وصل الفقهاء برسالة أوزون أحمد وبالشروط التي اشترطها وجدوا الناس قد بايعوا طاباق فطاح ما بأيديهم وبايعوا مع الناس ورجعوا فأخبروا أوزون أحمد فهرب إلى الزاوية إلى أن كان من أمره ما سيأتي إن شاء الله.

ومن أعجب الأشياء أن المؤرخين يعدون أهل المناصب من الخلفاء والسلاطين وأن السادس منهم يقتل أو يخلع، وأثبتوا كثيراً من أخبارهم وجاءت على اتفاقهم في الأكثر إلا إن هذه الدولة خالفت جميع الدول لأن الستة الدايات الذين كانوا مستقلين لم يجر على أحد منهم الخلع وهم عثمان ويوسف ومراد وأحمد ومحمد ومصطفى كل هؤلاء كانوا مستقلين وماتوا في ولايتهم ومن بعدهم ثمانية على نسق واحد وقع الخلع عليهم قره كوز والحاج علي والحاج شعبان ومنتشالي والحاج علي لاز والحاج مامي وبيشارة وأوزون أحمد هؤلاء المخلوعون ويمكن أن يقال الأولون ثمانية أيضاً لأن إبراهيم داي الأول وهو الذي تسمى بهذا الاسم ومن بعده موسى داي، لم يقع الخلع عليهما لأنهما سلما باختيارهما . فهذا من أعجب الاتفاقات ولله الأمر وهو العليم الحكيم.

محمد داي

ومن الدايات العظام وأهل الرتب الفخام الذي جاء في آخرهم، وهو

كأولهم الأمجد الأنجد محمد داي عرف طاباق معدود من الرؤساء الذين بلغوا درجة القبطنة، ونال سعادة وافرة وعلا اسمه وجرت له أمور أضربنا عنها إلى أن بلغ هذا المنصب على يد المكرم علي باي بويع له بالمحلة بالفحص آخر ربيع الأنور سنة ثمان وثمانين وألف وأقبل إلى تونس، فنزل بالجبل الأخضر وبعث إلى تونس جماعة من أصحابه فقبضوا على الحاج مامي جمل وجماعته وسيروهم إليه وكان ذلك آخر العهد بهم.

ويوم الخميس آخر الشهر خرج الديوان إلى لقائه ودخل المدينة ويوم دخوله كان بعض الناس يغضي من جنابه وبعضهم رأى عليه مخايل الولاية، ولما نزل عند باب القصبة جاءه الناس فبايعوه هنالك وتكلم بكلام يدل على لينه ولم يعلموا ما وراء ذلك، ودخل القصبة ومن الغد أمر بإخراج من بها ما عدا جماعته وبعد ذلك باشر الأمور بشهامة وحدة ونفى جمعاً من الأكابر وشتت كثيراً من المخالفين وقام بنصرة الباي أحسن قيام.

وفي أيامه ابتدأ الغلاء واجتهد في ضبط السعر غاية الاجتهاد وبعد أيام بعث الباي أحد المماليك وأقامه خليفة للباشا. وفي شعبان من السنة المذكورة جاء خليفة الباشا من بر الترك ودخل المدينة بزي الباشوات واجتهد في أمور المملكة وغير السكة لأنها كانت غير مرضية فجاءت على وفق المراد وفرح الناس بها.

وفي أيامه تقوى الخلاف في القيروان والمنستير وصفاقس وبعث أرسالاً للقيروان والمنستير فلم تقبل منه. وفي ذي القعدة من السنة زادت الاراجيف في البلاد وطالت غيبة الباي وخبره عن الناس.

وفي ذي الحجة كانت الواقعة العظيمة التي أحرقت فيها أبواب المدينة وتعطلت المساجد عن صلاة العيد والجمعة، وكان الخطب جليلاً ودخلت جيوش محمد باي المدينة وعاثوا كيف شاؤوا ولم ينازعهم أحد وانخذل أكثر العسكر واستفزهم مراراً فلم يأتوا، ومكث ثلاثة أيام يتدارك الأمر وغلق باب القصبة هو ومن انضاف إليه، وانحصروا هناك وكان قد هيأ

ذخيرة تقوم به وبايع العسكر في مدة الحصار ساقسلي حسن ورموا على القصبة بالبندقيات، ودام الحصار والحرب ليلاً ونهاراً ورمي على الحصار بالمدافع عدة أيام وحفر تحته لغم وأطلقت فيه النار وجعلت المتاريس في عدة أماكن ونار الحرب مشتعلة في كل جانب وانقطعت الأسعار من المدينة حتى بلغ صاع القمح نصف ريال عبارة عن ستة ريالات الوبية فكان مبلغ القفيز ستة وتسعين ريالاً وهذا شيء لم يسمع بمثله في تونس.

وألزم أهل المدينة والربضين بالعسس في داخل المدينة وخارجها وعظم البلاء واشتد الخوف، وانقطع المار من عدة أماكن من الطرق ودهم الناس ما لا قبل لهم به ولم تزل الحرب في المدينة والأبواب مهدمة والناس في جهد أربعة وعشرين يوماً.

وفي تلك الأيام قبض على جماعة من أهل البلد وألزموا بأداء المال، وقبض على العالمين المفتيين الشيخ محمد فتاتة والشيخ يوسف درغوث فاعتقلا، فأما الشيخ محمد ففر ليلاً وأما الشيخ يوسف فقتل. وآخر الأمر استنفر محمد باي العسكر فخرجوا معه إلا قليلاً منهم فكان من أمرهم ما سنذكره بعد.

وفتحت القصبة رابع المحرم أو سادسه سنة تسع وثمانين، وعصى أهل باب السويقة ووقع منهم حرب لأهل المدينة وبنى باب السويقة حاجزاً بين الفريقين فهدموه وجاهروا بالعصيان، وجاءت الأخبار بهزم العسكر الذي خرج ثم تناقضت وهرب أهل النوبة التي بحلق الوادي حتى لم يبق به إلا رجلان، وبعث عوضهم رجالاً أخر فأظهروا الخلاف وكانت الآراء مختلفة في كل مكان إلى أن جاءت رؤوس القتلى وحطت عند باب القصبة ومات خلق كثير من أكابرهم ساقسلي الذي تولى دولاتلي، وكان في أيام الحصار الحاكم في القصبة طاباق وفي المدينة ساقسلي المذكور.

وفي تلك الأيام أرجف بموت علي باي من مرض كان أصابه وعافاه الله منه ثم أخذت الفتنة في الانحطاط وتمادى الغلاء إلى أن منّ الله

بمراكب جاءت من بر الترك بالقمح فانحط السعر قليلاً، كل هذا وطاباق مكابد هذه الأهوال ومتحمل لصعاب الأمور صابر لها، وزاد للجماعة التي كانت محصورة معه خمسة نواصر ترقياً لكل واحد في مرتبه وهذا لم يسبقه إليه غيره وعفا عن الذين لم يدخلوا معه القصبة وعلم عليهم وكان الذي حمله على الصبر معاضدة الباي له إلى أن تم ما تم فعند ذلك هابه الناس قاطبة وخافوا بأسه وأظهر شهامة على من خالفه واشتدت شوكته.

وفي آخر شعبان أقبل محمد باشا الحفصي من الديار الرومية في زي عجيب ودخل المدينة بشعار السلطنة بما لم يدخل به أحد قبله ومعه من الأعلاج والطبول والأنفرة وآلات الباشوات مالا يوصف فكانت النوبة تعزف عند العصر فيلتذ بسماعها خلق كثير ويقع لذلك ازدحام كبير وأحضر معه أمر السلطان نصره الله للمكرم علي باي برفع ركابه وتعظيمه وإجلاله.

وفي ثالث شوال من سنة تسع وثمانين وألف كانت الزينة العظمى: وبقيت هذه الزينة سبعة أيام بلياليها وفي الثامن منها وقعت الوحشة بين الباشا والداي فخرج الباشا مغاضباً وسكن في برج كرنبالية. وفي تلك الأيام نزل الباي على المنستير وحاصرها أياماً ورحل عنها. وفيها جاء الخبر أن محمد باي ركب البحر.

وفي ربيع سنة تسعين رجع الباشا إلى سانيته برأس الطابية ولم يقع بينه وبين الداي اتفاق، وفيها خرج الباي إلى محلة الصيف وأقام هنالك وخرجت له محلة الشتاء قبل أوانها فأرسلها للجريد لعصيان البرج الذي في توزر وأخذ في سنة إحدى وتسعين وألف. وفيها استنفر الداي العسكر للكاف ومنعهم مرتباتهم.

وفي ربيع الثاني من هذه السنة بعث الداي العسكر نجدة لأهل سليمان، وفي جمادي الأولى جاءت الرسل من الجزائر لأجل الصلح وقابلهم الداي بعنف. وفيها صادر أهل المرتبات ومنعهم لقلة استماعهم أمره وفي رجب خرج الباشا إلى القيروان وكان من خبره ما سيأتي ذكره.

وفي شوال خدمت صفاقس. وفيه جاءت رسل أهل الجزائر ونزلت محلتهم في الحدادة. وفي الحادي والعشرين من شوال جاء الخبر بخدمة الكاف وفرح الداي بذلك وفي ذي القعدة جاء الخبر برضاء الباشا مع الداي. وفيه خدمت أولاد سعيد علي باي وتعطلت مرتبات العسكر في هذه المدة إلى أن دخلت سنة اثنتين وتسعين وألف.

وفي أول ربيع الثاني منها، قام العسكر على ساق وطلبوا مرتباتهم فألان لهم الداي القول فأبوا فغلق باب القصبة وأحس بالشر ومكث ثلاثا وكانت هرجة عظيمة لولا أن تداركها الله بالباي فقمع أشرارهم وهدن الفتنة ووعدهم بأخذ مرتباتهم.

وفي سابع ربيع الثاني كلف أهل المدينة والربضين بأداء الرمية فامتنعوا ثم أذعنوا وتمشى الأداء في الوطن كله. وفي جمادي الأولى كان الختان في برج باردو لحفيد الباي، وكانت تلك الأيام تعد من الأعمار، وفيه قويت الوحشة بين الداي والباشا.

وفي ثاني جمادي الثانية سافر الباشا إلى الديار الرومية وبقيت البلاد بلا باشا والمرتبات والمجابي تحط في الديوان. وفي هذه الأيام وقع الرخاء العظيم وكثرت الغلال والخيرات بحيث وصل قفيز القمح إلى أربعة ريالات وأقل من ذلك والله تعالى يلهم هذا الداي للسداد والصلاح. ويصلح حال من تسبب في إقامته بهذا المنصب ويبلغه النجاح. كيف لا وهو حسنة من حسنات الأمير علي باي، نسأل الله تعالى أن يوفقه لما يحبه ويرضاه.

وحيث أتيت بجملة من أخبار الدايات وجب أن نأتي بنبذة من أخبار البايات وإن كانت هذه التي جمعتها لم تدون قبل وإنما تلقيتها عمن كان قبلي وأخبرني وعنه أعتمد في نقلها على سبيل الاختصار.

البايات

وذلك أن في مدة بني أبي حفص كان سلاطينهم يخرجون بمحالهم

لجباية خراجهم وفي أيام الدولة العثمانية تقسمت البلاد بين القواد وصار أعظمهم يخرج بالمحلة وكانت الأعراب في قوة واستحوذوا على جل البلاد كعرب إفريقية أولاد أبي الليل وأولاد بوسالم وأولاد حمزة وغيرهم وأولاد شنوف بوطن الكاف وأولاد سعيد وأولاد مدافع وأهل الجبال غالبهم عصاة وكان صاحب المحلة يعاملهم بالمخادعة والرفق والقواد يتعاقبون في التزامات المحال، فكانت أحوالهم مضطربة وكثر الحكام بالمدينة فكانوا في جهد مع الرعية والعرب أشد شوكة في أول الأمر فكان يعسر الخلاص معهم وخصوصاً أهل جبال عمدون وجبل وسلات وجبل مطماطه.

وأول من سما وأظهر ناموساً لهذه الطريقة وتسمى بين هذه الرعاية بهذا الإسم على الحقيقة القائد رمضان من الأعلاج وأصله من أهل الجزائر وخدم المنصب هناك وانتقل إلى الديار التونسية وتحصل على هذه الرتبة وكانت فيه سياسة وتدبير فاقتنى المماليك وعلت همته وتخرج من مماليكه عدة رجال أخذوا المناصب في حياته وتسموا بهذا الإسم قبل مماته، فمنهم مراد باي ورمضان باي وحسين باي هؤلاء مشاهير مواليه وكان أعظمهم همة وأبعدهم صيتاً مراد باي وكان فيه حذق زائد عالم بتدبير الرعية وجباية خراجها استولى في حياة أستاذه على الولاية الضخمة واستخلفه في حياته وكان يتفرس فيه النجابة دون غيره حتى عن أخيه رجب.

وكان مراد أيضاً يتفرس في مماليك أستاذه حتى أني سمعت ممن سمعه يقول عن مملوكي أستاذه حسين ورمضان أن حسين فلا يموت حتى يفتقر ويعمى، وكذلك كان يطلق على رمضان اسم الفقر فنجحت فراسته وكان يفتخر بنفسه ويقول: أنا ملازم لخدمة أستاذي وعندي كذا وكذا مال وعندي شيء معتبر. ولم يزل يترقى إلى أن صار بعد أستاذه في هذه الرتبة.

ولما مات أستاذه في أيام يوسف داي أراد أخوه رجب باي أن ينفرد وحده فسعى عند يوسف داي فقال له من أصبح عند بابه الصغير ابن

صندل، فهو باي المحال لما يعلم من ذكاء ابن صندل وكان إذ ذاك هرب إلى الزاوية فأصبح عند باب مراد فخدمه فاحتوى على المنصب وزاحمه رجب باي، واستخدم أولاً خماخم فلم يقم بأعباء المنصب كقيام ابن صندل فإذا خرج مراد بمحلة جباها على وفق المراد دون غيره وربما اشتركا.

وفي أيام محلة الجزائر كان كل واحد بمحلة وهرب غالب مماليك استاذه إليه فكان يستخلف حسيناً. ولما وقع عليهم في حملة الجزائر وعاد من سنته إلى محلة الكاف ساس أمورها على وفق مراده وكثرة الرؤساء مضرة لافتراق الكلمة ولم يزل يعلو وغيره يسفل إلى أن منته نفسه بأعلى المراتب فبعث إلى الباب العالي وجاءه التقليد من السلطنة وذلك في سنة إحدى وأربعين وألف.

وكانت فيه سياسة لم تكن لغيره إلى أن تم له ما أراد بحسن تدبيره وتنزل به عظام الأمور فلا يتضعضع لها وكان مغرى بقتال أولاد سعيد وتمزيق شملهم وكانت له القدرة عليهم إلا إنه لن ينفرد بتدبير البلاد لمشاركة الغير له فيها.

وفي آخر غزواته التي أجلاهم فيها وقطعهم وأخرجهم من البلاد إلى وطن طرابلس ولم يستقروا به وهي آخر محاله جاءه خبر المنصب وهو على مدينة صفاقس وتسمى باسم الباشا وتخلف لولده على المحال وباشر هو منصب الباشوات ولكن لم تصف له الأيام ومات من سنته ودفن في تربة بإزاء الشيخ سيدي أحمد بن عروس، نفعنا الله به، ثم نقله بعد ذلك بزمان طويل ولده الأسعد محمد باشا وجعله في تربتهم بالجامع الذي اخترعه وسمي به وجاء من أعظم المساجد وسيأتي ذكره بعد أن شاء الله تعالى رحم الله الجميع وتجاوز عن سيئاتهم إنه سميع مجيب.

محمد باي

من أحيا رسوم البايات في الديار التونسية وشيد معالمها في البلاد

الإفريقية وأظهر من أبهة الإمارة ما لم يظهره غيره وفعل ما لم يفعله ملوك بني أبي حفص في زمانهم ولا غيرهم الأمير الأمجد أبو عبد الله محمد باي بن المرحوم برحمة الله الأمير أبي الظفر مراد باشا رحم الله الجميع استقل بالأمر بعد وفاة والده وكان والده تخلى له عنها في حياته لما ترقى إلى الباشوية، فلما مات أبوه انفرد بالأمر وباشر الولاية بجنان قوي وقابل الرعية برفق وإحسان وقرب القاصي وقهر العاصي وهو إذ ذاك في عنفوان شبابه.

وكان رحمه الله معتدل القامة تام الخلقة أزهر اللون بديع الشكل لا يمتلي منه الناظر لحسن اعتداله، ولم يكن في زمانه أحد من أمثاله فيه حدة ولين وعقل وزين مثله كاتبه ووزيره الصغير بن صندل وكان كاتب أبيه من قبل وخليفته في السفر رمضان باي وحسين باي وجعفر باي ومصطفى باي استخلفه في آخر الأمر وكل من المذكورين له صيت وسمعة ومقام بين الأمراء ورفعة وهؤلاء هم المشهورون من مماليكه وخدمة ركابه ممن لا بد لكل واحد منهم أن يمتثل لأمره ويقف ببابه. وتخرجت من مواليهم عدة رجال، ممن باشر الإمارة وجباية الأموال، وغيرهم جمع غفير لو تتبعنا أسماءهم لضاق بنا القرطاس، وكفاه شهرة ما لهجت به البلاد وروته من أخبار الناس.

وكانت له أخلاق رضية، ونفس أبية، وفيه ذكاء مفرط ورأي مصيب، إذا أضمر شيئاً لا يبدي سره لأحد ولا يظهر عداوته إذا أراد المعاداة محباً لإظهار الفضائل بذلاً للأموال وربما يعطي عطاء من لا يخشى الفقر وعم إحسانه البعيد والقريب، وشهد له بذلك العدو والحبيب.

وكان مجلسه مجمع العلماء والفضلاء ويكرم أهل العلم والصلاح ويحب الغرباء ويود الفقراء ويستحسن أن ترى ثروته على أحبابه ويعجل بالإحسان لأهل حضرته وأصحابه وبمجلسه العلماء والأدباء ونفع بين يديه المباحثة وله مشارحة بفهمه الذكي.

وجعل لأهل مجلسه المرتبات السنية بحيث يعم الجميع بالأنعام

وجعل لهم دفتراً فيه أسماءهم ويعطوا على قدر مراتبهم وتجري عليهم عاداتهم من البر والغنم والبقر والتمر والتفاصيل والدراهم وغير ذلك مما هو من عاداتهم.

وكفاه فخراً أن العلامة أبا عبد الله محمد بن مصطفى الأزهري نزيل تونس كان يقول: ـ لو سئلت عن ثلاث لأجبت بلا ولو قطع رأسي ـ وقد تقدم ذكر السوءالين والثالث الموعود به ـ ولو قيل لي هل رأيت أكرم من محمد باشا لقلت لا ـ فكفاه مدحاً شهادة هذا العلامة التي بقيت في وجنات الطروس كالشامة. فإن قال قائل ـ ما صدرت هذه المقالة من الشيخ إلا لما غمره به من الإحسان. ولهذا وجب عليه أن يمتدحه باللسان والجنان. لقوله ﷺ ـ جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ـ وهذا الشيخ من كثرة ما أحسن إليه أطلق لسانه بالمدح وخلف هذه المقالة تروى عنه ـ قلنا له: ـ سلمنا لك هذه ولا نسلم لك غيرها مما هو مشهور. وإذا جاء الحق ذهب الباطل والزور. هذه خيراته باقية من بعده، وصنائع بر تفرقت بين الناس وحسنات اكتسبها بجده. والناس مطبقون على مدحه وقوة سعده. ولا يخلو أرباب الصدور في كل وقت من أصدقاء وأعداء، وهذه المحاسن شهد بها الصديق والعدو «والفضل ما شهدت به الأعداء» وسيتلى بعد هذا، إن شاء الله. ولو تتبعنا محاسنه لاحتجنا إلى تأليف مستقل. ولكن نأتي في آخر الفصل بما هو مشهور ويضرب به المثل.

ونرجع إلى الأول فنقول لما استقر بالأمر بعد والده كان المشارك له في المنصب رجب باي ثم سليمان باي وكانا لم يبلغا شأواً، ولم يجريا مجراه، إلى أن لحقا بالله وانفرد بنفسه.

وفي أيام مشاركتهما له في الولاية عاثت الأعراب في غالب الإقليم خصوصاً منهم زريعة الخبث والأصل اللئيم، أولاد سعيد، لا أسعدهم الله، لأن طبعهم الفساد في البلاد، ويهلكون الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، لأن أمرهم كان متشتتاً مدة من السنين، إلى أن ظهرت على أهل

تونس الواقعة المشهورة بين العسكرين سنة سبع وثلاثين، وقد مر ذكرها فقامت قيامتهم على ساق، وتمادوا في النفاق والشقاق، وغالب أوقاتهم جار على منهاج الضر، وبقيت نفوسهم الخبيثة في الكر والفر. وكان المرحوم مراد باشا مقاوماً لهم وحريصاً على تبديد شملهم فعاجله حمامه، ولم يبلغ منهم مرامه، وكانوا يلجأون إلى بلد الحامة ويتحصنون بها لأنها ساعدتهم في نفاقهم نحو سبعة أعوام فكانوا بها يتحصنون وإليها يلجأون وعرب إفريقية كذلك إلا إنهم أقل ضرراً من غيرهم وأولاد شنوف متغلبون على وطن الكاف إلى أن منّ الله تعالى بهذا الأمير فقطع دابرهم وألحق منهم الغني بالفقير. فخرج بمحلته الشتائية سنة إحدى وأربعين وألف. وشد أزر بلاد القيروان بعد ما كاد أن يقع بها من أولاد سعيد الخسف. واستوثق أمرها وأولى عليها مملوكه القائد علي الحناشي وكانت فيه فروسية.

ودخل بمحلته إلى بلد الجريد وخلص مجباه وظهرت همته ورئاسته وباشر أموره على وفق مراده. وتقدم أنه كان معه مشاركاً في وظائفه رجب باي إلا إنه لم تكن له فطنة. وإنما بلغ باسم أخيه من قبله.

وتقدم أن أهل تونس يذكرون أن ثلاثة من الرجال كانوا نجباء، وكل واحد منهم له أخ ومات الثلاثة قبل إخوتهم فلم يقم منهم أحد مقام أخيه رجب باي المذكور لأن أخاه رمضان باي كان في غاية الذكاء فلم يقم رجب مقامه، وإنما نال ما ناله بسابقية أخيه.

ولما مات خلف ولده سليمان فدخل بمخالبه بين معترك الفرسان فلم يتم له مراد، وانفرد المرحوم محمد باشا بأمور المملكة وأخذ في تمهيد البلاد، وقمع أهل الفساد، وأغرى بين أولاد شنوف وسلط بعضهم على بعض، إلى أن محا رسمهم من الأرض.

والتفت إلى الحامة فخرج إليها بمحلته سنة أربع وأربعين وألف وأرسل المؤونة في البحر والعسكر في البر وحشد إليها من جميع البلاد، وكانت على نفاقها سبع سنين وهي ملجأ كماقدمنا لأولاد سعيد. وكان

نزوله عليها يوم........[1] من السنة المذكورة فنصب عليها المدافع والمنجنيقات وحفر المتاريس وأمر بقطع النخل فقطعوا منه شيئاً كثيراً وحاصرها من كل جهاتها وداوم عليها الحصار وكان تقدم منه إنذار لهم مع المرابطين وأمنهم فلم يغن شيئاً فعند ذلك أقسم أنه لا يرتحل عنهم أو يحكم الله بينه وبينهم فناوشهم القتال وجعل العساكر نوباً في مقابلتهم وداوم بهم الحصار وضايق عليهم ومات من الفريقين خلق كثير، وجاء إليهم المدد من أخوانهم المتمردين فلم يجد نفعاً لكبير منهم ولا صغير، ومع ذلك كان يبالغ في الإرسال إليهم بالأعذار والإنذار ليقيم الحجة عليهم فلم يزدهم إلا طغياناً. كان لكل متمرد منهم شيطاناً.

وكانت الحامة هذه في غاية من الحصانة. ولأهلها خبرة بالحروب ومكانة، وهي في مكان منيع والنخل محدق بها، ولها خندق محيط بمأمن كل جهاتها. ولما نفذ القضاء دارت عليها الدوائر وكان المتعصبون يقولون لو مكث عليها عدة أعوام، لن يتيسر له بها مرام. والأقدار مخالفة للظنون، وما قدر الله به يكون. فداوم عليها الحصار، والقتال لا يفتر بينهما في الليل والنهار، وهم كل يوم في مدد مزيد، وتمرد من غواية شيطان مريد، والأمير يستخدم في الرجال، ويجود بالمال، إلى أن يسر الله بفتحها، وانقادت له بعد جمحها فقتلت رجالها، وسبيت نساؤها ونهبت أموالها، وبيعت أولادهم بيع الرقيق، وصبغت صخورها بدماء أهلها صبغ العقيق، وخرب المساكن، وأجلا منها الساكن، وكانت وقعة مشهورة، وأخبارها بين الناس مذكورة.

ولما تم له ما أراد منها، أمن الذين هربوا عنها، وأمرهم بالسكنى خارج البلد، وضرب أهلها بسيف العفو بعد سيف الحد، وأذعنوا لأداء الخراج، ودخلوا في طاعته فأجراهم على أحسن منهاج، وكان هذا الفتح أواخر ذي الحجة سنة خمس وأربعين وألف.

ولما سمعت بهذا الفتح جيرانها من البلاد العاصية، جاءته الوفود

---

(١) هكذا يوجد بياض بنسخة خطية وبنسخة مطبعية أخرى.

مستأمنين من البلاد القاصية، وشاع ذكره بين البلاد، وعم اسمه الحاضر والباد، وصارت له سمعة عند أهل النفاق، وطار خبر أخذ الحامة في الآفاق، لأنها مكثت نحو سبع سنين متمادية في ضلالها، واستصعبت عن غيره إلى أن أخذها وكان من فحول رجالها. وكان جبل وسلات قد شمخ باسمه في هذه المدة. فلما بلغه ما حل بالحامة لانت صخوره بعد الشدة.

ولما تم هذا الفتح رجع إلى حضرته العلية، وقد سارالرعب في قلوب الرعية، وعلم أن طالعه أخذ في الصعود، وطالع أعدائه في السعد الذابح وهو في سعد السعود. ثم تهيأ لأولاد شنوف وقاومهم بالكفاح إلى أن أنزلهم من صياصيهم، وقتل جل رجالهم وجلا باقيهم وجز نوا صيهم.

وما زال يتبع فلولهم واحداً بعد واحد إلى أن أفناهم ولم تبق منهم بقية، ومن نجا بنفسه ضاقت عليه الأرض وطلب منه التقية، وكانوا قبل ولايته متغلبين على الكاف ورعيته وهم أهل الفتنة بين العسكرين وقد مر بعض أخبارهم. وكان من تقدمه من البايات عاجزاً عن أن يحل بدارهم، إلى أن يسر الله لهذا الأمير ما لم يتيسر لغيره. وفتح له كل صعب ورزقه من خيره. واحتوى على ما كان بيد أولاد شنوف، وأجلاهم من مساكنهم وديارهم وأنزل من تبقى منهم منزلة الخوف. ولم يبق شيء من آثارهم. وكانت لهم سمعة في البلاد بين عرب إفريقية، وتحكموا في وطن الكاف مدة من الأعوام وجبوا الجبايات من الرعية. إلى أن فلهم، ودخلوا تحت أمره وأذلهم. فدانت له عند ذلك جميع العربان، وحلت بهم الفاقة ونزل بهم الهوان.

ثم التفت إلى أولاد تعيس الذين لم يكن لهم رئيس إلا إبليس. فأخذهم بمكرهم ولحق أولهم بآخرهم، إلى أن قطع الله دابرهم، فكر عليهم بغزوات متواترة، إلى أن جعلهم في الحضيض الأوهد رفع الله بما فعله بهم درجاته في الآخرة، فمارسهم المرة بعد المرة، وأثنى عليهم بمحاله الكرة بعد الكرة، إلى أن أذاقهم الذل والهوان، وفك ما بأيديهم من جباية

الأوطان، وحل بهم الصغار، وألزمهم أداء الدرهم والدينار، وصاروا يفزعون من انتسابهم إلى النسبة السعيدية، وإن سئل منهم أحد عن نسبته فرّ إلى النسبة اليهودية وتشتتوا بعد اجتماعهم، وركنوا لأداء الخراج بعد امتناعهم، وتفرقوا أيدي سبأ في الخافقين، وقضي الأمر وقيل بعداً للقوم الظالمين، وأمن الله البلاد والعباد، وقمع بهذا الأمير أهل البغي والفساد، وأمنت السبل في أيامه من الآفات العادية، وصارت الظعينة في أيامه رائحة غادية ولو لم يكن له من المزايا إلا قطع هذه الطائفة الرذيلة في أيامه لكانت له من أعظم الفضائل، ولو توسل بها في الدار الآخرة لكانت من أكبر الوسائل، ولم تقم لهم قائمة مدة حياته، إلى أن بعثوا من قبور الذل ولكن بعد مماته. عسى الله أن يقطع دابرهم، ويهلك أولهم وآخرهم.

ومن وقائع الباشا المذكور إدخاله عرب ورغمة في عمالته. وكانوا قبل ذلك يعدون أنفسهم من أجواد العرب فأدخلهم في طاعته، ونظمهم في سلك أهل جبايتـه، ولهم خبر يطول. ويعجز له الوصول.

ومن غزواته المشهورة ووقائعه المذكورة أخذه لجبل مطماطة وكان مستمراً على النفاق، فخرج إليه بمحلته سنة سبع وأربعين وألف وأقام فيه الحرب على ساق، فلازمه بالحصار، وضيق على أهله من جميع الأقطار، إلى أن سلموا له بأداء الخراج عن رؤوسهم. ورضوا منه بالأمان على أهلهم ونفوسهم، وكانوا قبل ذلك يعدون أنفسهم أنهم أهل حرب ومنعة. واستعصموا بجبلهم الذي له بين الجبال رفعة. وأهله البربر الذين كانوا من أهل جالوت، فسلط الله على آخرهم هذا الأمير كما سلط على أولهم طالوت، وبنى في جبلهم حصاراً، وجعل فيه أنصاراً، وألزمهم من الخراج ما طابت به نفسه مدد السنين. وعطف بعنانه وقابل قوماً آخرين.

ومن وقائعه المشهورة التي أذاقت أهل عمدون المرار، وفعل بهم ما فعل بغيرهم وألزمهم البوار بعد ما كانوا متحصنين بجبلهم ويصعب الوصول إليهم، ولا تسمح نفوسهم بشيء من الأداء إلا ما هان عليهم. لأن جبلهم في غاية الحصانة، ولهم به قوة ومكانة، فنزل عليهم بخيله ورجله، وضايق

بهم إلى أن دانوا له وداس جبلهم برجله، وسبى منهم النساء والأولاد، بعد ما قاتلهم وقتل منهم وأباد، ودخل جبلهم عنوة وقطع منهم الشدة والنخوة، وعفا عن بقيتهم بعد ما ذهل كل خليل عن خليله، وأجراهم كإخوانهم مجرى الأداء وسبيله، وذلت في أيامه العربان وألزم الصغار لمن كان له منهم شان. مثل أولاد أبي الليل الذين كانوا في زمن بني أبي حفص أهل حل وعقد، فأهانهم إلى أن سمحوا بأداء الماشية والنقد، وكذلك أولاد حمزة وأولاد صونة، وغيرهم ممن كانت له شوكة وصولة، ولازم مدة حياته في تتبع آثارهم. إلى أن محا ذكرهم وأخلى ديارهم، وهؤلاء ممن كان يشق العصا في السابق، فلازمهم الأداء إلى أن اتصل الأول باللاحق.

وهذه الطوائف ممن افتى ابن ناجي بتحريم مبايعتهم آلات الحرب. وكذلك البرزلي قال: عرب إفريقية أهل حرب. وكذلك الشيخ اللقاني ضرب بهم المثل قال: المحاربة من عرب إفريقية وبالجملة فإن ضررهم كثير، وهم من الذين لا يراعون آلاً ولا ذمة ولا ينبئك مثل خبير. فحسم الله هذه الطوائف الخبيثة في أيامه، إلى أن صار المسافر يتوجه حيث شاء ببضاعته يهز بأكمامه. وأمنت السبل والطرقات. وانقطع المتمرد والطغاة. ودانت عرب إفريقية ولزمهم الدين، واستمرت عليهم الجباية في كل حين وحان الحين.

ولما مهد رسوم عرب أوطانه، وجعل كل واحد منهم مشتغلاً بشأنه، التفت إلى عظماء مشائخ العربان، مثل علي بن عبد الصمد وولده من بعده أبي زيان فشاركهم في عربانهم. وأجلاهم عن معاقلهم وأوطانهم، وشتتهم في القفار، وأخلى منهم الديار، وأضاف دريد إلى رعيته، وأحسن للمحسن منهم وألزم الجاني بخطيئته، وركب منهم عدة من الفرسان وجعلهم من جملة رجاله.

ولما عزم على ممارسة قبائل العرب شرع في تزميل فرسانهم، فجمع منهم عدداً وجعل كل زمالة في فج من فجوج أوطانهم، ولكل زمالة رئيس من رجاله كالقائد حسن المنسب لحسين باي وهو أشجع رجاله وعقبه

موجود وهم جماعة من أولاده وأحفاده كلهم معدودون من فرسان العرب وسيأتي ذكرهم والقائد علي الحناشي مقدم زمانه أيضاً والقائد أحمد الرقيعي هؤلاء مشاهيرهم وغير من ذكر كثيرون وركب عدة رجال من عسكر زواوه يقال لهم الصبايحيه وجعلهم بركابه حيث سار يسيرون. وجعل صبايحية أخر وقرر سكناهم ببلد القيروان وجماعة منهم ببلد الكاف وجماعة ببلد باجة لتأمين الوطن فأمنت الطرقات في جميع بلاده.

ومن أشهر سعادته ممارسته لطاغية العرب في وقته الشيخ خالد بن نصر الحناشي، وكان خالد المذكور أشهرهم سمعة بين قبائل العرب وله منعة وعدة وقائع مع عسكر الجزائر عمر عمراً طويلاً ومارس الحروب وكان يتشامخ بأنفته على العمالة التونسية ويمتد في وطنها لأنه مجاور لها ويتعرض إلى محلتهم فيستكفون شره ويهادونه بالهدايا إلى أن قيض الله له هذا البطل الهمام فتمادى على ممارسته إلى أن هزمه سنة أربع وخمسين وألف بمكان يعرف بصراط، وهي واقعة مشهورة وكان تعرض على الوادي وحال بين الماء والمحلة فزاحمته فرسان الرجال، وكان أزعمهم في ذلك اليوم القائد حسن وظهرت منه شجاعة قوية ضربت بها الأمثال، وهو أول من باشره بالحرب فرحل عن الماء عنوة بعد قتال شديد وانهزم هزيمة شنعاء ولم تقم له بعد ذلك قائمة مدة حياته وأخذ يلاطفه ويهاديه ويهادنه ولم يكن له ذكر بعد ذلك، ولم يمت الباشا حتى خدم ركابه أولاد خالد المذكور ووقعوا ببابه واحتاجوا إليه.

ولما سارت هذه السمعة بين القبائل من العرب خافوا من سطوته فأذعنوا بالطاعة وجاءته الوفود من كل مكان وهادوه على قدر مراتبهم وأتوه من جميع الجهات بالتهنئة ودانت رعاياه وبلغ مناه وأقفل إليه شعراء العرب وشعراء الحواضر وأنشدوه أشعارهم وأجازهم الجوائز السنية وانتشر ذكره في الآفاق إلى أن طبق الوجود ولم يبق حي من العرب إلا وعنده خبر من سعادته فتمكن كل متمرد بعد ذلك وود كل شيخ من العرب أن يكون مملوكاً، وكذلك شيخ مشائخ العرب الذين كانوا في ناحية الغرب

الشيخ بن علي دخل في سلك الجماعة. ولم تسعه إلا الطاعة، وكان من المتمردين على عسكر الجزائر وهزمهم مراراً عديدة. فمن سعادة الباشا المرحوم أنه كان يتصرف عن إذنه مدة حياته، وأوصى بأولاده إليه بعد مماته، فكان لا يتشيخ أحد منهم إلا بعد مشورته. وإذا أصابهم ضيم دخلوا في عمالته.

ولما دانت له جملة هذه الجبابرة وصفا له زمانه حمل رعيته على أحسن طريق، وانقطعت قلوبهم مع بعد أوطانهم من خوفه إلى أن صار كل مسافر لا يحتاج في سفره إلى رفيق، وربما سافر عدة أيام وليس معه إلا زاده وبضاعته ولم يلق من يتعرض له في الطريق وامتدت قوافل المسافرين في جميع الأفاق، ولم تكن مدة حياته قبيلة من العرب تميل إلى النفاق.

ولما ساعده القدر على مراده حط بكلكله على من أراد أن يكون من أضداده. وذلك أن جماعة من أكابر الحـاضرة والقواد كانـوا يريـدون التنقص من أبهته، ويتطاولون إلى رتبته، والقدر يقول له أنت أمير دولتنا. تصرف بما أردت إنك بأعيننا. فرد عزمه إلى أهل البلد وبدا بأكبر قوادهم القائد عبد الله بن خوران وهو إذ ذاك قائد القواد فصادره واستصفى ذخائره وأمواله بعد ما كان منحرفاً عليه، فدخل في طاعته وجنى بين يديه، وممن كان يأنف من مقامه، ويأبى أن يكون من خدامه، الشيخ مصطفى شيخ الأندلس مكث عدة سنين في انحرافه وخلافه فأذاقه هواناً. وألبسه من ثياب الذل ألواناً، واستصفى جميع ما كان له ومات طريداً في غير وطنه. وكذلك شيخ عرب طرود الشيخ صالح أخذه مثل ما أخذ غيره. ودمر ذكره واستصفى خيره، وتم له الأمر وما بقي له منازع في دولته، وهلك عدة رؤساء ممن كانوا في خدمته، مثل الصنادلة الذين هم كتابه وأبي القاسم القفصي وعلي هوا كل هؤلاء من المخولين في نعمه لما كفروا بها أخذهم أخذة رابية واسترجع منهم ما كانوا اقتنوه من أمواله ولم يبق في المملكة إلا من كان مطاعاً له ويتصرف بأمره ويقف عند حده ونال سعادة لم ينلها أحد ممن تقدمه من الماضين، وجلس في رتبة تضاهي رتبة بني أبي

حفص وكان يعد من السلاطين، وتصرفت المملكة عن نهيه وأمره، ونال ما لم ينله أحد في دهره.

ولما صفا له الوقت من أقرانه، وخلف كل أحد مشتغلاً بشأنه. نادى لأهل زمانه هل من مبارز فلما لم يجبه أحد حمل الدهـر على كاهله وتصرف كيف شاء، والله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء، وكانت محاله السعيدة إذا خرجت كعادتها لم يكن لأهلها تعب وكأنهم يتنزهون في العمالة والأموال تجبى بلا تعب وأكثر مغيبها خمسون يوماً.

وهو أول من اتخذ قاضياً لمحلتـه كعادة بني أبي حفص واتخـذ الكروصة لرفاهية السفر وغالب أحكامه لا تخرج عن أحكام الشرع إلا ما تدعو إليه الضرورة من قمع فساد أو سد ذريعة مما يستحكم بالقوانين. وتخرجت من مواليه عدة زعماء لا يحصى عددهم كل واحد منهم يعد من الملوك وجاءته التشاريف الملوكية، والأوامر الخاقانية وطار صيته في البلاد الرومية، وبعث الهدايا الجليلة إلى الأعتاب السلطانية، وهاجر إلى حضرته العلماء والأدباء وجاءه كل طالب بر حتى من البلاد الحجازية. وانتشر ذكره في جميع الآفاق. وهادوه من مصر ومن الشام ومن العراق.

ولما تم له ما أحب من دهره تاقت نفسه إلى الرتب الملكية، وأراد أن ينتظم في سلك الفرائد السلطانية، فطلب من الباب العالي منصب الباشوية، فبعث هدية حافلة لم يدخل من الغرب مثلها للديار الرومية، وعرضت على الحضرة العثمانية، فسيرت له الخلع الخاقانية، وكانت هديته في سنة ثمان وستين وألف صحبة ابن كلمان فكان يضرب بها المثل وبلغه التقليـد في أواسط رجب من السنة نفسهـا ودخل إلى الحضـرة بشعار السلطنة. وكان يوم دخوله يوماً مشهوداً تباشرت به أهل البلاد وباشر الولاية على أكمل حال ولم تقع في أيامه مظلمة مثل ما كانت في زمان غيره، وشمل الناس بعدله وخيره، ومدحته شعراء وقته، وأثاب كلاً منهم عن قدر مرتبته، وتمشت المرتبات على أحسـن حال وكان الناس في أيامه في هناء لم يروا مثله وأيامه عدت من حسنات الدهر تقبل الله منه سعيه وفعله.

واستمر في منصب الباشوية إلى سنة ثلاث وسبعين وألف ثم بعث إلى الباب العالي واستعفى من المنصب وحمله فقبل منه وعفا عنه وكان خليفته بالباب في رتبة عالية وله الشفاعات عند أهل الدولة وكل ذلك بهمة أستاذه وبعد انفصاله عن الباشوية طلب الراحة لنفسه وكان سابقاً تخلى عن جميع بلاده لأولاده وقسم بينهم المناصب فقدم ولده الأكبر مراد باي على المحال وخراجها وجعل بيد أخيه الذي يليه وهو أبو عبد الله محمد باي سنجق القيروان وسنجق سوسة والمنستير وصفاقس وجملة رعاياهم. والمذكور هوباشا زماننا، وسيأتي له خبر بعد هذا وقدم ولده حسناً على سنجق إفريقية وكلهم تسموا في حياته وتلقبوا بألقاب البايات وكل واحد منهم له صيت وسمعة ولم يخرج من الدنيا حتى رأى ما سره من بنيه وبني بنيه وتلقب بنو بنيه بالبايات في حياته، ولا زال متمادياً في أفعال البر والإحسان والأخذ بقلوب أهل العلم والصلاح ومن أصابته نائبة من أهل البلاد يلجأ إليه، فيأخذ بخواطرهم ويتجاوز عن هفواتهم، إلى أن لحق بالله تعالى وكانت وفاته رزءاً على أهل تونس سامحه الله بمنه وكرمه.

ولنذكر نبذة من مآثره التي بقيت بعده على سبيل الاختصار ولو تتبعناها كلها لاحتاجت إلى مجموع مستقل فمنها تشييده منارة الجامع الأعظم ببناء ضخم وجعل في أعلاها درابز تقي المؤذنين الحر في الصيف والبرد في الشتاء وجعل رخامة تقابل الناظر إليها. ومزبور اسمه عليها. وتاريخ البناء بأبيات من إنشاء الأديب الشريف السوسي.

ومنها الحنايا المجلوب عليها الماء من مسافة بعيدة من آبار قصة طاهى بها الحناية القديمة في ضخامة البناء، وأنفق عليها أموالاً لا تدخل تحت حصر وتمم بناءها في عدة سنين وأدخل ماءها إلى المدينة وفرقه في أزقتها وأوقف عليها أوقافاً للقيام بإصلاح ما يتعطل منها فانتفع بها الناس إلا إنها في هذا الوقت تعطل بعضها من شدة الفتن.

ومن حسناته إنشاء المارستان بحومة العزافين وفيه عدة بيوت في أسفله وأعلاه للمرضى وجعل له أوقافاً للقيام بلوازم الذين يحلون به منهم

وخدمة يخدمونهم وطبيباً ينظر في علاجهم وما يحتاجون إليه من أشربة وأدوية ومن طعام وكسوة وفراش وغير ذلك وجعل له ناظراً ينظر في أوقافه وهو اليوم جار على أحسن أسلوب تقبل الله منه.

ومن حسناته بناء الجامع الذي بإزاء تربة مقام الشيخ سيدي أحمد ابن عروس نفع الله به وكان موضعه دوراً فاشتراها من أربابها بثمن طابت نفوسهم به ومبـلغه شيء كثير وبناؤه في غاية الحسن والضخامة بحيث لم ير في المغرب أسر منه وضخامته تنبيء عن ضخامة بانيه وأوقف عليه أوقافاً جليلة لإمامه وللمؤذنين والقراء وما يحتاج إليه وجعل فيه مدرساً للعلوم الشريفة وجعل إمامه من السادة الحنفية تقبل الله سعيه، وجعل فيه تربة بديعة وهي لم تكمل إلى اليوم ونقل إليها جثة والده وقبر هو بها ومن مات من أهل بيته وبقيت فيه أماكن لم تكمل إلى زماننا هذا قابله الله بإحسانه.

ومن محبته في الفعل الجميل ما سارت به الركبان افتكاكه المراكب التي أخذت للجزائريين من أيدي النصارى المرة بعد المرة بمال جزيل، وأنعم على المأسورين وكساهم وأحسن إليهم وصرفهم إلى بلادهم وعدة أسارى من سواهم بعث بطلبهم من بلاد الكفر وخلـصهم، وكذلـك إحسانه الذي كان لأهل القيروان في كل سنة يفرق بين ضعفائهم وأهل البيوتات منهم.

ومن سخائه وعلو همته أنه سمحت نفسه في يوم واحد بما قيمته مائة ألف دينار، وهي الواقعة التي جرت بينه وبين سليمان باي عند محاسبته إياه، وأخذ منه الغلياطة والزندالة والسانية التي كانت لبني أبي حفص في رأس الطابية فسمح بالجميع لأحمد خوجة الذي كان سردار العسكر في ذلك الوقت.

ومن المآثر التي بقيت من بعده ما أحياه من منازل باردو وشيد بها القباب الرفيعة وزاد على ما كانت عليه في أيام الحفصيين، فمن شاهدها حكم بعلو شأنه على من تقدمه وكان موكبه بها كمواكب السلاطين ويحضر ـ

مـوكبـه في سفـره، وحضـره جمـاعـة من المغنين واللاهين والعلمـاء والمتكلمين والشعراء والأدباء ويجلسون في مجلسه على طبقاتهم ولهم جوائز سنية ومـرتبات سنوية تزيد على الخمسين ألفاً دون ما يتبعها من هدايا وملبوس، وهذا غير ما يصرفه في عساكره وإصلاح شأنه وما يـحتاج إليه أهل بيته وغلمانه وحشمه وأتباعه ومرتبات أجناده وهذا شيء لم يسمع به لأحد في إقليم المغرب.

وبعث بصدقاته إلى الحرمين الشريفين وجاءته جماعه منهما، فأحسن إليهم وكان فضلاء الحضرة يحضرون محله وقت إقامته بتونس وجعل لأهل القيروان صدقة سنية وكان يميل ببره ورأفته عليهم ومن أهل سوسة من كان يفد إليـه في غالب السنة. ونال وجاهة عنده مفتياها الشيخ أبو العباس أحمد عرف العبلي والشيخ أبو عبد الله محمد عرف العروي وهو شاعره ومادحه له فيه وفي ولده القصائد الطنانة. وكان أديب وقته وشاعره من غير مدافع، وكان يجله ويحسن إليه ويأنس به. وللشيخ المذكور ولد نجيب قدمه والده في حياته للفتيا وكان يروي مسند البخاري بحضرة والده في مجلس الباشا في السنة التي مات فيها وقد ابتدأ به مرضه فكان يحضر الاستماع للتبرك بالحديث الشريف وبه ضعف وهذا من حسن نيته بحيث ختم عمره بهذا الختم الشريف، ختم الله له بخير الأعمال. وربما نأتي له بمحاسن أخر في غير هذا الموضع عند ذكرنا محاسن تونس وخاتمة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ومات رحمه الله في شـوال سنة ست وسبعين وألف وحمـل على الأعناق وكان له مشهد عظيم ودفن في تربة والده في جامعه الذي بناه وكانت وفاته رزءاً في المدينة سامحه الله وعفا عنه.

مراد باي

ومنهم الأمير الضخم، وصاحب الفخر الأعم، قامع المتمردين من أهل الفساد، المرحوم برحمة الملك الجواد، أبو النصر مراد باي انفرد

بتدبير الأوطان بعد وفاة والده المرحوم وكان تخلى له عنها في حياته ولما توفي والده تم له الأمر.

وكان صدراً من الصدور تام القامة بديع الشكل أشهل العينين واسع الصدر بعيداً ما بين المنكبين علامات الملك ظاهرة على شمائله من رآه أدركته هيبته منفرداً بتدبيره لا يتكل على أحد قد تربى في نخوة الملك عن والده وله سطوة وصولة قامعاً للأعراب لم تقم لأحد منهم قائمة في أيامه متفقداً لأحوال رعيته قاهراً من عاداه، مهد البلاد كتمهيد والده وأجرى الأمور على عادته، يحب الصيد والقنص ومكابدة صهدات الخيل وهي عنده من أغنم الفرص، ولم تجر في أيامه حادثة تتكدر منها النفوس إلا الواقعة المشهورة التي يعبر عنها بواقعة الملاسين، والتي قبلها الواقعة في تغيير دولة شعبان خوجة لما أراد الله تعالى من تغيير النعم، وبهذه الواقعة انفتحت أبواب الفتن.

وابتدأ أهل تونس الشدة والبأساء وصودروا بالمحن، ونذكر بعضهما على وجه الاختصار، وذلك أن الباي المذكور لم يكن له اهتمام إلا بأمور الرعايا التي في الأوطان، ومدبر المدينة وأهلها على مثل ما سبق هو الدولاتلي والمستولي في هذه المدة الحاج شعبان داي وقد تقدم ذكره فأغراه بعض الأعداء من أتباع الباي ومن كان تحت نظره.

وقد سولت له نفسه أن يقوم مقامه فاتفق مع جماعة وحسنوا للداي المذكور ما لم يكن حسناً ولا راد لأمر الله، واتفقت آراؤهم الفاسدة على الفتك به وذلك موجبة الحسد لما خوله الله من خيره وأطلع على ما أضمره من الشر وكتب إليه بعض أصدقائه بالخبر، فلما ثبت عنده ما أضمره رجع بمحلته كعادته، وكتم سره ولم يظهره إلا لمن يثق به من بطانته.

ولما قرب من المدينة بمرحلة خرجت وجوه الناس كعادتهم إلى لقائه، وخرج ابن أحمد خوجة وأحمد بن القائد جعفر وهو أحد مماليكه وثبت عنده أنهما أصل الفتنة وهما اللذان أغريا الداي، فلما سلما عليه قبض عليهما ورجع بهما إلى محلته، فلما شعر الداي بذلك علم أنه

المطلوب فبعث جماعة من أكابر دولته يعتذر إلى الباي وأنه ما أراد شيئاً وأنها أخبار كاذبة وحلف بأيمان والأمر تقرر بخلاف قوله.

فلما وصلوا إلى المحله التقى بهم وأعلموه ما أرسلوا به له فأخبرهم بدلائل قاطعة فاتفق معهم على خلعه فخلعوه بين يديه، وقدموا هنالك من أراد وهو الحاج محمد منتشالي وبايعوه بين يديه ورجعوا به إلى تونس، وعند وصولهم القصبة دخلوا على الداي الحاج شعبان وخلعوه وأخرجوه وجلس منتشالي مكانه وكفاه الله شر ما أرادوه، ودخل إلى حضرة تونس مؤيداً مجبوراً فخافته نفوس أعدائه وتصرف في البلد بنفاذ الكلمة وتيسر له ما لم يتيسر لآبائه. وبعث بابن أحمد خوجة إلى بلد تستور وحبسه هناك ففر من محبسه وابن القائد جعفر أرسله إلى بلد الجريد فكان ذلك آخر العهد به.

وهذه الواقعة سنة ثلاث وثمانين وألف ولما اطمأن بحضرته أحسن إلى وجوه أهل الدولة وفرق فيهم أموالاً واستجلبهم وطيب خواطرهم واطمأنت نفوسهم والتجأ إليه محسنهم، وخافه مسيئهم وتصرف كيف شاء ونفذت الأمور على ما أراد.

وخرج في السنة المذكورة كعادته إلى بلد الجريد لجباية الخراج فجاءته الأخبار أن أهل طرابلس وعسكرها عصوا عن باشاهم وحاصروه في قلعتها إلى أن مات بها، وأنه أوصى بأولاده إلى الباي المذكور فسار إلى طرابلس ليكشف الخبر فخرج إليه عسكر من طرابلس فأعذر إليهم وحذرهم وأنذرهم فأبوا إلا قتاله، فقاتلهم وقتل أكثرهم وأسر باقيهم فعفا عنهم، وجاءته مشائخ البلاد والمرابطون وطلبوا منه أن يرجع عنهم ولا يتعرض لأحد بمكروه فقبل منهم ورجع إلى بلاده.

وانتشر الخبر فخافته نفوس أعدائه، وأضمر له أهل الشر في قلوبهم داء فعجل لهم بدوائه، وذلك أن جماعة من العسكر زرع الله في قلوبهم الحسد على ما رزق من النعم، وأرادوا المكر به كما فعل الذين من قبلهم فقوبلوا

بالنقم، فاتفقوا في غيبته هذه ودخلوا لقصبة البلد على حين غفلة وخلعوا الداي بها واجلسوا عوضه داياً آخر وهو الحاج علي لاز وقد مر ذكره وتعاقدوا بينهم على المكر بالبايات جميعاً ويوم فعلتهم كان يوم الثلاثاء وهو يوم دم وأول يوم من الحسوم، فأيقنت أهل العقول بإراقة دمهم، وحكمت بحسمهم.

ولما فعلوا ما فعلوا خرج المكرم محمد باي ولحق بأخيه واتـزر بعضهما ببعض ورجعا إلى بلد الزوارين من ناحية الكاف، وبعث الحاج علي لاز يخادعهما فلم يفده شيء فعند ذلك أمر ان تنهب ديار البايات فأخذوا من متاعهم ما قدروا عليه وصارت هرجة في المدينة، وخرج إلى الباي جماعات ممن ينتمي إليه وكره الناس هذه النازلة لما وقع بسببها من الفساد في المدينة واستعظموا الأمر.

ولما فعلوا هذه الفعلة قدموا على أنفسهم محمد آغا وجعلوه مقام الباي، وركب في الأسواق وطيف به وجلس في بعض منازلهم وأخذ يستعد لحربهم، وبعث إلى طائفة من العربان واستنصر بهم وخرج بمحلة ونزل بالملاسين وبه سميت واقعة الملاسين، وهو المكـان الذي في طـريق سيجوم فبعث إليهم الباي يحذرهم على فعلهم فلم يرجعوا عنه لأنهم جماعة من أشرار العسكر ورؤساؤهم لم تكن لهم عقول للتمييز، وغلبت أشرارهم أخيارهم فبعث الباي إليهم بعثاً بعد بعث فكانوا يخرجون كل يوم إلى خارج البلد ويستنفرون معهم من هو على رأيهم وجاءتهم مشايخ العربان وسخروا بهم وهونوا عليهم الأمر وأخذوا منهم دراهم وثياباً على الرحيل، فلم يجدوا من يحملهم فلم تكن إلا أيام يسيرة حتى أقبل الباي إليهم بأجناده وزموله ونزل بمقربة من سيدي علي الحطاب وتأهب لقتالهم، فلما سمعوا به استنفروا بقية العسكر وخرجوا إلى المكان المذكور وأخـرجوا مدافع كانت معدة لهم وتقدموا إلى مكان يعرف بعقبة الجزار، فطلعت عليهم الخيل من ناحية الباي وكان الباي في مراده إبقاء الحرب إلى غد فلما التقى الجمعان وتناوشوا القتال لم تكن إلا ساعة من نهار حتى ولوا على أعقابهم منهزمين، وأخذت مدافعهم وأمتعتهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة

لم يسمع بمثلها فيما تقدم، ومن نجـا منهم دخل المدينة والتجأ إلى القصبة بقية الجماعة وأغلقوا عليهم الأبواب وتحصنوا بها.

وهذه الواقعة كانت يوم الجمعة في النصف من صفر سنة خمس وثمانين وألف ومن غد أصبحت القصبة مغلقة الأبواب وأهل البلد في حيرة لم تكن في حساب، وعاثت الأعراب في أطراف البلاد وكان الخطب جليلاً، ويوم الأحد قدموا داياً آخر وهو الحاج مامي جمل وبعثوا أكابر العسكر إلى الباي يعتذرون إليه فقبل منهم وأمرهم بإخراج المفسدين من بينهم فبعثوا إلى الجماعـة المتحصنين بـالقصبـة فخـادعـوهم إلى أن أخرجوهم، ومشوا إلى زاوية الشيخ سيدي محرز فلم يغن عنهم فأخرجوا منها وقتلوا. وتتبع الباي كل من ركن إليهم ولأفعالهم وقتل أكثرهم وما نجا إلا أقلهم واسترجع ما نهب من أمواله إلا ما قل.

وهذه الطائفة فعلت الأوابد وأفسدت وخربت ولم يكن فيها صاحب عقل وكادت أن تخرب البلاد لولا أن تداركها الله بهذا النصر. وكانت هذه الواقعة عبرة لأهل العصر. وتدارك الباي المذكور أحوال البلاد فصرف عنها العرب الذين أتوا معه فردهم إلى أوطانهم وأمن الناس على ما بأيديهم، وكفى الله المؤمنين القتال وأقام بمنزله في باردو وأخذ يتتبع أهل الجنايات إلى أن أفنى بعضهم وأجلا بعضهم وكتب أوامر وبعثها مع جماعة من كبار العسكـر إلى الباب العـالي وجاءه الجـواب على مقتضى مـراده، ومن هنا زادت صولته وعلت همته وسافر في سنته إلى افريقية كعادته والأمور الإحكامية تنفذ في الحضرة بأوامره ومشورته وزادت همته على من تقدمه من أبيه وجده.

وفي هذه السنة أخذ أهل وسلات في الشقاق، وأعلنوا بالنفاق، وكان قد لجأ إليهم أبو القاسم الشوك، لأنه خاف من سطوة مراد باي لأنه تحقق عنده أنه كان ممن وانس عليه، وساعد بعض أعدائه سراً وكاتبه ومال إليه، فخاف على حشاشة نفسه، واعتصم بالجبل مع أبناء جنسـه، لأن هذه الواقعة المذكورة كشفت أحوال كثير من المفسدين، وأظهرت خفيـاتـهم الباطنة ففعل بهم ما فعل بقوم آخرين، وكانت لها سمعة بين أهل البلاد

الغربية، واتصل ذكرها بالبلاد الشرقية. وكانت مدحته على ذلك بقصيدة داليه فجاءت بسعادته على وفق المراد، وقرئت بحضرته على المسامع الشريفة وحليتها باسم مراد. وهي أزيد من مائة بيت استوفيت فيها الواقعة من أولها إلى أخرها. وأظهرت اسمه واسم أخيه وولديه وجعلتهما واسطتي جواهرها، وأول القصيدة من محاسن ما يذكر بين الناس، وها أنا أذكر شيئاً منها كما أذكر اسم الممدوح ولا بأس، أولها:

زمان الصبا هل له أن يعاد ... وإن كان ماضيه لا يستفاد
وهل للشبيبة من رجعة ... تقابلني بعد ذاك البعاد

وما زلت مستمراً في تغزلها وشكاية الدهر وما فعلت الأيام بأمثلها وتخلصت إلى الممدوح بقولي: -

ولله من عصية رفقتي ... بعدم ركاب وعدم المزاد
يسائلني بعضهم في المسير ... إلى أين قلت لقسم يراد
ونطقته بعض ما في الضمير ... وشاورت كلاً على الانفراد
فقالوا نوم لبعض الملوك ... فقلتم أصبتم فهذا مراد
بتونس أنسها قدره ... فصارت كما قيل ذات العماد
أمير جيوش محال الهنا ... ورب الثنا لجميع البلاد
له همة بلغت لسهما ... وصورته عن ظهور الجياد
إذا ما علا أظهر الصافنات ... يزحزح في الأرض صم الجماد

ومنها:

أيا ملكاً بين الملوك ... وللضد والمال جمعاً أباد
فلو عاش كسرى لهذا الزمان ... أطاع وألقى إليك القياد

ومنها في ذكر ولديه النجيبين:

وللفرقدين به نسبة ... فلا تنس ذكر الكرام الجياد
محمد تحمد أوقاته ... علي أخوه علي النجاد
هما كاليدين وكالمقلتين ... وكالنيرين لنفع العباد

ولولا خوف الإطالة لأتيت بها عن آخرها. ومدحت بقصيدة لامية الأمير الأسعد أبا عبد الله محمد الحفصي وأتيت بما يليق بكل واحد منهم وحصلت الجائزة من الأخوين. جازاهما الله بثواب الدارين. ولكل واحد مآثر وحسنات تتلى، وكلهم مستحق المدح والمدح لهم أولى، والله تعالى هو المسؤول أن يذهب عن جميعهم الضير ويقيهم الآفات، ويلهمهم الرشد في الماضي والحال وما هو آت.

ولنرجع إلى بقية أخبار المرحوم مراد باي، فلما تحقق عنده نفاق الجبل، أخذ في استعمال المكر به والحيل، وكاتب الشوك يخوفه ويحذره وهو متماد على نفاقه إلى سنة خمس وثمانين وألف حيث خرج إليه بمحلتين عظيمتين واستنفر جمعاً عظيماً من أهل البلاد وخرج أخوه معه بمحلة من صبايحية ونازل الجبل وأداروا به من كل فج وبعثوا إلى أهله جماعة من الفقراء والمشائخ فلم يتفق لهم طاعة فعند ذلك أمر بقطع أشجارهم وضايق بهم الحصار إلى أن دهمهم وحل بدارهم ودخل الجبل عنوة، وقطع منهم النخوة، وفر الشوك أمامه بعد قتال شديد، وقتل نفسه بيده وجيء برأسه وما ربك بظلام للعبيد، وكان هذا الفتح في شهر صفر من السنة المذكورة، ورجع بعساكره ومحلته المنصورة.

ويوم دخوله إلى الحضرة عد من حسنات الأيام، وعام سعيد على أهل تونس يفتخرون به على الأعوام، ودخلت المحال على كرتين، وقسمها بين ابنيه الإثنين، دخل ولده الأكبر المولى محمد باي بالمحلة في أول يوم ومن غد دخل أخوه المولى علي باي، وهي أول محلة دخل بها، وظهرت عليه ذلك اليوم مخائل الإمارة والبها، ووقع للناس الفرجة في يومين، وعوذت الناس الأميرين الإثنين بثاني اثنين، ونشرت على رؤوسهما الأعلام الخاقانية وضربت الطبول العثمانية، وكانت هذه الأيام من تمام السعادة، وبها ختمت حياته إلى أن ختم الله له بالسعادة، وهذه آخر سفراته، وآخر أيام حياته ولم تطل له الأيام من بعد، ونقدته من بين أقرانه والأيام مولعة بالنقد.

وتوفي بمنزله السعيد بباردو في العشر الأواخر من جماد الأولى سنة ست وثمانين وألف، وحمل على الأعناق وأدخل الحضرة ودفن في تربة أبيه وجده بجامعهم المشهور، وانفرد بعمله بعد ما كانت عامرة به المنازل والقصور وكانت جنازته حافلة وغلقت الأسواق وبكت عليه الناس، وبموته انفتح الحزق وجار على أهل البلد الشر والبأس. عسى الله أن يرد كل خائف إلى مأمنه، ويلهم ولديه المتولي منهما إصلاح وطنه إنه مجيب الدعاء.

ومن محاسنه، رحمه الله تعالى، إنشاؤه مسجداً ببلد باجة من أحسن المساجد وجعل إمامه من الطائفة الحنفية وأوقف عليه ما يحتاج إليه، وكذلك مدرسته بديعة الشكل عند باب الربع بمدينة تونس واشتهرت باسمه يقال لها المرادية، وبعضهم يقول لها مدرسة التوبة لأنها كانت مسكناً للأجناد قبل بنائها ويقع فيها الفجور، فغير رسمها الأول وجعلها لتلاوة كتاب الله والعلم وبها إمام ومدرس وعدة بيوت للقاطنين بها، ولهم مرتبات وأوقف عليها عدة حوانيت بإزائها، وأوقافاً أخر بحيث تكمل جراية أهلها، وسئلت عن تاريخها فجاء بالجمل، مدرسة علم أثابه الله على ما فعل.

ومن فخامة قدره، ما شاد بين الخافقين بذكره. الوليمة العظمى التي صنع لولده الأمجد مولى الفخر الجلي والقدر العلي. أبي الحسن المولى علي ولأخيه حسن باي، أي أخي مراد باي كانت من عجائب الدهر، وتذكرة لأهل العصر، ضاهى بها الولائم السابقة لأبيه، وأربى في التجمل كعادة أسلافه وزاد فيه، وكانت سنة ثمانين وألف واتفق الناس أنهم لم يروا مثلها إلا فيما سبق لأبيه وعليه الإجماع حصل، وعلموا أن هذا الفرع من ذلك الأصل. ختم الله لنا ولهم بالسعادة، وأثابهم الحسنى على صنيعهم الجميل وزيادة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

ومن البايات الذين حصلت لهم الرئاسة وحصل الإجماع على تقديمهم إلى أن دخلتهم المنافسة فقاس كل واحد منهما ما قاسى، وهما الأميران

الأجلان الأخوان الشقيقان اللذان رضعا لبن السيادة من ثدي واحد. ولم يكن لذي عقل أن يفضل واحداً على واحد، إلا أن لله في خلقه أسرار، ويعلم ما جرحتم بالليل والنهار، ولولا قدر الله الذي سبق في علمه، لم يكن واحد منهما أن يتزحزح عن رتبته ورسمه.

ولنأت بنبذة مما وقع بينهما إلى أن منّ الله تعالى على أهل الحاضرة بمن صلح بينهما، وذلك يوم وفاة المرحوم مراد باي، كان ولده الأنجد أبو عبد الله محمد وهو أكبر ولده في المحلة كعادته لأن والده كان ينوبه في حياته وشقيقه أبو الحسن علي حاضر لوفاة والده، فلما سار إلى رحمة الله اتفق أهل الحل والعقد على تولية الإثنين لأنهما كالنيرين ولا فرق بينهما ولا فضل لأحدهما في السياسة والتدبير. إلا كما يقال في المثل فضل الكبير على الصغير فسيروا له صحبة أخيه جماعة من أغوات العسكر، وصحبتهم خلع سلطانية وأوامر شريفة بولايتهما جميعاً، وقرئت بالمحلة على العسكر ولبسا التشاريف وضربت الطبول ونشرت على رؤوسهما الأعلام الملوكية وتباشرت الناس بهذه الولاية المتجددة.

فقام المكرم محمد باي بالأمر أحسن قيام، واستوفى خلاص رعيته على التمام، ونفذت الأوامر على وفق مراد الأخوين، واستوفيا ما كان على الرعية من الدين، ورجعا إلى حضرتهما في شهر رجب من السنة، فلما قربا من المدينة خرج إليهما الناس على العادة للتسليم عليهما واجتمع بهما من لا يخشى الله وألقى لهما كلاماً باطلاً انفعلا منه وكادت أن تكون فتنة لولا لطف الله، ومن غد دخلا في موكبهما على العادة ولما حلا بدار عزهما دخل المكرهون بينهما بالنميمة، وأظهروا لكل واحد منهما النصيحة، وأغروا بعضهما على بعض وكان بنيان الفتهما على أساس فأرادوا أن ينقض ففتح بينهما باب الفتن.

وجرت بينهما مخاصمات في السر والعلن، وكل منهما يدعى أنه المبغي عليه، وأراد كل واحد منهما أن يعلم ما له وما عليه، وطلب المكرم محمد باي أن ينفرد بالأمر ما كان في زمن أبيه عليه، وطلب أخوه

المكرم علي باي أن يكون مشاركاً له فيما لديه، وأبى كل منهما أن يسلم الأمر لغيره فجرت بينهما مشاجرة وتخاصم، وآل أمرهما إلى التحاكم، وحضرا بالديوان المنصور وتنازعا بين يذي أكابر العسكر وكايد بعضهما بعضاً.

واتفقا أن يسلما الأمر إلى عمهما الأكبر فرضيت جماعة أهل الديوان بذلك وقدموا عمهما، وجعلوا بيده التصرف في الحضرة والممالك فخلعت عليه خلع الولاية وركب بشعار السلطنة ونادى المنادي في البلد وأعلم الناس بولايته فجلس مجلس حكمه، وخرجت الأوامر باسمه.

.مراد باشا

وهو الأمجد الأنجد المولى أبو عبد الله محمد الحفصي ابن المرحوم المولى أبي عبد الله محمد الحفصي ابن المرحوم أبي عبد الله محمد باشا ابن المولى المرحوم برحمة الملك الجواد مولانا أبي الظفر مراد باشا غفر الله للجميع.

ولما تم له الأمر أخذ في إصلاح شأنه وأنعم بالهبات والصلات على جميع من يستحق إحسانه فأنفت نفس المكرم محمد باي من تقديم عمه وكتم سره ولم يظهر لأحد خبره فعزم على الفرار من الحضرة ووافقه ابن عمته وبعض جماعته وغلمانه، وخرج إلى ظاهر البلد كعادته وأخذ متوجهاً إلى بلد الكاف أواخر شعبان سنة ست وثمانين فجد في سيره إلى أن بلغ الكاف، فكثرت في المدينة الأرجاف، وانقسم الناس واختلفت آراؤهم وأهواؤهم وتزايدت الأقاويل، واختلف القال والقيل.

ولما حل بالكاف اجتمع إليه خلق كثير من كل الجهات فأنعم عليهم وأحسن إليهم واستخرج من ذخائر والده وأنعم على وفده وتجهز لمحاربة عمه.

وكان من قدر الله أنه قبل خروجه من الحضرة أقبل الركب الحجازي

وشيخ الركب محرز بن هندة وكان من رجال الدولة في زمن الإلفة، فلما حدثت هذه الحوادث، خاف المولى الحفصي أن يتفاقم الأمر فحسم المادة بأن خلع نفسه ورد الأمر إلى حفيده، وبعث الشيخ المذكور إلى بلد الكاف لإصلاح ذات البين، فلما وصل الكاف حكم العداوة أكثر مما كانت عليه وفي غيبته كثرت الأراجيف، وبقى أهل الأهواء في كر وفر وعظم على الناس الفتن وتسامعت أهل الحضرة أن الباي غزا من الكاف على باجة وأخذ منها ما يستعد به، ثم غزا إلى ناحية القيروان وأخذ شيخ الزمالة أحمد الرقيعي وفتك به وأنه معول على المجيء إلى تونس لمحاربة أخيه وعمه.

فلما سمع عمه بذلك خرج من المدينة وخرج معه ابن أخيه المولى على باي ليجمعا أمرهما ووقعت هرجة في البلاد وفي أثناء ذلك رجع محرز بن هندة من الكاف فالتقى بهما وهون الأمر عليهما وذلك بخلاف ما في ضميره، فرجعا إلى البلد وخلف لهما العسكر أن لا يفضلوا أحداً على أحد ولكن عن مؤانسة من أكابرهم.

ورجع محرز المذكور برسالة غير الأولى فزاد بمكيدته في تأكيد الشر، وترادفت الأخبار وتواتر أن الباي أقسم لا يدخل البلد وعمه فيها أو يفتك به، وذلك في شهر رمضان المعظم من السنة فلما صح الخبر عند عمه كره إراقة الدماء بين الفريقين فعزم على الخروج من البلد وهيأ مركباً حمل فيه ما يحتاج إليه وسلم ملكه ومتاعه وخرج بمن يليه وركب البحر من ناحية رادس ويوم خروجه تفتتت الأكباد. وتقطعت قلوب أحبابه من أهل البلاد، وكان الهول عظيماً، والأمر جسيماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله كيف تفرق الشمل بعد التئامه، والعقد بعد نظامه.

وهذا هو السبب في رحلته إلى الديار الرومية، والقدر يحمله إلى أن بلغ إلى الرتبة الملوكية، ورجع بشعار الباشوية إلى الديار التونسية، وقد مر له خبر قبل هذا في غير هذا المحل، ولما سمع حفيده بخروجه من الحضرة أقبل إلى البلاد، بمن صحبه من رؤساء وقواد، فخرج غالب الناس

إلى لقائه، وخرج أخوه مع من خرج فغض منه وأظهر له التنكر والحقد في باطنه أكثر وحل في منزله بباردو وجاءه الناس وهنأوه.

ثم وقع بينه وبين أخيه اتفاق على ما رضوه. ولم يتم ذلك وألزمه الإقامة ببعض قصورهم خارج البلد وأن لا يدخل الحضرة في غيبته وتهيأ إلى المحلة في شوال سنة ست وثمانين وخرج تحت السناجق وسافر إلى بلد الجريد على العادة.

وفي غيبته تقوى الطاعون بتونس ومات من أهل بيته جملة من أقاربه، وأخوه لم يحضر جنازة أحد منهم، وماتت زوجه ولم يحضر جنازتها. والأخبار واردة بما تغيرت منه النفوس وفي أثناء ذلك مات عمهما حسن باي ابن المرحوم محمد باشا فحضر المكرم علي باي في ذلك اليوم جنازته، وبعد أيام ظهر الخبر وذاع بين الناس أن المولى علي باي توجه إلى ناحية الغرب لسبب تحقق عنده وخافه والله أعلم وسيأتي بعد.

وأما المكرم محمد باي فاستخلص عادته من الجريد ورجع من هناك إلى إفريقية ورجعت المحلة إلى تونس، وزادت الأراجيف من أهل البلد واضطرمت نار الفتن، وخرجت المحلة الصيفية من سنة سبع وثمانين لاستخلاص الوطن الإفريقي، وفي تلك الأيام وردت أخبار من الديار الرومية بأن عمهما وصل إليها ووردت أخبار أخر أضربنا عنها، فرجع المكرم محمد باي إلى الحضرة واتفق مع أكابر الدولة بأنهم لا يقبلون أحداً من عمه وأخيه. ومال العسكر إلى قوله وعقدوا محضراً بجامع الزيتونة واتفقوا على كلمة واحدة.

وفي اثناء ذلك جاء الخبر بأن المحلة التي للصبايحية وكانت قريبة من عمدون أخذها تابع المكرم علي باي. وهو القائد مصطفى سبنيول في عدد من الأعراب فخرج محمد باي من فوره من المسجد، وجدّ في سيره ومن غد بعث برؤوس أعراب لتسكين الأحوال ولكن الأراجيف كل يوم تزداد.

ولما فرغ من أمور إفريقية توجه من هناك إلى ناحية القيروان لأنه

بلغه نفاق وسلات فسار إليه بخيله ورجله وحاصره من كل جهاته، وبعث إلى أهل الجبل جماعة من المرابطين فرضوا بالطاعة وأداء المال فلم يقبل منهم إلا أن ينزلوا عند حكمه فخافوا من ذلك ورضوا بالموت في منازلهم، ثم بعث إلى الحضرة فأمدوه بعسكر ثان وذلك في شوال من سنة سبع وثمانين ورجع هو في أثناء ذلك إلى الحضرة واستحكم من العسكر بما أراد، وغالب العسكر ممتثل لأمره ونهيه منقاد إليه أحسن قياد، ما منهم إلا من يفديه بنفسه، ورجع من فوره إلى محلته وتتابعت رسله إلى أهل الجبل ولم يتم له ما أراد، فعزم أن يستأصله من أوله إلى آخره فهيأ له جموعه بعدما ترادفت عليه من كل الجهات.

ودخل إلى الجبل من طرق شتى ودهم أهله بما لا قبل لهم به ولولا ما سبق في علم الله لجعله دكاً، فلما توسط جل العسكر في الجبل ووقع الحرب بين الفريقين، وكادت أن تكون الدائرة على أهل الجبل، فكان من قضاء الله أن المكرم علي باي كان في الجبل بطائفة من جماعته. وكان قائد القائد مصطفى بكمين خارج الجبل: فلما علم توسط العسكر في الجبل بادر هو إلى المحلة وكان بقي بها جماعة ليحرسوا الامتعة التي بها والدواب فأغار عليها من خارج الجبل وأخذ عدة من الخيل والجمال، وكاد أن يأتي على آخرها فحاربه من بها من العسكر ورموا عليه بالمدافع، وظهرت له في ذلك اليوم شجاعة وإقدام لم ير لأحد مثله حدث به من شاهده.

فلما سمع من في الجبل من العسكر حس المدافع علموا بواقعة حدثت بعدهم فوجلت قلوبهم ودخلهم الرعب فولوا منهزمين لا يلوي صديق على صديقه، ولا ينظر شقيق إلى شقيقه، فركب أهل الجبل أدبارهم وقتلوا منهم مقتلة لم يسمع بمثلها ولم ينج منهم إلا من وثق بأجله ومات غالب الرؤساء من مقدمي العسكر وخليفة الباي القائد محمد بن علي وجماعة من فضلائها، وكاد الباي أن يقع في المكروه لولا لطف الله به ونجا بنفسه وخلف المدافع التي دخل بها للجبل في مواضعها، ورجع

إلى الأخبية بمن نجا معه، ومن غد رجع إلى المدافع وأتى بها ورجع راحلاً إلى القيروان.

وكادت هذه الواقعة تعد من الوقائع، وبها اتسع الخرق على الراقع، وكانت في ذي القعدة من سنة سبع وثمانين وألف وردت الأخبار إلى الحضرة ولكن لن تشتهر والناس بين مصدق ومكذب.

ثم بعث إلى العسكر يستنجدهم فأمدوه بعسكر ثالث، ولكن لم يخرج إلا والفشل دب في أكثرهم وخامرهم الرعب، ولم تطمع نفوسهم بالنجاة إلى القيروان فلما وصلوا إلى من تبقى من أخوانهم من العسكر انتخب منهم جماعة مستفيضة، وبعث إلى الجريد محلة مشحونة وسردارها محمد رايس عرف طاباق وقد مر ذكره عند ذكر الديات، كما سبق وقائده القائد مراد وبقي هو بمحلته وجاءه الخبر بأن أخاه رحل من الجبل وأنه في جمع قليل فطمعت نفسه بلقائه فلحقه وظن أن ما أصابه إنما كان بأهل الجبل، فجدّ السير في طلبه إلى أن لحقه بمكان يعرف بسبيبة وكان يوم عيد الأضحى. والمكرم علي باي مقيم فلم يشعر إلا والخيل أقبلت وأخبرته أن أخاه قادم عليه، فاستدرك أمره وهيأ جمعه ودهمه أخوه بمن معه، وكان غالب من معه أدركهم التعب لعنف سيره والتحقوا إبلاً كثيرة فأخذوا منها وبدأ النهب من العرب كعادتهم، فلما أمعنوا في النهب دهمهم علي باي بمن معه وحملوا حملة منكرة وممن كان في نجدته ذلك اليوم صهره وظهيره شيخ العرب الشيخ سلطان بن منصور بن خالد وجماعة من الصبايحية فقابلوهم بنفوس أبية، والله يؤيد بنصره من يشاء فلم تكن إلا ساعة من نهار حتى هزموهم.

وكان عسكر المحلة أدركه التعب فما وصلوا وبهم قوة، فلما رأوا المنهزمين نصبوا أخبيتهم وتحصنوا بها، وبعث إليهم علي باي يأمرهم أن يدافعوا عن أنفسهم خيفة منه عليهم وقتل من الفريقين، وفر الباي بمن قدر معه، ورجع إلى الكاف وغنم أصحاب الأمجد علي باي ما خلفه أخوه وعجز عن حمله، وكان شيئاً مستكثراً لأنه رفع في وجهته هذه من الذخائر ما لا يوصف فملئت أيدي العربان من المال والأمتعة.

ولما انفصل الحرب بعث إلى أكابر المحلة وأمنهم وسكن قلوبهم ثم بعث جماعة من أصحابه ممن يثق بهم إلى المحلة المتوجهة للجريد، فاستوثقوا بها وجبيت المجابي باسمه، ولما تيسر له هذا الفتح بعث بالخبر إلى تونس فكان وصول الخبر إليها يوم ثالث العيد فزاد الهول على أهل الدولة واختلفت آراؤهم ولم يفتح لهم باب إلى أن هيأوا جماعة من أكابر العسكر، وبعثوهم إلى المحلة وبعثوا جماعة من العلماء والمفتيين، فكان من أمرهم ما سبق ذكره من خلع الداي الحاج مامي جمل وتولية الحاج محمد بيشارة.

واحتوى المكرم علي باي على منصبه وتصرفت الأمور عن إذنه وهذه آخر محلة خرجت في تصرف الأمير محمد وأول محلة دخلت في طاعة الأمير علي ولم يزل المكرم محمد باي بعد هذه الواقعة متخبطاً في الغمرات. طالباً أخذ الثارات، وأخوه مقابل له في ذلك، متعرض له حيث توجه من المسالك، وكل منهما له وقائع تذكر، وصولات وسطوات لا تنكر وتشكر، إلى أن أصلح الله ذات البين، وجمع كلمة الأخوين، بعد ما كان بينهما حرب ولا حرب الأخوين، عسى الله أن يقيهما الحوادث، ولا يدخل بينهما ثالث، إن شاء الله تعالى.

علي باي

ومن البايات الذين شاد ذكرهم في الأمصار، وانتشرت أعلامهم في هذه الديار، الأمير الشهير الأسد الضرغام، والبطل الهمام، صاحب القدر العلي، أبو الحسن المولى علي، باي البلاد التونسية، والمتصرف في المملكة الإفريقية، أحسن الله إليه، وأجرى الصالحات على يديه، وهو الذي سار ذكره في الآفاق، وترنم الحداة باسمه وحلا ذكره بين الرفاق. رحل في رتبة المعالي في سماء العز وأشرق سناه شروق النيرين، وارتفع محله إلى أن صار قطب المملكة التونسية وعلا وعلى محل السهى والفرقدين.

وبلغ من السعادة ما لم يبلغه أبوه وجده، وبذل مهجته في طلب العلياء

وركب الأهوال وساعده جده، وخاطر بنفسه في ركوب الأخطار، ولم يكل عزمه في طلب السرى وجد السير وركب الليل وامتطى النهار، وكافح الأبطال، وباشر النزال، ودخل وسط الحرب، وقابل الطعن والضرب، وهان عليه ركوب الأهوال، وأنفق الطارف والتليد والأموال، ولم يشح بروحه وإن كان غيره بها لم يسمح، وساس الأمور إلى أن دان له من جمح ومن لم يجمح، ولم يزل ممتطياً ظهور الصافنات في طلب الثارات إلى أن بلغ المراد، وجاءته السعادة منقادة لما يأمرها به وامتثلت لابن مراد، وتصرف في المملكة تصرف الملوك. وخضعت لدولته الأيام قائلة لله أبوك.

تقف الأمراء إجلالاً لمهابته، وتخضع له الأسود خوفاً من سطوته وشهامته، كم أثار من حروب وباشرها إلى أن خضعت له الرقاب، وقارع الأبطال وقرع باباً لم يفتح لغيره وفتح له الباب. سرى في طلب العز كالهلال فعاد كبدر التمام، واحتجب في سماء الهيجاء بين نجوم الأسنة وبروق البارق وظهر من تحت سحاب القتام، ونازعته نفسه في الرتبة الملوكية فقال أنا لها، واقتحم عظام الأمور إلى أن بلغها ونالها. فكم له من وقعات عجزت عن مثلها الأبطال وكم له من فتكات في أعدائه، عجزت عن مثلها الأبطال. كيف لا يحق له أن ينال مرامه وهو جالس في مكانه، وكيف لمن لا يخاطر بروحه مخاطرته أن يعد من أقرانه. ورث السيادة عن آبائه وشيدها على ما كانت عليه، وإن جمحت عن غيره فقد جاءته منقادة بين يديه، وفي المثل: - بالسعود لا بالجدود - وهذا جمع بين الإثنين وساعده الزمان مساعدة العبيد مواليها واقتضى ما كان له على الأيام من الدين، وفضله وقدره أكثر من أن يذكر، ومحاسن أيامه معلومة بين الناس فلا يحق لها أن تنكر، وإنما مد القلم لسانه لأنه وجد في هذا الميدان مجالاً، وإن كان يعد من الخرساء فقد انفتق وتمثل فقال:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة   فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

وهذا الأمير مالك عناننا، وحاكم أوطاننا، ومتصرف في زماننا. جمل

الله بمحاسنه الأيام، وجعل عليه كل نار حرب أضرمها أعداؤه برداً وسلاماً.

ونأتي بشيء من أخباره ونذكر شيئاً من آثاره، كان الله له وهو من الذين وضعوا لبان السيادة، وكان أبوه لا يفارقه حيث سار وهكذا جرت العادة، فكان يتخلق بأخلاق أبيه، إلى أن أخذ الماء عن مجاريه وفيه سكينة ووقار، وتجنب عن العار، وبطش وشدة ولين وحدة وعقل رصين، وجانب متين، وثبات جنان، وكثرة إحسان، وكان والده يتفرس فيه الرئاسة وكذا كان.

ولما قدر الله على والده الموت المحتوم كان حاضراً عنده وبلغني أنه دعا له بالخير ومات وهو راضٍ عنه فقبل الله دعاءه فلم يزل في حفظ الله إلى أن بلغ مرامه، وكان من قدر الله على ما سبق في عمله أن يؤول الأمر إليه. وأرادوا خروجه عنه فجاءه الأمر إلى يديه. وما أحسن قول أبي دلامة، لما مدح المهدي وأخذ الكرامة:

أتته الولاية منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلت الأرض زلزالها

ولما قدر الله بإثارة الفتن كما سبق الخبر عنها في أول الفصل وخروج الأمر من يده وإلزامه الإقامة في منزله بمنزل عمر، وكان الطاعون في تلك الأيام ومات من أهل بيته جماعة وهوكالمحجورعليه وتواترت عليه الأخبار بما تشمئز منه النفوس، وكاتب بعض أصدقائه وكاتبوه فكتم سره وعزم على الخروج من العمالة والقضاء يقول له: إنا رادوك إن شاء الله على أكمل حالة.

وسافر في عدد يسير، ورافقه من ختم الله له بالخير على هذا الأمر العسير، المرحوم برحمة الملك الأوحد، الشلبي ابن يوسف داي أبو العباس أحمد. سقى الله ثراه من صوب الرحمة وساروا على غير الجادة ووقعت لهم في طريقهم أموراً ضربنا عنها لأن الخبر المأثور عنهم فيه الصحيح والسقيم.

ولما خلصهم الله من العدو الذي تعرض لهم ركبوا في البحر من مكان يعرف بمرسى الحرز، ومن العجب أن كيف حمل البحر المالح هذا العباب الفرات، وكيف علا فوقع الدر الفاخر إن هذه لإحدى المغربات. وسارت بهم المراكب وتلا القائل بسم الله مجراها، إلى أن بلغوا ما منهم. من بلد العناب فكان هنالك مرساها، فتسامع به أهل البلد وحشر الناس ضحى إلى رؤيته وكان ذلك اليوم من أعجوبة الدهر عندهم ولقبه أهل البلد وأكرموا مثواه وقابلوه بما يستحقه.

ومن هنالك أخذ في تمهيد أمره وبعث خاله إلى مدينة الجزائر لقصد نصرته، فكانت تربته وقبره والتحق به من كان ينسب إليه من رجال والده وأتته جماعة من أولاد سعيد وجمع غفير من دريد وتلاحقت به الناس، وتجمعت عليه الجموع وفرق الأموال في جميع الأجناس ووافقه باي الجزائر ووعده أن ينصره ولم يوف له ـ وما النصر إلا من عند الله ينصر من يشاء ـ إن ينصركم الله فلا غالب لكم.

وجاءت محلة الجزائر إلى قريب من العمالة ورجعت، وأكثر المرجفون في المدينة بالأخبار التي ليس تحتها طائل، بحيث يقربونه مرة ويبعدونه أخرى وقد بعدت عنهم المراحل، وعاضده في غيبته هذه لما أراد الله مصاهرته لأكبر مشائخ العرب الشيخ سلطان بن منصور فتشرف الشيخ بمصاهرته هذا البطل، وسعد حيث دخل في سلك دولته إلى أن ضربت بسعادته المثل.

والتحق به قائده القائد مصطفى سبنيول وهو من رجال دولته، وفي أيام أبيه كان مقدماً على جماعة الصبايحية وتخرج بتربيته. وكذلك انتظم إليه الشيخ محمد ابن القائد حسن وأولاده، وهو من رجال العرب ودهاتهم وإن كان أصل أبيه من العجم إلا إنه ولد بين الإبل والخيل وتعلم نزال الفرسان ومقارعة الأبطال والغزو بالنهار والسرى بالليل وغير هؤلاء بشر كثير.

فأول واقعة سمعنا بها في تونس أخذه لمحلة الصبايحية على يد قائده

القائد مصطفى سبنيول وقد سبق خبرها، ثم غزا غزوة ثانية إلى ناحية الكاف وساق إحدى الزمائل وسار بها كل ذلك والناس يستصغرون أمره، ونار حربه أحرقت الإقليم وهم يكذبون خبره وبعث عدة أوراق إلى العسكر يعتذر ويحذر وينذر فلم يسمع له وكل من وجد ورقة من تلك الأوراق كتمها، وذلك لما يريد به من نفاذ حكمه. وبعث إلى جبل وسلات فانقادوا إليه وأظهروا نفاقهم محبة فيه ولا زال أمره في صعود وكل يوم في إقبال إلى أن كانت الواقعة المذكورة قبل هذا عند كسره المحلة في الجبل المذكور وفك هناك كثيراً من الترك وفداهم بمال وعفا عنهم ولم يرد تعرضاً للعسكر بمكروه.

ثم الطامة العظمى كسرت المحلة الثانية قريباً من سبيطلة بمنزلة المريقب يوم عيد الأضحى سنة سبع وثمانين وألف وأخذ المحلة وعفا عن أهلها وأمنهم. وأتاه أكابر العسكر وبايعوه وأظهروا له الطاعة وهذه أول محلة نفذ أمره فيها وجاءت الأخبار إلى تونس ثالث العيد فطارت عقول أعدائه، وصار كل واحد منهم لا يعرف أرضه من سمائه، وخامر جل العسكر الفشل، واستولى على غيرهم الخوف والوجل، واشتغل كل من العوام بما لا يعنيه. ولكل امرىء منهم شأن يغنيه، وأتت المكاتيب من المحلة وأخبرت بما وقع وكانت في الحضرة هرجة عظيمة.

واتفق أهل الحل والعقد أن بعثوا جماعة من أكابرهم وجماعة من أكابر البلد ومفتيها شيخ الإسلام الشيخ أبا عبد الله محمد عرف فتاتة شيخ مشائخ المالكية والشيخ أبا المحاسن يوسف درغوث مفتي مذهب السادات الحنفية، فلما وصلوا إلى الباي حفظه الله عرف مقامهم وقابلهم بطلاقة وجه وأحسن نزلهم ومن معهم وأجرى لهم مؤونة، وقام بواجب حقهم ثم جمعهم وأكابر عسكرهم وعد عليهم ولامهم وحاججهم وقطع حجتهم وشهدوا له ذلك اليوم برجاحية العقل، لأنه كان في سابق الأمر لا يتعاطى شيئاً من المناصب لأنه تحت حجر والده ولم يظهر منه تصرف بما يستحسن إلا ما كان يستحسن من خلقته وخلقه وعقله زاده الله تماماً على

الذي هو أحسن، ورفع قدره بين الرؤساء إلى أن ينال مراده ويتمكن، ولما اجتمع بفضلاء الحضرة اتفق معهم على خلع الحاج مامي جمل ومبايعة الحاج محمد بيشارة فبايعوه بالمحلة المذكورة في مكان يقال له باطن القرن قريب من القيروان، فرجعوا به إلى الحضرة وخلعوا الحاج مامي وجلس بيشارة في دار القصبة إلى أن كان من أمره ما تقدم.

ثم إن الأمجد أبا الحسن علي باي رحل من هناك بعد أن كانت له واقعة مع القرويين أضربنا عنها وكانت سبباً لنفاقهم لما أراد الله لهم ورجع إلى أن نزل بالفحص وأقام به أياماً حتى تلاحق العسكر وجمع رأيه إلى التوجه إلى الكاف، فنزل قريباً منه وبعث إلى تونس بطلب المدافع فسيروا له ما أراد وهنالك جمع جموعه وعساكره وقصد محاربة البلد، فنزل قريباً منه وركب المدافع عليه ورمى به وجعل العسكر نوباً في المتاريس ووقعت الحرب بينهماوأصابت المدافع أماكن من الحصار وكاد أن يتزعزع وتصدعت منه أماكن إلا إن الله تعالى جعل لكل شيء حدا.

ومن قدر الله كان في العسكر جماعة لهم ميل إلى أخيه فبعثوا إليه يستنجدونه، وهونوا الأمر عليه وكان في ناحية الغرب فجد في السير راجعاً، ودخل إلى بلد الكاف ليلاً ومشت بينه وبين العسكر عدة أرسال واتفقوا معه ومكنوه من المحلة، وكان أبو الحسن استشعر بعض شيء، من ذلك وكانت إقامته بمحلته الأخرى فلم يشعر والمدافع مالت إليه، والعسكر الذي كان معه صار عليه، ومال العسكر إلى أخيه، ووقع النهب في خيمه ومن يليه فطاح ما بيده ورحل من ساعته بجموعه وجنده وكر راجعاً إلى الجريد وكد في سيره خيفة أن تصل الأخبار إلى هنالك.

ولما وصل لمدينة قفصة لم يظهر لأهل المحلة التي بها ما يرتابون منه وأمر برحيلها فرحلت وليس لأهلها علم بما وقع ورجع كعادته على الطريق الجادة وفشا الخبر بالمحلة وهرب منها أناس فلم يتم لهم مرادهم وأقبل إليه في وجهته جل مشائخ العربان مثل الشيخ أحمد بن نوير وجماعة من المحاميد والجمع الأعظم من نواجع دريد وشياطين العرب أولاد سعيد

وسلطان العرب بخيله ورجله وجاءته الأحباب من كل فج عميق وأقبل بجمع لا يعلمه إلا الله، ولما قرب من القيروان أظهروا له الشر فلم يعبأ بهم ووقع بعض مناوشة بينهم وبين جماعة من الصبايحية ورحل عنهم إلى أن نزل بالفحص والجموع تترادف إليه من كل مكان.

ونرجع إلى خبر أخيه وقد تقدم أنه لما احتوى على المحلة وجدد عهده مع أكابرها بعث الخبر إلى تونس فحين بلغ الخبر بمجردة، قام العسكر على ساق ومضوا إلى الحاج وكان مستتراً في الزاوية فأخرجوه وطلعوا به إلى القصبة وأعادوه إلى منصبه وخلع بيشارة، وبعد أيام أمر بقتله وقد تقدم ذكره فيما سبق. ومن هنا بدأ التخالف وعظم الإرجاف وكثر الخلاف وتفرق الناس، ولم يبق للعقل قياس، وتبددت الآراء والعقول، وكل إنسان بما يختلج في صدره يقول، إلا إن غالب الناس على جهة واحدة ويتكلمون بكلام لا يحسن السكوت عليه ولا تصح به الفائدة وكل يوم تأتي أخبار ليس لها صحة في الخارج وترادفت وتزاحمت الأراجيف بما لا يعقل عند الداخل والخارج وبعث الداي جماعة من أصحابه ليأتوه بالخبر. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، ورفعت الأسعار وقطعت الأسفار. ووقع العسس بالليل والنهار.

ولما زاد الوجل بأهل تونس أجمع رأيهم على إرسال جماعة من العلماء وأكابر المملكة من أهل البلد لإصلاح ذات البين، والجمع بين الأخوين، فغابوا مدة في ترددهم بين الإثنين، فرجعوا بخفي حنين، ولم يتم لهم الأمر الذي طلبوه، وكل من الأخوين طلب شيئاً لم يساعده عليه أخوه، فلما رجعوا خائبين خاف الناس من نار الحرب التي وقودها الناس، وشياطين الأنس مشيدة لقصور الفتن وليس لبنيانهم أساس، وقام سوق الخوف من بعد الأمن، وانتشر النفاق في غالب الوطن، وقطعت الطرقات، وغلت الأقوات، وكل واحد من الفريقين يرجع من صاحبه بالكلام، ولم يبق لأهل تونس من العقل إلا قال قال والسلام، وهذا من أكبر أعاجيب الزمان التي لم يقع مثلها والأخبار كل يوم متواترة بما ليس تحته طائل، والعسس في الأبواب كل يوم على الخارج والداخل.

وجاءت الأخبار أن أبا الحسن علي باي قارب الفحص في جموعه والمحلة التي أتى بها من الجريد معه وبعث بهذا الخبر إلى تونس فلم يقبله أحد، وبعثوا إلى من بالمحلة يأمرونهم بالهروب فهرب منهم جماعة. ولما سمع به أخوه تثاقل عن المجيء، ثم ثاب إليه رأيه وجمع جمعاً عظيماً واستوثق من أهل محلته وجاء في نجدته الشيخ الحاج بن نصر وجماعته، وأقبل في عدد لا يعلمه إلا الله تعالى وجاءته الأخبار من العرب وهونوا عليه أمر أخيه فجد في السير إلى أن التقيا بالفحص. يقول من شاهد ذلك اليوم: رأيت من الفريقين ما يذهل العقل لما شاهدته من الفرسان ووقعت بإزاء شيخ يحرض الناس فعلمت أنه سلطان ورأيت من إقدام الباي أبي الحسن علي وهو ثابت الجنان، ويجول بين الفرسان، وقدمت العرب هوادجها كعادتها والتقى الجمعان وحملوا حملة رجل واحد فلم يقف أحد منهم ساعة واحدة إلا وقد رزق الله النصر إلى جماعة المعظم أبي الحسن علي باي، فغنموا مغنماً عظيماً من الخيل والسلاح وهرب الحاج وجماعته وخلف امرأته قال من شاهدها وهي راكبة على بغل حين أتى بها عفا عنها وردها إلى صاحبها فلم يكن له ذكر بعد هذه الواقعة.

ولما فتح الله هذا الفتح الغريب في الزمن القريب، وكان الحرب من الفريقين بين الخيالة ولم يكن للعسكر مدخل لأن المحلة التي جاءت من الجريد بعثها الباي علي إلى زغوان، وقال لهم أقيموا هنالك فإن كنتم لي رجعتم معي وإلا رجعتم إلى صاحبكم فحلفوا له فلم يقبل وكان سردار عسكرها محمد رايس عرف طاباق وقد تقدم ذكره والمحلة التي جاءت من الكاف كفاها إن منعت نفسها ونزلت بمكان عال وخندق عليها أهلها ومنع الباي علي من التعرض إليها، ولما ارتفع الحرب بعث إلى أكابر المحلة فعدد ذنوبهم عليهم وكان ذلك آخر العهد بهم، ثم بعث إلى محلة زغوان فجاءته وبعث قائده مصطفى سبنيول إلى تونس وبلوك باشية ليخبروا بالواقع وهذه الواقعة كانت آخر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وألف.

ولما جاءت خبار إلى تونس عظم البلاء وارتجفت قلوب الناس

وكان الخطب جليلاً، وبعث قائده مصطفى فحاصر المدينة وضايق بها إلى أن أذعنوا له بالطاعة وبعث إليها سردار العسكر الداي محمد طاباق بعد ما بايعه بالمحلة، وقد مر خبره فيما مضى وطلع إلى إفريقية كعادته لاستخلاص وطنها وتمهيده وكانت له واقعة أخرى مع جموع أخيه كابن الحاج شيخ الحنانشة وأولاد أبي زيان وجماعتهم من دريد، ومعهم جموع من عرب إفريقية وغيرهم فكانت الطامة الكبرى ومات فيها الشيخ سلطان الحناشي لأنهم دهموا عليه على غفلة عشية نهار، وباشر القتال بنفسه وكثرت عليه الجموع فطعن ومات ووقعت في عسكر أبي الحسن رجة لولا لطف الله به وثبات جأشه فبات على احتراس، ومن الغد اشتد الحرب واشتبك وزاد الخطب وصبر الفريقان صبراً لم يكن قبل ذلك اليوم ومات خلق كثير ووقعت الهزيمة على أولاد الشابي ومن معهم وغنم من أموالهم شيء كثير، وملئت أيدي الأعراب ومن سواهم من الإبل والمتاع وكانت بمكان يقال له وادي تاسة وعدة من الوقائع التي يضرب بها المثل ورجع منصوراً إلى وطنه واستكمل مجباه وأحسن إلى الشيخ أحمد بن نوير ورده إلى بلاده فمات قبل أن يصل إلى وطنه قريباً من الحامة في معركة مع جنود محمد باي وأخذ غالب نجعه هناك.

وفي هذه المدة كثرت الأراجيف بتونس وقيل أن الباي مات وأطلقت الأخبار الكاذبة واختبلت عقول الناس حتى إنهم كذبوا بالضروريات وصدقوا بالمحالات، وبعد ذلك رده الله سالماً إلى حضرته وصام بعض شهر رمضان فيها وخرج بمحلته الشتائية في آخر الشهر المذكور من هذه السنة وهي سنة ثمان وثمانين، وكان خروجه تحت السناجق كعادة آبائه وضربت البشائر وكان له زي عظيم وظهرت عليه مهابة الملك،ولم يكن خرج قبل ذلك اليوم على هذه الصورة فتبارك الله أحسن الخالقين على حسن خلقته وخلعته ولقد زانها حتى قلت فيه ذلك اليوم قصيدة مطلعها:

بدر السما أم نور وجهك يزهر	لما خطرت بحليه تتبختر
من سندس خلعت قلوب حواسد	لكن بها أحبابكم تستبشر
ما عاين الراؤون حسنك مشرقاً	إلا وحقك هللوا أو كبّروا

وهي طويلة أضربت عنها ولم تساعد الأقدار أن يسمعها وسار في وجهته هذه، ونزل على القيروان في آخر رمضان محاصراً لها ورمى عليها بالمدافع، ولولا أن العسكر كان فيه اختلاف لكان استأصلها لأنهم كانوا يقاتلون قتال تكلف بلا نية، وعيد عليها عيد الفطر عنها، وذلك أنه جاءته الأخبار أن أخاه خالفه إلى بلاد الجريد فقصد الأهم وارتحل عن القيروان- ومن العجب أنه نازل القيروان وأقام عليها عدة أيام وأهلها يحلفون أنه مات وأن الذي بالمحلة غيره وهذا من أكبر الهذيان وشاهدنا بتونس ما هو أغرب من هذا نسأل الله تعالى أن يحفظ عقولنا ويلهمنا رشدنا.

ثم توجه إلى بلاد الجريد، فوجد أخاه قد احتوى على كثير منها وحصن حصار قفصة وشحنه فلما علم بقدومه فر أمامه إلى الزاب، ودخل عدة مراحل في طلبه فرجع من خلفه وحاصر من بالحصار المذكور وعمل له لغماً فطلب من به الأمان فأمنهم واحتوى على الحصار وجعل فيه توبة من قبله.

ولما أتم تشحينه واستكمل مجباه من بلاد الجريد كر راجعاً إلى الحضرة وكان اتصل به الخبر من الأعراب بأن أخاه قاصداً إلى تونس فبعث قائده مصطفى سبنيول في عسكر من الصبايحية لحراسة المدينة، فلم يغن شيئاً وكانت الطامة الكبرى التي لم يسمع بمثلها في بلاد المغرب وهي التي خرقت فيها الأبواب ونهبت الأسواق وقامت الحرب على ساق ولقي أهل تونس فيها بلاء عظيماً وحوصر من بالقصبة وكانت الفتنة الكبرى وخرج جميع عسكر الحضرة إلى قتال أبي الحسن علي باي، وخرج في ذلك العسكر الداي الجديد ساقسلي وخرجوا بأموالهم وأولادهم ولم يبق منهم إلا القليل، وقد ذكرت هذه الواقعة في ترجمة الداي طاباق.

واتصل الخبر بأبي الحسن علي باي، لطف الله به، في أثناء الطريق فجد في سيره وكان معه جمع عظيم وبعث إلى أكابر المحلة وأخبرهم بالقصة فحلفوا له على الموت فوعدهم بزيادة خمسة نواصر ترقياً لكل واحد ورحل إلى أن قرب من الفحص فالتقى هنالك بالمحلة الخارجة من

تونس ومعها محلة من القيروان وغيرها من الكاف ومثلهـا من صفاقس وعربان اجتمعت معهم من الإقليم لا يعلم قدرهم إلا الله فالتقيا في أول المحرم من سنة تسع وثمانين وألف والتحم الحرب ورمى بعضهم على بعض بالمدافع والمكاحل وصادق بعضهم بعضاً في القتال والتقت الخيل بالخيل واشتد البأس. وكثر المراس، وتقارب الصفان. واختلط الجمعان، وصارت كل محلة يقول أهلها نحن أخذناكم يعني أهل المحلة الأخرى، ولما اجتمع العسكران قالوا بكلمة واحدة ونكثوا أيمانهم وكان أبو الحسن علي باي بعيداً من الفريقين لموت أحد رجاله وخليفته في العسكر القائد مراد فأراد قتله فنجاه الله ومنع من بين أيديهم، فلما تحقق أبو الحسن خديعتهم رجع على عقبه بمن معه من صبايحيته وزموله واجتمع العسكران وبعثوا إلى أخيه محمد باي وملكوا أمرهم فرحل بهم في إثر أخيه وقد انسحب أمامهم إلى مكان يعرف بالمنزل.

فلما توسطوا به كر أبو الحسن بمن معه وتشجعت أصحابه وصادقوا في حملتهم فبددوا شملهم ومات من مات عن بينة وكان قدر الله أمراً محتوماً ومات خلق عظيم، ووقع القتال من عشية النهار إلى الليل ولم ينج إلا من طال أجله ومن عاش أخذته العرب وغنموا منهم مغنماً لم يكن مثله في السابق من ذهب وفضة وأثاث ما يجل عن الوصف، وكانت هذه الواقعة من أعظم وقائع أهل المغرب.

ولما تم له ما تم أمر بقطع رؤوس القتلى وبعثها محمـولة على الجمال، وكان يوم وصولها إلى تونس يوماً مهولاً، وأغرب من هذا أن الرؤوس قبالة باب القصبة يشاهدونها، والمرجفون يقولون ليس لذلك علم ولا أثر ومات ساقسلي أكبرهم ولم ينج إلا القليل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولولا نفاذ ما سبق في علم الله لم تكن هذه الواقعة التي شاد خبرها في الثقلين. وأضرمت نار حربها بين العسكرين، واقتتلوا في محبة الأخوين، ولكن لكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

ثم جاءته رسل أهل القيروان يطلبون العفو فعفا عنهم ورحل ونزل قريباً منهم وأمنهم ولم يؤآخذهم بما فعلوا ما عدا ابن الشاطر الذي دعم أساس النفاق. وأجرى أهل القيروان على البغي والشقاق فإنه لم يعف عنه، ومات في سجنه وكر راجعاً إلى تونس وأخذه في طريقه مرض خيف عليه منه فتداركه الله بلطفه ووصل إلى منزله بباردو وهو في أثناء مرضه واستبشر بقدومه أحبابه وفشا الخبر في البلد أنه مات، ولقد اتفق لي أني كنت حاضراً يوم وصوله وعاينته بعين رأسي وسمعت ذلك اليوم رجلاً يقول لآخر: إنه مات ودفن، فأخبرتهما بأني رأيته فحلفاني فحلفت لهما ولم أدر أصدقاني أم لا.

واتفق في تلك الأيام أن جاءته رسل من عند أخيه لقصد الصلح ولم يتم ذلك وبعد أيام يسيرة دخل إلى المدينة وعليه أثر الضعف ودخل إلى القصبة وحشر الناس إلى رؤيته وأطلقت البشائر، وكان يوماً مشهوداً عاينه فيه المحب الغال، والعدو القال، وعافاه الله من ذلك المرض ولله المنة.

ثم استراح وخرج بمحلته الصيفية من السنة المذكورة لتحرك الأعراب بإفريقية فعاجلهم قبل التئامهم وخلص مجباه كعادته ورجع إلى تونس قبل إبانه ليلتقي مع عمه لما أتى من الديار الرومية. مستولياً على منصب الباشوية. فجمع الله شملهما بعد الغربة، وتجدد فرحهما في هذه النوبة، وصاما بالحضرة شهر رمضان، وعيدا عيد الفطر في هناء وأمان، وحضرا للزينة التي وقعت في أول شوال من السنة المذكورة وقد سبق ذكرها وخرج قبل تمامها بيوم وتوجه إلى المنستير وقد استنفر إليها جمعاً من كل مكان، وكانت محلته قد سبقته بأيام فنزل قريباً منها وحاصرها وقطع ما قدر عليه من زيتونها وأشجارها وفعل بها الفاقرة. وكادت أن تكون له عليها الدائرة.

ثم وردت عليه الأخبار بأن أخاه في جمع عظيم بإزاء جربة فاستدركه قبل أن يعيث في بلد الجريد فرحل من المنستير وتوجه إلى أخيه ففر أمامه، ودخل الرمل فتبعه عدة مراحل ففاته ولم يلق قيداً ورجع إلى

الجريد فخلص مجباه على العادة ورحل عنها مؤيداً منصوراً وأخذ في رجعته على طريق صفاقس فشن غارته عليها وبعث الرعب إلى أهلها وأخذ جماعة من أهل البلد ممن خرج منها إلى بساتينهم على حين غفلة فعفا عنهم ولم يهرق دماءهم وكر راجعاً إلى وطنه ودخلت محلته إلى تونس في آخر صفر سنة تسعين، ولم يدخل معها وسار بمن معه من الأعراب والصبايحية إلى ناحية الغرب لأنه سمع بأخيه رجع إلى تلك البلاد وخرجت طائفته في السنة المذكورة كعادتها، وامتدت في البلاد لخلاص مجباها وهو مقيم بعساكره من ناحية الحدادة لكيلا يأتيه من قبل أخيه شيء.

واتصلت به الأخبار أن أهل توزر اختلفوا عليه وأخوه بنى بها حصاراً منيعاً وشحنه بما يحتاج إليه، فبعث إليهم مدداً مع جماعة من الصبايحية فتلقتهم خيل أخيه هناك ومات ابن الجنان في تلك البعثة، ثم وجه لهم محلة الشتاء مع خليفته القائد مراد والتقى بجموع لأخيه هنالك أيضاً وكانت بينهما واقعات وحروب انتصر القائد مراد فيها ونزل العسكر على البرج المذكور، وحاصره أياماً وجعلوا متاريس وصادقوهم القتال وحفروا تحته لغماً فهدم منه جانباً ودخله العسكر بالسيف.

وجاءت الأخبار بأخذه إلى تونس واطلقت البشائر والمكابرون ينكرون ذلك كله ووصل الخبر إلى الأمجد أبي الحسن فرحل إلى الجريد واطلع على البلاد وهدنها وكمل مجباه، ورجع إلى ناحية المغرب ومن معه من العساكر أول سنة إحدى وتسعين وأقام قبلة أخيه لئلا يحدث حدثاً في البلاد ونما إليه الخبر بأن جماعة من الأعراب من أهل إفريقية بعثوا إلى أخيه، فعاقب من قدر عليه منهم وسلبهم خيلهم وأقام بمن معه من العرب ومحلة الترك في ناحية الزوارين، وبعث إلى محلة الصيف فخرجت له قبل أوانها والتقت المحلتان هنالك واشتكى إليه العسكر من قلة ما بأيديهم فبعث إلى الحضرة يطلب الكتبة الموكلين بإعطاء المرتبات فساروا إليه ودفع لهم مرتباتهم في المحلة، ونصبت الأسواق في المحلة وجاء التجار والباعة من كل مكان وصارت عندهم أيام نزهة.

وعزم في وجهته هذه أن ينازل بلد الكاف فبعث بالخبر إلى تونس بأن يرسلوا له المدافع وقرب من الكاف بجموعه ووقعت بينهم مناوشة في الحرب في أيام وذلك أول ربيع الثاني سنة إحدى وتسعين وألف، وبعد ما خرجت محلة الصيف استنفر الحاكم الذي هو داي العسكر بالأمر الشديد وأرسلهم إلى الكاف نصرة وجاء الخبر إلى تونس أن الحرب وقع بين أهل الكاف وأصحاب المعظم أبي الحسن يوم الجمعة السادس والعشرين من ربيع الثاني.

وبلغ الخبر إلى تونس أن المعظم أبا الحسن علي باي غزا يوم الأحد سادس ربيع الثاني أخاه، وكان قريباً منه فاحتوى على من كان معه ولم يفلت إلا القليل وأخذ شيخ النجع الذي معه وعفا عنه وأطلقت البشائر بتونس في السابع عشر منه وقعت الحرب بين أهل الكاف والعسكر وولت الهزيمة على العسكر، وجاء الخبر إلى تونس وفي الحادي والعشرين منه نادى المنادي في الحضرة من أراد مرتبه يمشي إلى الكاف نجدة لمن هناك من العسكر وتوقف المرتب ومنعوا منه وحدد لهم الداي المذكور أن لا رجوع إلا لمن بيده تذكرة بطابع الباي علي فخرجت الناس أرسالاً وكان القتال بين أهل الكاف والعسكر عدة أيام ورحلوا عنه تاسع جمادى الأولى من السنة بعد القتال والحصار الشديد.

وفي الثاني والعشرين من الشهر المذكور جاءت الرسل إلى تونس من قبل أهل الجزائر لقصد الصلح بعد ما التقوا مع الباي فأرسلهم إلى تونس فلم يقع بينهم اتفاق وقابلهم الداي بكلام حسن. وفي هذه الأيام صودر أهل المرتبات الذين تربصوا عن المسير إلى الكاف فمنعوا من مرتباتهم لقلة استماعهم.

وفي أول رجب من السنة المذكورة خرج الباشا مغاضباً للعسكر ومكث أياماً في منارة مرثاق. ثم توجه إلى الساحل وتعاطى خراجها ثم سار إلى القيروان واجتمعت إليه أولاد سعيد وغيرهم فكان في جمع عظيم، وذلك أن أولاد سعيد أهل نفاق وشقاق جبلوا على خبث الطبيعة صاغراً عن

كابر وكانوا في زمن المرحوم برحمة الله محمد باشا في الحضيض الأوهد، حتى أن الرجل منهم ينتسب لليهودية. ولا ينتسب إلى السعيدية، ولم تقم لهم قائمة مدة حياته، وكذلك في أيام ولده من بعده إلى أن قدر الله تعالى بما سبق في علمه من إثارات الفتن كبرت شوكتهم ومالوا إلى باي الوقت فجابرهم ورفع منارهم فأحلهم البلاد وأطلق أيديهم فاكثروا فيها الفساد، وعاثوا كيف شاؤوا وقطعوا الطريق ومنعوا الرفيق حتى صاروا لا يسلك أحد في طريق إلا ومعه منهم خبير، وقاسموا أهل البلاد في غلاتهم وأخذوا ما قدروا عليه ولم يقدر أحد أن يقابلهم بشيء وتحكموا في غالب الإقليم وفعلوا ما لم تفعله الكفرة بالمسلمين، والباي مع ذلك معرض عنهم ويلاطفهم وبعض الأحيان يعنفهم ومع ذلك يزيد شرهم في كل يوم.

فلما ثبت عنده خبث طويتهم تربص بهم الدوائر وألغاهم وصار لا يلتفت إليهم. فظنوا أنه لا قدرة له عليهم، وأن ذلك عجز منه فاعتدوا وتمردوا وصاروا لا يلتقون به إلا أرسالاً خيفة منه إلى أن قدر الله تعالى بهلاكهم، فلما توجه إلى الكاف كما قدمنا بعث إليهم يستنجدهم فتثاقلوا عنه ولم يعبأوا به وتفرقوا في الوطن فمنهم من ذهب إلى الساحل وعاث فيه ومنهم من أقام بوطن الجزيرة بإزاء بلد سليمان، فوقعت بينهم وبين أهل البلد منازعة، فاقتتلوا ومات ابن الكراي هنالك لا رحمه الله فاشتدت حماستهم وضايقوا بالبلد وقتلوا من أهلها وأشرفوا على أخذها وحدثتهم أمانيهم الفاسدة بأن بعثوا للداي أن يبعث لهم نجدة من عسكر زواوه للإعانة على سليمان ومشت رسلهم للباي فمناهم بمرادهم وخادعهم ووعدهم بأخذ الدية، فزاد طمعهم، لعنهم الله، فضايقوا على أهل سليمان فأخرج الداي نجدة من العسكر لأهل سليمان في السابع عشر من ربيع الثاني، وخرج من العسكر خلق كثير لقصد جهادهم لأن ضررهم أشد من ضرر النصارى فلما وصلهم الخبر بذلك رحلوا عن سليمان وجاءتهم الأخبار أن الباي عازم عليهم فانكسرت شوكتهم وتوجهوا إلى الساحل، وثبت عندهم أنهم إن وقعوا في يده لا يترك منهم أحداً فلما علموا بمغاضبة الباشا مالوا إليه وطمعوا فيما لديه فأرضاهم وساروا معه إلى

القيروان واجتمع إليهم من يقول بقولهم إلى أن كان منهم ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ولما وصل الخبر إلى الباي لطف الله به بأن العرب مجتمعون على عمه وأخيه وأن الحرب أضرمت نارها وتقوى شرارها، بعث إلى الحضرة فعينوا له عسكراً وارتحل بزموله ومن معه إلى القيروان فالتقى بهم ووقعت الحرب بينهم ساعة من نهار فانهزم ذلك الجمع وهرب أولاد سعيد إلى ناحية المنستير ودخل الباشا إلى القيروان وقيل أن ذلك الجمع كان يقرب من عشرة آلاف فارس، وأما الرجالة فلا تعد ولا تحصى ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى وصرفت فيهم أموال جزيلة وكانت هذه الواقعة في العشر الأخيرة من شعبان سنة إحدى وتسعين وألف. والله يؤيد بنصره من يشاء.

ورحل أبو الحسن علي باي من القيروان ونزل قريباً من المنستير وقد تحصن بها أخوه وأولاد سعيد وضايقهم بها إلى أن فنيت غالب إبلهم، ولم يجدوا إلى أين يكون ذهابهم ولما طال بهم الحصار وضاق خناقهم من شدة المحاصرة رجعوا إلى خداعهم وبعثوا جماعة يطلبون من الباي أن يرحل عنهم يسيراً لكي يخرجوا له وينزلوا على حكمه، إن شاء خدمهم واسترعاهم وزعموا أنهم مغلوبون من أخيه، وإن أظهروا الخروج على رضى منهم يعاقبهم ولم يخف عنه مكرهم فرحل عنهم ونزل قريباً من سوسة وأصل زحيله مما ضاقت البلاد على الجموع التي معه لأنه كان في أمم لا تحصى.

فأقام هنالك بقية رمضان وأرسل إلى تونس لجماعة من فضلائها وذكر أسماءهم أن يتوجهوا إليه وحدثهم بمراده، وسمعت بعضهم يقول لله دره يعني الباي المذكور ما أجود ذهنه وما أقوى فراسته، وماذا عنده من حسن السياسة، وأنه ليقول قولوا كذا وإذا قال كذا أجيبوا بكذا، حتى كأنه مطلع على ما يختلج في الضمائر وهذا من إصابته في التدبير، ثم بعث بأناس دون أناس شح بهم أظهر أنه خاف عليهم من أن يعترضهم أحد في طريقهم بمكروه ولم يتم له ذلك.

وفي إقامته هنالك بعث أهل صفاقس له وطلبوا الأمان منه وأن يسلموا له مقاليدهم فأجابهم إلى ما طلبوه، وبعث معهم جماعة من أصحابه فسلموا البلد وهرب من كان بها من قبل أخيه وكفاه الله شرهم وعافاه من إهراق دمهم.

وجاءت الأخبار إلى تونس وامتنع الداي أن يطلق المدافع كما جرت به العادة لأنه لم يأته كتاب من عند الباي، وأكثر المرجفون كعاتهم بالمكابرة، ثم بعد أيام جاءت أوامره وصح الخبر فاطلقت البشائر عند ذلك ورحل بعد العيد متوجهاً إلى القيروان فغلقوا الأبواب ولم يخرج إليه أحد فلم يتعرض لهم ونزل تحت جبل وسلات.

وفي خامس شوال جاءت رسل الجزائريين إلى تونس مرة ثانية وأظهروا أنهم لم يكن لهم أرب إلا الصلح بين الأخوين وذاع في البلد أن قصدهم غير ما قالوه، وكثرت بين الناس الأقوال وذلك أنهم نزلوا أولاً عند الحدادة المعلومة، ثم جاء الخبر أنهم دخلوا في الوطن وتسامعت أهل الحضرة فكرهوا ذلك، وبعض المفسدين أحبوه وبعث الداي إلى أشياخ البلد واستخبرهم على ما في ضمائرهم فقالوا له: نحن ندافع عن أنفسنا وأولادنا ولم نرض بغير عسكرنا فشكرهم على قولهم وطلب من أهل باب السويقة أن يعطوه أناساً يكونون عنده رهناً، فاجابوه ولكن سلم الله ولو كانوا فعلوا ذلك لم يغن شيئاً.

وجاءت الأخبار أن الباشا خرج من القيروان ولحق بأهل الجزائر ودخل بهم الوطن وأباحهم أن يأخذوا ما يحتاجون إليه من الروابط. وجاءت الأخبار أنهم بعثوا جماعة منهم إلى الكاف لأخذ المؤونة وأنهم أرادوا الدخول إلى الحصار وأن يفتكوا بمن فيه فمنعهم كافل الحصار وفتكوا بأهل البلد وأظهروا فيها الفساد. وقد تقوى طمعهم في أخذ الكاف ومشت رسلهم إلى الباي وهو في منزله السابق فأجابهم بما رضيت به نفوسهم وقال لهم أنا قاصد إليكم ورحل وأخذهم معه كل ذلك والأخبار متواترة في الحضرة بكل إرجاف فمن مكثر ومقل، ولكل امرىء ما نوى.

ولولا ما سبق في علمه تعالى من جميل اللطف بعباده لدهمت أهل هذه البلد أمور مدهشة ويقاسون من الألم حتى يقول المار بها للقاطن تغير اسم بلدك عن المؤنسة، بل إنها هي الموحشة. ولما زاد الكرب بالناس، تداركهم الله بالفرج ولكن على غير قياس، لأن الأخبارالتي تصل إلينا عن حصانة الكاف شيء يحير العقل في توهمه وأنه جاء غصة في حلق البلاد. وكاد أن يكون عمالة مستقلة ولا أقول كاد. ومن الناس من يقول يعجز عنه جميع العسكريين. وهو كالحاجز بين الوطنين. فكانوا يرون أنه إذا طال أمره تكثر الفتن، ويخرب الوطن. والله تعالى لطيف بعباده، والأمور جارية بحسب مراده.

وفي الحادي والعشرين من شوال من سنة إحدى وتسعين جاءت الأخبار من الكاف ومكاتيب للداي من عند الحاكم فيه يطلب العفو وبذل الطاعة، فأطلقت الدافع تلك الساعة وكان يوماً مشهوداً يعد من الأيام العظام وفشا في الناس الفرح وأمنوا ذلك اليوم على دمائهم وأموالهم وأولادهم. وفي الثالث والعشرين منه جاءت الأوامر من عند الباي بذلك فصدق غالب الناس إلا قليلاً منهم.

وجاءت الأخبار بعد ذلك أن أهل الجزائر قهقروا إلى خلفهم لما سمعوا بالخبر وكان زعمهم أنهم يتحكمون عليه، وإذا حصل في أيديهم صار لهم الوطن كله ووردت الأخبار أن الهمام أبا الحسن علي باي توجه إلى الزوارين وبعث عامله وجماعة معه إلى الكاف ولم يصل هو إليه وهذا من الغرائب. ورزانة العقل وثبات الجاش والرأي الصائب. فكأنه لم يكن له به اهتمام ولا قصده ونازله هذا العام وذلك العام؛ والله إنه لمن الدهاة. ومن له الإصابة في الرأي والثبات. فالحمد لله الذي يسر له هذا الفتح الغريب. في الزمن القريب. ولولا غارة الله حفت به في جميع المواطن لما جاءه النصر، والعناية الربانية تعينه في مواطنيه كلها ولو دهمته أهل العصر.

ولم تزل الأخبار في كل يوم تتواتر إلى سابع ذي القعدة جاء الخبر

أن الباشا والباي اصطلحا ولم تأت المكاتيب من عند أحد. وبعد خمسة أيام جاءت الأوامر مخبرة بما وقع وقرئت في الديوان وسرت الناس. ومن الغد جاءت بلوكباشية بالخبر أيضاً وأطلقت المدافع وأخبروا بأن الصلح وقع بينهم على التمام بما رضيت به نفوسهم بوفاء وأمان. وقيل لمن أراد الدخول بينهم بالفتن ـ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان.

ولكن لم يحظ أحد بما وقع بينهم. وإنما هم أهل بيت جمعوا أمرهم بينهم وذهب عنهم إن شاء الله ترحهم وبينهم. وكانت أولاد سعيد التحقت بأهل الجزائر، وساعدهم عدد من المفسدين من القبائل والعشائر، وكادت أن تقوم الحرب بين الفريقين وأن تكون لها رجة تهز الثقلين. ومن الناس من يقول إنما جاؤوا للإصلاح بين الأخوين. ومن قائل يقول: إنما أرادوا حسم المادة من شر الأعراب، وإنهم إن لم يتداركوا هذا الأمر يوشك أن يدخل عليهم الفتن من غير الـباب ومن الناس من يقول أدركتهم حمية عن أبناء جنسهم وأنفة وبعضهم يقول لأمر ما جذع قصير أنفه. والله أعلم بحقائق الأمور، وما تخفيه الصدور.

وعلى كل حال فالله جعل لكل شيء سبباً والسر الخفي الذي جعل الصلح على يد سردار الجزائر واسمه حسن فكان هذا الإسم رزق السعادة من بركة دعاء النبي ﷺ لما قال لولده الحسن عسى الله أن يجمع بولدي هذا بين فئتين عظيمتين فظهرت الإجابة في ولده في الزمن السابق وبقيت البركة في هذا الإسم فكان هو السبب في التئام الكلمة حتى صلح الله حال هذه الأمة وتدارك بلطفه أحوال العباد. وقام سوق الأمن بعد الخوف في جميع البلاد. وخمدت نار الحرب بعد إضرامها، وبلغت كل نفس منيتها وفازت بمرامها.

ولكن بعد ما بلغت النفوس التراق. واتصلت الحرب بالحرب خمسة أعوام متتابعة حتى قيل هل من راق. وكثرت العداوة بين البادي والحاضر وظن كل أحد أنه الفراق. وكم سيقت من نفوس إلى حتفها في عدة أيام وإلى ربك يومئذ المساق. وما قصر كل من الأخوين في طلبه لثاره. وقاوم

كل واحد منهما صاحبه في المحاربة، ورمى بنفسه في الحرب واصطلى بناره. فكم تلفت من نفوس. وقطعت من رؤوس. وكم أنفقوا من الأموال. وكم اتلفت من رجال وأي رجال. وسمحت بين الإثنين أقوام بالنفوس وبالأموال النفائس. وسمعت عن حروبهما أهل المشرق والمغرب ما لم يسمع عن حروب الغبراء وداحس. وما منهما إلا من خاطر بنفسه في مقارعة الأبطال ومنازلة الفرسان وأدار رحى الحرب وعبست في وجهه الأسود عند اللقاء حتى قيل هذه حرب عبس وذبيان. ولم ينفك أحد منهما من حرب إلى حرب. وكم وقع في صدور الفرسان بالرمح والسيف من طعن ومن ضرب. وأظلمت الآفاق وقت النزال وارتفع القتام. وطلعت أسنة الرماح في سماء الهيجاء مطالع النجوم، ولاح برق الصوارم فارتفع الظلام. فالحمد لله على ذهاب هذه الغمة. وتجديد الإلفة بعد القطيعة باللطف من الله والرحمة.

ولما شاع بين الناس ما وقع من الاتفاق واتصل الخبر بالداني والقاصي وتمشت الأخبار في الآفاق، استبشر النس وكثرت الخيرات ورخصت الأسعار ورفع الله الفتن. فتنعموا نعيم أهل الجنة وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن واتصل الخبر إلينا أنهما التقيا ساعة من نهار. وسلم كل واحد لصاحبه ما طلبه الآخر بالرضا والاختيار.

ومن هنالك توجه أبو عبد الله محمد باي إلى مدينة القيروان، وبقي أبو الحسن علي باي حتى أخذ بخواطر أهل الجزائر ورجعوا إلى أوطانهم، وأخذ يستجلب خواطر أولاد سعيد ويماكرهم، ورحل بهم أتباعاً له ليصلوا إلى وطنهم وفي ضمائره نار تتلظى من فعالهم الخبيثة. وأراد أن يجعل لهم سمعة تغني عن أخبارهم القديمة والحديثة.

ونزل بهم في الفحص على طمأنينة وأراد أن يستأصلهم عن بكرة أبيهم، فغزاهم بليل بمن معه من خيل ورجل فسبق الخبر إليهم وأنذرهم بعض أخوانهم من المفسدين. وأحاط بهم عند الصباح ونزل بساحتهم فساء صباح المنذرين. فأنزل الله الرعب في قلوبهم وأخذوا أخذة رابية.

وتبدد شملهم ونهبت أموالهم فهل ترى لهم من باقية. وسبيت نساؤهم وبيعت أولادهم وحاق بهم مكرهم، وحل بهم من الهوان في السبي مالا رأته أباؤهم. ووصل الخبر إلى تونس يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وألف فاطلقت البشائر في الحضرة وفرح الناس بأخذهم كما يفرحون بأخذ الكفرة ولجأ أكثرهم إلى الأماكن التي تمنعهم من مساكن المرابطين، وقضي الأمر وقيل بعداً للقوم الظالمين ولم ينج من شياطينهم إلا من دخل تحت ثوب الغلس، أو من أخذ في رقعة ومنع بالنفس والفرس. عسى الله أن يقطع دابرهم من الأرض، ويسلط من بقي منهم بعضهم على بعض.

ولما كمل الله لهذا الأمير بالتأييد والنصر. وصار ذكره خبراً لذوي أهل العصر. رحل من مكانه وتوجه إلى الجريد كعادته ونزل قريباً من القيروان واتفقت له أمور أضربنا عنها وتوجه من هنالك إلى قابس. وبعث محلته السلطانية كعادته ونزل قريباً من جزيرة جربة، فصالح أهلها وأخذ في تمهيد من هنالك من رعيته وسار فيهم برفق وعاملهم بما في نفوسهم ونزل بإزاء الجبل لتسكين الفتنة التي وقعت به وهدن نفوس أهله ورجع إلى بقية ما له من المجابي في بلاد الجريد. ورجع إلى حفرته سالماً غانماً كما يريد.

فلما قرب من القيروان خرج إليه أخوه لقصد السلام فعانق بعضهما بعضاً ورقت نفوس الناس عند النظر إليهما وافترقا ورجع كل واحد إلى مكانه وعزه وسلطانه. وقال لسان حالهما هذه كرامة صرفها الله إلينا. وتلا قوله تعالى ﴿أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا﴾[1] ورضي كل واحد منهما على ما اتفقا عليه. وتحكم في عمالته وأطلق ما شاء من يديه. فالحمد لله على هذه النعمة وذهاب النحوس عن أهل الحضرة وإصلاح أحوال البلد وأتى الله بالرحمة.

وانفرد أبو الحسن علي باي بتدبير المحال السلطانية، وتصرفت أحكامه في أهل الحضرة والرعية، ونفذت أوامره في الإقليم كما يشاء. قل

---

(١) سورة يوسف، الآية رقم ٩٠.

اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء ورجع إلى مستقره وأمنه وأموره جارية على الطريق المستقيم. ذلك الفضل من الله والله ذو الفضل العظيم، وكانت غيبته هذه ثلاثين شهراً، ووصل إلى مستقر عزه يوم الثلاثاء ثالث ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وألف.

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

وكان قبل وصوله بلغه الخبر بالواقعة التي كانت من قبل العسكر لما طالبوا الداي بأرزاقهم وكادت أن تكون فتنة في المدينة وغلقت الأسواق ومدوا ألسنتهم وأيديهم وقد مر سبب ذلك عند ذكر الداي المذكور وأضرمت نار الفتنة لولا تداركهم الله بمجيئه فهدن العسكر ولاطفهم وساسهم برأيه وأخمد نارهم وهذا من بعض لطف الله الخفي ونزل بمستقر عزه بباردو ولم يدخل إلى الحضرة.

وفي أول جمادى الأول من السنة ابتدأ في إصلاح الوليمة التي ختن فيها أخاه وابن عمه وأراد أن يجعلها مختصرة فجاءت على وفق المراد، وأظهر فيها همته العلية والرتبة الملوكية.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرامها الأجسام

واحتفل كعادة آبائه وهرعت الناس إلى التنزه والفرج وفتح الباب لهذه الوليمة فدخل لها الناس من باب الفرح والفرج. ونصبت آلات السماع عربية وأعجمية وصنائع المشعوذين، ومدت أسمطة الطعام للآكلين. والحلاوات والفواكه بالليل للمتنزهين. وكانت تعد من الأعمار ولا ينكر هذه الفعال لمن أمده الله بعنايته لأنه وآباءه وأهل بيته كلهم ذووا شأن، وبر وإحسان، وهذا بنيانه في المعالي كبنيانهم، وبحره الزاخر في المكرمات اجتمع من خلجاتهم.

وبحرك من جاءه يا علي لم يقبل الدر إلا كبارا

وحيث أتينا بهذه النبذة واكتفينا منها باليسير فإنها نقطة من بحر، وغرفة من نهر. وربما أعرب اليسير عن الكثير، ولو تتبعنا جملة أخباره مفصلة لضاق بنا المجال، وعجز القلم في ميدان الطرس وما جال.

وكيف تحصر أخبار من رقي إلى الرتب العلية بسيفه وجده. واحتوى على مفاخر وأضافها إلى مفاخر أبيه وجده، كم هزم من صفوف وكم انفق من ألوف، وكم من غارات أثارها، وكم من حرب أخمد نارها، وكم باشر بنفسه من حروب، وكم هيجاء باشرته بوجه قطوب وصبر في ساعة الحرب والنزال. وألقى بروحه إلى لقاء الأبطال. وصارت لوقائعه سيرة أغنت عن سيرة البطال. وإن قالوا عنترة الفرسان. قلنا لهم هذا عنترة هذا الزمان:

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به   في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وإن قدمت في أول الكتاب أخبار من سبقه من الملوك، فإني جعلته مسك ختامهم ونظمت جواهر فعاله كنظم جواهر السلوك، لأنه حاكم زماننا، والمتصرف في أوطاننا، والماسك لأزمة عناننا، ألهمه الله إلى طريق الخير والسداد، وجعل الرأفة والرحمة في قلبه لصلاح البلاد، وخلد عمله الصالح إلى يوم التناد. ولما طلع هذا البدر في سماء هذا المجموع. ثبت أن لا بد للكواكب من الطلوع، ولا بد للبدر من هالة ويراه الرائي على تلك الحالة، وهذا الأمير بدر الدولة إذا حل بموكبه. والهالة أصحابه ومواليه الحافون به.

فمن الرؤساء القائمين بإصلاح دولته، والمساعدين له في قومته وقعدته، والباذلين نفوسهم لنفسه. والصارفين همهم في يومه وأمسه. فمنهم المقتدي برأيه الصائب وعقله الثاقب. المشير والمستشير عند مقارعة الكتائب. أعجمي الأصل وعربي التربية واللسان الفارس النجيب محمد بن الحسن. وهو من أقرب أحبابه وأنصح أصحابه متخلق في لباسه وفي مواعده بأخلاق العرب. ومحافظ على إصلاح الدولة بحسن الأدب. تشهد العرب بذكاء عقله، وبمنازلة الحروب كأبيه من قبله. فهو عمدة وعدة. ويلجأ لرأيه في كل شدة. وله لطف الله به أولاد يضرب بهم المثل. والشبل من الأسد ومن البطل البطل.

ومنهم من يستخلفه في سفره. ولا يستغنى عنه في حضره. يقوم مقامه في محلته إذا غاب. وإذا حضر لازم خدمته وسد الباب. مولاه

وتربية نعماه، القائد مراد بن عبد الله رزقه الله تعالى رضاه. ورضى سيده ومولاه. وهو ممن تحبه الرعية لرفقه، وحسن خلقه. وفيه لطافة ولين، وجانب متين.

ومن مواليه من يعتمد عليه في الحضرة بأسراره. والمطلع على مكاتيبه الواردة بأخباره. الواقف عند باب الرؤساء وباب داره. القائد مراد أيضاً ابن عبد الله من رجال دولة أستاذه محافظ على الطاعة، وملازم للجماعة، وفيه تدين ومحبة للفقراء وأهل الصلاح، وله مشاركة في علم القوم يرجى له ببركتهم النجاح. هؤلاء أكبر مواليه وأقرب من يليه.

ومنهم الفارس، والبطل الممارس، والمعتمد عليه في لقاء الأعداء، الملازم لصهوات الخيل ولو طال المدا. الصابر على الغمرات إذا لقحت الحروب، والثابت الجنان إذا وجلت القلوب، القائد مصطفى سبنيول. وغير هؤلاء كثير لا يحضرني ذكرهم.

ومن ذوي اليراعة والبراعة والآداب، جماعة من الكتاب. أكبرهم وأكرمهم نفساً الفقيه الأكمل النبيه، كاتب جده من قبل وكاتب أبيه. المتصرف في حسابات البلاد. وهو في هذا الفن وإصابة الرأي وتد من الأوتاد. صاحب الخط العجيب، والرأي المصيب، الزاهد في الدنيا وجودها عنده كالعدم. الوزير الأعظم. والفقيه الأفخم. والدستور الأكرم. صاحب العلم والقلم. ومنصف المظلوم ممن ظلم. جمال الإسلام والمسلمين. وأجمل الوزراء في العالمين. مهد الله تعالى به المملكة وشد أزرها، ووصل أسباب الدولة وأعلى قدرها. كيف لا وهو صاحب تدبيرها والقائم بصلاح أمورها، والحافل أمر صغيرها وكبيرها. من هو في الأرض ظل الرحمن، والمأمور بالعدل والإحسان، راجي غفران ربه الكريم. القاري بن القاري أحمد سليم، برد الله تعالى ضريحه، وأسكنه من بحبوحة الجنان فسيحه. آمين.

ومنهم أي من الكتاب من شهد له في ذلك بالفضيلة والشرف، الفقيه عبد الرحمن بن أبي القاسم بن خلف، من ذرية أولياء ترجى له بركة

جده ورثها خلف عن سلف، وفيه حشمة ووقار، وتلاوة لكتاب الله ومحافظة للآثار. سدد الله حاله، وجعل الصالحات مآله. ومن الكتاب المعتمد عليهم في حسن الخطاب، والخط المتصرف في فنون الآداب. الفقيه أبو عبد الله محمد عرف دحلاب. وكان قليل الاعتراف بالدنيا. هؤلاء من مشاهير الكتبة. سلمهم الله من كل نكبة. وغيرهم كثيرون. وما ذكرت هؤلاء الخدام إلا بياناً لشرف المخدوم. ولكي لا يظن الناظر في هذه الأوراق أن هذه الدولة سدى. فلهذا أظهرت لكم علماً ليكون لمن أمه هدى.

ومن مشاهير الكتبة الفقيه الأورع المؤدب الكاتب البليغ صاحب الخط البديع الذي يضرب به المثل كابن مقلة وياقوت المعتصمين، وأنظارهما الفقيه محمد صدام عرف اليمني.

ومنهم الكاتب المتقن أبو محفوظ محرز بن خلف حفيد الفقيه عبد الرحمن السابق الذكر. ومنهم الكاتب الفقيه محمد فارس، وله في علم الميقات ملكة وفيه نية وبلاهة وكانت بيني وبينه مطارحة في الشعر الملحون. وغير هؤلاء كثيرون. وإنما تعرف كل دولة برجالها. وتنصلح أمور الملك بإصلاح بطانته إذا أراد الله إصلاح حالها، وهذه الدولة إن شاء الله تعالى حفت بالسعود. وأحيا بها الفرح في القصور المشيدة من باردو، وأخذ السعد في الصعود، والأيام ترفل في حلل شبابها كما يرفل صاحبها في شبابه، والنصر والظفر مصاحب له في ذهابه وإيابه.

ولما طلع نور هذا البدر في سماء تلك القصور، وتزينت تلك المنارة والقباب واحتفلت لفرح الطهور، وسمعت الناس أصوات المثالث والمثاني وطربت النفوس، لما ترنمت ألحان المغاني فحنت ممن شاقه الطرب، وساقه الأدب. فنظمت قصيدة وأشرت فيها إلى هذا الهناء. فإن أصبت فبسعادة الممدوح وإن لم أصب فمن أنا. والله تعالى يديم عزه وجنابه العلي. ويجعله كهفاً للملتجئين إليه ولمن يستغيث ولن يخيب من لجأ إلى حماه وقال: يا علي. وهذه القصيدة الموعود بها.

أتـاك هنـاء بـالختـان مشـاب وطـالـع سعـد مقبـل وشبـاب
أقـامـك فـوق النيـرين فمن يـرم صعـوداً لمـرقـاه رمـاه شهـاب
فـلا تخش كيداً من عـدو فـإنـه وحقك من سهم القضاء مصـاب
علوت على دست الرئاسة يا علي فـطئها كمـا تبغي فـأنت مشـاب
تباشرت الـدنيا ببشـرك في العلا فكم كبـد للحـاسـدين تـذاب
وجددت بالـدار الجديـدة موسمـاً سما عن بني حفص حضرت وعابوا
وبـالقبـة الحمـراء عيشـك يـانـع يـروقـك منهـا سائـغ وشـراب
منـازل أفـراح لـديـك تجـددت تشـرف منهـا مـنـزه وقبـاب
حللت بهـا كالبـدر بين كـواكب ونـورك بـاد مـا عليـه ضبـاب
مفـاخر عن جـد بجـد وعن أب ورائـة مجـد ليس ذاك عجـاب
وبـابـك مفتـوح لقصـد مكـارم وقد سد عن نيـل المكارم بـاب
نهنأ بهـذا العز والـدهـر طيـع لـديك وهـاتيك الحـواسد خـابوا
لـك الله مـا أبهى وأبهـر سؤدداً لغيـرك عنـدي لا تشـد ركـاب
وإن كنت في سن الشبيبة فالعدا وحقك من صولات بأسك شـابوا
وإنـك بحر المكـرمات لمن يـرد وغـيـرك فيـه بلقـع وسـراب
لمن يـرتجي عفـواً لـديـك ينـاله وللضـد يا نجـل الكـرام عـذاب
إذا مـا بدا بـدر جمـالـك ضـالعـاً تمـد إلى ذاك الجمـال رقـاب
تـرفق فـإن الـرفق منـك سجيـة وإنـك مـا تـدعـو إليـه يجـاب
تـروع أبـطالاً وتـأمن خـائفـاً وإنـك في ذي الحالتين مهـاب
فبـأسـك لـلأسـد العـرين مـروع ولـو مـد ظفـر من مطاه ونـاب
فكم من أعـاد عن لقاك تحيـروا وضـاقت عليهم بيـدة ورحـاب
وإن غرقوا في بحر بأسك فلتكن نكـال عليهم مـا عليـك عتـاب
وإن جنت الأيـام عنـك فـإنهـا أنـابت وللجـاني إليـك متـاب
فـلا تبتئس من كيد ضـد فـإنمـا عليك من المولى الرؤوف حجاب
ولا زلت عن رتب السيادة والعلى ورأيـك في كـل الأمـور صـواب
وعمـرك في عـز وربعـك عـامـر وعمـر أعـاديـك البغـاة خـراب
وذكـرك مـا بين المحـافـل ذائـع يـغـنـى بـه لا زيـنـب وربـاب

فخذ من ثنائي ما استطعت فإنه ... بجهد مقل قد جفاه صحاب
أقلد در المدح جيدك والثنا ... كما الدر في جيد الملاح سخاب
فأنت محل المدح إن جاء مادح ... وكل الذي فوق التراب تراب

ولما ذكرت هذه القصيدة وأثبتها في هذا المحل وجب علي أن اثبت القصيدة التي مدحته بها يوم لبس الخلعة السلطانية، وخرج تحت السناجق الملوكية، وكان يوماً من أعجب الأيام. وطلع بين الصفين كالبدر من تحت الغمام. فقلت فيه: ـ

بدر السما أم نور وجهك يزهر ... لما خطرت بحلة تتبختر
هي خلعة خلعت قلوب حواسد ... لكن بها أحبابكم تستبشر
فأعجب لها من خلعة ديباجها ... يسبي العقول ونور وجهك أنور
حلل الجمال مع الجلال وزدتها ... عن حسنها وجمال حسنك أبهر
ما عاين الراؤون حسنك بادياً ... إلا وحقك هللوا أو كبروا
تحت السناجق قد بدا لألاؤه ... نور على علم ووصفك أشهر
يوم لبست المجد كان ثناؤه ... بين الخلائق في المحافل يذكر
ما البدر في أفق السماء ونوره ... بادي السناء فنور وجهك أبدر
قاسوك بالشمس المنيرة يا علي ... بين الكواكب في العلا تتبختر
لله سر في علاك وإنه ... يا كامل الأوصاف سر مظهر
ورأيت نعمانا بخدك مشرقا ... لي من بها تلك الشقائق منذر
وجه الغزالة والغزال ولحظه ... تحت البيارق غير أنك قسور
ولقد رقيت من المعالي رتبة ... الوصف بين الناس عنها يقصر
واستبشرت آفاق تونس مذ بدا ... سعد السعود على المنازل يقمر
جر السحاب الذيل عن أرجائها ... والرعد زمزم والحيا متسمطر
من كان مثلك في الرئاسة معرقا ... لا عيب فيه إذ يقول ويفخر
الناس من ماء وطين أصلهم ... فأعجب لذاك وأصل مجدك عنبر
من جود الخال الزكي فلم يخب ... نسلاً ومثلك بالرئاسة أجدر
يا آل بيت شاد حسن صنيعكم ... وروى ثناكم في البلاد المخبر

الدهر منقاد لكم ما تأمروا طوعاً لديكم أوردوا أو قصروا
طاب الزمان بكم وزان بفعلكم كرمت أواخركم وطاب العنصر
من قال تأثير الكواكب في الورى فالفعل منكم في النجوم يؤثر
المجد مجدكم وعبد ركابكم مهما فعلتم قللوا أو كثروا
عش يا علي في هنا مستقبل لا تختشي من دهرنا ما يحذر
عطر الثنا يروي عليك ولم يكن يوفي بحقك إن فخرك أعطر
الله أولاك البلاد فلم تزل تنهي بما ترضى النفوس وتأمر

وهذه القصيدة لم تعرض على سمعه الكريم وأثبتها هنا إضافة إلى ما لي وعسى أن نثبت غيرها فيما يستقبل وتقدمت لي قصيدة أخرى وهي من القصائد التي عرضت على سمعه ومحلها تقدم ولكن نضمها إلى أحبابها وهي هذه: -

وثقت بنصر الله تم لك النصر وعند احتباك العسر جاملك اليسر
علي علوت الناس قدراً ورفعة تساعدك الدنيا ويخدمك الدهر
فجدك منصور وأنت مؤيد وربك فعال وقد قضي الأمر
وإن مكر الأعدا بسوء فعالهم فصاحب مكر السوء حل به المكر
وما عذرهم والعفو منك سجية أكان نهار الكاف في غدرهم عذر
ألمّا يروا في يوم وسلات ما جرى على صخره لو كان يستخبر الصخر
وحجر سبيب في سبيبة قادهم إلى أسرهم والعفو من به الحر
وقد غرست أوراقهم بعروسة وبعد عروس لا يكون لهم عطر
لك الله كم تعفو قبيح فعالهم وليس لهم عما مننت به شكر
علي أبا الهيجاء تنحو لنحوهم حروباً فلا زيد هناك ولا عمرو
فلا سيف إلا ما هزرت ولا فتى سواك لها يرجى إذا صعب الأمر
ويوم التقى الصفان يوم محجل فأوله حشر وآخره نشر
بعثت لهم بالرعب كل كتيبة طيوراً تؤم الحرب يقدمهم صقر
وجيش خميس بالكماة تمده على الأرض يمشي ليس يحمله البحر
على صافنات من جياد سوابق قوادمها شهب لواحقها شقر

رأوا عجباً ما يـذهل العقـل دونه ... وإن كان جل القوم ليس لهم حجر
سـمــاء قتــام والـنجوم أسنــة ... بــوارقهــا بــرق أهلتهــا البشــر
فـولـوا حيـارى والمنـايـا تـوابــع ... تمـر بهم زحفاً وقـد قصر العمـر
وقـد وردوا حوض الردى بصدودهم ... مــذاقتــه هـم ومـطعـمــه مــر
كتبت بهنـدي خـطوطـاً وأعجمت ... بخـطيهــا والنقط يقبـله السـطر
فـأمسوا سكـارى من كؤوس منية ... منفعـة في السم نكهتهـا الخمــر
فمالت على الأقدام منهم رؤوسهم ... ولا عجب للرأس مال به السكـر
وكم هارب تحت الظلام بـروحه ... وآخــر ملقى في جـوارحــه بتـر
وأظلمت الآفــاق عنهم فلم يبن ... إلى أحـد من عظم روعتـه قـطر
يسود ظـلام الليــل مـد رواقـه ... وظـل على الآفاق ليس لـه فجر
وفـرق بين الهام والجسـد الـذي ... تكنفهــا رمـي وفــارقــه السـتــر
وإن بكت الخنساء عن فقد صخرها ... زماناً فعنهم ناحباً كم بكى الصخر
تقــاسمت الأفعـال منــك ومنهم ... فمنك لهم روع ومنهم لك العمر
وكم نظموا كيـداً فلم يغن عنهم ... إذا كنت ممن شأنه النـظم والنثر
عــلي هـمــام زاده الله رفـعــة ... إمام مقام في عـلاه سرى البـدر
أمير جيوش العـز في دولة الهنـا ... وباي بلاد الغـرب واتضح الأمـر
تــراه إذا مــا جئتــه في مهمــة ... يلوح على مـرأى محاسنـه البشر
عليــه من الـرحمن كــل تحيــة ... تمــد بـأعــوام ويتبعهـا الـدهـر
ولا زال أهــلاً للمحـامــد والثنـا ... وفيــه وفي علياه ينتـظم الشعـر

وهي قصيدة طويلة ولكن اقتصرنا على بعضها. ولما قضى الله تعالى ويسر بالسعادة عرضت على مسامعه ما أمليته من بعض محاسنه ومحاسن أبيه وجده ولم يكن لي فضل فيما جمعته إلا أني التقطت الجواهر من بحرهم، ونظمته في سلك الأماجد الذين من قبلهم. وإن كان لهم التقدم بالسابقية فإن في الخمر معنى ليس في العنب وإن كنت ممن ليس له يد بهذه الصناعة، وأتيت إلى سوق فضله بهذه المزجاة من البضاعة. فقبلها بقبول حسن. جعله الله في بركات سميه أبي الحسن. فغمرني بفضله وإحسانه، وأجازني جائزتين بيده ولسانه. وما عسى أن أقول في من الهمه

الله لتدبير الرعايا، وأجرى على يديه الأحكام والعطايا. أصلح الله حاله في دنياه وآخرته. وآتاه كفلين من رحمته.

ولما عزم ركابه الشريف على التوجه بالمحلة كعادته ابتدأ بزيارة الزوايا للتبرك كعادة أبيه وجده. فزار الشيخ سيدي محرز بن خلف والشيخ سيدي أبا القاسم الجليزي والسيدة عائشة المنوبية وطلع لجبل الجلاز وصعد لمقام الشيخ سيدي أبي الحسن الشاذلي على أقدامه، تقبل الله سعيه وزار عدة أماكن أخر وأحسن إلى أهلها وبعث لعدة مشائخ بالإحسان. ثم رجع إلى منزله بباردو .

وأول جمعة من رجب الأصم دخل إلى تونس وزار الشيخ سيدي أحمد ابن عروس، وصلى الجمعة بالجامع الأعظم وعند انفصاله خرج إلى زيارة والده وتطاولت الأعناق لرؤيته فأدى حق الزيارة ودخل إلى دار سكنى أبيه وجده، وجاءه حاكم الوقت إلى مكانه فقضى حقه بالتسليم ثم عاد إلى منزله بباردو، ويوم الأحد ثالث رجب توجه إلى القنطرة وأقام بها ثلاثاً.

ومن هناك سافر إلى عمله أعاده الله سالماً. وحيث ذكرت القنطرة وجب أن نذكر بعض محاسنها لأنها من المتنزهات الغريبة في الإقليم الإفريقي.

وهذه القنطرة من بناء جده الإمام المرحوم برحمة الله تعالى صاحب الخيرات والصدقات أبي المحاسن يوسف داي رحمه الله، بناها من ماله احتساباً لله لينتفع المسلمون بها وأنفق عليها أموالاً جمة، وكان بناؤها سنة خمس وعشرين وألف فجاءت من أحسن ما يكون وجعل بها أرحاء تدور بالماء وبنى بها برجا لطيفا.

ولما سار إلى رحمة ربه تولع بها خادمه نصر الطواشي فزاد فيها عدة بساتين، ومن بعده تولع بها المرحوم أحمد شلبي وشيد فيها المنارة الرفيعة واهتم بها غاية الاهتمام حتى جاءت صنع الله. ولما سار إلى رحمة ربه ووقعت الفتن كاد أن يتلاشى حالها فتداركها بعزمه وحزمه المكرم علي باي فزادت محاسنها على ما كانت عليه، وصارت من الأماكن التي يضرب بها المثل. وغدت أحسن مما كانت قبل. فلو نظرها بديع مراكش لقلنا له أنت

بدعة وهذا هو البديع. وإن شمخ إيوان كسرى فإنه تهدم وعلا هذا البنيان الرفيع. وإن فخر النعمان بن المنذر ببناء الخورنق والسدير، قلنا هـذه القنطرة ومنازهها والوادي والغدير. كيف لا تفتخر هذه البقعة وهي ذات المنازه والقباب التي حيطانها ذات العماد. وشيدت معـالمها وتـزخرفت بالنقوش المذهبة حتى قيل لم يخلق مثلها في البلاد. وصنعت العجائب على حافتي الوادي. وجاءه طائعاً فتياً لثمود الذين جابوا الصخر بالوادي. وبكت حمامة بدموع نواعرها وزاد حنينها لما صارت أختها بالغرب. ودارت دوائر نواعرها -وفقدت قلبها فهي تدور على القلب. وكان هذا الدولاب الذي أحدث بالقنطرة على طابع مجردة أحسن مما عمل في حماه وأولى.

وإن كانت نواعير حماه أسبق بالزمان فالآخرة خير لك من الأولى. وهذه الأبنية التي تمت محاسنها تذهب عن قلب ناظرها الوحشة. فلو رآها أنو شروان لقال لصاحبها أنت أنا وهذه قصور الدهشة. فمن نظر إلى تلك التماثيل المصورة حكم بذوقه أن ليس لها مثيل. ومن يرد الإكثـار في وصفها فعليه بالقال والقيل. وبهاء فردوسها يشوق ناظره إلى فردوس الجنة. وبه من الفواكه العجيبة ما لا يوصف وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وله الفضل والمنة. ولقد تنزهت في تلك المحاسن. ونظرت إلى عذب الماء الذي هو غير آسن. وقد جرت جداوله ودخلت البستان فدخلت مروجاً وتطلعت إلى البرج العالي المطل عليه فتلوت تبارك الذي جعل في السماء بروجاً. ونـظرت إلى الكشك الـذي في صدر الإيوان وهو مـطل على الخليج. فعاينت من نقوشه وصناعته التي أوتيت من كل حسن بهيج، فجعلت فيه عدة أبيات تحسن أن تكون تاريخاً لمحاسنها، وتفاءلت بالسعد في مصارع التاريخ وهو طلع السعد لساكنها. فقلت: -

فـردوس قنـطرة يـا طيب الأرج	تبارك الله عن ذي المنظر البهـج
وبـرجك الضخم كـالإيوان نشـأته	والكشك في البرج كالإيوان للفرج
إن حل في الصدر صدر الملك قلت له	لقد حللت بصدر غير ذي حرج

وعدد التاريخ في المصراع الأخير وهو- قد جاءك السعد في العالي

من البرج - وهذا دليل السعد إن شاء الله تعالى ولا بأس بإيراد هذه القصيدة ليجتمع كل قريب بأقاربه وتكون بتمامها إن شاء الله تعالى مفيدة وهي هذه.

فـردوس قنـطرة يـا طيب الأرج تبارك الله عن ذي المنظر البهج
ويـرجك الضخم كـالإيوان نشـأته والكشك في الصدر كالإيوان للفرج
إن حل في الصدر صدر الملك قلت له لقـد حللت بصـدر غيـر ذي حـرج
بنـاؤه بتـمـاثيـل منـوعـة بغاية النقش ما يغني عن السرج
وشـاهق في عـلاه مثـل سيـده يرقى له فـوق أعداد من الـدرج
سمـاءه ذهب حيـطانـه عجب نقـوشـه نخب والبـاب من سبج
سعـادة بسعيـد الملك قـارنهـا سعد السعود بأعلى الأفق في الأرج
بهمـة من همـام فيض راحتـه لا تشتكي بـذل انفاق ولا زعـج
وقبـة الملك قد شـدت دعائمهـا على استـواء بلا ميـل ولا عـوج
جاءت كذات عماد في محاسنهـا عمـادهـا بين مبيض ومنضـرج
بـاي البلاد علي القـدر واحدهـا عماد بيت المعالي كهف كل لج
بدائع لم تـدع لبـاً لنـاظـرهـا يصبو لها كـل قلب بالغـرام شج
يشـوق للخلد من ينظر عجائبهـا وينفق العمـر بالساعـات والـدرج
كـل المحاسن قـد اتقنت صنعتها زد في عـلاك بلا لـوم ولا حرج
إن جاءها ليسلي القلب قاصدهـا يفتـح لخاطـره بـاب من الفـرج
ويسرح الطرف في مرأى بدائعها بزخرف النقش أو بالماء والمـرج
والنهر يجري إلى الدولاب منعطفاً تـراه منعـرجـاً في إثـر منعـرج
وصـوت دولابـه في حسـه نغم أصوات معبد في الثاني من الهزج
وحـافة النهـر إن مـر النسيم بهـا كالسيف منصقلا في كف مختلج
والروض لما تحيـا بالصبـا عبقت أزهـاره وذكت عن طيـب الأرج
يسقى بمـاء معين من ينـابعـه فصيـر التـرب طيبـاً لينـاً لـزج
ومنيـة النفس مـلء العين رؤيتـه تنفي الهموم على ذي الباطن السمج
يـا أيهـا الملك الميمـون طلعتـه تهدى من الضيم بالأرواح والمهج
تبـارك الله عن لـفظ يؤرخـهـا قد جاءك السعد في العالي من البرج

وهذه المنارة التي بالقنطرة من أعجب المنتزهات. وأعجب من ذلك السعادة التي حفت بها من باي البايات.

وكان الناظر على بنائه. المنصرف في إتقانه برأيه. الباذل همته. الملازم خدمته. الواقف عند الأوامر الشريفة. المشيد لتلك البناءات المنيفة. الناصح الوافي. عبد الرحمن عرف الرفرافي. وهو من رجال الدولة العلوية. وله عقل ثاقب وأخلاق مرضيه. وفيه طلاقة وجه ولين وعقل رزين. والخادم يدل على المخدوم. ولكل مقام مقال معلوم. ولما حل ركابه الشريف بها أقام ثلاثة أيام، ورحل عنها كالهلال وعسى أن يعود كبدر التمام. فتوجه إلى الكاف متوكلاً على ربه. فنال أمنيته وبلغ ما أراد من إربه. ولقد سمعنا بيوم وصوله فكان وصول. ويوم دخوله قابله أهل البلاد بأحسن قبول، وخرج إلى لقائه ابن خرطان وابن يوسف بمن معهما من جماعة الصبايحية. وأديا حق الطاعة فرضيت عنهما تلك الأخلاق الرضية. ودخل البلاد بهمة ملوكية. وتفرجت أهل البلد في تلك الطلعة البهية ولم يبق من أهل الكاف صغير ولا كبير إلا من كان تحت اللحود. وكان يوماً مشهوداً سر به الشاهد والمشهود. وأطلقت البشائر في البرج وتكلمت بأفواه المدافع. وتمشت أصواتها وأسمعت من به صمم وقالت: هذا هو الفخر الذي ليس له مدافع. وبلغني أن عدة المدافع التي أطلقت ذلك اليوم تنيف على السبعين. ولم يحصى أحد عدد الزرابز والخزائن وبقيت من أول النهار إلى حين. وتم الفرح بهذا الفتح الجسيم. وذلك الفضل من الله، والله ذو الفضل العظيم.

ولما استقر في دار سكناه. وبلغ ما تمناه، أقبل الناس بالسلام عليه. وما منهم إلا من خضع وقبل يديه. وهنا نكتة تدل على ما فيه من الظرافة. وتعلم أن أخلاقه مجبولة على السياسة والرأفة. وهي أن جماعة من المتعصبين كاتبوا من بالحصار وحذروهم بطشه. فأراد بسياسته أن يذهب عنهم الوحشة. فبعث إليهم صاحب سره، الواقف عند نهيه وأمره، المتخلق بأخلاق العرب. المنتمي إلى العجم في النسب، الشيخ محمد

ابن الحسن. وكان سفيراً بينهم في أول الأمر وفي آخره بالغ فأحسن. وكان أهل الحصار في ريب فأزالها. وأمانيهم متعلقة بالخوف ففك عقالها.

ولما أراد آغا الحصار أن يؤدي حق الطاعة، وأن ينتظم في سلك الجماعة. هبط من الحصار على وجل. وتردد خاطره بين الأمن والأجل. فقال بعض أصحابه لمحمد بن الحسن: سر معه ليحصل له الأمان. فأقسم أن لا يبرح من مكانه إلا أن يرجع صاحبكم حيث كان. وهذا من ظرفه وهو به أمثل. والرسول صفة المرسل. ولما وصل الآغا إلى حضرة الباي قابله بأحسن، وجدد له ما كان أعطاه قبل ذلك من الأمان. وخلع عليه كركاً كان أعده له من قبل، ونشرت رايات العز على رأسه وضرب الطبل، ورجع إلى مكانه سالماً، وبالقبول والإحسان من الباي غانماً.

وهبط بعده محمد المليني كاهية الحصار المذكور ومعه الإصاباشية فقابلهم بالبشاشة والسرور. وكان دخوله إلى الكاف في الخامس عشر من رجب الفرد. فنال من بركة هذا الشهر ما لم ينله أحد. وبقيت البشائر ثلاثة أيام. وظهر فيها من الطاعة ما ظهر من العصيان في خمسة أعوام. وفي السابع عشر منه تزوج بكريمة من كرام الأقيال. جعلها الله بالوفاء والبنين والإقبال.

وطلع في العشرين إلى الحصار وتنزه في منظره، وأحاط خبره بما فيه من أوله إلى آخره، وأنعم على من به بإحسانه ولسانه وبالغ في الإكرام وتنصلوا بالاعتذار وهربوا من نار العصيان إلى جنة الطاعة فصارت عليهم برداً وسلاماً وهو متأهب للرواح إلى منزله ودياره. ليصوم شهر رمضان المعظم ويتملأ من مآربه وأوطاره. والله يبلغ كل نفس مشتاقة إلى رؤية أهلها. ويعيد شمس طلعته إلى بروج سعادتها والشمس تجري لمستقر لها. وهنا ما انتهى به خبري، وما أمليته من ذكري، وما التقطت هذه الجواهر إلا من بحره. ولا تعلمت النظم إلا من نثره. وإن مد الله في الأجل، وجعل فسحة في العمر والأمل، لأجعلن كتابه مستقلاً وأشحنه بجميع مآثره. وأرصعه بدرر محاسنه من أوله إلى آخره. إن شاء الله، والله يبلغ كل نفس ما تتمناه.

الخاتمة

وفيها أربعة فصول

الفصل الأول

قد تقدم في أول الكتاب التعريف بتونس وما نقلته من أقوال المؤرخين هل هي قديمة أو محدثة، والذي صح عنده أنها محدثة مشى على قول العلامة ابن الشماع ولكن لم يشف الغليل فيما نقله عن المؤرخين وهو من العلماء الراسخين وكان في أيام ملوك بني أبي حفص أواسط دولتهم، وكانت تونس في زمانه في غاية الشرف مشحونة بالفضلاء والعلماء ومن يقتدى بهم وصنف كتابه للخليفة أبي عمر وعثمان والعجب له كيف رضي بهذا القدر اليسير وقصر في أماكن كثيرة ونبهت على بعضها وعجزت عن البعض لحشمتي منه لأني لست بكفء له.

ولما تكلم على أصل تونس وبنائها لم يستوف الكلام عليها إلا إنه قال: أحدثت بعد الثمانين من الهجرة إلى آخر ما ذكر وقد تقدم في أول الكتاب وعللت بعض أمور مما ذكرها وربما ذيلت عليه وعللت ما قاله غيره ولكن بقيت أمور تمس بهذا المحل نأتي بها إن شاء الله ونذكر بعض أمور حدثت في هذه الدولة التركية وبعض أمور وقوانين أحدثت بعد الدولة

الحفصية وبعض أمور باقية على حالها كما كانت عليه إلى أن نستوفي ما نقدر على جمعه ليكون سلماً لمن يأتي بعد أن شاء الله تعالى.

وقد تقدم أن الذي صح عندي أنها قديمة من بناء الأول، وإنما فتحت في زمن حسان أو في زمن زهير على اختلاف في ذلك بين المؤرخين وأنها كانت مسورة ولها خندق يدور بها. ثم ذكرت أن الجاري على ألسنة أصلها أن السور من بناء الشيخ سيدي محرز، وهذا القول عليه جماع أهل تونس وكنت اعتذرت في الأول وعللت قولهم بقولي ولعله جدده بعد المحنة التي وقعت على أهل إفريقية من أبي يزيد الخارجي وقد تقدم أكثر هذا الخبر.

والآن أقول: إن السور الموجود في زماننا هذا هو غير السور الذي بناه الشيخ سيدي محرز رحمه الله والذي بناه الشيخ دثر ولم يبق منه شيء، والله أعلم وأظنه هو الذي كان دائراً بالأرباض الذي منه باب الخضراء وباب أبي سعدون وباب الأقواس وباب الفلاق وباب عروة وغير ذلك مما هو معلوم عند أهل تونس، ويشهد لهذا ما ذكره ابن الشماع أن ابن تافراجين جعل نصف كراء المعاصر أو ثلثه وقفاً على بناء السور الذي [illegible] أن الأوقاف التي هي الآن على السور من تلك [illegible] والله تعالى أعلم. وبقيت من هذا السور بقية إلى آخر أيام بني أبي حفص لأن أحوال البلد تغيرت وتلاشت في آخر الدولة مما كان يقع بينهم من الأفتان والمحن في طرف من ذلك نسأل الله اللطف بمنه وكرمه وكذلك المكان الذي يقال له القلعة بمقربة من الجبارة خارج الربض القريب من مقابر الجلاز وإنما سمي بذلك لأنه كان ثلمة في السور المذكور ولما دهم أهل تونس العدو من النصارى وفروا بأنفسهم خرجوا من هنالك خيفة أن تؤخذ عنهم الأبواب، فخرج أكثرهم من هنالك فكان يقول بعضهم لبعض أخرجوا من الفلة أو خرجنا من الفلة وهذا الإسم باقٍ إلى اليوم. وسمعت أيضاً هذا الخبر من رجل حدثني عمن أدرك تلك الحادثة والله أعلم بحقيقة ذلك.

وكذلك لم تكن تونس في أول أمرها قاعدة من القواعد لأنها إن كانت مما فتح فتكون أحوالها تلاشت أو لم تكن عامرة كغيرها، وإن كانت محدثة فقد تكون صغيرة في أول أمرها ثم تزايد أمرها بعد ذلك ولكن الذي نقله ابن الشماع مخالف لما ذكرناه لأنه قال: كان أبو جعفر المنصور العباسي إذا جاءه رسول من القيروان يقول له ما فعلت إحدى القيروانين، تعظيماً لها وهذا يدل على أنها كانت في غاية العمارة في ذلك العصر والله أعلم.

وأيضاً لم أجد من تصدى لها أو دون فيها إلا ما ذكره ابن الشماع أو من تعرض لها عفواً من غير قصد، ويمكن أن تكون فيها عدة دواوين إلا إنها نهبت في تلك الفتن أو أن عمالها كانوا يحتقرون أهل هذا الفن لحقارته عندهم، ولكن ابن خلدون كان من علماء هذه البلاد وله تاريخ بعد من التواريخ العظام، حتى أنه لما حصل في يد تيمور فما أنجاه من شره إلا هذا التاريخ لغرابته ولولا خوف الملالة لاستوفيت قصته إلى آخرها.

ولنرجع إلى تونس فنقول: إنها كانت أحوالها متلاشية ولم يكن لها ذكر مع القيروان وإنما ابتدأت في الزيادة والنمو لما سكن بها بنو الأغلب، ولما تغيرت دولتهم ببني عبيد كانت دولتهم بالمهدية والمنصورية والقيروان ولما تملك صنهاجة على إفريقية كانت عمالهم بتونس وعصت عليهم غير مرة وقدم أهلها أحمد بن خراسان ورضوا به فكان يذب عنهم وبنوه بعده فكانت أحوالهم مثل الشابيين بالقيروان وأحدهم الشيخ الذي بمقبرة السكاجين بإزاء دار الحاج محمد لاز والناس يقولون: إنه من السلاطين العادلين، ولم أقف له على ترجمة لأصحح خبره.

ثم لما أراد الله بإصلاح حالها قامت بها الدولة الحفصية فعظم قدرها بين البلاد وما ذلك إلا لأنهم قاموا مقام الخلفاء وخطب لهم بأمير المؤمنين وجاءتهم البيعة من الأندلس ومن مكة شرف الله تعالى قدرها سنة سبع وخمسين وستمائة، فحينئذٍ ضخم أمر تونس وشدت إليها الرحال وهوجر

إليها من كل البلاد وكنت متشوقاً إلى الكشف عن هذه البيعة وأي شيء كان سببها، وسألت من له اعتناء بعلم التاريخ فلم يكن عنده جواب، إلى أن فتح الله على بعد زمان.

وذلك أن الخلافة العباسية كانت ببغداد وانقرضت في سنة ست وخمسين وستمائة على أيدي التتار لما قتلوا الخليفة المعتصم، وبقيت بلاد المشرق ثلاثة أعوام بلا خليفة إلى أن بويع بمصر الخليفة العباسي سنة ستين وستمائة، وكذلك بلاد المغرب ضعفت بها الخلافة المؤمنية وانهدمت قواعدها فاحتاج الناس إلى خليفة، فلم يكن أقرب منهم لما ادعوه من النسب وأنهم من قريش من بني عدي من جماعة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فحينئذ ارتفع ذكرهم وعمرت البلاد وجاءها الناس من أقطار الأرض وكثر علماؤها وانتشر ذكرها في الآفاق بحيث إذا قالوا علماء إفريقية في هذه المدة إنما يعنون بها تونس. وكان بنو أبي حفص يجلون العلماء ويحافظون على الشرع ممتثلين لأمره وأخبارهم في ذلك شهيرة.

وكان بتونس أربعة قضاة: قاضي الجماعة، وقاضي الأنكحة، وقاضي المعاملات، وقاضي الأهلة، وقاضي الجماعة عبارة عن قاضي القضاة بالمشرق. وكان بالحضرة عدة من المفتيين فمنهم من يكون متصدراً لها بالقلم ومنهم من يتصدر للأخبار فقط وإنما تنفذ الأحكام على يد قاضي الجماعة يتصرف في الأحكام الشرعية من غير مطلع عليه.

وفي المائة التاسعة ظهرت رتبة المفتي وصارت أرفع درجة من درجة القاضي، وإذا أشكل على القاضي بعث إلى المفتي يسأله ولا سيما في هذه الدولة التركية، فإن القضاة تجيئها من بلاد الترك والغالب عليهم العجمة ومذهبهم مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وأهل الحضرة على مذهب الإمام مالك إمام دار الهجرة رضي الله عنه، فاحتاجوا إلى نائب يكون بين يدي القاضي فيكون بمثابة قاضي الخصومات والقاضي التركي مقام قاضي الجماعة.

وكان بنو أبي حفص يجعلون يوم الخميس لاجتماع القاضي والعلماء في مجالسهم وتنفذ بين أيديهم المسائل المعضلة والمباحث بين العلماء والأحكام تتصرف بين يدي السلطان فلا يقع بين يديه من الأحكام إلا ما هو مشهور بين العلماء وذلك المجلس ساعة من نهار، وباقي الأيام يتصرف القاضي في أحكامه في داره أو مكان يختص به.

ولما جاءت الدولة التركية وصارت القضاة من تلك الديار، كما قدمنا، احتاجوا إلى مجلس كما جرت به العادة فجعلوه بين يدي العامل، وهو المعبر عنه بالباشا بلغتهم، فيحتفل في مجلسه في دار الخلافة، وهي التي يقال لها دار الباشا وإن لم يحضره فالخليفة الذي له ويحضر القاضي والمفتيون ونقيب الأشراف تبركاً بالنسب الشريف، وتلقى بين أيديهم المسائل المشكلة، وذلك لما جرت به العادة والعمل بالحضرة أن المدعى عليه إذا لزمه شيء عند القاضي وخاف من الميل عليه يقول أنا بالله وبالشرع وبالمجلس فيتوقف أمره إلى يوم الخميس، فإذا حضر اليوم المعلوم رضي بما يحكم به عليه هذه القاعدة إلى يومنا هذا، وبزيادة وأنه لما صار الحاكم بها كما قدمنا سرداراً على العسكر وأنه كالناظر على العامل وهو الدولاتلي بل إن العامل لا حجة له معه صارت الأحكام تتصرف في المجلس وبعد تمامها يخرجون بأجمعهم القاضي والمفتيون ويمضون إلى داره ويخبرونه بما وقع وبجميع ما حكموا به وربما يتوقفون في معضل لا يتم أمره إلا بين يديه، أما لتشاعب بين الخصمين أو لالتجاء أحدهما ببعض الأمراء فلا يتم إلا بحضرته وهلم جرا.

وفي الدولة التركية كان يحضر بهذا المجلس المذكور أربعة من المفتيين حتى إذا مات أحدهم قام آخر عوضه، إلا إن في يومنا هذا ليس بها إلا مفتيان لا غير. وفي أول ولايتهم لم يكن لهم مفتي حنفي إلا القاضي، وكان الشيخ محمد بن أبي ربيع ممن يتعاطى حل المسائل من مذهب أبي حنيفة حتى نشأت منهم جماعة تعاطوا المذهب هناك وذاع بينهم وشاع فقدموا مفتياً على مذهب الإمام أبي حنيفة، وأول من تصدر

لهذه الرتبة الشيخ أبو العباس أحمد الشريف الحنفي وذلك بعد الأربعين والألف.

وأما الذين على مذهب الإمام مالك بن أنس فكانوا في أول الدولة أربعة ولا يتقدم أحد لهذه الرتبة إلا صاحب تدين وعفاف، وكذلك الباشوات الذين كانوا في أول الدولة غالبهم كان على منهاج وفيهم من كانت له خبرة بالعلوم، وسمعت ما حكي عن أحدهم وهو فاضلي باشا وكان بعد العشرين والألف من الهجرة، وهو آخر باشا كان مقامه بالقصبة ولم يحكم بها أحد بعده من الباشوات. كتب بين يديه كاتبه تذكرة لمن يتعاطى حسابات المعاصر فكتب هذه اللفظة بالسين فقال المعاسر. ولما وقف الباشا المذكور على هذه الكلمة قال يا حسرتاه على فاضلي باشا كاتبه لم يفرق بين السين والصاد وهذا دليل معرفته ونباهته رحمه الله فإذا كان الباشا بهذه المثابة فأحرى أن تكون العلماء أعفى من ذلك وكانوا إذا حضروا بالمجلس إنما يكون منهم الأخبار بالأمور الشرعية إذا سئلوا عنها وينفذ أحكامه حاكم الوقت.

وأول من أظهر لهذه الرتبة تعظيماً وزادها بشهامته تفخيماً الشيخ أبو الحسن النفاتي ابن الشيخ سالم النفاتي، وكان الشيخ سالم مفتياً في أول الدولة معاصراً للشيخ قاسم عظوم والشيخ إبراهيم والشيخ محمد قشور وكلهم على طريقة حسنة رحم الله الجميع. ولو تتبعنا أسماء من ولي منهم الفتيا لعجزنا عن حصرهم لفوات عصرهم ويعز علي إذ لم أرهم وإنما أذكر من أدركته وشاهدته والشيخ أبو الحسن ممن رأيته وكانت بينه وبين والدي صداقة وكان عظيم الحجاب رفيع الجناب وعاصره في وقته الشيخ أبو يحيى الرصاع، وتصرف في حياته والشيخ محمد أبو زبيع وهو ممن شاهدته أيضاً وكان صديقاً لوالدي والشيخ أبو الحسن أنفذهم كلمة وأعلاهم جاهاً فكان يتصرف في المملكة تصرف الوزير المستشار بحيث أنه في أحكامه ـ إذا قالت حذام فصدقوها ـ وتمام البيت معروف.

وكان قبل ذلك أهل الحضرة إذا ترتب على أحدهم حق بالأحكام الشرعية وحكم الحاكم أو أفتى المفتي بغير المشهور، رفع أمره إلى بعض

العلماء فيخبرونه بما عليه العمل، وربما أطلعوه على محل النازلة، أو يولون له المسألة في كتاب كذا وفي موضع كذا، وإن كانت له خبرة أوقفوه على مسألته ثم إذا حضر بالمجلس الشرعي تكلم بحجته وقال: مسألتي كذا وكذا وتقع المشاجرة بينه وبين من قال بخلاف قوله وهذا مما يتجرأ به العوام على أهل العلم.

ولما سافر الشيخ أبو الحسن المذكور إلى الديار الرومية في مهمة اقتضت إرساله جاء ومعه خط شريف من الباب العالي، وأنه لا يسأل عن نص أفتى به ولا يرد ما حكم به فانحسمت هذه المادة ولم يتعرض أحد لذلك فيما بعد، وبه جرت العادة إلى يومنا هذا ولم يزل في رتبة عالية مدة حياته. ومات من كان معاصراً له، وانفرد بالكلمة هو وأخوه الشيخ علي النفاتي والشيخ محمد النفاتي.

ولما كانت سنة تسع وأربعين وألف وشي به عند حاكم الوقت يوسف داي وشنعت على الشيخ أبي الحسن مسائل شنعها عليه بعض الكارهين له، فتغير عليه حاكم الوقت المذكور فخرج الشيخ إلى ناحية المشرق لزيارة النبي عليه الصلاة والسلام فمات في الطريق في مكان يقال له الينبع وقبر هناك، وقبره مشهور وقام أخواه مقامه من بعده.

فلما تولى أسطا مراد الدولاتيه نكبهما وأقام بدلاً منهما الشيخ أبا الفضل المسراتي والشيخ أحمد الرصاع، وكانت بين الشيخ أبي الحسن والشيخ أبي الفضل المسارتي ضغائن في النفوس موجبها حب الرئاسة، فلما حلت بأخويه هذه النازلة كان ممن أفتى بقتلهما فضلاً عن العقوبة، فنجاهما الله وصودرا بالمال.

ولما تولى أحمد خوجة منصب الدايات بعد أسطا مراد طلبا منه الإذن إلى الحج الشريف فأذن لهما، ولما بلغا إلى الديار المصرية والحجازية وكتبا سؤالاً على حسب النازلة التي نزلت بهما وبما أفتى به الشيخ المسراتي، فأفتى علماء المشرق بما وافقهما، وبعد تمام الحج

رجعا إلى الديار الرومية وعرضا أمرهما على الأبواب السلطانية فقبلت حجتهما وكتب الأوامر على وفق مرادهما، وأقام الشيخ محمد في تلك البلاد وترقى إلى رتبة الموالي، إلى أن مات هنالك في حدود السبعين والألف وله عقب هنالك.

ورجع الشيخ علي النفاتي إلى تونس واستقل بمنصب الفتيا من غير منازع وعزل المسراتي وصاحبه أحمد الرصاع، ولم يزل في رتبته نافذ الأمر وموافقه في المنصب الشيخ أحمد الشريف الحنفي السابق ذكره، ومن بعده الشيخ محمد بن مصطفى الأزهري نزيل تونس إلى أن مات الشيخ علي في عزه بعد الستين والألف فعند ذلك استقل الشيخ محمد بن مصطفى، وانفرد بالمذهبين إلى أن توفاه الله سنة ست وستين وألف.

فأقيم بدله الشيخ مصطفى بن عبد الكريم، فتولى رئاسة الحنفية لا غير، وأعيد الشيخ المسراتي والشيخ الرصاع إلى مكانهما.

ولما كانت سنة أربع وسبعين صرف الشيخ مصطفى عن ولايته الحنفية وأقيم بدله الشيخ أبو المحاسن يوسف درغوث فباشر المنصب بتعفف وإمساك وصلابة في الحق ووقوف عند الكلمة فكانت تحدث من الشيخ المسراتي هفوات يأخذها عنه الشيخ يوسف المذكور ولم يتمم له قولاً ويعارضه في سقطاته إلى أن تسبب في عزله وبقي معه الشيخ أحمد الرصاع وليس له مع الشيخ يوسف إلا الاسم، والشيخ يوسف صاحب الحل والعقد إلى أن مات في الواقعة المتقدم ذكرها، رحمة الله عليه.

ولما قدر الله تعالى بالطامة الكبرى وهي الواقعة التي كانت بين العسكر والمرحوم مراد باي وقد تقدم ذكرها كان الشيخ المسراتي أحد أسبابها وهو الكاتب من إملائه الحجة التي شنعت عليه فلما لم يتم ما أراده وانتصر الباي المذكور وعاقب من عاقب عن بينة وعفا عمن عفا عن بينة صادر الشيخ المسراتي ونكبه وأراد قتله فشفع فيه صهره أبو العباس الشيخ أحمد الشريف، فشفعه فيه وذلك سنة أربع وثمانين.

ثم ظهر للمرحوم برحمة الله مراد باي أن يولي هذا المنصب الشريف

لمن يكون أهلاً له، فوقع اختياره على شيخ الوقت بالإطلاق، ومن شدت الرحال إليه من جميع الآفاق،° الشيخ العالم العلامة، والحبر الفهامة شيخ مشائخ الديار التونسية، ومن يشار إليه بالبنان في العلوم الموسوية، ومن تفتخر به الفضلاء من أمة محمد، ومن سعى بسعيه المشكور وعمله المبرور وأدركته بركة سميه لما سمي بمحمد، المتفنن في العلوم النقلية بما رواه عن الثقاة، المتصرف في الغوامض العقلية بممارسة العلوم وبالحفظ والثبات، الذي طلع في سماء البلاغة بعلم البيان فأظهر القطب، ونحا نحو المعرفة ففاخرنا به العرب، الهمام الأمجد الشيخ أبي عبد الله محمد المدعو بفتاتة، سلم الله من كل الحوادث ذاته، وصرف عنه كيد الكارهين، ومتع أحبابه بعلومه الشريفة وحياته إلى حين. وبشهادة الله لم استوف حقه فيما قلته، ولم أك من المتعصبين في مدحه بما نقلته، ولم يكابر إلا من طبع على قلبه. وانقطع سببه من سبه.

ومن يقل للمسك أين الشذا   كذبه في الحال من شمه

ولما عرض عليه المرحوم مراد باي أن يتولى هذا المنصب أبى ذلك. وامتنع من التعرض لهذا الأمر الخطير والدخول في ضيق هذه المسالك. وتقرر امتناعه عند أهل البلاد فعظم عند الناس قدره وزاد مكانه وعلم الخاص والعام أن تمنعه تنزهاً وديانة، وكنت تطفلت على ذوقه السليم بأن مدحته بعدة أبيات وقابلت سبائك أبريزه بما سبكته من مثاقيل النحاس، فستر عني بستائر حلمه وهكذا فليفعل الناس بالناس وأردت أن أبث بعض ما قلته على جهة الإيناس وتغزلت في أول القصيدة لمساعدة كنيته على الروي فقلت:

بديع الحسن لو أبصرت ذاته   رأيت الحسن مجموعاً شتاته

ولنا مستمر في تغزلي إلى التخلص وهو المراد، وفيه إشارة لإعراضه:

فأعرض جانباً وازور عني   كما أعرض عن الفتيا فتاته

ولولا خشية الإطالة لأتيت بها. ثم بعد أيام اضطر الباي إليه لأنه لم يجد من هو أفهم منه سلمه الله لما كان يعرف من ديانته وعلوه على غيره في منصبه فألزمه على كره منه، وهذه كانت تعد من حسنات الباي رحمه الله فامتثل لأمره ذلك، ورضي بما قضى به المالك، فسر به أهل الصلاح والسداد واقتدوا به إلى طريق الرشاد، فأخذتني أريحية أدبية، ومدحته بقصيدة رائية، وجاءت براعة استهلالها وتخلصها صنع الله الذي اتقن كل شيء ببركة نيته الصادقة، ومطلع القصيدة وفيه تغزل وتورية حيث قلت:

تمنع يوم الوصل واستعظم الأمرا وأعرض إجلالاً فقلت له صبرا
مليح جرى ماء النعيم بوجهه وفي كل قلب من حرارته جمرا

ورحت وأنا مستمر إلى أن تخلصت وأنه من المخالص العجيبة التي حصلت لي ببركته أيضاً فقلت:

تعلم من شيخ الأنام تمنعاً ولكن ولي الأمر ألزمه جبرا

ولا يخفى على أهل الأدب ما أشرت به في قولي تمنع واستعظم وفي التخلص ولكن ولي الأمر ألزمه جبراً فلا تخفى هذه الكلمات إلا على أكمة لا يبصر القمر وما اطلعت من ذكره إلا بما يستحقه من الفضائل ولم أبلغ إلى كنه وصفه والحق يقال، والشيخ المذكور ممن اعتقد حبه في الله لا لشيء إلا لشرف علومه وإن كنت حرمت أن أغترف من بحره ولم يساعدني الحال أن ألتقط من درره فلقد أصابني رذاذ من وابله وذلك أن نجله السعيد النجيب الشاب الأنجد الشيخ أبا العباس أحمد بن الشيخ المذكور، عندي له يد أفادني بمسائل فتق ذهني بها واستفدت به زاد الله في حسناته وهو ممن ترجى بركة أبيه إن شاء الله لأنه تصدر للتدريس في حياة والده، وله مسائل دقيقة على كتب القوم وعدة علوم زاده الله من فضله وكذلك أخوه إبراهيم ممن أحبه في الله ويحبني فيه، وأظن إن شاء الله أن والدهما كذلك، ولولا خشية الملالة لأمليت في مناقبهما عدة كراريس وفي هذه النبذة كفاية، وأحلف بالله: ما رقمت هذه الكلمات إلا بوقاحة مني لأني لست من أهل التعرض إلى ذكره.

ولما تم له من الأمر بهذه الرتبة ما تم، باشرها بتواضع ووقار ولم يغير من هيئته بل زاد في تواضعه يقضي حوائجه بنفسه ويباشر أموره لا يكلف بها أحداً، ولم يأخذ على ما يكتبه أجراً، عامله الله بنيته وحفظه في ذريته. وأعجب من هذا أنه لما امتحن في الواقعة التي سلمه الله منها بسعاية الكارهين، لما قبض عليه وعلى الشيخ يوسف درغوث، وقد تقدم ذكرهما، وقتل الشيخ يوسف ونجى الله من ذلك الشيخ محمداً المذكور، كل هذا من بركة العلم الشريف لأنه لم يدلس فيه ولم يدنس.

وكنت كتبت له رسالة هنأته، ولكن لم تصل إليه ومنعتني منه الحشمة وافتتحها بقولي ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾[1] ـ والحمد لله الذي أنزل على عبده أن أسر بـأهلك بقطع من الليـل ـ ﴿إنا منجـوك وأهلك إلا امرأتك﴾[2] ـ وألهم عبده لما حصل في وثاق الأعداء أن فر من بين العسس فكتب له النجاة آلا وأعوذ بالله من قوم ليس لهم عهد يعد ولا ذمة لذمام ولا يراعون فيكم آلا، وهي طويلة أضربنا عن ذكرها وهو حفظه الله تعالى ملازم للاشتغال بالقراءة وله عدة دروس في الجامع الأعظم وفي مسجده بمقربة من كتاب الوزير، وفي داره هذا مع اشتغاله بما ينفع الناس، أذهب الله تعالى عنه الكدر والوسواس والبأس.

ومن نيته الصالحة أن جعل الله رفيقه المفتي على مذهب الحنيفة الشيخ أبا السعادة عبد الكبير ابن المرحوم الشيخ أبي المحاسن يوسف درغوث، قدم بعد وفاة والده للخطبة بجامع المرحوم يوسف داي، ثم قدم للفتيا بعد تمنع واستعفاف فسار بسيرة مرضية، ولم تجر أحكامه إلا على القواعد الشرعية، وهو في عنفوان الشباب، ولم تظهر له صبوة في السابق يلزم منها العتاب، وهو حفظه الله من أهل الصلح بين الخصمين، وغالب أوقـاته في المساعدة بين الناس بلا منّه. وكان تقديمة أول سنـة تسع وثمانين وألف عن كره منه وجبره على ذلك علي باي لطف الله به، وهو حسنة من حسناته كما أن رفيقه حسنة من حسنات والده رحمه الله.

---

(١) الآية ١، سورة الإسراء.

(٢) الآية ٣٣، سورة العنكبوت.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثاني

فيه حوادث ظهرت في الديار التونسية غير ما كانت عليه في الدولة الحفصية

كانت أيام بني أبي حفص في أول بدايتهم من غرر الأيام، وانتشرت دولتهم حتى عمت بلاد الإسلام، وتقدم من ذكرهم ما فيه كفاية، ولكن نأتي بطرف من ذلك ليكون خبرة لأهل الدراية، وكانت دولتهم على أسلوب العرب وعدتهم الرماح والسيوف والنبال ولم تكن المكاحل ظهرت في مبتدأ أمرهم وإنما ظهرت في آخر أيامهم في أيام ألفنش الأحول صاحب قشتالة، لعنه الله، ومن هنالك أخذت صناعتها في الزيادة إلى أن كثرت في غالب المعمور.

وكانت عساكرهم يدعون بالموحدين لأنهم من أتباع ابن تومرت كما تقدم ذكره لأنه سماهم بالموحدين لزعمه أنه قائم بالتوحيد، أي بكلمة التوحيد، وجعل لأصحابه توحيداً بلسان البربر فمن لا يقوم بحفظه لا دين له فبقيت أشياعه من بعده على دعوته واقتدوا بإمامته.

والطبقة الأولى من بني أبي حفص امتد سلطانهم من تلمسان إلى طرابلس الغرب ولما تقهقرت دولة بني عبد المؤمن من بلاد المغرب

وكثرت الفتن بين أبناء الخلافة منهم تسمي بنو أبي حفص بالخفاء وجاءتهم البيعة من الأندلس وغيرها وجاءتهم أيضاً من مكة المشرفة لعدم الخلافة بالمشرق، ولم يزل أمرهم على أحسن حال حتى وقع بينهم التحاسد وافتراق الكلمة فأخذت دولتهم في الإدبار إلى أن كانت دولة السلطان محمد بن الحسن خرجت طرابلس عن حكمه وأخذها عسكر آل عثمان وكذلك الجزائر، ولم يبق بيده إلا تونس وبلد العناب. وفي أيام ولده الحسن نافقت القيروان على أيدي الشابيين ونافق القليعي بسوسة والمهدية.

وفي أيام السلطان أحمد بن الحسن وصل العسكر العثماني إلى الحمامات، وطالت أيام السلطان أحمد في الدولة وأحيا بعض ما درس منها وكان عسكره لا يزيد على ألفي فارس وسماهم الزمازمية ويركبون الخيل وكان مغرما بالتنجيم وأهله وبعلوم الأجفار، وكانوا يخبرونه بزوال الدولة عنه وتصير إلى قوم لغتهم أعجمية إلا إن سلطانهم يمشي على الأقدام لا يركب الخيل فذهب به رأيه كل مذهب فلم يجد ملكاً على هذه الحالة، فاتخذ جنداً من العبيد تفاؤلاً، وصارت لهم دولة يقال لها الدولة الجناوية، ثم قتلهم وكذلك سمى مملوكاً له علي باشا لما كان يحذره والله غالب على أمره.

ولما جاءت الدولة التركية ظهر ما كان يحذره، لأنهم مشاة على الأقدام وكبيرهم الذي يقال له الداي، كذلك فهو بمنزلة السلطان على الحنفية لأنه المتصرف بحكمه في الإقليم فصحت الأخبار التي أخبر بها ولما تمكن حكمهم ودانت لهم البلاد اتخذوا اصطلاحاً وأحدثوا أموراً غير ما كانت عليه أولاً، فمن ذلك أن لهم جماعة يقال لهم أوده باشية وأحدهم أوده باشي، معناه رأس الدار، لأنهم يقدمون المضاف إليه فلفظة أوده هي الدار وباشي هو الرأس وأصله باش والياء زائدة عندهم إلا إنها كأحد الضمائر، وتحت يد كل واحد منهم جماعة نحو العشرين وأكثر وأقل ولذلك الواحد النظر على جماعته وأعلى من هؤلاء جماعة يقال لهم بلوك باشية وأحدهم بلوك باشي والبلوك اسم - للجماعة، والباش للرأس كما

تقدم، ومعناه رأس الجماعة، وهو أعلى من لفظة أوده أعلى رتبة منه، وكلهم بالترقي فمن الأوده باشي إلى بلوك باشي ومن البلوك باشية يصير آغتهم وهو كبيرهم لا يصدرون ولا يردون إلا عن مشورته.

وكان الآغا في مبتدأ أمرهم تأتيه الأوامر السلطانية من الباب العالي، من عند الآغا الذي هناك ثم انخرمت هذه القاعدة فصار يلي هذه الرتبة أكبرهم، ولم يحتاجوا إلى أمر سلطاني وعدد الأوده باشية قبل اليوم مائة وخمسون، ولما تزايد العسكر زيد فيهم أيضاً، فعددهم في زماننا مائتان وإذا نقص واحد منهم حطوا بدله، ولهم لباس يتميزون به عمن سواهم ولهم أقبية بأكمام طويلة واسعة من عند المرافق وفم الكم ضيق ويضم عند الكوعين بصناعة محكمة، وعلى رؤوسهم طراطير من الجوخ بصناعة مكلفة يمتاز بها، ويمتاز البلوك باشي بعمامة يكبرها قليلاً فيعرف بها، وكذلك الآغا له عمامة مفردة لا تكون لغيره ولها رجل مكلف بإصلاحها ومن تحته جماعة يقال لهم إيه باشية، معناه الحجة الكبرى، لهم علامة على رؤوسهم يقال لها إسكفة مزركشة بالقصب يلبسونها ساعة من نهار في مواكبهم وهم ركبان أمام آغاتهم.

وكان في أول الأمر الحكم للآغا والجماعة التي ذكرنا إلى أن كان من أمرهم ما تقدم عند ذكر مقتل البلوك باشية وتولية الحاكم الدولاتلي، فصار غالب النظر في الأحكام له إلا ما قل ولهم مكان يحضرون فيه كل يوم ساعة من نهار، فيحضر الآغا وهذه الجماعة المذكورة في ذلك المكان ويسمونه دار الديوان، ولهم شواش ستة ولباسهم مثل الأوده باشيه، إلا إن الذي على رؤوسهم فيه بعض خلاف فيعرفون بذلك فإذا اجتمعوا في المكان المذكور جلس الآغا على كرسي في الصدر ثم الذي يليه بحيث لا يتقدم أحد عن رتبته، ولهم كتبة وترجمان ولهم أربعة من أكابر الأوده باشية يقال للواحد منهم باش أوده، معناه كبير رؤوس الديار، ويصلون إلى هذه الرتبة بالترقي ثم إذا انفصل عن هذه الرتبة صار من البلوك باشية ويترقى إلى أن يلي منصب الآغا وعادة الآغا ستة أشهر لا يخرج من بيته إلا إلى

الديوان أو في يوم معلوم، ثم إذا جلس في الديوان يكون أكبر الشواش قائماً بين كتفيه والترجمان بإزاء الأغا، فإذا أخذوا مراتبهم قام خطيبهم فدعا بدعوات للسلطان وللعسكر وقرأت الفاتحة ثم يخرج مناديهم عند الباب يقول من له دعوة فليدخل، فإذا دخل قابله الترجمان وأخذ دعوته من لسان ثم يلقيها للآغا ثم ينادي مناديهم إلى الباش أودات الأربعة، فيحضرون بين يدي الأغا ويعرض عليهم تلك الدعوة، فإن كانت من الأمور الشرعية ردوها إلى الشرع وإن كانت قانونية فعلوا بآرائهم أو بما جرت به العادة بينهم، وإن كانت مسألة معضلة أخروها إلى مشورة حاكم الوقت، وإن كانت صدرت عن إذنه أمضيت فإذا تمت أحكامهم حط لأكابرهم طعام أكلوه، ثم ينصرفون إلى مآربهم، إلا أن آغتهم يروح إلى بيته وإذا افترق ذلك الجمع انصرف من أكابرهم جماعة مثل الخوجات وأكبر الشواش، ومضوا إلى حاكم الوقت فيخبرونه بجميع ما حكموا به إلا النادر الذي لا يعبأ به هكذا دأبهم كل يوم إلى انقضاء ستة أشهر يعزل ذلك الأغا ويقوم مقامه الذي يليه وهلم جرا.

ولهم مواكب يظهرون فيها أبهة الملك وينشرون ناموساً للسلطنة، وذلك أنهم إذا أرادوا إخراج المحلة على حسب العادة نادى مناديهم وهم الشواش يركبون الخيل ويلوجون في الأسواق ويخبرون جماعة العسكر ويأمرونهم بالتأهب للخروج ومن الغد يصبحون وقد لبسوا آلة حربهم ويجتمعون عند باب القصبة ويكون الحاكم هناك، ثم يمضي الأغا والأودة باشية إلى دار الخلافة، ويحضر هناك الخوجات الذين يحملون البيارق فينشرونها ويحضر الباي المعين أو خليفته فيخلع عليه الباشا خلعة سلطانية، ثم يخرج كاهية الباشا معه وبين أيديهم الشطار والأبياك مشاة على الأقدام وتنشر الرايات الملوكية وتدق النوبة العثمانية بالطبول والأنفرة والزنجهارات، ويخرجون بأدب وسكينة من دار الخلافة إلى باب القصبة ويكون العسكر قد اجتمع هنالك، فإذا قرب الديوان أي الجمع الذي فيه الأغا والباي إلى باب القصبة قام الداي بنفسه إن شاء ومشى في أول الصف وإن شاء قدم أحد الأكابر من جماعته وأمره بالمسير عوضه وذلك

تعظيماً له بحيث يكون هو المتصرف تلك الساعة وأمره نافذ على ذلك الجمع، فإذا خرجوا من المدينة إلى ظاهرها حيث يكون الوطن والأخبية المهيئة للسفر دخل الباي والآغا والجماعة المستعدة للسفر ورجع الباقون إلى البلد، ويكون قد تعين على المسافرين منهم جماعة يتعاطون الأحكام في السفر مثل الآغا والأودة باشية والبلوك باشية ومن يقوم مقام الداي فيهم مدة إقامتهم في السفر إلى أن يرجعوا إلى الحضرة.

ولهم أدب في رحيلهم وإقامتهم وأمور أخر أضربنا عنها، فإذا رجعوا من سفرهم بعثوا أرسالاً يخبرون بوقت مجيئهم في يوم كذا فيتأهبون للقائهم على العادة التي قدمنا، إلا إن في يوم دخولهم زيادة على ما ذكرنا وذلك أن العسكر الذي يخرج من البلد إذا صاروا من خارج المدينة وتقابل العسكران يجعلون بُروزاً، وهو أن يرموا بمكاحلهم ثلاثاً ثم يجيبهم المسافرون بثلاث ثم يجتمع العسكران ويدخلون البلد ويكون يوماً مشهوداً تجتمع الناس لمشاهدته، ويمضي أكابر العسكر إلى دار الخلافة ويخلع هناك على الباي أو على خليفته خلعة سلطانية ويرجع بأكابر الديوان إلى منزله وتدق هنالك الطبول ساعة ثم ينصرف ذلك الجمع هكذا دأبهم في كل عام مرتين وهذا الناموس لم يكن مثله في البلاد الغربية التي تحت أيدي العساكر العثمانية. جعل الله أعلامهم بالعدل منشورة، وأحكامهم بالتوفيق مذكورة، وجعل سيف هذا السلطان قاطعاً في رقاب الكافرين، وحكمه نافذاً لإصلاح الدنيا والدين.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الثالث

فيما تميزت به الديار التونسية وما تفتخر به بين أحبابها

إعلم أيها الواقف على هذا المجموع أن لتونس مفاخر جمة لو استقصيناها لطال بنا المجال وخرجنا عن الحد ولكن نأتي من كل شيء بطرف. وقد كانت قبل هذا الزمان في غاية من الشرف. وأهلها في النعيم والترف. بحيث لم تكن بلد تضاهيها. ونفوس أهلها مطمئنة بأمنها وأمانيها. وكانت محط الرحال. ومبلغ الآمال. إلا إن في زماننا هذا تلاشى أكثر نعمتها. ولكن بقيت منها بقية ستتلى عليك لتعلم بمزيتها. وإذا افتخرت مدينة من مدن المغرب فما أحق الفخر بتونس. وإذا حل بها غريب نال التأنس من تونس.

والدليل على ما كانت عليه من رفاهية أهلها في القديم وبقيت آثاره، هو أن غالب أهلها كانت لهم جنات وبساتين يخرجون إليها بعيالهم في زمن الصيف والخريف، وتكون الناس في أسواقهم يتعاملون إلى آخر النهار ومبيتهم في بساتينهم ومن الغد يبكرون إلى البلد ولهذا كان سوق الربع وهو أكبر أسواقهم لا يفتح إلا بعد طلوع الشمس، وجرت هاته العادة إلى اليوم ولهم غير ذلك من الأعياد والمواسم والتفاخر بالأعراس الحافلة

وإظهار التنعم حتى بالمآتم وناهيك أن أعيادهم مشهورة، فمما يستعملونه في أيام العيد من الحلاوات والأطعمة التي لا توجد إلا في الحضرة «المقروض» الذي يتفاخرون به وهو مشهور بينهم لا يحتاج إلى تعريف وهو أطيب حلاواتهم وليس بعده شيء، حتى أني التقيت بمن أكله في الحضرة فأعجبه غاية الإعجاب فقال: عجبت لمن في بيته «المقروض» كيف ينام الليل، وكذلك اللحم الذي سمّوه المروزية نسبة إلى مروز مدينة ببلاد العجم يطبخونه بأبزار تفوح لها قيمة ويرون أكلها عقيب الصوم من التطيب.

وكذلك الخبز المعلوم في أعيادهم لم يـر مثله في المعمور ويتفاخرون بعظمه ونقاوته، حتى أن الرغيف الواحد لو وضع بين جماعة من الناس من عشرين فصاعداً لكفاهم، ويطول مكث هذا الخبز إلى نحو شهر وأكثر وهو في غاية الحسن.

وسبب تكبيره عندهم له ذكر فالمتقرر بينهم أن بعض العمال كان بها في الزمن السابق دامت ولايته واشتد سلطانه، فسعى به بعض الكارهين إلى استاذه وادعى أنه أسفل بالأمر وخرج عن الطاعة وحرضه على الفتك به، فتحرك إليه أستاذه بعسكره فلما قرب من تونس خرج العامل بذات نفسه، وقيل أنه ابن خراسان وصحب معه رغيفاً من أعجب ما يكون فلما وقعت عينه على أستاذه ترجل وقبل بركابه وأخرج ذلك الرغيف وناوله له فأخذه من يده وقبله ورده إلى صاحبه ورجع من مكانه وقال لخاصته هذا مستمر على طاعتنا والإشارة لذلك خطابه بلسان الحال أن هذا ما أنعمت به علي فإن أردته فهو مردود إليك، فعلم حسن طويته فأبقاه على عمله ورجع مسروراً، فمن هنالك استمر الحال على تكبير هذا الرغيف وقد يكون اتفق ذلك اليوم أنه يوم عيد أو أنهم تفاءلوا بسلامة عاملهم بسبب ذلك الرغيف إلى أن صارت لهم عادة في كل عيد هذا هو المأثور بينهم ويغلب على ظني غير ذلك وهو أن حريمهم أي حريم هذه المدينة أكثر انهماكاً من رجالهن ويكرهن الأمتهان بالخدمة عدة أيام بعد العيد فلهذا جمعن بين الخبز والمروزية لطول بقائهما.

وكذلك العادة التي جرت بين أهل الحضرة أن مدة أعيادهم خمسة عشر يوماً وهذا المعهود بينهم وجرى العمل به، وأدركنا قبل اليـوم أن أسواقهم لا تفتح إلا بعد تمام الخمسة عشر يوماً وتكون أيام تنزهات خارج المدينة وتلاشى البعض وبقي البعض.

ومن أيامهم المشهورة اليوم العاشر من شهر المحرم يحتفلون له غاية الاحتفال ويصرفون فيه أموالاً وافرة في الأطعمة والفواكه، وقل أن تجد من لا يصرف شيئاً ولو قل ولو حصر إنفاق ذلك اليوم لبلغ مقداراً غريباً وكذلك اليوم التاسع منه يواظبون فيه على أكل الدجاج والطعام الذي يقال له الدويدة، وهو بمثابة الكنافة عند المصريين ولكن الدويده أضخم عند أهل الحضرة، ويعبرون عن طعامهم هذا فيقولون الفطير وما يطير ويعظمون هذا اليوم وإن كان عظيماً إلا إنهم أكثروا في تعظيمه عمن سواهم ويـرون الإنفاق فيه من التوسعة على العيـال وملازمة أكل الـدجاج على جهـة التطيب، لأن الحكماء قالوا لا بأس به مرة في السنة والمداومة عليه تورث النقرس، أعاذنا الله منه.

وكذلك جرت العادة بزكاة أموالهم يخرجونها في هذا اليوم ويلازمون على حرمته والإنفاق فيه، تزين الحوانيت التي تباع فيها الفواكه اليابسة ويكون لها منظر عجيب وتنفق الناس من عندهم على قدر أقدارهم حتى لا يخلو مكان أحد من الفاكهة إلا القليل منهم.

ولقد حضرت لرجلين تفاخرا أحدهما من الجزائر والآخر من تونس فقال التونسي للجزائري : وددت أن هذه الحوانيت يعني بها الفاكهة في يوم عاشوراء ترفع ليلاً وتحط في الجزائر فإذا أصبح أهل الجزائر ورأوها على هذه الحالة ثم أعيدت ليلاً إلى مكانها أظن أن نساءكم يطلقنكم ويأتين إلى بلدنا. وهذه مبالغة أتى بها ومن رأى ذلك اليوم شهد بما قلناه وهذا من الأيام المشهورة عند أهل تونس، وتباع فيه من آلات الطرب والملاهي لصبيانهم بما لا حصر له وهذا من رفاهية عيشهم وانهماكهم، وكذا جرت عادتهم وهي باقية إلى الآن.

ومن أعيادهم المشهورة ومواسمهم المذكورة ومساعيهم المشكورة تعظيمهم ليلة المولد الشريف، وذلك لأجل محبتهم لمن ولد فيه وهو سيد الكائنات ﷺ. وأول من اعتنى بتعظيمه في البلاد الغربية وأظهر فيه شعائر الولادة المحمدية السلطان أبو عنان المريني شكر الله سعيه ثم اقتدى به بنو أبي حفص في الديار التونسية وأولهم أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز وكان في أول المائة الثامنة، واحتفل بتشييد شعائر هذا اليوم المبارك جعل الله ثوابه في صحائفه وأظله في ظل النجاة يوم لا ظل إلا ظل عرشه واقتدى به بنو أبي حفص من بعده، ولم تزل عادتهم مستمرة على تعظيمه عاملهم الله بنياتهم فإنهم يعظمون ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الأول وينشدون الأشعار في المكاتب، ويختلفون لتلك الليلة ويزينون المكاتب وربما يجعلون ديدبانات وهي المعبر عنها بالاصطلبات وتقرأ فيها التخاميس وتنشد الأبيات الشعرية التي تضمنت مدائح خير البرية، وتوقد القناديل وتسرج الشموع وتكون تلك الليلة أشهر ليالي سنتهم، ويصنعون الأطعمة الفاخرة احتساباً لله وربما يجعلها بعضهم للمباهات والتفاخر ولكل أمرىء ما نوى، وتكون ليلة عظمى بدار نقيب الأشراف يحضرها الأجلة من الناس والقراء والفقهاء ويقع فيها السماع والأناشيد بالمدائح النبوية ويهرع الناس إليها من أطراف البلد وتكون عندهم من الليالي العقم، ولنقيب الأشراف عادة يأخذها من السلطنة من زيت وشمع وما يحتاج إليه وهذه العادة جارية من زمن بني أبي حفص ودامت هذه الدولة عليها وأدركنا قبل اليوم بالزاويتين المشهورتين القشاشية والبكرية محاسن جمة، بحيث تدوم زينتهما خمسة عشر يوماً لا تخليان من المدائح وتهرع الناس للتفرج والمبيت وقد تلاشى الحال. وأما غيرهما فبحسب الإمكان والأوقات وهذا الشهر المبارك له حرمة عند أهل الحضرة لتعظيمهم لهذا اليوم، زاد الله في حسناتهم، وربما وقع فيه ما يذمه الشرع وذلك لجهل العوام ويرون ذلك صلاحاً ومن أراد تفصيل ذلك فليطالع المورد في أخبار المولد للعلامة جلال الدين السيوطي، فإن فيه شفاء الغليل.

ومن أيامهم المشهورة أول يوم من شهر مايو فإنهم ينفقون فيه أموالاً

لا تحصى، ويتفاخرون فيه بالأطعمة الفاخرة التي لا توصف، ويكثرون من الإنفاق فيه ويجتهدون في صناعة المرقاز حتى لا يخلو منه إلا مساكن الضعفاء، ويكثرون من الرياحين والبقول ويباع في هذا اليوم من النارنج والليم الحلو والليمون بقدر ما بيع في السنة كلها ومن الحشائش مثل الحمص والباقلاء الخضراء والخس وغير ذلك ما يقوم بالمدينة سنة في غير هذا اليوم، ويجعلون أخصاصاً في بيوتهم مزينة ويعبر عنها بالحوانيت وتعلق فيها جميع البقولات والرياحين الموجودة حتى لا تخلو دار من ديارهم من مثل ما ذكرنا إلا ما قل، ويتجاوزون إلى المغاني وآلات الطرب لما لا حد له وانهماكهم في هذا اليوم أكثر من أيام الأعياد.

وأدركنا بعد الخمسين والألف من الهجرة مكاناً لهم عند باب الخضراء يسمونه بالوردة، يجتمع فيه أهل الخلاعة والبطالة ويكثرون من المجون هنالك من مغان ومطربين ومشعوذين، وتباع فيه الفواكه اليابسة والحلواء وتخرج أهل الخلاعة أرسالاً بعد صلاة العصر إلى وقت الغروب، ويكون هناك مفترج عظيم أبهج من أيام العيد ويستمرون على هذه الحالة خمسة عشر يوماً هذا دأبهم في كل سنة، توارثوا ذلك خلفاً عن سلف وأبطلت هذه الأيام في زمن أسطا مراد، ثم أعيدت من بعده ولكن على غير هيئتها الأولى، ثم أبطلها أحمد خوجة ولم تعد بعد.

ولقد أدركت للقوم في هذه الأيام خلاعة لم تكن لغيرهم في غالب المعمورة، في هذا المكان الذي يقال له الوردة، ولم أدر لماذا سمي بهذا الأسم إلا إنه بظني أنه كانت به حديقة بالورد فسمي بها، والله أعلم وانقرضت هذه الحالة ولم يبق إلا اسمها، وأما الذي يستعملونه في الديار فهو باق على حالته وبزيادة، وعند النسوة تفاخر بينهن لما يبدين من الزينة والأطعمة ولم يعلم أحد من أهل الحضرة ما السبب لإظهار هذا اليوم إلا لمنكر عنهم فيه، حيث يقول هذا اليوم عيد لفرعون لعنه الله فكيف يعظمونه ويستدل بقوله تعالى ﴿موعدكم يوم الزينة﴾[1] والمجيب عنهم

---

(١) الآية ٥٩، سورة طه.

يقول فيه نصر الله موسى عليه السلام على فرعون وكل ليس تحته طائل لأنا غير مكلفين بهذا اليوم ولا هو في شريعة غيرنا وهذا من خرافات العوام.

وسمعت من مشيخة الحضرة ما يقارب الظن وهو أن أول يوم من شهر مايو تكون الشمس فيه مضرة بالصبيان الذين هم دون البلوغ فلهذا يجعلون تلك الحوانيت لتقي صبيانهم الحر بحيث يلعبون فيها وتغنيهم عن اللعب خارج الديار، وكذلك يجعلون في أنوف صبيانهم شيئاً من القطران لخاصية في رائحته والله أعلم. ومنهم من يقول هذا اليوم هو النوروز ويحكم بصحته وليس عنده علم ما هو النوروز ولا لأي شيء وضع في هذا اليوم، ولم لم يكن في غير هذا الشهر ولم اختص به هذا الشهر دون غيره إلى غير ذلك إلا إنها جبلة مجبولون عليها صاغراً عن كابر إلى يومنا هذا والذي صح عندي أنه هو النوروز لا شك فيه، إلا إن النوروز كان في غير هذا الشهر ثم صار إليه.

ولذلك حكاية تطول ولكن نأتي ببعضها ليعلم من يقف عليها أن الأولين من أهل الحضرة لم تكن أفعالهم سدى وسيتلى عليك إن شاء الله تعالى ذكر أهل السير والأخبار أن النوروز كلمة أعجمية معناها اليوم الجديد لأن نوهو الجديد وروزهو اليوم لأن العجم يقدمون المضاف إليه على المضاف وأول من أظهر هذا اليوم بأرض فارس ملك من ملوك الفرس اسمه جمشيد من الطبقة الأولى من ملوك الفرس، الذين يقال لهم البيشدانية وهو الثالث من ملوكهم وكان قبل إبراهيم عليه السلام، وجمشيد معناه شعاع القمر، لأن جمع اسم القمر وشيد اسم الشعاع، وكان ملك الأقاليم السبعة وسلك السيرة الصالحة ورتب الناس على طبقاتهم كالحجاب والكتاب وألزم كل صاحب طبقة مكانه لا ينتقل منه إلى سواه، وجعل النوروز عيداً يتنعم الناس فيه وكان صاحب عدل ووضع لكل أمر خاتماً مخصوصاً به فخاتم الحرب متكوب عليه الرفق والمدارة، وخاتم الخراج العدل والعمارات، وخاتم البريد والرسل والامات الصدق والأمانات، وخاتم المغارم الإنصاف والسياسات، وبقيت تلك الآثار إلى أن محاها

الإسلام وآخر حاله تكبر وتجبر وترك السيرة الصالحة فتنكر عليه الخواص وقام عليه بيوارسب فقتله واستقل مكانه.

وكان النوروز أول يوم من يناير ويسمونه أيضاً ديناماه معناه غرة الحول الجديد والمهرجان يجعلونه سادس عشرين برهمات، هذا اصطلاحهم في ذلك الزمان وأول من أحدثه من ملوك القبط بمصر مقلاوش بن مقناوش، وهو أول من عبد البقر واستخرج الحكمة وأول من عمل العجل يجرها البقر، وفي زمانه بنيت البهنسا من أعمال مصر ودام ملكه ثمانمائة وثلاثين سنة، ودفن في الأهرام الصغير ودفن معه من الأموال والعجائب شيء كثير منها أصنام مدبرة على الكواكب السبعة التي يرى بها الدفائن والخبيات وألف سراج من الذهب والفضة وعشرة آلاف جام من ذهب وفضة، وألف عقار لفنون الأعمال من الكيمياء وغيرها، وله أخبار غير هذه ليس هذا محلها وإنما جذبنا مساق الحديث.

ونرجع إلى ذكر النوروز. وأما الصابيون فهو عندهم يوم دخول الشمس برج الحمل وهو من أعظم الأعياد عندهم لأن الشمس حلت في برج شرفها، ثم إن الفرس جعلوه في الخامس من حزيران لأن فيه استواء الزرع عندهم وإذا حل خرجت العمال لاستفتاح الخراج. وكان هذا العيد عندهم لإدراك الغلال يستبشرون بالسنة فيظهرون فيه من المآكل والمشارب ويتهادون بينهم ويهادون رؤساءهم وهو من أعظم الأشياء عندهم ولم يزالوا على ذلك إلى أن أتى الله بالإسلام وهم باقون على حالهم.

وفي أول الإسلام كانت السنون متقارباً بعضها من بعض والزمان متقارب بين الشمسي والقمري في حساب السنين، وملة الإسلام خراج أهل ذمتها وزكاة أموالها ومواقيت حجها بالسنة القمرية وجميع شعائر الإسلام كذلك.

وأما أعشار الغلال فتكون عند تمامها وحساباتها بالسنة الشمسية ثلاثمائة يوم وخمس وستون يوماً وكسور، فيكون التفاضل بينهما أحد عشر

يوما على التقريب، والروم كانوا يكبسون سنينهم يوماً في كل أربع سنين، وأما الفرس فإنهم يكبسون شهراً تاماً بعد مائة وعشرين سنة، فإذا انقضت هذه المدة ودخل شهر أيار ألغوه ورجعوا إلى حزيران فكان النوروز من الخامس من حزيران إلى الخامس من أيار لا يتجاوز أكثر من ذلك.

ولما كانت خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان وكان عامله على العراق خالد بن عبد الله القسري وجاء وقت التكبيس عند أهل العراق أعلموا خالداً المذكور فمنعهم، فبذلوا له أموالاً فأبى وبعث إلى هشام يخبره ويقول له هذا من الذي قال الله تعالى إنما النسي زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً، فأتاه الجواب بمنعهم فمنعواوصار النوروز لا يتعدى زمانه وفيه يكون افتتاح الخراج والسنة تتقدم إلى أن تتفاوت جدا.

وفي أيام المتوكل على الله العباسي كانت سنة إحدى وأربعين ومائتين تجبى في سنة اثنتين واربعين ومائتين فتنبه لهذا الأمر وأمر أن تلغى سنة إحدى وأربعين وتذكر سنة اثنتين، ولولا خشية الإطالة لاستوفيت السبب في ذلك وكيف تنبه وفيه قصة يطول شرحها. وفي تلك السنة جبيت البلاد بذكر سنة إحدى وأربعين واثنتين واربعين وخرجت بذلك الكتب إلى العمال ومات المتوكل على الله ولم يتم له ما أراد ومن بعده رجع الأمر إلى الحالة الأولى. وفي خلافة المعتضد بالله جعل النوروز على حساب الروم، وكذلك رتب المصريون حسابهم ووافقهم حساب القبط وفي أيام المعتضد كانت سنة ست وسبعين ومائتين تجري في سنة سبع وسبعين ومائتين فنقلت سنة ست إلى سنة سبع.

وكان المعتمد على الله العباسي أخر النوروز عن وقته ستين يوماً وجرت جباية البلاد على هذا النمط وقدم المهرجان يوماً واحداً ولم يزل خلفاء بني العباس يؤخرون النوروز عن وقته عشرين يوماً وأكثر وأقل ليكون سبباً لتأخير الخراج. وفي خلافة المطيع لله العباسي وسلطنة معز الدولة بن بويه والوزير المهلبي، كان النقل من سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة وكتب

في ذلك العصر الصافي رسالة وأودع فيها من الصناعة الفلكية ما يعجز عنه الكتبة، وهي رسالة مشهورة، ولولا الإطالة لأوردتها بكمالها لحسن صناعتها، كما أن رسالة القاضي عبد الرحيم البيساني كثيرة الإيجاز والإعجاز وكان هذا النقل أغفل في الديار المصرية، حتى كانت سنة تسع وتسعين واربعمائة تجري مع سنة إحدى وخمسمائة وكذلك سنة خمس وستين وخمسمائة تجري مع تسع وستين وخمسمائة، فنقلت برسالة من إنشاء القاضي الفاضل عبد الرحيم المتقدم الذكر ورسالته موجودة في أيدي الناس ولو لم يكن له من الرسائل إلا هذه الرسالة لكفته فخراً.

وكان الخلفاء من بني العباس وسلاطين وقتهم مولعون بأيام النوروز وتعظيمه، وكذلك الرؤساء والكتاب ولهم فيه مجالس أنس مشهورة، وتهدى لهم فيه الهدايا الجليلة وتمدحهم فيه الشعراء ولهم فيه الأشعار المستحسنة ومجالس الأنس التي يتفاخر بها بعضهم على بعض وغير ذلك مما هو مشهور، وجرت به دولة بني أمية بالأندلس ولكن ليس لي علم به أي وقت كان عندهم، إلا إن لهم فيه مجالس مذكورة بين أكابرهم وهدايا جرت بها عادتهم إلى انقراض دولتهم.

وأما تونس حرسها الله تعالى فحساباتهم بشهور الروم وذلك أنهم يكبسون يوماً في السنة الرابعة، فكان النوروز لا يتعدى وقته في كل سنة، إلا إن الفرس كانوا يجعلونه في الخامس من شهر أيار، وأيار هو شهر مايو بحساب الروم وإنما يجعلونه في حزيران في السنة الكبيسة لأنهم إذا أرادوا تكبيس سنينهم كما جرت به عادتهم بعد المائة والعشرين سنة، كما تقدم به الخبر، جعلوا تلك السنة ثلاثة عشر شهراً فإذا صاروا في شهر حزيران الذي هو يونية بحساب الروم ألغوا ذلك الشهر ورجعوا القهقرى إلى شهر مايو، فلهذا كان اختلاف حال النوروز عندهم كما ذكرنا ومنعهم خالد بن عبد الله القسري على فعلهم، وزعم أنه من النسي الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز والنسي المذكور غير هذا، وليس هذا محل بيانه، وتمشى اصطلاح النوروز في مدينة تونس أول يوم من شهر مايو لأن غالب سنينهم

يطيب فيها زرعهم وتخرج الجباة إلى أطراف البلاد وكذلك جملة ثمار تظهر في هذا الشهر وأهل تونس يقولون تظهر يوم مايو سبع غلال ويعدونها ولهم اختلاف في عددها، وليس لهم في زعمهم إلا ظهور هذه الفواكه في هذا اليوم وجرت به العادة من زمن بني أبي حفص إلى يومنا هذا.

ولولا خشية الإطالة لأتيت بجملة من القصائد والمقطعات التي قيلت في النوروز، وما ذكرت هذه النبذة إلا ليعلم من يقف على كتابي هذا أن أهل الحضرة لم يكن عندهم سدى كل ما هو متعامل بينهم، لأن السلطنة في تونس كانت ضخمة وملوكها يعدون من الخلفاء وهذا مما هو مشهور عند أهل الأمصار، إلا إنه لما تغيرت الدول جهلت مسائل كثيرة مما كانت عليه واندرست قواعد كان الاهتمام بها وصعب الأمر على ردها، كما كانت عليه فمن بعضها ما يناسب النوروز مما كانت تهتم به الملوك في أول الزمان مثل النقل للسنين كما ذكرنا، وهذا اليوم جار في وطن الساحل ويعنونه بالمحول وذلك أن جباة أعشارهم من الحبوب والزيتون تباينت عن مراتبها حتى أنهم يذكرون في تذاكر أعشارهم سنة ثمان وثمانين تجبى سنة إحدى وتسعين ولم يتفطن أحد إلى هذا الأمر وإن تمادى الحال على مر السنين تفاقم إلى أكثر من ذلك، وهذا من الازدلاف بسبب المباينة بين السنة الشمسية والقمرية لأن القواعد تلتزم على حساب السنة القمرية والأعشار على حساب الشمسية، فسقطت في كل ثلاث وثلاثين سنة شمسية سنة قمرية واستمر العمل بها واتسع الخرق على الراقع والكلام يطول ولكن جذبتنا المادة وفي هذا القدر كفاية، والله أعلم بحقائق الأمور وما تخفي الصدور، ولهم اصطلاحات غير ما ذكرنا لو تتبعناها لطال بنا الإكثار وخرجنا عن حد الاختصار.

وأما تعظيمهم لليلة النصف من رجب وليلة السابع والعشرين منه، وكذلك لليلة النصف من شعبان وليلة السابع والعشرين منه أيضاً فلا يخفى على أحد من الناس هذا التعظيم، وإن كان لغيرهم مشاركة في هذه الأيام فإن تعظيم أهل الحضرة أعظم من غيرهم وكذلك شهر رمضان المعظم

قدره فإنهم يحتفلون فيه غاية الاحتفال ويقومون بواجبه وواجب حقه أتم القيام، ويختمون في غالب المساجد القرآن العظيم في صلاة التراويح إلا فيما قل من المساجد.

وكذلك اعتناؤهم بختم المسند الصحيح للإمام البخاري، رضي الله عنه، وبقية الأسانيد الستة، إلا إن البخاري عندهم أشهر وروايته أظهر وإن كان غيرهم من المغاربة يقدمون كتاب الإمام مسلم بن الحجاج، رضي الله عنه، على كتاب البخاري وكلهم على حقيقة وصحة. فأهل تونس لهم ولع بالرواية لكن المشاهير من علمائهم وغيرهم مولع بالختم لا غير وأردته أن يأتي بصورة الختم ليتم به الختم ويحصل لنا حسن الختم إن شاء الله ولكن نأتي ببعض ونذكر بعض علماء الحضرة الذين أدركتهم في هذه الأيام تبركاً بأسمائهم لأنهم فرسان هذا الميدان وعلماء هذا الشأن ولم أتعرض لغيرهم ممن تقدم لكثرتهم وفواتهم، وربما تمس الحاجة لبعضهم فتأتي به عفواً إن شاء الله تعالى.

فمن المشاهير من علماء الحضرة الشيخ الإمام علم الأعلام القدوة البركة المقتدى به المتبرك به المعمر الذي ألحق الأصاغر بالأكابر، وتخرجت به جماعة من الأعلام في أيام حياته، ورأى من تلامذته ما قرت به عينه وله الإسناد العالي، ورحل إلى الديار المصرية والأماكن الحجازية والتقى بالرجال وأخذ عن جمع غفير وأجيز وأجاز وأفاد واستفاد بالحرمين الشريفين وأرض الحجاز الأمجد الشيخ أبو العباس أحمد الشريف زاده الله شرفاً، وهو اليوم بركة هذا الإقليم وملازم لإفادة الطالبين بجامعه المبارك بإزاء دار الباشا، وهو من المحافظين على رواية المسند زاد الله في علومه ونفع به المسلمين يبدأ من أوله إلى آخره في مدة الثلاثة أشهر إلى أن يتمه على وفق المراد، فيكون الختم على بابه وهو حفظه الله باق إلى يومنا هذا متمتعاً بسمعه وبصره ملازماً للتدريس بجامعه المعروف به ملاصقاً لدار الخلافة وهو في سن الشيخوخة في الثمانين وفيه خشوع ورقة وتخرج به جماعة وسلكوا طريقته زاد الله في شأنه بمنه وكرمه.

ومنهم الشيخ المعروف النحرير المخبر الخبير الفقيه المتكلم المنطقي المحكم المفوض العروضي الأصولي البياني الأديب المهذب الورع المرحب، الذي جمع بين المعقول والمنقول مفتى الحضرة العلية وشيخ شيوخ البلاد الإفريقية المشهور في أدبه بابن نباتة الشيخ أبو عبد الله محمد عرف فتاتة، أبقى الله بركته، وقد تقدم شيء من ذكره ولا بأس بإعادته تعظيماً لقدره وهو باق إلى يومنا ملازماً لإفادة الطالبين وله عدة دروس منها في المسجد الأعظم وغيره مع ما ينظر فيه من مصالح المسلمين وتخرج به جمع غفير وتصدروا في حياته لنفع المسلمين نفع الله ببركته.

ومنهم شيخنا وصديقنا الشيخ الفقيه والحبر النبيه الوجيه الشيخ الأمجد أبو عبد الله محمد عرف ابن الشيخ، متضلع بعلوم شتى ملازم للاشتغال والإفادة بجامعه المغلق بمقربة من سوق الخضارين وبالمدرسة المنتصرية، وقد سبق التعريف به في أول الكتاب وهو من المحافظين على التعليم لعلوم الدين، وتخرج به جماعة كثيرة وهو من بدار الشيخ أحمد الشريف وبه تخرج وأخذ عن جماعة غيره متع الله بحياته المسلمين.

ومنهم الشيخ العلامة وحيد دهره وفريد عصره المتصرف في علوم كثيرة، إلا إنه بعلم المنطق أشهر من علم كشهرة أبيه من قبله بهذا الفن وهو مدرس بالمدرسة المرادية المحدثة عند باب الربع وهو وتد من أوتاد العلماء الأنجاد الحاج الشيخ أبو عبد الله محمد عرف الغماد زاد الله في حسناته.

ومنهم الشيخ البركة القدوة المدقق المحقق المتكلم الورع المتبرك به المشتهر بالورع في هذه البلاد الشيخ أبو الحسن علي عرف الغماد، أبقى الله بركته، وهو من المدرسين في الجامع الأعظم من تونس وله درس بجامعه المشهور به في حومة الدباغين وبالزاوية الحلفاوية في ربض باب السويقة متع الله المسلمين بحياته.

ومنهم الشيخ المعمر العلامة المتورع المتبرك به الشيخ أبو العباس.

أحمد عرف المهدوي، وهو الآن خطيب بجامع الحلق قريباً من باب الجديد، زاد الله في حسناته.

ومنهم الشيخ الفقيه المتفنن الورع العفيف الشيخ سعيد الشريف، وهو من بدار الشخين الشيخ سيدي أحمد الشريف والشيخ سيدي محمد فتاتة وتصدر في حياتهما للإفادة بالجامع الأعظم، وفيه وقار وسكينة، زاده الله من فضله.

ومنهم الشيخ الفقيه عبد القادر الجبالي وهو من المدرسين بالجامع لأعظم ومن تلامذة الشيخ فتاتة وفيه نية وتدين وعفاف.

ومنهم الشيخ الفقيه المدرس المتصرف في علوم كثيرة، إلا إنه بعلم الحديث الشريف أشهر الشيخ سعيد المحجوز إمام جامع الحطبة خارج باب الجزيرة، وفيه نية وتدين وعفاف زاده الله من فضله.

ومنهم الشيخ الفقيه المدرس أبو عبد الله محمد عرف قويسم من أهل باب السويقة ولأهل ربضه فيه اعتقاد.

ومنهم الشيخ الفقيه المدرس المتعفف أبو القاسم الغماري من أهل باب السويقة أيضاً إمام بجامع حومة الأندلس وفيه تدين.

هؤلاء من مشاهير المالكية وغيرهم خلق كثيرون ولكن لم يبلغوا شأو من ذكرنا وغيرهم لم يحضرني أسماؤهم إلا عند ذكرهم.

ومن مشائخ الحنفية الشيخان الفقيهان الشيخ محمد بن شعبان إمام جامع المرحوم يوسف داي وخطيب جامع المرحوم محمد باشا، والشيخ مصطفى بن عبد الكريم المنفصل عن الفتيا وهو اليوم إمام جامع المرحوم محمد باشا.

ومنهم الفقيه النبيه الشيخ أبو الحسن علي عرف الصوفي عنده ملكة في العربية والصرف والفقه وعلم الحديث.

ومنهم الفقيه الشيخ أبو الحسن علي كرباصة مدرس بالمدرسة

الشماعية، وعنده ملكة في علم الحساب والميقات والفرائض ومختص بعلم الهيئة والهندسة.

ومنهم الفقيه الشيخ أبو عبد الله محمد المهتار وهو راوٍ للحديث في جامع القصبة.

هؤلاء الذين بلغوا درجة الرواية للمسند الصحيح وغير هؤلاء جماعة يتعاطون الرواية، وإنما دخلوا بمخالبهم بين ذوي الاقتناص وأكثرهم بين بناء وغواص ولم يكن بالديار التونسية من يوم حل بها العسكر العثماني من تعاطى الرواية والدراية إلا الشيخ العالم العلم الرباني الشيخ أبو عبد الله محمد تاج العارفين العثماني، سقى الله ثراه من صوب الرحمة والرضوان، وكان مجلسه بالجامع الأعظم من أجل المجالس وتحضره الأجلاء من أهل العلم وتدور بينهم المباحث الجميلة في العلوم الجليلة، ولا يخلو مجلسه من فوائد في الثلاثة أشهر رجب وشعبان ورمضان إلى يوم الختم وهو اليوم السادس والعشرون من رمضان.

ثم تلاه ولده العلم الشهير والعالم النحرير الشيخ أبو بكر، فسار بسيرة والده وقام بعلم الحديث الشريف أحسن قيام وشهد له بالدارية علماء الإسلام، فكان في هذا الفن نسيج وحده وحصل له سر أبيه وبركة جده إلى أن سار إلى رحمة ربه في سنة ثلاث وتسعين وألف، فتغيرت تلك القاعدة وصارت رواية لا غير وجرت بها العادة للتبرك وانقطعت المادة من السير لأن ولديه لم يبلغا مبلغه ولا سعيا سعيه، إلا إن الله تبارك وتعالى من بمن أقام مقامه بملازمة الرواية للتبرك بالحديث النبوي وهو الشيخ العالم العامل البركة سيدي علي الغماري فسح الله في مدته هو الذي يتعاطى الرواية في الجامع الأعظم إلى يومنا هذا ولله الحمد.

وحيث بلغنا في خاتمة الكتاب إلى ذكر ختم البخاري الشريف، وجب أن نذكر صورة الختم عسى أن يحصل لي ببركة الختم ومجانسته الختم والختم إن شاء الله تعالى، لا إله غيره ولا خير إلا خيره وهو نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الرابع

في تعظيم أهل الحضرة لختم البخاري

ولهم اهتمام عظيم يحتفل الشيخ لذلك اليوم غاية الاحتفال، ولهم أماكن معلومة وأيام معدودة بحيث يكون يوم كذا في المسجد الفلاني عند الشيخ فلان فتهرع الناس إلى محله وتوقد الشموع وتسرج القناديل ويبخر المكان بأنواع الطيب، وقد تكلم الوالد، رحمه الله، على تعظيم أهل إفريقية لختم البخاري وله في ذلك تصنيف سماه تأهب الراوي الفصيح لفتح الجامع الصحيح، ونقل عن أشياخه من العلماء جملة من آداب المحدث واستفتاح مجلس الإملاء، ثم قال واستحسن الشيوخ عند الإملاء افتتاح مجلس الإملاء بقراءة قارىء لشيء من القرآن العظيم ثم يستنصت لسماع الحديث، ثم قال قلت وعليه عمل الناس اليوم بإفريقية عند ختمهم البخاري يقرأون قبل افتتاح المحدث من سورة الملك إلى سورة عم إلى آخر سورة من قصار المفصل ويختمون بآية الكرسي وآخر البقرة، ويصلون على سيدنا محمد ﷺ، ثم يقرأ الراوي لحديث رسول الله ﷺ، ثم قال: ولختم جامع البخاري في القيروان بلدنا شأن عظيم ومشهد كريم.

ومن تعظيمهم له وإجلالهم إياه أنهم يشتغلون به عن أهم شيء من